«التكملة»

صلاح الأمة في علو الهمة

المجلد الخامس عشر

تأليف

دكتور/سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ أبو بكر الجزائري	الشيخ محمد صفوت نور الدين
الشيخ محمد إسماعيل المقدم	الشيخ أحمد فريد
الشيخ سعيد عبد العظيم	الشيخ ياسر برهامي
الشيخ محمد عبد المقصود	الشيخ عائض القرني
الشيخ أحمد عيسى	الشيخ أبو إسحاق الحويني
د. حمزة بن يافع الفتحي	أ.د. عبد الرحمن فوده

دار العفاني

بسم الله الرحمن الرحيم



المجلد الخامس عشر

الطبعة السابعة
طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

رقم الإيداع بدار الكتاب المصرية

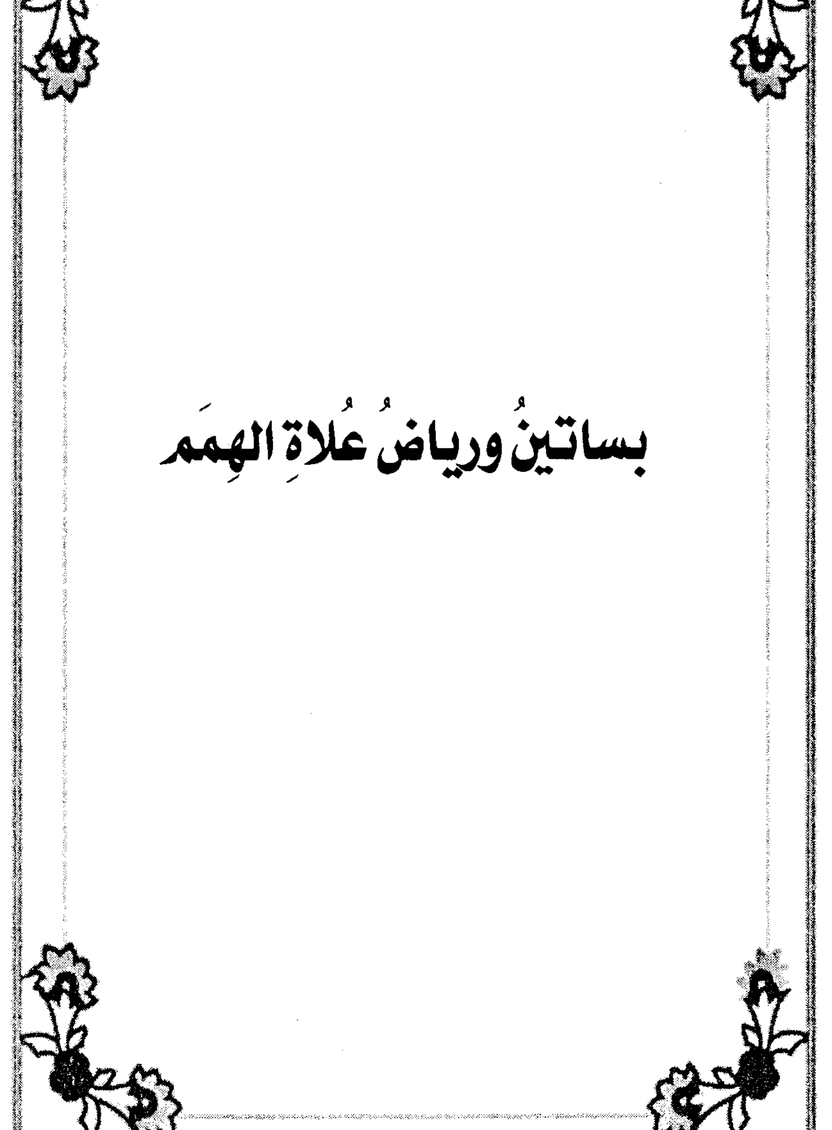
٢٠٦١٢/٢٠٠٧

دار العفاني

٣ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر- القاهرة
ت/ ٠٢/٢٥١٠٨٢٥٧ - ٠١٢/٢٥٧٧٥٧١١
فرع بني سويف -برج الري- حي الرمد- بجوار مجمع المحاكم-بني سويف
ت/ ٠٨٢/٢٣١٧٣٤٤

مطبعة العمرانية للأوفست

الجيزة : ٣٣٧٥٦٢٩٩



بساتينُ ورياضُ عُلاةِ الهِمَم

بساتينُ ورياضُ عُلاةِ الهِمَم

اعلم يا أخي أن هَمَّ علاة الهمم في نيل الدرجات واكتساب الحسنات، والسباق والتنافس في الأعمال الصالحات.

□ قال الشيخ الخضِرُ حسينٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «ومِمَّا جُبِلَ عليه الحرُّ الكريم، أنْ لا يقْنع مِنْ شرف الدُّنْيا والآخرةِ بشيءٍ ممَّا انْبسط له، أملًا فيما هو أسْنَى منه درجةً وأرْفَعُ منزلةً»[1]. وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لَا يَكْتَفِــي مِــنْ نَيْــلِ مَكْرُمَــةٍ ... حَتَّى يَرُومَ[2] الَّتِي مِنْ دُونِهَا الْعَطَبُ[3]

يَسْعَى بِهِ أَمَلٌ مِنْ دُونِهِ أَجَلٌ ... إِنْ كَفَّهُ رَهَبٌ يَسْتَدْعِهِ رَغَبُ

لِذَاكَ مَا سَالَ مُوسَى رَبَّهُ أَرِنِي ... أَنْظُرْ إِلَيْكَ وَفِي تَسْآلِهِ عَجَبُ

يَبْغِي التَّزَيُّدَ فِيمَا نَالَ مِنْ كَرَمٍ ... وَهْوَ النَّجِيُّ لَدَيْهِ الْوَحْيُ وَالْكُتُبُ[4]

□ إنَّ معالي الأمُور وَعْرَةُ المسالكِ محفُوفةٌ بالمَكارهِ.

الفرق بين الطُّموح وعلو الهمة:

إذا كان كلٌّ من الطُّموح وعلوِّ الهمَّةِ يشتركان في الهدف والغايةِ، أي تطلُّب المعالي، فإنَّهما قَدْ يخْتلِفَان في الوسيلة والباعثِ، إذا الباعِثُ في علُوِّ الهمَّةِ قدْ يكون الأَنَفَةَ منْ حُلولِ الضَّعَةِ أو الاستنكارَ لمهَانةِ النَّقْصِ، أمَّا الباعِثُ على الطُّمُوحِ فهو نزوعُ النفس دائمًا نحو الأعلى والأرْقَى، ومنْ

(١) «رسائل الإصلاح» للشيخ الخضر حسين (ص٥٤).
(٢) يروم: يطلب.
(٣) العَطَب: الهلاك.
(٤) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص٢٨).

حيث الوسيلةُ نجدُ أنَّ الطُّموحَ قدْ يجْنَحُ بصاحبه إلى الغُلُوِّ والإسرافِ على النفس أو الغير، أمَّا علُوُّ الهمَّةِ فلا يَسْلُكُ صاحبُها إلَّا الدُّروبَ الشَّريفةَ التي تتَّفِقُ مع مبادئ الشَّرْع الحَنيفِ[١].

□ قِيلَ للعَتَّابي: «فلانٌ بعيدُ الهِمَّة قال: إذنْ لا يكونُ لهُ غايةٌ دون الجنَّة»[٢].

□ عن دُكيْن الراجز قال: «أتيتُ عُمَرَ بنَ عبد العزيزِ بعد ما استُخْلِفَ أستنْجِزُ منه وعدًا كان وعَدَنِيهِ وهو والي المدينة فقال لي: يا دُكَيْنُ، إنَّ لي نَفْسًا توَّاقةً[٣]، لم تزل تتوق إلى الإمارةِ، فلمَّا نلتُهَا تاقتْ إلى الخلافةِ. فلمَّا نِلْتُها تاقَتْ إلى الجنَّةِ»[٤].

□ نظر رجلٌ إلى أبي دُلَفٍ في مجلس المأمون فقال: «إن هِمَّتَه ترمي به وراء سِنِّه.

□ قال الشاعر:

رَأَيْــتُ عَرَابَــةَ الأوْسِيَّ يَــسْمُو ... إلَى الْخَيْــرَاتِ مُنْقَطِــعَ القَــرِينِ

إذَا مَــا رَايَــةٌ رُفِعَــتْ لِمَجْــدٍ ... تَلَقَّاهَــا عَرَابَــةُ بِــالْيَمِينِ[٥]

□ وقال الشَّاعرُ:

سَــافِرْ إذَا حَاوَلْــتَ قَــدْرَا ... سَــارَ الْهِــلالُ فَــصَارَ بَــدْرَا

(١) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٣٣٧).
(٢) المصدر السابق (١/ ٣٣٢).
(٣) توّاقة: تشتاق إلى الشيء وتنزع إليه.
(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٣٣٤).
(٥) «المستطرف» (١/ ٢٠٦).

وَالْـــمَاءُ يَكْـــسِبُ مَـــا جَـــرَى طِيبَـــا ويَخْبُـــثُ مَـــا اسْـــتَقَرَّا

وبنقلها الدُّرَرُ النَّفيسةُ بُدِّلَتْ بالبحر نَحْرَا»[١].

الفرق بين العزم والإرادة والهَمِّ:

□ قال الكفويُّ: «دَواعي الإنسانِ إلى الفعل مِنْ خيرٍ أو شَرٍّ على مراتبَ، منها: الإرادةُ، ومنها: الهَمُّ «بالشَّيءِ»، ومنها: العزْمُ. وذكرَ الفرق بين هذه الثلاثةِ فقال: «الهمُّ اجتماعُ النَّفْسِ على الأمرِ، والإزْماعُ عليه، والعزْمُ هو القصد على إمضائِهِ، فالهمُّ فوقَ الإرادةِ ودونَ العزْمِ، وهو – أي: الهمُّ – أوَّلُ العزِيمَةِ»[٢].

□ قال الرَّاغبِ: «عَقْدُ القلب على إمضاء الأمْرِ».

□ وقال الكَفَويُّ: «هو القصدُ على إمضاءِ الأمر»[٣].

• وعن شدَّادِ بن أوْسٍ ﷺ قال: «إنَّ رسول الله ﷺ كان يقول في صلاتهِ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ في الأَمْرِ، والْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وأسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وحسْنَ عبادَتِكَ، وأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، ولسَانًا صَادِقًا، وأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وأعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما تَعْلَمُ، وأَسْتغفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ**»[٤].

---

(١) «الفلاكة والمفلكون» للإمام الدلجي (ص١٤١).

(٢) «الكُلِّيات» للكفوي (ص٩٦١).

(٣) «مفردات القرآن» للأصفهاني (ص٥٦٥)، و«الكليات» للكفوي (ص٦٩١).

(٤) صحيح: رواه النسائي (٣/ ٥٤) واللفظ له، والترمذي (٣٤٠٧)، وأحمد (٤/ ١٢٥)، وقال محقق «جامع الأصول» (٤/ ٢٥٩): ورواه الحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي، وابن حبان في «صحيحه» برقم (٢٤١٦).

• عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «ثَلاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ، وثَلاثَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللهُ، فَأَمَّا الذِينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ: فَرَجُلٌ أَتَى قَوْمًا فَسَأَلَهُمْ باللهِ وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ بقَرَابَةٍ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ فمَنَعُوهُ، فتَخَلَّفَ رَجُلٌ بِأَعْقَابِهِمْ فَأَعْطَاهُ سِرًّا لا يَعْلَمُ بِعَطِيَّتِهِ إلَّا اللهُ، والَّذِي أَعْطَاهُ، وقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حتَّى إذا كانَ النَّوْمُ أَحبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ به نزَلُوا فوضَعُوا رُؤُوسَهُمْ، فقامَ أَحَدُهُم يتمَلَّقُني ويتْلُو آيَاتِي. ورَجُلٌ كان في سَرِيَّةٍ فلَقِيَ العدوَّ فهُزِمُوا، وأقبَلَ بِصَدْرِهِ حتى يُقْتَلَ أوْ يُفْتَحَ له. والثَّلاثَةُ الذين يُبْغِضُهُمُ اللهُ: الشَّيْخُ الزَّانِي، والفقيرُ المُخْتَالُ، والغَنِيُّ الظَّلُومُ»[1].

□ سمع عامِرُ بن عبد الله بنِ الزُّبَيْرِ (المتوفى سنة ١٢٣هـ) —رحمهُ الله تعالى— المؤَذِّنَ وهو يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فقال: خُذُوا بِيَدِي، فقيلَ: إنَّكَ عَلِيلٌ، قال: أَسْمَعُ دَاعِيَ الله فلا أُجِيبُهُ، فأَخَذُوا بِيَدِهِ، فدخَلَ معَ الإمَامِ في المغْرِبِ، فَرَكَعَ رَكْعَةً ثُمَّ مات»[2].

□ قال أبو حازم: «عند تصحيح الضمائر تُغفَر الكبائر، وإذا عَزَم العبد على تَرْكِ الآثام أَمَّهُ[3] الفتوح»[4].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٥٦٨) واللفظ له، وقال: هذا حديث صحيح، والنسائي (٥/ ٨٤)، وأحمد (٥/ ١٥٣)، وهو في «المشكاة» حديث (١٩٢٢)، وقال محقق «جامع الأصول» (٩/ ٥٦٤): «وهو حديث حسن».

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٢٠).

(٣) أَمَّهُ الفتوح: أتاه وقصده.

(٤) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٣٠).

أزاهير يحرص على قَطفها عُلاة الهمم:

١- الأسباب والأعمال التي يُضاعَف بها الثواب[1]:

وهذه تدل على خير عظيم بسبب عمل يسير، وتدفع إلى مزيد من البر والإحسان، وترفَعُ الآخذ بها درجات؛ فهي – بحق- ميدان فسيح للمرابحة والتجارة التي لا تبور.

ولا ريب أن هذا باب من أبواب العلم لطيف شريف يفتح آفاقًا من الخير، وينهض بالعبد إلى أعلى مقامات العبادة والسعادة، ويرقى بالأمة إلى أقصى مراتب السيادة والمجادة، ويغلق أبوابًا من الشر لا تحصى، ويدعو إلى تنزيل الأعمال منازلها، وأن يُجعل لكل مقام ما يليق به.

وكم حصل من الجهل أو التفريط بهذا الأصل – وهو معرفة مراتب الأعمال، وأسباب مضاعفتها- من ضياع للفرص، وحرمان الأمة من خير عظيم، وطاقات كثيرة.

هذه مسألة عظيمة تقود إلى الآخرة في زمنٍ شاع فيه التكالب على الدنيا.

- ومعلوم أن الأصل في الحسنة مضاعفتها إلى عشر. وقد تزيد المضاعفة على عشر إلى أضعاف كثيرة إذا حصل موجبها.

- وهذه الأسباب والأصول العامة للمضاعفة، إمَّا متعلِّقة بالعامل، أو بالعمل نفسه، أو بزمانه، أو بمكانه، أو بآثاره.

---

(١) انظر رسالة «الأسباب والأعمال التي يُضاعف بها الثواب» وهي ضمن مجلد الفتاوى (ص٣٥- ٣٩) وهو ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

□ وقد أوصلها الشيخ السعدي إلى سبعة عشر سببًا، وإليكها على سبيل الإجمال:

١- تحقيق الإخلاص والمتابعة.

٢- صحة العقيدة، وقوة الإيمانِ والإرادةِ والرغبةِ في الخير.

٣- عموم نفع العمل للإسلام، وعظم وقعه وأثره، ويدخل تحت ذلك أمور كثيرة: الجهاد البدني والمالي، والجهاد في تعلم العلم وتعليمه، والمشاريع الخيرية العامة.

٤- الشراكة في الخير المتعدى، والاجتماع على العمل.

٥- التسبب في الخير، ودلالة الناس عليه.

٦- كبر النفع للعمل، كالإنجاء من المهالك، وإزالة الأضرار، وكشف الكرب.

٧- حسن الإسلام، وحسن الطريقة، وترك الذنوب.

٨- رفعة العامل، ومقامه العالي في الإسلام.

٩- الصدقة من الكسب الطيب.

١٠- شرف الزمان.

١١- شرف المكان.

١٢- العبادة في الأوقات التي حث الشارع على قصدها.

١٣- القيام بالأعمال الصالحة عند المعارضات: النفسية، والخارجية.

١٤- الاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان، والمراقبة، وحضور القلب في العمل.

١٥- الآثار الحسنة للعمل الصالح في نفع العبد، وزيادة إيمانه، ورقة قلبه، وما جرى مجرى ذلك.

١٦- إسرار العمل إذا اقتضاه المقام.

١٧- إعلان العمل إذا كان هو الأنسب، كما إذا حصل بذلك التأسي[1].

١٨- الصبر بكافة أنواعه؛ لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر].

نص رسالة الشيخ عبد الرحمن السعدي:

المسألة التاسعة: في الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب

ما هي الأسبابُ والأعمالُ التي يُضاعفُ ثوابُها؟

▫ الجواب وبالله التوفيق: أما مضاعفةُ العملِ بالحسنةِ إلى عَشْرِ أمثالها – فهذا لا بدَّ منه في كلِّ عملٍ صالح، كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وأما المضاعفةُ بزيادةٍ عن ذلك – وهي مراد السائل – فلها أسبابٌ: إما متعلقةٌ بالعاملِ، أو بالعمل نفسِه، أو بزمانه، أو بمكانه، وآثاره.

▫ فمن أهمِّ أسباب المضاعفةِ إذا حقَّق العبدُ في عَمَلِهِ الإخلاصَ للمعبودِ والمتابعةَ للرسول؛ فالعمل إذا كان من الأعمالِ المشروعةِ، وقَصَدَ العبدُ به رِضَى ربِّه وثوابَهُ، وحقق هذا القصدَ بأن يجعلَه هو الداعيَ له إلى

(١) «الأسباب والأعمال التي يُضاعف بها الثواب» للشيخ السعدي شرح محمد بن إبراهيم الحمد (ص١٦ – ١٧) – طبع دار ابن خزيمة.

العمل، وهو الغايةَ لعمله، بأن يكون عَمَلُه صادرًا عن إيمان بالله ورسوله، وأن يكون الداعي له لأجل أمر الشارع، وأن يكون القصدُ منه وجهَ الله ورضاه، كما ورد في عدة آياتٍ وأحاديثَ - هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة].

أي المتقين الله في عملهم بتحقيق الإخلاص والمتابعة.

• وكما في قوله ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**».

وغيرها من النصوص.

والقليلُ من العمل مع الإخلاص الكامل يَرجَحُ بالكثير الذي لم يصل إلى مرتبته في قوة الإخلاص.

. ولهذا كانت الأعمالُ الظاهرةُ تتفاضل عند الله بتفاضل ما يقوم بالقلوب من الإيمان والإخلاص.

ويدخل في الأعمالِ الصالحةِ التي تتفاضل بتفاضل الإخلاص - تركُ ما تشتهيه النفوس من الشهوات المحرمة إذا تركها خالصًا من قلبه، ولم يكن لتركها من الدواعي غيرُ الإخلاصِ، وقصةُ أصحابِ الغارِ شاهدةٌ بذلك.

□ ومن أسباب المضاعفة - وهو أصل وأساس لما تقدم - صحةُ العقيدة، وقوةُ الإيمان بالله وصفاته، وقوةُ إرادة العبد، ورغبتُهُ في الخير؛ فإن أهلَ السنة والجماعة المحضة، وأهلَ العلم الكامل المفصَّل بأسماء الله وصفاته، وقوة لقاء الله - تُضاعفُ أعمالُهم مضاعفةً كبيرةً لا يحصل مثلُها، ولا قريبٌ منها لمن لم يشاركوهم في هذا الإيمان والعقيدة.

ولهذا كان السلف يقولون: أهل السنة إن قَعَدتْ بهم أعمالُهم قامت بهم عقائدُهم، وأهلُ البدع إن كثرت أعمالُهم قَعَدتْ بهم عقائدهم.

ووجه الاعتبار أن أهل السنة مهتدون، وأهل البدع ضالون، ومعلومٌ الفرقُ بين مَنْ يمشي على الصراط المستقيم، وبين من هو منحرف عنه إلى طرق الجحيم، وغايتُه أن يكون ضالًا متأولًا.

▢ ومن أسباب مضاعفة العمل أن يكون من الأعمال التي نَفْعُها للإسلام والمسلمين له وقْعٌ وأثرٌ وغَنَاءٌ، ونفعٌ كبيرٌ، وذلك كالجهاد في سبيل الله: الجهاد البدنيِّ، والماليِّ، والقوليِّ، ومجادلةِ المنحرفين كما ذكر اللهُ نفقةَ المجاهدين ومضاعفتَها بسبعمئة ضعف.

ومن أعظم الجهاد سلوكُ طرقِ التعلم والتعليم؛ فإن الاشتغال بذلك لمن صحت نيتُه لا يوازنه عملٌ من الأعمال، لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه؛ «**فمن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**».

ومن ذلك المشاريع الخيرية التي فيها إعانةٌ للمسلمين على أمور دينهم ودنياهم التي يستمر نفعُها، ويتسلسل إحسانُها، كما ورد في «الصحيح»: «**إذا مات العبد انقطع عمله إلَّا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به من بعده، أو ولدٍ صالح يدعو له**».

▢ ومن الأعمالِ المضاعفةِ العملُ الذي إذا قام به العبدُ شاركه به غيرُه؛ فهذا - أيضًا- يضاعَفُ بحسب مَنْ شاركه، ومن كان هو سببَ قيام إخوانه المسلمين بذلك العمل؛ فهذا - لا ريب- يزيد أضعافًا مضاعفةً

على عمل إذا عمله لم يشاركه فيه أحد، بل هو من الأعمال القاصرة على عاملها.

ولهذا فضَّل العلماء الأعمال المتعدية للغير على الأعمال القاصرة.

□ ومن الأعمال المضاعفة إذا كان العمل له وقع عظيم، ونفع كبير، كما إذا كان في إنجاء من مهلكة، وإزالة ضرر المتضررين، وكشف الكرب عن المكروبين؛ فكم من عمل من هذا النوع يكون أكبر سبب لنجاة العبد من العقاب، وفوزه بجزيل الثواب، حتى البهائمُ إذا أُزيل ما يضرُّها كان الأجر عظيمًا؛ وقصة المرأة البغيِّ التي سقت الكلبَ الذي كاد يموت من العطش؛ فَغُفِرَ لها بَغْيُها- شاهدةٌ بذلك.

• ومن أسباب المضاعفة أن يكون العبدُ حسنَ الإسلامِ، حسنَ الطريقة، تاركًا للذنوب، غير مُصِرٍّ على شيء منها؛ فإن أعمال هذا مضاعفةٌ كما ورد بذلك الحديث الصحيح: «**إذا أحسن أحدُكم إسلامَه فكل حسنة يعملها تُكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف..**» الحديث.

* ومن أسبابها رِفْعَةُ العاملِ عند الله، ومقامُهُ العالي في الإسلام؛ فإن الله تعالى شكور حليم؛ لهذا كان نساء النبي ﷺ أجرهن مضاعفًا، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ [الأحزاب: ٣١].

وكذلك العالِمُ الربانيُّ، وهو العالِم العامِلُ المعلِّم تكون مضاعفةُ أعمالِه بحسب مقامه عند الله كما أن أمثال هؤلاء إذا وقع منهم الذنب كان أعظمَ من غيرهم؛ لما يجب عليهم من زيادة التحرّز، ولما يجب عليهم من زيادة الشكر لله على ما خصهم به من النعم.

□ ومن الأسبابِ الصدقةُ من الكسب الطيب كما وردت بذلك النصوص.

□ ومنها شرفُ الزمان، كرمضانَ وعشرِ ذي الحجة ونحوِها، وشرفُ المكان كالعبادة في المساجد الثلاثة، والعبادةُ في الأوقات التي حثَّ الشارعُ على قصدها، كالصلاة في آخر الليل، وصيام الأيام الفاضلة ونحوها.

وهذا راجع إلى حقيق المتابعةِ للرسول المُكَمِّل – مع الإخلاص- للأعمال المنمي لثوابها عند الله.

□ ومن أسباب المضاعفةِ القيامُ بالأعمال الصالحة عند المعارضات النفسية، والمعارضات الخارجية؛ فكلما كانت المعارضات أقوى والدواعي للترك أكثر كان العمل أكمل، وأكثر مضاعفةً، وأمثلة هذا كثيرًا جدًّا، ولكن هذا ضابطُها.

□ ومن أهم ما يضاعف فيه العملُ: الاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان والمراقبة، وحضور القلب في العمل؛ فكلما كانت هذه الأمور أقوى كان الثواب أكثر.

وهذا ورد في الحديث: «**ليس لك من صلاتك إلَّا ما عقلت منها**».

فالصلاة، ونحوها وإن كانت تجزئُ إذا أتى بصورتها الظاهرةِ، وواجباتها الظاهرة والباطنة – إلَّا أن كمالَ القبولِ، وكمالَ الثوابِ، وزيادةَ الحسناتِ، ورفعةَ الدرجاتِ، وتكفيرَ السيئاتِ، وزيادةَ نورِ الإيمان – بحسب حضور القلب في العبادة.

□ ولهذا كان من أسباب مضاعفة العمل حصولُ أثره الحسن في نفع العبد، وزيادةِ إيمانه، ورقة قلبه، وطمأنينته، وحصول المعاني المحمودة

للقلب من آثار العمل؛ فإن الأعمال كلما كملت كانت آثارُها في القلب أحسنَ الآثارِ،وبالله التوفيق.

□ ومن لطائف المضاعفة أن إسرار العمل قد يكون سببًا لمضاعفة الثواب؛ فإن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالُه ما تنفق يمينه، ومنهم رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه».

□ كما أن إعلانها قد يكون سببًا للمضاعفة كالأعمال التي تحصل فيها الأسوة والاقتداء، وهذا مما يدخل في القاعدة المشهورة: قد يَعْرِضُ للعمل المفضول من المصالح ما يصيِّره أفضل من غيره.

ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في كل الأوقات بقوة الإخلاص لله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شيءٌ من الأعمال، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب، وغيرُها من الأعمال تبعٌ لها؛ فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون المقربون في جنات النعيم» اهـ.

٢- الأجر الكبير مع العمل اليسير بُغية عُلاة الهمم[(١)]:

يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمين الرحمن شيئًا، كيف ينقص مُلْك هو قيّمه وهو مالك الملك، لو أن عباده إنسهم وجنّهم، مؤمنهم وكافرهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كل واحدٍ مسألته، ما نقص ذلك من ملكه إلّا كما ينقص المخيط إذا أُدْخِل في البحر.

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ١١١).

والله عَزَّوَجَلَّ هو أكرم الكرماء وهو الجَوَاد الذي عَلَى على كل من جاد، وبه جاد من جاد، وهو أرحم الرحماء، وهو الودود ذو الفضل العظيم.

خصّ بعض الأعمال اليسيرة بالأجور الكبيرة تفضّلًا منه وكرمًا ومِنَّة على عباده، وعُلاة الهمم يُراعون هذه الأعمال وتعَضُّون عليها بالنواجذ ويحرصون على تأديتها أشد من حرصهم على الحياة.. وقد تفرَّقت هذه الأعمال في موسوعتنا فأردنا أن نجمعها هنا لعُلاة الهمم ومن سار على دربهم.

□ قال عمرو بن قيس: «وجدنا أنفع الحديث لنا، ما نفعنا في أمر آخرتنا: من قال كذا فله كذا».

«وقد يتساءل البعض عن سِرِّ ترتُب هذه الأجور الكبيرة من الفضل والمغفرة الشاملة على تلكم الأعمال السهلة اليسيرة، بل ربَّما استعظم بعضهم ذلك واستغربه، متعجِّبًا أن يكون ذلك، مع أن ثمَّة أعمالًا هي أجلُّ وأعظمُ وأخطرُ، ولكنها لم تحظ من الأجر والفضل والمغفرة بمثل ما حظيت به هذه ولا بنصفه، بل ولا أقلّ من ذلك!! وإن خير من أجاب عن مثل هذا الإمام الجليل والعالم الشهير العز بن عبد السلام سلطان العلماء – رحمه الله تعالى رحمة واسعة–[١] فقد قال في كتابه القيِّم «قواعد الأحكام»: «فإن قِيل قد يُرَتِّب الشرع على الفعل اليسير مثل ما يُرتِّب على الفعل الخطير، كما رتَّب غفران الذنوب على الحج المبرور، ورتب مثل ذلك على موافقة تأمين المصلى تأمين الملائكة، ورتَّب غفران الذنوب على

---

(١) «الأربعون المنيرة في الأجور الكبيرة على الأعمال اليسيرة» للدكتور عيادة بن أيوب الكبيسي (ص٣٣)– طبع دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث.

قيام ليلة القدر، كما رتَّبه على قيام جميع رمضان، فالجواب: أن هذه الطاعات وإنْ تساوتْ في التكفير فلا تساوي بينها في الأجور، فإن الله سبحانه وتعالى رتَّب على الحسنات رفع الدرجات وتكفير السيئات، ولا يلزم من التساوي في تكفير السيئات التساوي في رفع الدرجات، وكلامنا في جملة ما يترتَّب على الفعل من جلب المصالح ودرء المفاسد، وذلك مختلفٌ فيه باختلاف الأعمال، فمن الأعمال ما يكون شريفًا بنفسه، وفيما رُتِّب عليه من جلب المصالح ودرء المفاسد، فيكون القليل منه أفضل من الكثير من غيره، والخفيف منه أفضل من الشاقِّ من غيره، ولا يكون الثواب على قَدْر النَّصَب في مثل هذا الباب كما ظنَّ بعض الجهلة، بل ثوابه على قدر خطره في نفسه كالمعارف العَليَّة والأحوال السنِيَّة، والكلمات المَرْضِيَّة، فرُبَّ عبادة خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان، وعبادة ثقيلة على اللسان خفيفة في الميزان، بدليل: أن التوحيد خفيف على الجنان واللسان، وهو أفضل ما أُعطيه الإنسان، ومَنّ به الرحمن، والتفوُّه به أفضل الكلام بدليل أنه يُوجِب الجِنان، ويدرأ غضَبَ الدَيَّان، وقد صرَّح ﷺ بأنَّه أفضل الأعمال لَمَّا قيل له: «أي الأعمال أفضل؟ فقال: «إيمان بالله»، وجعل الجهاد دونه مع أنه أشقّ منه، وكذلك معرفة التوحيد أفضل المعارف، واعتقاده أفضل الاعتقادات، مع سهولة ذلك وخِفَّته مع تحقِّقه»[(١)].

ثم قال: «ومما يدلُّ على أن الثواب لا يترتَّبُ على قدر النَّصَب في جميع

(١) أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سُئِل: أيُّ العمل أفضل؟ فقال: «الإيمان بالله ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: «حجٌّ مبرور»- كتاب الإيمان- باب من قال: إن الإيمان هو العمل (١/ ٧٧) ح (٢٦).

العبادات ما روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مَلِيككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال ذكر الله»[١]، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ما شيء أنْجَى من عذاب الله من ذكر الله».

• ومما يدلُّ على ذلك أيضًا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال حين يُصبح وحين يُمسِي: سبحان الله وبحمده، مئة مرة، لم يأت أحدٌ يوم القيامة، بأفضل مما جاء به إلَّا أحَدٌ قال مثل ما قال، أو زاد عليه**»[٢].

• وكذلك قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[٣].

* والحاصل بأن الثواب يترتَّب على تفاوت الرُّتب في الشرف، فإنْ تَسَاوَى العَملان من كُلِّ وجه كان أكثر الثواب على أكثرهما، لقوله تعالى:

---

(١) صحيح: رواه الترمذي برقم (٣٣٧٧)- وزاد في آخره فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله – كتاب الدعوات، باب ٦، (٥/ ٤٥٩)، وابن ماجه (٣٧٩٠)- كتاب الأدب- باب فضل الذكر (٢/ ١٢٤٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٤٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٢)، و«صحيح الجامع» (٢٦٢٩)، والمنذري في «الترغيب» (٢/ ٣٩٥)، وصححه الألباني ي «تخريج الترغيب» (٢/ ٢٢٨).

(٢) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي.

(٣) رواه أحمد،والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾[الزلزلة][1].

البحار الزاخرات من الحسنات مع الأعمال اليسيرات:

١- النيَّة الصالحة:

إن النيَّة وإن لم تكن من أعمال الجوارح فهي عمل قلبي يسير على من يسَّرَهُ الله عليه، ليس فيه أي جهد ولا مشقة اللهم إلَّا محاسبة النفس للتنبيه من الغفلة، ومع هذا اليُسر والسهولة، فقد رتَّب الشارع الحكيم على ذلك خيرًا عظيمًا، وجزاءً كبيرًا، وأيُّ خير وجزاء!!! فرُبَّ عملٍ كبير صغّرته النيَّة، ورب عمل صغير كبَّرته النيَّة.

٢- في فضل الأذان:

• عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري ثم المازني عن أبيه أنه أخبره: أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: «**إني أراك تُحِبُّ الغنم والبادية، فإذا كنتَ في غنمك أو باديتك فأذَّنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنس ولا شيءٍ إلَّا شهد له يوم القيامة**». قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ[2].

٣- ثواب الذكر عند الأذان:

• عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمَّدًا**

(١) «قواعد الأحكام» (ص٢٩- ٣٠) للعز بن عبد السلام.

(٢) رواه البخاري (٦٠٩) (٢/ ٨٧- ٨٨)- كتاب الأذان- باب رفع الصوت بالنداء. ومدى صوت المؤذن: أي غاية صوته.

الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حَلَّت له شفاعتي يوم القيامة»[(١)].

٤- ثواب الذكر عند الأذان:

• عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيتُ بالله ربًّا، وبمحمد رسولًا، وبالإسلام دينًا، غُفِر له ذنبه»[(٢)].

• وفي رواية: «من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد..» إلخ بزيادة الواو.

٥- فضل الوضوء السابغ:

• عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: كانت علينا رعاية الإبل[(٣)]، فجاءت نوبتي، فروَّحتُها[(٤)] بعشيٍّ، فأدركتُ رسول الله ﷺ قائمًا يحدِّث الناس، فأدركت من قوله: «ما من مسلم يتوضَّأ، فيُحسن وضوءَه، ثم يقوم، فيصلي ركعتين، مقبلٌ عليهما بقلبه ووجهه، إلَّا وجبت له الجنة». قال: فقلتُ: ما أجود هذه! فإذا قائلٌ بين يديّ يقول: التي قبلها أجود! فنظرتُ، فإذا عمر! قال: إني قد رأيتك جئتَ آنفًا، قال: «ما منكم من أحدٍ يتوضأ، فيُبلغ، أو فيُسبغ الوضوء[(٥)]، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٤)- كتاب الأذان- باب الدعاء عند النداء (٢/ ٩٤).
(٢) رواه مسلم (٣٨٦) (١/ ٢٩٠).
(٣) إبل الصدقة، وكانوا يتناوبون عليها.
(٤) أي رددتها إلى المُرَاح، وهو الموضع الذي تأوي إليه الإبل ليلًا.
(٥) أي: فيوصل الوَضوء إلى مواضعه، أو يُكمله على الوجه المسنون.

عبد الله ورسولُه إلَّا فُتحتْ له أبوابُ الجنةِ الثمانيةُ يدخلُ من أيِّها شاء»[١].

● عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من رجل يقرب وضوءه، فيتمضمض، ويمج، ويستنشق، فينثر، إلَّا جَرَت خطايا وجهه، وفيه، وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله، إلَّا جَرَت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلَّا جرف خطايا يديه من أطراف أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه كما أمره الله، إلَّا جرت خطايا رأسه من أطراف شعره من الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبَيْن كما أمره الله، إلَّا جرتْ خطايا رجليه من أطراف أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلَّى، فحمد الله وأثنى عليه، ومجَّده بالذي هو أهله، وفرَّغ قلبه لله، إلَّا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه»[٢].

٦- المشي إلى المساجد:

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من تطهَّر في بيته، ثم مشى إلى بيتٍ من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداهما تحطُّ خطيئة، والأخرى ترفع درجة»[٣].

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٣٤)- كتاب الطهارة- باب: الذكر المستحبُّ عقب الوضوء (١/ ٢١٠)، والترمذي بالزيادة المذكورة برقم (٥٥) في أبوب الطهارة- باب (٤١) فيما يُقال بعد الوضوء (١/ ٧٨)، وروى هذه الزيادة ابن ماجه، والبزار، والطبراني في «الأوسط»، وزاد النسائي: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلَّا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وصححه موقوفًا على أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٨٣٢).

(٣) رواه مسلم برقم (٦٦٦)- كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب المشي إلى الصلاة (١/ ٤٦٢).

٧- ركعتا الفجر:

• عن عائشة ﵂، عن النبيِّ ﷺ قال: «ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها»[١].

والمراد بهما ركعتا السنَّة.. فكيف بصلاة الفريضة؟!

• وروت عائشة ﵂ أنه ﷺ قال في شأن الركعتين عند طلوع الفجر: «لهما أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعًا»[٢].

٨- صلاة الجماعة وانتظار الصلاة:

• عن أبي هريرة ﵁، عن النبيَّ ﷺ قال: «صلاة الجميع تَزيدُ على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمسة وعشرين درجةً، فإن أحدكم إذا توضَّأ، فأحسنَ، وأتى المسجد لا يريد إلَّا الصلاة، لم يَخْطُ خَطوةً إلَّا رفعه الله بها درجةً، وحطَّ عنه خطيئةً حتى يدخل المسجد؛ وإذا دخل المسجد كان في صلاةٍ ما كانتْ تَحْبِسُه، وتصلي - يعني: عليه - الملائكة ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يؤذ، يُحْدِثْ[٣]»[٤].

---

(١) رواه مسلم- كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب استحباب ركعتي سنة الفجر (٢/ ١٦٠)، والترمذي في أبواب الصلاة - باب ما جاء في ركعتي الفجر من الفضل رقم (٤١٦) (٢/ ٢٧٥) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم.

(٣) آخر الحديث عند مسلم (.. ما لم يؤذِ فيه، ما لم يُحدِث فيه».

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له- كتاب الصلاة- باب الصلاة في مسجد السوق (١/ ١٢٢)، ورواه مسلم- كتاب الصلاة- باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة (٢/ ١٢٨- ١٢٩).

• عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرَة قال: دخل عثمان بن عفان رضي الله عنه المسجد بعد صلاة المغرب، فقعد وحده، فقعدتُ إليه، فقال: يا ابن أخي، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ صلَّى العِشاء في جماعةٍ فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبحَ في جماعة فكأنما صلَّى الليل كُلَّه**»[١].

٩- غسل يوم الجمعة والذهاب إلى المسجد مُبكِّرًا لصلاة الجمعة:

• عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن غَسَّلَ يوم الجمعة واغتسل، ثم بكَّر وابتكر، ومشى ولم يركبْ، ودَنَا من الإمام، واستمعَ، وأنصتَ، ولم يَلغُ، كان له بكل خُطوة يخطوها من بيته إلى المسجدِ، عملُ سنةٍ، أجرُ صيامها وقيامها**»[٢].

١٠- صلاة الضُّحى:

• عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يُصبح على كل سُلَامَي من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صَدَقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويُجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى**»[٣].

---

(١) رواه مسلم- كتاب الصلاة- باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي رقم (٤٩٦) (٢/ ٣٦٧- ٣٦٨)، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة (١٧٦٧) (٣/ ١٣٢)، وابن حبان، والحاكم في «المستدرك» وصححه، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣٧٢)، و«صحيح الترغيب» (٦٩٠)، و«صحيح الجامع» (٦٤٠٥).

(٣) رواه مسلم (٧٢٠)، وأبو داود، والنسائي.

١١- السجود لله عَزَّوَجَلَّ:

• عن معدان بن طلحة اليعمري قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني بعمل أعمله يُدخلني الله به الجنة، أو قال: قلت: بأحبِّ الأعمال إلى الله. فسَكَت، ثم سألتُه، فسكت، ثم سألتُه الثالثة، فقال: سألتُ عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجدُ لله سجدةً إلَّا رفعكَ الله بها درجة، وحطَّ عنك بها خطيئة**»(١).

□ قال معدان: «ثم لقيت أبا الدرداء، فسألتُه، فقال لي مثلما قال لي ثوبان».

١٢- الصلاة على الجنائز وتشييعها:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شهد الجنازةَ حتى يُصَلِّيَ فله قيراط، ومن شهدها حتى تُدْفَن كان له قيراطان**». قيل: وما القيراطان؟ قال: «**مثل الجبلين العظيمين**»(٢).

• وفي إحدى روايات مسلم: «**من صلى على جنازة ولم يَتْبَعْها فله قيراط، فإن تبعها فله قيراطان**». قيل: وما القيراطان؟ قال: «**أصغرهما مثلُ أحد**».

• وعند مسلم أيضًا: قيل لابن عمر رضي الله عنهما: إن أبا هريرة رضي الله عنه يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من تَبعَ جنازةً فله قيراطٌ من الأجر**». فقال

---

(١) رواه أحمد، ومسلم واللفظ له- كتاب الصلاة- فضل السجود والحثِّ عليه (٢/ ٥١- ٥٢)، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.
(٢) رواه البخاري -كتاب الجنائز- باب من انتظر حتى تُدفن (٢/ ٩٠).

ابن عمر رضي الله عنهما: أكثر علينا أبو هريرة رضي الله عنه[١]؛ فبعث إلى عائشة فسألها، فصدَّقت أبا هريرة. فقال ابن عمر رضي الله عنهما: لقد فرَّطنا في قراريط كثيرة[٢].

يتبين من قول ابن عمر رضي الله عنهما ما كان الصحابة عليه من الرغبة في الطاعات حين يبلغهم الخبر، والتأسف على ما يفوتهم منها، وإن كانوا لا يعلمون عظم موقعه[٣].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن تبع جنازة مسلم إيمانًا واحتسابًا وكان معها حتى يصلي عليها، ويُفرَغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقِراطين، كل قيراط مثل أُحُد، ومن صلى عليها، ثم رجع قبل أن تُفدنَ؛ فإنه يرجع بقيراطٍ من الأجر**»[٤].

١٣- قيام رمضان:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:«**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»[٥].

١٤- قيام ليلة القدر:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قام ليلة القدر**

---

(١) يعني أن ابن عمر رضي الله عنهما خاف لكثرة روايات أبي هريرة من أنه اشتبه عليه الأمر في ذلك واختلط عليه حديث بحديث، لا أنه نسبه إلى رواية ما لم يسمع؛ لأن مرتبة ابن عمر وأبي هريرة أجلّ من هذا. انظر «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ١٥- ١٦)

(٢) «صحيح مسلم»- كتاب الجنائز - باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها (٣/ ٥١).

(٣) المصدر السابق (٧/ ١٥).

(٤) رواه البخاري (٤٧).

(٥) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»[١].

١٥- قيام الليل:

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام بعشر آيات لم يُكتَب من الغافلين، ومن قام بمئة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتُب من المقنطِرين»[٢].

والمقنطِرين: من لهم قنطارٌ من الأجر.

وأعجب من هذا الحديث والأجر الحديث الآتي:

• عن فضالة بن عُبيد وتميم الداري رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من قرأ عشر آيات في ليلة كُتِب له قنطارٌ من الأجر، والقنطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة يقول ربك عز وجل: اقرأ وارق بكل آية درجة، حتى ينتهي إلى آخر آية معه، يقول ربك عز وجل للعبد: اقبض، فيقول العبد بيده: يا رب! أنت أعلم. يقول بهذه الخلد وبهذه النعيم[٣]»[٤].

١٦- في الصلاة: من وافق تأمينه تأمين الملائكة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا، فإنه

(١) رواه البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان في «صحيحه»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٤٢)، و«صحيح الجامع» (٦٤٣٩).

(٣) قال الألباني: أي اقبض يمينك على الخلد وشمالك على النعيم، كما في رواية أخرى لابن عساكر.

(٤) حسن: قال المنذري: رواه الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط» بإسناد حسن، وفيه إسماعيل بن عياش عن الشاميين، وروايته مقبولة عند الأكثرين، وحسَّنه الألباني. انظر «صحيح الترغيب» رقم (٦٣٤).

من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه»، قال ابن شهاب: وكان رسول الله ﷺ يقول: «آمين»[١].

١٧- من وافق قوله: «اللهم ربنا لك الحمد في الصلاة قول الملائكة»:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»[٢].

١٨- انتظار الصلاة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الملائكة تُصَلِّي على أحدكم ما دام في مُصَلَّاه الذي صلَّى فيه، ما لم يُحدث، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه**». وفي رواية زيادة: «**اللهم تُب عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يُحدث فيه**».

• وفي رواية: «**لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلَّا الصلاة**»[٣].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٨٠)- كتاب الأذان- باب جهر الإمام بالتأمين (٢/ ٢٦٢)، ومسلم برقم (٤١٠) في كتاب الصلاة- باب التسميع والتحميد والتأمين (١/ ٣٠٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٧٩٦)- كتاب الأذان- باب: فضل اللهم ربنا لك الحمد (٢/ ٢٨٣)، ومسلم برقم (٤٠٩)- كتاب الصلاة- باب التسميع والتحميد والتأمين (١/ ٣٠٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٤٤٥) (١/ ٥٣٨)، ورقم (٦٥٩) (٢/ ١٤٢)، ومسلم رقم (٦٤٩) (١/ ٤٥٩).

١٩- صلاة التسبيح:

• عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: «يا عباس يا عماه، ألا أُعطيك، ألا أمنحك ألا أحبوك، ألا أفعل بُك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله ذنبك أوله وآخره، قديمه وحديثه، خطأه وعمده، صغيره وكبيره، سرَّه وعلانيته؟ عشر خصال: أن تصلي أربع ركعات، تقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة فقل وأنت قائم: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله والله أكبر، خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشرًا، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرًا، ثم تهوي ساجدًا فتقولها وأنت ساجد عشرًا، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرًا، ثم تسجدُ فتقولها عشرًا، ثم ترفع رأسك فتقولها عشرًا، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة، تقل ذلك في أربع ركعات، وإن استطعت أن تصليها في كل يوم مرَّة فافعل، فإن لم تفعل ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرَّة، فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٢٩٧)، والنسائي، وابن ماجه (١٣٨٧)، وابن خزيمة (١٢١٦) (٢/ ٢٢٣) والطبراني في «الكبير» (١١٦٢٢) (١١/ ١٩٤- ١٩٥)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» برقم (٣٩٣) (٢/ ١٥٩)، وفي «السنن» (٣/ ٥١- ٥٢) وروى الترمذي عن أبي رافع نحوه (٤٨٢) وأخرجه الحاكم بنحوه عن ابن عمر وقال: هذا إسناد صحيح لا غبار عليه، ووافقه الذهبي (١/ ٣١٩)، وقال في حديث عبد الله بن المبارك الذي رواه بنحوه: روا هذا الحديث كلهم ثقات، ووافقه الذهبي (١/ ٣٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١١٧٣- ١١٧٥)، و«تخريج المشكاة» (١٣٢٨، ١٣٢٩)، و«صحيح الجامع» (٧٩٣٧).

الصيام:

٢٠- صيام رمضان إيمانًا واحتسابًا:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»[١].

٢١- صيام ست من شوال:

• عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من صام رمضان، وأتبَعه سِتًّا من شوَّال، كان كصوم الدهر**»[٢].

• وعن ثوبان رضي الله عنه عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من صام سِتَّة أيام بعد الفِطرِ، كان تمام السَّنةِ، ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾**»[٣].

٢٢- صيام يوم في سبيل الله:

• عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صامَ يومًا في سبيل الله بَعَّد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا**»[٤].

• وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صام يومًا في سبيل الله، باعد الله منه جهنم مسيرة مئة عام**»[٥].

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي وابن ماجه.

(٢) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، والنسائي، وابن خزيمة، وابن حبان، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٩٧)، و«صحيح الجامع» (٦٣٢٨).

(٤) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي.

(٥) حسن: رواه النسائي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢/ ٦٢)، و«صحيح الجامع» (٦٣٣٠).

• وقال ﷺ: «من صام يومًا في سبيل الله جعل الله بينه وبين النار خندقًا كما بين السماء والأرض»(١).

٢٣- صيام يوم عرفة:

• عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام يوم عرفة غفر الله له سنتين: سنة أمامه، وسنة خلفه»(٢).

٢٤- صيام يوم عاشوراء:

• عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صوم عاشوراء، يُكَفِّر سنة ماضية»(٣).

٢٥- صيام ثلاثة أيام من كل شهر:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صومُ شهر الصبرِ وثلاثة أيامٍ من كل شهر صوم الدهر»(٤).

٢٦- تفطير الصائم:

• عن زيد بن خالد الجُهني قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ فَطَّرَ صائمًا، كان له مِثْلُ أجره، غير أنه لا يَنْقُصُ من أجرِ الصائمِ شيئًا»(٥).

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي أمامة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٦٣)، و«صحيح الترغيب» (٩٨١)، و«صحيح الجامع» (٦٣٣٣).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، وصحيح الألباني في «صحيح الترغيب» (١٠٠١).

(٣) رواه أحمد، ومسلم، والترمذي عن أبي قتادة.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والبيهقي في «سننه» عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «الإرواء» (٩٤٦)، و«صحيح الجامع» (٣٨٠٣).

(٥) صحيح: رواه أحمد، والترمذي (٨٠٧) (٣/ ١٦٢)، وابن ماجه، وابن حبان، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٠٧٢)، و«صحيح الجامع» (٦٤١٥).

□ قال في «عارضة الأحوذي»: «إن الله بفضله على الخلق أجرهم على ما ابتلاهم به من الأمر والنهي، لا باستحقاق وَجَبَ لهم، ثم زادهم من فضله المضاعفة فيه، ثم زادهم من فضله أن جعل للمعين عليه لغيره مثلَ أجره، لا ينقص ذلك من أجره شيئًا. وهذا كقوله: «**من جهَّز غازيًا فقد غزا..**»[١].

والتفطير: إطعام الصائم عند الإفطار. ويشمل على ظاهره الشيء اليسير أيضًا[٢].

٢٧- الصدقة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن تصدَّق بِعَدْل تمرة مِن كَسْب طيِّب، ولا يقبل الله إلَّا الطَّيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه**[٣] **كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّه، حتى تكون مثل الجَبَل**»[٤].

الحج والعمرة:

٢٨- الحج والعمرة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**العمرة إلى العمرة كَفَّارة**

(١) «عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي» (٤/ ٢١).

(٢) «معارف السنن شرح سنن الترمذي» للبنوري (٥/ ٥٥٧).

(٣) وفي رواية: لصاحبها.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري واللفظ له - برقم (١٤١٠) في كتاب الزكاة باب الصدقة من كسب طيب (٣/ ٢٧٨)، ومسلم برقم (١٠١٤) في كتاب الزكاة - باب قبول الصدقة من الكسب الطيب فَلُوَّه: بفتح اللام وتشديد الواو: هو المُهْر الصغير قال النووي في «شرح مسلم» (٧/ ١٠٠): وفي الفلوّ لغتان فصيحتان أشهرهما - ما ذُكِر - والثانية: كسر الفاء وإسكان اللام، وتخفيف الواو.

لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلّا الجنَّة»[(١)].

٢٩- عمرة في رمضان:

• قال رسول الله ﷺ: «**عمرة في رمضان تَعْدِل حَجَّة**»[(٢)].

• عن عطاء قال: سمعتُ ابن عباس رضي الله عنهما يحدثنا قال: قال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار سمَّاها ابن عباس فنسيتُ اسمها: «**ما منعكِ أن تحجي معنا؟**». قالت: لم يكن لنا إلَّا ناضحان[(٣)]، فحجَّ أبو ولدها وابنُها على ناضح، وترك لنا ناضحًا نَنْضَحُ عليه. قال: «**فإذا جاء رمضان فاعتمري، فإن عُمرةً فيه تَعْدِلُ حَجَّةً**»[(٤)].

وفي رواية لمسلم: «**تَقْضِي حَجَّةً، أو حَجَّةً معي**».

• وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عُمْرَة في رمضان كحجّة معي**»[(٥)].

والعمرة في رمضان تعدل حَجَّةً في الأجر لا في النيابة عن الفرض.

• وفي رواية مسلم الأخرى: «**تقضي.. حَجَّةً معي**»، أي تقوم مقامها

(١) رواه البخاري - كتاب العمرة- باب وجوب العمرة وفضلها (٢/ ١٩٨)، ومسلم - كتاب الحج- باب في فضل الحج والعمرة (٤/ ١٠٧).

(٢) رواه أحمد، والبخاري وابن ماجه عن جابر، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه عن ابن عباس، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه عن أم معقل، وابن ماجه عن وهب بن خنبش، والطبراني في «الكبير» عن ابن الزبير.

(٣) الناضح: البعير الذي يُسقَى عليه.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري - كتاب العمرة- باب عمرة في رمضان (٢/ ٢٠٠)، ومسلم - كتاب الحج- باب فضل العمرة في رمضان (٤/ ٦١)، واللفظ لمسلم.

(٥) صحيح: رواه سموية عن أنس، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٥٨٧)، و«صحيح الجامع» (٤٠٩٨).

في الثواب، وهو مبالغة في الترغيب.

□ وفي «أُسد الغابة» لابن الأثير أن المرأة الأنصارية يقال لها: أم سنان، قاله لها النبيَّ ﷺ لما لقيها حين رجع من حجَّة الوداع.

المساجد:

٣٠- من بنى لله مسجدًا:

• عن عبيد الله الخولاني أنه سمع عثمان بن عفان ﷺ يقول - عند قول الناس فيه حين بنى[١] مسجد الرسول ﷺ-: إنكم أكثرتم، وإني سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «**من بنى مسجدًا** - قال بُكير[٢]: حسبتُ أنه قال: **يبتغي به وجه الله- بنى الله له مثله في الجنة**»[٣].

ومعنى «**بنى الله له مثله في الجنة**»: يحتمل مثله في القدر والمساحة، ولكنه أنفس منه بزيادات كثيرة، ويحتمل: مثله في مسمى البيت، وإن كان أكبر مساحة وأشرف[٤].

٣١- من جاء المسجد للتعليم أو التعلُّم:

• عن أبي أمامة ﷺ، عن النبيَّ ﷺ قال: «**من غدا إلى المسجد لا يريد إلَّا أن يتعلَّم خيرًا أو يعلِّمه، كان له كأجر حاج تامًّا حَجَّتُه**»[٥].

---

(١) احتجاج عثمان ﷺ -بالحديث - وهو إنما زاد في المسجد - هو بناء على أن الزيادة في المسجد عند الحاجة لها كبناء المسجد أصلًا.

(٢) بكير هو راوي الحديث عن عاصم بن عمر بن قتادة، الذي سمع عبيد الله الخولاني.

(٣) رواه البخاري -كتاب الصلاة- باب من بني مسجدًا (١/ ١١٦)، ومسلم - كتاب الزهد- باب فضل بناء المساجد (٨/ ٢٢٢).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ١١٣).

(٥) إسناده جيد: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٧٤٧٣) (٨/ ١١١- ١١٢).

٣٢- فضل الصلاة في المساجد الثلاثة ومضاعفة الأجر فيها:

• عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلَّا المسجد الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه»[(١)].

• وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: تذاكرنا – ونحن عند رسول الله ﷺ - أيهما أفضلُ أمسجد رسول الله ﷺ أم بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضلُ من أربع صلوات فيه، ولنِعْم المُصَلَّي هو، وليوشكن لأن يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعًا»[(٢)].

فالصلاة في المسجد الأقصى تعدل مئتين وخمسين صلاة فيما سواه من

وقال في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (١/ ١٢٨): «رجاله موثقون كلهم». وقال الحافظ ضياء الدين المقدسي في «فضائل الأعمال» (ص٩٩): «هذا إسناده على شرط صحيح مسلم. وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٤/ ٤٦١): «إسناده جيد».

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في «الإرواء» (١١٢٩)، و«صحيح الجامع» (٣٨٣٨).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٠٩) وقال صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه إبراهيم بن طهمان في «مشيخته» (٦٢)، والمقدسي في «فضائل بيت المقدس» (١٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٢٤٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨/ ٨٣) (٣٨٤٩) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧): رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله رجال «الصحيح»، وقال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٢١٧): «رواه البيهقي بإسناد لا بأس به، وفي متنه غرابة، وصححه الألباني في «تحذير الساجد» (ص١٩٨).

المساجد».

٣٣- الصلاة في مسجد قباء تعدِل عمرة:

• عن أسيد بن ظُهير الأنصاري رضي الله عنه، عن النبيَّ ﷺ أنه قال: «**صلاةٌ في مسجدِ قُباء كعمرة**»[١].

• وعن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تَطَهَّر في بيته، ثم أتى مسجد قُباء، فصلَّى فيه صلاةً، كان له كأجر عمرة**»[٢].

• عن عبد الله بن دينار أنه سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «كان رسول الله ﷺ يأتي قُباءَ راكبًا وماشيًا»[٣].

• وفي رواية أخرى: «كان يأتي قُباءُ كلَّ سبت، وكان يقول: رأيتُ النبيَّ ﷺ يأتيه كلَّ سبت»[٤].

٣٤- صلاة الفجر في جماعة والذكر حتى تشرق الشمس وصلاة ركعتين:

• عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجَّة، وعمرة، تامةٍ، تامة، تامَّة**»[٥].

---

(١) صحيح: رواهما ابن ماجه في أبواب إقامة الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في المسجد قباء، الرقمان (١٤٠٩)، (١٤١٠) (١/ ٢٥٨)، وصححها الألباني في: «صحيح ابن ماجه» رقم (١١٥٩) و(١١٦٠) (١/ ٢٣٧- ٢٣٨).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه»- كتاب الحج- باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته (٤/ ١٢٧)

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٤٦٤)، و«صحيح الجامع» (٦٣٤٦).

٣٥- من صلى لله أربعين يومًا يدرك التكبيرة الأولى:

• عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن صلى لله أربعين يومًا في جماعة، يُدرِكُ التكبيرة الأولى، كُتِب له براءتان: براءة من النار، وبراءةٌ مِن النفاق»[(١)].

٣٦- من صلى في اليوم والليلة اثنتي عشرة ركعة تطوُّعًا:

• عن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:«من صلى في اليوم والليلة اثنتي عشرة ركعة تطوُّعًا، بنى الله له بيتًا في الجنة»[(٢)].

• وعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:«من صلى في يوم وليلة ثنْتَيْ عشرة ركعة بُني له بيت في الجنة: أربعًا قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتيْن بعد المغرب، وركعتيْن بعد العشاء، وركعتين قبل صلاة الغداة»[(٣)].

القرآن والذكر والدعاء:

٣٧- قراءة القرآن:

• عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: آلم حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[(٤)].

---

(١) حسن: رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٦٥)، وانظر «الترغيب والترهيب» (٤٠٧).

(٢) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

(٣) صحيح: رواه الترمذي عن أم حبيبة، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٧٨)، و«صحيح الجامع» (٦٣٦٢).

(٤) صحيح: رواه الترمذي برقم (٢٩١٠) (٥/ ١٧٥) كتاب فضائل القرآن- باب: ما

٣٨- قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن:

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الأخلاص]: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»[(١)].

• وقال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن»[(٢)]. وقراءتها توجب محبة الله لك؛ فهي صفته.

• وعن أُبيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ **من قرأ فكأنما قرأ ثلث القرآن**»[(٣)].

• وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ **عشر مرات بنى الله له بيتًا في الجنة**»[(٤)].

جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، وأخرجه الحاكم بنحوه في كتاب «فضائل القرآن» وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه، وأقرّه الذهبي (١/ ٥٦٦)، والطبراني في «الكبير» (ص١٤١، ١٤٢) (١٨/ ٧٦- ٧٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٦٠) (٢/ ٢٦٧- ٢٦٩).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٥٠١٣) في كتاب فضائل القرآن – باب: فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ (٩/ ٥٩)، ومسلم برقم (٨١١) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ (١/ ٥٥٦).

(٢) روه مالك، وأحمد، والبخاري، وأبو داود، والنسائي عن أبي سعيد، والبخاري عن قتادة بن النعمان، ومسلم عن أبي الدرداء، والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة، والنسائي عن أبي أيوب، وأحمد وابن ماجه عن أبي مسعود الأنصاري، والطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود وعن معاذ، وأحمد عن أم كلثوم بنت عقبة، والبزار عن جابر، وأبو عبيد عن ابن عباس.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والنسائي والضياء عن أُبَي، ورواه أحمد، والترمذي، والنسائي عن أبي أيوب، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٧٣).

(٤) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٨٩)، و«صحيح الجامع» (٦٤٧٢).

٣٩- ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ تعدل ربع القرآن:

• عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ **تعدل ثلث القرآن،** ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ **تعدل ربع القرآن**»[١].

• وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ **عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ** ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ **عدلت له بثلث القرآن**»[٢].

٤٠- قراءة آية الكرسي دبر كُلِّ صلاة:

• عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ آية الكرسي دُبُرَ كل صلاة مكتوبة، لم يمنعْه من دخول الجنة إلَّا أن يموت**»[٣].

٤١- قراءةُ الآيتين من آخر سورة البقرة عند النوم:

• عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[٤].

• وعن أبي سعيد البدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ**

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٨٨)، و«صحيح الجامع» (٤٤٠٥).

(٢) حسن: رواه الترمذي عن أنس، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٦٦).

(٣) صحيح: رواه النسائي، وابن حبان، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٧٢)، و«تخريج المشكاة» (٩٧٤)، و«صحيح الجامع» (٦٤٦٤).

(٤) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه وأحمد، والدارمي، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٢٦٣)، و«صحيح الجامع» (٦٤٦٤).

بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلةٍ كَفَتاه»[١].

٤٢- قراءة سورة الكهف يوم الجمعة:

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة «الكهف» في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بين الجمعتيْن»[٢].

• وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة «الكهف» يوم الجمعة أضاء له النور ما بينه وبين البيت العتيق»[٣].

٤٣- من حفظ آيات من القرآن:

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعدُ لكل آيةٍ، حتى يقرأ آخر شيء معه»[٤].

• وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتّل، كما كنتَ ترتِّل في دار الدنيا؛ فإن منزلتك عند

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٠٩) (٩/ ٥٥)- كتاب فضائل القرآن- باب: فضل سورة البقرة، ومسلم (٨٠٨) (١/ ٥٥٥)- كتاب صلاة المسافرين -باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة.

(٢) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» والبيهقي في «سننه»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٧٣٨)، و«المشكاة» (٢١٧٥)، و«الإرواء» (٦٢٦)، و«صحيح الجامع» (٦٤٧٠).

(٣) صحيح: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» وصححه الألباني في «الإرواء» (٦٢٦)، و«صحيح الترغيب»، و«صحيح الجامع» (٦٤٧١).

(٤) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣١٧)، و«صحيح الجامع» (٨١٢١).

آخر آية كنت تقرؤها»[١].

٤٤- قراءة آية الكرسي عند النوم:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «.. قلت: يا رسول الله، زعم أنه يُعلِّمني كلمات ينفعني الله بها فخلَّيت سبيله، قال: ما هي؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾. وقال لي: لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: **«أما إنه قد صدقك وهو كذوب»**[٢].

فانظر إلى حافظ القرآن كم يصعد من الدرجات في أعلى الجنان!!!

٤٥- سيد الاستغفار وفضله:

• عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سيِّدُ الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلَّا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدِك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتك عَليَّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر، فإنه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت. من قالها من النهار مُوقنًا بها، فمات من يومه قبل أن يُمْسِي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو مُوقِنٌ بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة»**[٣].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «المستدرك»، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣١٧)، و«صحيح الجامع» (٨١٢٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٣١١)- كتاب الوكالة- باب: إذا وكَّل رجلًا فترك الوكيل شيئًا.. إلخ (٤/ ٤٨٧).

(٣) رواه أحمد، والبخاري، والنسائي، والحاكم في «المستدرك».

٤٦- من استغفر للمؤمنين والمؤمنات:

• عن عبادة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من استغفر للمؤمنين والمؤمنات، كتب الله له بكل مُؤْمِنٍ ومؤمنةٍ حسنة**»[(١)].

أي كرم فوق هذا الكريم.. سبحانك ربي من جواد؛! تُعطي في ثانية من الزمان عبدًا من عبادك مليارًا من الحسنات تنفرج شفتاه عن دعاء لا يستغرق إلَّا ثوان معدودة، وتُعطي لقائله ما يفوق المليار من الحسنات!!!

٤٧- سبحان الله وبحمده:

• عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن جورية رضي الله عنها، أن النبيَّ ﷺ خرج من عندها بُكْرَةً حين صلى الصبح وهي في مسجدها[(٢)]، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: «**ما زلتِ على الحال التي فارقتُكِ عليها؟**»، قالت: نعم. قال النبي ﷺ: «**لقد قلتُ بعدكِ أربعَ كلماتٍ ثلاثَ مراتٍ لو وُزِنَتْ بما قلتِ منذ اليوم لَوَزَنَتْهُنَّ: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزِنَةَ عرشه ومِداد كلماتِه**».

وفي رواية: «**سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زِنَةَ عرشه، سبحان الله مِداد كلماته**»[(٣)].

---

(١) حسن: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن عبادة، وحَسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٢٦)، وانظر «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٠) وقال: إسناده جيد. قال الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ١٠٤٢): «والعهدة عليه».

(٢) أي: في موضع صلاتها.

(٣) رواه مسلم – كتاب الذكر والدعاء – باب التسبيح أول النهار وعند النوم (٨/ ٨٣-٨٤).

٤٨- التسبيح والتحميد والتكبير دُبُر كل صلاة وعند النوم:

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خَلَّتانِ لا يُحصيهما رجلٌ مسلم إلَّا دخل الجنة، أَلَا وهما يسير ومن يعمل بهما قليل: يُسبِّحُ الله في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ عشرًا، ويَحْمَدُهُ عشرًا، ويكبِّره عشرًا – قال: فأنا رأيت رسول الله ﷺ يَعْقِدُها بيده، قال: – فتلك خمسون ومئةٌ باللسان، وألف وخمسُمئةٍ في الميزان. وإذا أخذتَ مَضْجَعَكَ تسبِّحه وتكبِّره وتَحْمَده مئةً فتلك مئةٌ باللسان وألفٌ في الميزان. فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمئةِ سيئة؟». قالوا: وكيف لا يُحصيها؟. قال: «يأتي أحَدَكم الشيطانُ وهو في صلاته فيقول: اذكر كذا اذكر كذا، حتى ينتقل، فلعلَّه لا يفعل، ويأتيه وهو في مضجعه فلا يزال ينوِّمه حتى ينام»[١].

٤٩- الذكر بـ «لا إله إلا الله»:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مئة مرةٍ، كانت له عَدْلَ عشرِ رقابٍ، وكُتِبَتْ له مئة حسنةٍ، ومُحيتْ عنه مئةُ سيئةٍ، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء إلَّا رجلٌ عَمِلَ أكثر منه»[٢].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب، وأبو داود، والترمذي (٣٤١٠) والنسائي، وابن ماجه، وعبد الرزاق في «المصنف»، وابن السني وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٦٠٥) و(٢/ ٢٦١)، و«صحيح الجامع» (٣٢٣٠) خلتان: خصلتان. لا يحصهما: لا يحافظ عليهما.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم. البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التهليل (٧/ ١٦٧)، ومسلم – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل =

□ قال الإمام النووي: «وظاهر إطلاقِ الحديث أن يحصل هذا الأجر المذكور في هذا الحديث مَنْ قال هذا التهليل مئة مرة في يومه، سواء قاله متواليةً أو متفرقةً في مجالس، أو بعضها أولَ النهار وبعضها آخره؛ لكن الأفضل أن يأتي بها متوالية في أول النهار، ليكون حرزًا له في جميع نهاره»[١].

وقال كذلك في فضل هذا الحديث العظيم: «قد ثبت أن مَنْ أعتقَ رقبةً أعتق الله بكل عضوٍ منها عضوًا منه من النار! فقد حصل بعتق رقبةٍ واحدةٍ تكفيرُ جميع الخطايا، مع ما يبقى له من زيادة عتق الرقاب الزائدة على الواحدة، ومع ما فيه من زيادة مئة درجة، وكونه حرزًا من الشيطان»[٢].

٥٠- سبحان الله العظيم.. سبحان الله وبحمده:

• عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده**»[٣].

• وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال حين يُصبح وحين يُمسي: سبحان الله وبحمده، مئة مرة، لم يأتِ أحدٌ يوم القيامة**

والتسبيح والدعاء (٨/ ٦٩).

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/ ١٧).

(٢) المصدر السابق (١٧/ ١٨).

(٣) رواه البخاري ومسلم، واللفظ للأول. البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (٧/ ١٦٨) مسلم، كتاب الدعوات.. فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٨/ ٧٠).

بأفضل مما جاء به، إلَّا أحدٌ قال مثلما قال أو زاد عليه»[١].

وقوله: «حبيبتان إلى الرحمن».. خُصَّ «الرحمن» من الأسماء الحسنى للتنبيه على سعة رحمة الله، حيث يُجازى على العمل القليل بالثواب الجزيل، ولما فيها من التنزيه والتحميد والتعظيم[٢].

٥١- سبحان الله وبحمده ومغفرة الذنوب:

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة، حُطَّتْ عنه خطاياه وإن كانت مثل زَبَد البحر**»[٣].

٥٢- فضل الصلاة على النبي ﷺ:

• عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ صَلَّى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليها بها عشرًا**»[٤].

• عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ صَلَّى عليَّ واحدةً صلَّى الله عليه عشرًا**»[٥].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الدعوات، باب فضل التهليل، (٨/ ٦٩).
(٢) «فتح الباري» (١١/ ٢٠٨).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري رقم (٦٤٠٥)- كتاب الدعوات- باب فضل التسبيح (١١/ ٢٠٦)، ومسلم برقم (٢٦٩١) في كتاب الذكر والدعاء- باب فضل التهليل والتسبيح (٤/ ٢٠٧١).
(٤) أخرجه مسلم (٣٨٤)- كتاب الصلاة- باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي (١/ ٢٨٨)، وأخرجه أيضًا برقم (٤٠٨) من حدث أبي هريرة (١/ ٣٠٦).
(٥) رواه أحمد مسلم (٤٠٨)- كتاب الصلاة- باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (١/ ٣٠٦)، وأبو داود، والترمذي والنسائي.

وصلاة الله على العبد: رحمتُه وتضعيفُ أجره[١].

فيا له من أجر عظيم عظيم عظيم لا تُحيط به الكَلِمات!!! أضف إلى ذلك بقية الأجر العظيم الذي جاء في أحاديث أخرى سبق بيانها.

• عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صَلَّى عليَّ واحدة، صلَّى الله عليه عشر صلواتٍ، وحَطَّ عنه عشر خطيئاتٍ، ورفعَ له عشر درجات»[٢].

٥٣- دعاءُ السُّوق:

• عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دخل السُّوق فقال: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له المُلك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف درجة، وبنى له بيتًا في الجنة»[٣].

فيا لله ما أرحم مالك الملوك، وما أعظمه وأكرمه!!!

دعاء لا يستغرق ثانيتيْن من الزمان يكون له هذا الأجر العظيم الذي لا تُحيط بكنهه العقول والألباب.

---

(١) نقله النووي في «شرح صحيح مسلم» (٤/ ١٢٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في «الأدب»، والنسائي، والحاكم في «المستدرك»، وابن حبّان وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٩٢٢)، و«صحيح الجامع» (٦٣٥٩).

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذي وابن ماجه، والحاكم في «المستدرك» عن ابن عمر، وحسَّنه الألباني في «تخريج المشكاة» (٢٩٥٤)، و«صحيح الجامع» (٦٢٣٢).

٥٤- في الاستغفار وفضله:

• عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلَّا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاثًا، غُفِرَت له ذنوبه وإن كان فارًّا من الزَّحْف»[(١)].

٥٥- من قال: لا إله الله مخلصاً:

• عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلَّا الله مُخلصًا دخل الجنة»[(٢)].

• وقال ﷺ: «من شهد أن لا إله إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله حرَّم الله عليه النار»[(٣)].

٥٦- دعوة المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب:

• عن صفوان بن عبد الله بن صفوان قال: قدمتُ الشام، فأتيتُ أبا

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٥١٧) (٢/ ٨٥)- كتاب الصلاة- باب الاستغفار، والترمذي (٣٥٧٧) (٥/ ٥٦٩)، والطبراني في «الكبير» (٤٦٧٠) (٥/ ٨٩)، والحاكم – واللفظ له- وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي في كتاب الدعاء (١/ ٥١١)، ورواه ابن أبي شيبة (٢٩٤٤٩) من حديث معاذ ابن جبل رضي الله عنه، ومن حديث أبي سعيد الخدري (٢٩٤٤٧) وفيه «خمس مرات» وفي آخره «وإن كان عليه مثل زبد البحر»، وذكره الحافظ أبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» برقم (٢١٨)، (١/ ١٧١)، والمنذري برقم (٢٥١٩) (٢/ ٤٧٠) وقال: إسناده جيِّد.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٢٣٦)، وابن حبان كما في «الإحسان» (٢٠٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٤)، ورواه البزار عن أبي سعيد، وأبو نعيم في «الحلية» عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٣٣)، و«الصحيحة» (٢٣٥٥).

(٣) رواه مسلم (٢٩) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

الدرداء رضي الله عنه في منزله فلم أجده، ووجدتُ أم الدرداء رضي الله عنها، فقالت: أتريد الحجَّ العام؟ فقلت: نعم. قالت: فادعُ الله لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: «**دعوة المرءِ المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ، عند رأسه مَلَكٌ موكَّلٌ، كلما دعا لأخيه بخيرٍ قال المَلَك الموكَّل به: آمين، ولكَ بِمِثْلٍ**».

قال: فخرجتُ إلى السوق، فلقيتُ أبا الدرداء رضي الله عنه، فقال لي مثل ذلك، يرويه عن النبي ﷺ[1].

٥٧- الحمد على الطعام واللباس:

• عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أكلَ طعامًا، ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام، ورزقنيه من غير حَوْلٍ مني ولا قوة، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه، ومن لبس ثوبًا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورَزَقَنيه من غير حول مني ولا قوة غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر**»[2].

٥٨- عيادة المريض واستغفار الملائكة:

• عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من أتى أخاهُ المسلم عائِدًا، مشى في خرافة الجنة حتى يجلس، فإذا جلس**

(١) رواه مسلم – واللفظ له- كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار- باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٨/ ٨٦- ٨٧)، ورواه أبو داود ويظهر الغيب، معناه في غيبة المدعو له وفي سِرِّه؛ لأنه أبلغ في الإخلاص.

(٢) حسن: رواه أحمد (٣/ ٤٣٩)، وأبو داود (٤٠٢٣)، والترمذي (٣٤٥٨)، والنسائي، وابن ماجه (٣٢٨٥)، والحاكم، وصححه، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (١٩٨٩)، «الكلم الطيب» (١٨٧)، و«صحيح الجامع» (٦٠٨٦).

غمرته الرحمة، فإن كان غُدوة، صلَّى عليه سبعون ألف مَلَكٍ حتى يمسي، وإن كان مساءً، صَلَّى عليه سبعون ألف ملك حتى يُصبح»(١).

• وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضًا لم يزل يخوض في الرحمة حتى يجلس، فإذا جَلَسَ غُمِرَ فيها»(٢).

٥٩- تنحية الأذى من طريق الناس:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لقد رأيتُ رَجُلًا يتقلَّبُ في الجنة، في شجرةٍ قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»(٣).

• وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَرّ رجلٌ بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: والله لأُنحِيّنَّ هذا عن المسلمين، لا يُؤذيهم، فأُدخِل الجنة»(٤).

الإنفاق:

٦٠- فضل المنيحة:

• عن أبي كبشة السلولي قال: سمعت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «أربعون خَصْلَةً، أعلاهنَّ مَنِيحَةُ العَنْزِ، ما من عاملٍ يعملُ بخَصْلَةٍ منها رجاءَ ثوابها وتصديقَ موعودها إلَّا أدخله الله بها الجنة».

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٨١)، وأبو داود (٣١٠٠)، وابن ماجه (١٤٤٢)، والحاكم (١/ ٣٤٩)، والبيهقي (٣/ ٣٨٠)، وفي «شعب الإيمان» (٨٧٤٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٠٤) وابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٤)، وابن حبان (٢٩٥٦- الإحسان)، والحاكم (١/ ٣٥٠) وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي، والبيهقي (٣/ ٣٨٠).

(٣) رواه مسلم (١٩١٤).

(٤) رواه مسلم (١٩١٤).

□ قال حسان[١]: «فعددنا ما دون منيحة العنز، من ردِّ السلام، وتشميت العاطس، وإماطة الأذى عن الطريق ونحوه، فما استطعنا أن نَبْلُغَ خمس عشرةَ خَصْلَةً»[٢].

٦١- الساعي على الأرملة والمسكين:

• عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**»، وأحسبه قال[٣]: «**وكالقائم لا يَفْتُر، وكالصائم لا يُفْطِر**»[٤].

المراد بالساعي: الكاسب لهما، العامل لمؤنتهما.

٦٢- كافلُ اليتيم:

• عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ قال: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**»، وقال بإصبعيه السَّبَّابة والوسطى[٥].

كافل اليتيم: القائم بأموره: من نفقة، وكسوة، وتأديب، وتربية، وغير ذلك. وهذه الفضيلة تحصل لمن كفله من مال نفسه، أو من مال اليتيم

---

(١) هو حسَّان بن عطية راوي الحديث عن أبي كبشة.

(٢) رواه البخاري - كتاب الهبة - باب فضل المنيحة. والمنيحة: هي الناقة أو الشاة تعطيها غيرك يحتلبها، ثم يردها عليك.

(٣) «وأحسبه قال» هو من لفظ عبد الله بن مسلمة القَعْنَبِي الذي روى عنه البخاري ومسلم.

(٤) رواه البخاري - كتاب الأدب - باب الساعي على المسكين (٧/ ٧٧)، ومسلم - واللفظ له - كتاب الزهد - باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٨/ ٢٢١).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري واللفظ له - كتاب الأدب - باب فضل من يعول يتيمًا (٧/ ٦٧)، ومسلم - كتاب الزهد - باب الإحسان إلى الأرملة واليتيم (٨/ ٢٢١).

بولاية شرعية[١].

□ ونقل ابن حجر قول ابن بطَّال: «حَقٌّ على من سَمِعَ هذا الحديث أن يعمل به؛ ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك».

قال ابن حجر: «ويحتمل أن يكون المرادُ قُرْب المنزلة حالة دخوله الجنة»[٢].

٦٣- التصافح بين المسلمين:

• عن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مُسْلِمَيْن يلتقيان فيُسَلِّم أحدُهما على صاحبه، ويأخذ بيده لا يأخذ بيده إلَّا لله، فلا يفترقان حتى يُغفرَ لهما**»[٣].

• وعن صدي بن عجلان أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا تصافح المسلمان لم تُفرَّق أَكُفُّهُمَا حتى يُغفرَ لهما**»[٤].

٦٤- رحمة البهائم:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما كلب يُطيف بِرَكِيَّةٍ[٥] كادَ يقتله العطش، إذْ رأته بَغِيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت**

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ١١٣).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٤٣٦).

(٣) حسن: أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٥٢٥)، و«صحيح الجامع» (٥٧٧٦).

(٤) حسن: أخرجه الطبراني في «الكبير»، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٥٦/ ٥٢٥).

(٥) الركية: البئر.

موقها[١]، فاستقت له به، فَغُفِر لها»[٢].

٦٥- الأجرُ على الزرع والغرس:

• عن أنس بن ملك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يزرع زرْعًا، أوْ يغرس غرسًا، فيأكلُ من طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلَّا كانت له به صدقة»[٣].

• وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا إلَّا كان ما أُكِل منه له صدقة، وما سُرِق منه صدقة، وما أكل السَّبُع فهو له صدقة، وما أكلت الطيور فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحدٌ كان له صدقة»[٤].

٦٦- إنظار المُعسِرين:

□ عن أبي اليسر رضي الله عنه قال: «من أنظر مُعْسِرًا أو وضع عنه أظله الله في ظله، يوم لا ظل إلَّا ظله»[٥].

٦٧- الذبُّ والدفاع عن أعراض المسلمين في غيبتهم:

• عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ذبَّ عن عرض أخيه بالغَيْبة، كان حقًّا على الله أن يُعتقَه من النار»[٦].

---

(١) الموق: الخُف.

(٢) رواه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٣) رواه البخاري (٢٣٢٠)، ومسلم (١٥٥٣).

(٤) رواه مسلم (١٥٥٢).

(٥) أخرجه مسلم (٣٠٠٦).

(٦) صحيح: رواه أحمد (١/ ٤٦١)، والطبراني (٢٤/ ١٧٤)، وابن عدي في «الكامل» =

• وعن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعًا: «مَن ردَّ على عِرْض أخيه، ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»، وفي لفظ: «كان له حجابًا من النار»[1].

الجهاد:

٦٨- عِظَمُ أجر المجاهد وثوابُه:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقًّا على الله أن يُدخله الجنة، جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي وُلد فيها». فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشِّر الناس؟!. قال: «إن في الجنة مئة درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة»، أراه قال: «وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة»[2].

«وجلس في بيته» فيه تأنيس لمن حُرم الجهاد، وأنه ليس محرومًا من الأجر، بل له من الإيمان والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة، وإن قصر عن درجة المجاهدين.

□ واستنتج ابن حجر من ظاهر الحديث أن المراد: لا تبشر الناس بما

(٥/ ٥٢٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٦٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ٤٩٥)، وصححه الألباني في «غاية المرام» (٤٣١)، و«صحيح الجامع» (٦٢٤٠).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في «غاية المرام» (٤٣١)، و«صحيح الجامع» رقم (٦٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله (٣/ ٢٠١-٢٠٢).

ذكرته من دخول الجنة لمن آمن وعمل الأعمال المفروضة عليه؛ فيقفوا عند ذلك ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه من الدرجات التي تحصل بالجهاد.

و«الأوسط»: الأعدل والأفضل.

وفي الحديث إشارة إلى أن درجة المجاهد قد ينالها غير المجاهد، إما بالنية الخالصة، أو بما يوازيه من الأعمال الصالحة؛ لأنه ﷺ أمر الجميع بالدعاء بالفردوس بعد أن أعلمهم أنه أعد للمجاهدين..[(١)].

٦٩- فضل الغُبار في سبيل الله:

• عن أبي عَبْسٍ عبد الرحمن بن جبر، أن رسول الله ﷺ قال: «**ما اغبرَّت قدما عبدٍ في سبيل الله فَتَمسَّه النار**»[(٢)].

□ قال الحافظ ابن حجر: «فإذا كان مجرد مَسِّ الغبارِ للقدم يحرم عليها النار، فكيف بمن سعى وبذل جهده واسْتَنْفَدَ وسعه؟!»[(٣)].

• وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما خالط قلبَ امرئ - مسلم- رَهْجٌ في سبيل الله، إلَّا حَرَّم الله عليه النار**»[(٤)].

• وعن أبي عبس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اغْبَرَّت قدماه في سبيل الله، حرَّمه الله على النار**»[(٥)].

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ١٢- ١٣).
(٢) أخرجه البخاري - كتاب الجهاد والسير، باب من اغبرَّت قدماه في سبيل الله (٣/ ٢٠٧).
(٣) «فتح الباري» (٦/ ٣٠).
(٤) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦١٦).
(٥) رواه أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي.

□ قال الحافظ ابن حجر: «دلَّ الحديث على أن من اغبرَّت قدماه في سبيل الله حرَّمه الله على النار، سواءٌ باشر قتالًا أم لا»[١].

وزاد الإسماعيلي: «فتمسه النار أبدًا».

وأخرج ابن حبان من حديث جابر، أنه كان في غزاةٍ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ... فذكر نحو الحديث السابق.

قال: فتواثب الناس عن دوابِّهم، فما رُئي أكثر ماشيًا من ذلك اليوم.

٧٠- فضل الجهاد بالمال في سبيل الله تعالى:

• عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل بناقةٍ مخطومة فقال: هذه في سبيل الله[٢]. فقال رسول الله ﷺ: **«لكَ بها يوم القيامة سبعُمئة ناقةٍ كُلُّها مخطومة»**[٣].

ويحتمل أن المراد: له أجرُ سبعمئة ناقة..

ويحتمل أن يكون على ظاهره، ويكون له في الجنة بها سبعمئة، كل واحدة منهن مخطومة يركبهن حيث شاء للتنزه، كما جاء في خيل الجنة ونُجبها، وهذا الاحتمال أظهر. والله أعلم[٤].

٧١- من قاتل في سبيل الله فُواق ناقةٍ:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مرَّ رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) «الفتح» (٦/ ٣٦).

(٢) يعني في الجهاد.

(٣) رواه مسلم- كتاب الإمارة- باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها (٦/ ٤١).
ومخطومة: أي فيها خِطام، وهو قريب من الزِّمام.

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٣٨).

بِشِعْبٍ فيه عُيَيْنَةٌ[١] من ماء عذبةٌ، فأعجبته لطيبها، فقال: لو اعتزلتُ الناس فأقمتُ في هذا الشِّعب[٢]، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**لا تفعل، فإن مُقام أحدكم في سبيل الله أفضلُ من صلاته في بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويُدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فُواق[٣] ناقةٍ وجبت له الجنة**»[٤].

٧٢- من جهَّز غازيًا، أو خَلَفَه بخيرٍ في أهله:

• عن زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من جهَّزَ غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خَلَفَ غازيًا في سبيل الله فقد غزا**»[٥].

يعني أن الذي جهَّز غازيًا حصل له أجر بسبب الغزو. وهذا الأجر يحصل بكل جهاد، وسواء قليلُه وكثيره، ولكل خالف له في أهله بخير، من قضاء حاجة لهم، وإنفاقٍ عليهم، أو مساعدتهم في أمرهم. ويختلف قدر الثواب بقلة ذلك وكثرته. وفي هذا الحديث الحثُّ على الإحسان إلى

(١) العُيَيْنَة: تصغير عين، بمعنى المنبع.

(٢) الشِّعْب: ما انفرج بين الجبلَيْن.

(٣) الفُواق: ما بين الحَلْبتيْن من الوقت، أوْ ما بين فتح يديك وقبضها على الضِّرْع انظر «تحفة الأحوذي» (٣/ ١٤).

(٤) رواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغدوِّ والرَّواح في سبيل الله، رقم (١٦٤٨) (٤/ ١٨١)، وقال: «حديث حسن». زاد في «تحفة الأحوذي»: وأخرجه الحاكم، وقال: «صحيح على شرط مسلم» (٣/ ١٤).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري – واللفظ له – كتاب الجهاد، باب فضل من جهَّز غازيًا أو خلفه بخير (٣/ ٢١٤)، ومسلم – كتاب الإمارة – باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافته في أهله بخير (٦/ ٤١).

من فعل مصلحةً للمسلمين أو قام بأمر من مهماتهم [(١)].

٧٣- الرِّباط في سبيل الله:

• عن سلمان رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**رِباطُ يوم وليلةٍ خيرٌ من صيام شهر وقيامِه، وإن مات جرى عليه عملُه الذي كان يعمله، وأُجريَ عليه رزقه، وأَمِنَ الفُتَّان**» [(٢)].

أصل الرِّباط: ما تربط به الخيل، ثم قيل لكل أهل ثغر: «أي جبهة» يدفع عمن خلفه: رباط.

□ قال الإمام النووي في هذا الحديث: «هذه فضيلة ظاهرة للمرابط، وجريانُ عمله عليه بعد موته فضيلة مختصَّة به لا يشاركه فيها أحد. وقد جاء صريحًا في غير مسلم: «**كل ميت يختم عمله إلَّا المرابط، فإنه يُنمى له عمله إلى يوم القيامة**» [(٣)].

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٤٠).

(٢) رواه مسلم – كتاب الإمارة – باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل (٦/ ٥١).

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٦١)، أما قوله ﷺ الذي رواه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عملُه إلَّا من ثلاثة: إلَّا من صدقة جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتفع به، أو ولد صالح يدعو له».
فقد قال في معناه: «قال العلماء: معنى الحديث أنَّ عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجددُ الثواب له إلَّا في هذه الأشياء الثلاثة، لكونه كان سببها، فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلَّفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية، وهي الوقف..» «صحيح مسلم بشرح النووي» (١١/ ٨٥).
ولفظ الحديث الذي أورده النووي في الترمذي: «كل ميت يُخْتَم على عمله إلَّا الذي مات مرابطًا في سبيل الله، فإنه يُنْمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر».
وقال: حديث حسن صحيح. كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات
=

قوله: «وأجرى عليه رزقه» موافق لقول الله تعالى في الشهداء: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران].

٧٤- من سأل الشهادة بصدق:

• عن سهل بن حنيف أن النبيَّ ﷺ قال: «**من سأل الله الشهادة بصدقٍ بَلَّغَهُ اللهُ منازلَ الشهداءِ، وإن مات على فراشه**»(١).

يعني أنه إذا سأل الشهادة بصدق أعطي من ثواب الشهداء، وإن كان على فراشه، وفيه استحباب سؤال الشهادة، واستحباب نية الخير(٢).

٧٥- عَمِل يسيرًا وأُجِر كثيرًا:

• عن البراء ﷺ قال: جاء رجلٌ من بني النَّبِيْت – قبيل من الأنصار– فقال: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنك عبدُه ورسولُه. ثم تقدَّم فقاتل حتى قُتل، فقال النبيّ ﷺ: «**عَمِلَ هذا يسيرًا وأُجِرَ كثيرًا**»(٣).

فيه شهادة منه ﷺ له بإحرازه المرتبة العظمى والدرجة العليا، وهذا قد يوجد في بعض الأعمال، مثل كلمة التوحيد؛ فإنها لا يزنها شيء من الأعمال.

٧٦- المائد في البحر له أجرُ شهيد:

• عن أم حرام ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**للمائد أجْرُ شهيدٍ،**

مرابطًا رقم (١٦٢٢) (٤/ ١٦٥).

(١) رواه مسلم– كتاب الإمارة، باب استحباب الشهادة في سبيل الله تعالى (٦/ ٤٩).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٥٥).

(٣) رواه مسلم –كتاب الإمارة– باب ثبوت الجنة للشهيد (٦/ ٤٤).

وللغريقِ أجرُ شهيديْن»[١].

• وعن أم حرام رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«المائدُ في البحر الذي يُصيبه القَيءُ له أجر شهيد، والغريق له أجر شهيديْن»**[٢].

□ قال المناوي: «**للمائد**» أي: الذي يلحقه دوران رأسه من ريح البحر واضطراب السفينة، مِن ماد يميد: إذا دار رأسه.

«**أجر شهيد، وللغريق أجر شهيدين**»، قال المظهر: «هذا إن رَكِبه لنحو طاعةٍ؛ كغزو وحجٍّ وطلب علمٍ، وكذا التجارة، ولا طريق له غيره، وقَصْد طلب القوت لا زيادة ماله»[٣].

٧٧- المتمسِّك بالسُّنَّة في وقت الفِتن:

• عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ مِن ورائكم زمانَ صَبْرٍ، للمتمسِّك فيه أجر خمسينَ شهيدًا منكم»**[٤].

• وعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ من ورائكم أيامَ الصَّبر، للمتمسِّك فيهنَّ يومئذٍ بما أنتم عليه، أجر خمسين منكم»**. قالوا: يا نبي الله، أوْ مِنهم؟ قال: **«بل منكم»**[٥].

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن أم حرام، ورواه أبو داود، والحميدي، وابن معين، والدولابي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٨٧).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٤٢).

(٣) «فيض القدير» للمناوي (٥/ ٢٩١).

(٤) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود، وقال الألباني في «الصحيحة» (١/ ٢٦٨): «إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم وصححه في «صحيح الجامع» رقم (٢٢٣٤).

(٥) صحيح: صحَّحه الألباني بشواهده في «الصحيحة» رقم (٤٩٤) (١/ ٢٦٨).

٧٨- العبادة في الهرج والفتنة تغفر الذنوب المتقدِّمة:

• عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما عَلِمت أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدِم ما كان قبلها، وأن الحج يهدمُ ما كان قبله**»[١].

• وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عبادة في الهَرْج والفتنة كهجرةٍ إليَّ**»[٢].

• وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**العبادة في الهَرْج كهجرة إليَّ**»[٣].

□ قال المناوي: «**العبادة في الهَرْج**» أي: وقت الفتن واختلاط الأمور، «**كهجرة إليَّ**» في كثرة الثواب، أوْ يُقال: المهاجر في الأوَّل كان قليلًا؛ لعدم تمكُّنِ أكثر الناس من ذلك، فهكذا العابد في الهرج قليل».

□ قال ابن العربي: «وجه تمثيله بالهجرة: أن الزمن الأول كان الناس يفرُّون فيه من دار الكفر وأهله إلى دار الإيمان وأهله، فإذا وقعت الفتن تعيَّن على المرء أن يفرّ بدينه من الفتنة إلى العبادة، ويهجر أولئك القوم وتلك الحالة، وهو أحد أقسام الهجرة»[٤]، فالعبادة في الهَرْج تغفر ما تقدَّم من الذنوب مثل الهجرة.

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه».

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٩٧٤).

(٣) رواه مسلم، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه.

(٤) «فيض القدير» للمناوي (٤/ ٣٧٣).

المعاملاتُ والأخلاق:

٧٩- إصلاحُ ذات البَيْن:

• عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضلَ من درجة الصيام والصلاة والصَّدَقة؟**». قالوا: بلى. قال: «**صلاح ذات البين، فإن فساد ذاتِ البين هي الحالقة**»[١].

□ قال الترمذي: «هذا حديث صحيح، ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**هي الحالقة، لا أقول تَحْلِق الشَّعَر، ولكن تحلق الدِّين**».

المراد بالصيام والصلاة هنا النوافل دون الفرائض.

والحالقة: الخصلة التي من شأنها أن تَحْلِقَ، أي تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل الموسى الشعر.

وقيل: هي قطيعة الرَّحِم والتظالم.

وفيه حث وترغيب في إصلاح ذات البين، واجتناب عن الإفساد فيها؛ لأن الإصلاح سبب للاعتصام بحبل الله.

وعدم التفرق بين المسلمين. وفساد ذات البين ثلمة في الدين، فمن تعاطى إصلاحها ورفع فسادها نال درجةً فوق ما يناله الصائم القائم المشتغل بخويصة نفسه..[٢].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي (٢٥٠٩) (٤/ ٦٦٣)- واللفظ له-، وأبو داود، وابن حبان، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٩٥)، و«غاية المرام» (٤١٤)، و«تخريج المشكاة» (٥٠٣٨).

(٢) «تحفة الأحوذي» (٣/ ٣٢٠).

٨٠- التجاوز عن المُعْسِر:

• عن أبي مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُوسِب رجلٌ ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلَّا أنه كان يخالط الناس – وكان موسرًا – فكان يأمر غِلمانه أن يتجاوزوا عن المُعْسِر، قال: قال الله ﷻ: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه**»[(١)].

• وروى البخاري عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**كان تاجر يداين الناسَ، فإذا رأى مُعْسِرًا قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه**»[(٢)].

□ قال الإمام النووي: «التجاوز والتجوز معناهما المسامحة في الاقتضاء والاستيفاء، وقبول ما فيه نقص يسير.. وفي هذه الأحاديث فضل إنظار المعسر، والوضع عنه، إمَّا كل الدَّيْن، وإما بعضه، من كثير أو قليل»[(٣)].

٨١- من كان سَهْلا هيِّنًا ليِّنا:

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن كان سَهْلًا هيِّنًا ليِّنًا، حرَّمهُ الله على النار**»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم، كتاب البيوع، باب فضل إنظار المعسر (٥/ ٣٢).

(٢) «صحيح البخاري»، كتاب البيوع، باب من أنظر معسرًا (٣/ ١٠).

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٠/ ٢٢٤).

(٤) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» وصححه، ورواه البيهقي في «السنن»، والطبراني في «الأوسط»، والعقيلي في «الضعفاء»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٣٨)، و«صحيح الجامع» (٦٤٨٤).

٨٢- حُسْنُ الخُلُق:

• عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما شيءٌ أثقلُ في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حسن، وإن الله لَيَبْغَضُ الفاحش البذيء**»[(١)].

□ وروى الترمذي في المصدر السابق عن عبد الله بن المبارك أنه وصف حسن الخُلق فقال: هو بسط الوجه، وبذلُ المعروف، وكفُّ الأذى.

«**ما شيء**» أي ثوابه.

«.. **من حسن الخلق**»، أي: أن الله يحبه ويرضى عن صاحبه.

«**الفاحش**»: الذي يتكلم بما يُكره سماعه، أو من يرسل لسانه بما لا ينبغي.

والبذيء: هو المتكلم بالفُحش[(٢)].

٨٣- تنفيس كُرُبات المسلمين، والتيسير عليهم، وسترهم، وطلب العلم، والذكر:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَفَّس عن مؤمن كُرْبَةً من كُرِبِ الدنيا نَفَّس الله عنه كربةً من كُرَبِ يوم القيامة. ومن يَسَّرَ على معسرٍ يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة. ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه. ومن سلك**

(١) صحيح: رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حُسن الخُلُق رقم (٢٠٠٢) (٤/ ٣٦٢) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٧٦)، و«صحيح الجامع» (٥٦٣٢).

(٢) «تحفة الأحوذي» (٣/ ١٤٥).

طريقًا يلتمس فيه علمًا سَهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة. وما اجتمع قوم في بيتٍ من بيوتِ الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلَّا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن بطَّأ به عملُه لم يسرع به نسبه»(١).

□ قال الإمام النووي: «وهو حديث عظيم، جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب..

ومعنى نَفَّس الكربة: أزالها، وفيه فضلُ قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما تيسَّر من علم، أو مال، أو معاونة، أو إشارة بمصلحة، أو نصيحة، وغير ذلك..

وفضل المشي في طلب العلم، ويلزم من ذلك الاشتغال بالعلم الشرعي، بشرط أن يقصد به وجه الله تعالى، وإن كان هذا شرطًا في كل عبادة، لكن عادة العلماء يقيدون هذه المسألة به لكونه قد يتساهل فيه بعض الناس، ويغفل عنه بعض المبتدئين ونحوهم.

قوله ﷺ: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله..**». يلحق بالمسجد في تحصيل هذه الفضيلة الاجتماعُ في مدرسة ورباط ونحوهما إن شاء الله تعالى، ويكون التقييد في الحديث خرج مخرج الغالب، لا سيما في ذلك الزمان.

«**من بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه**» معناه: من كان عمله ناقصًا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب

---

(١) رواه أحمد، ومسلم- كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٨/ ٧١)،ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجهه.

وفضيلة الآباء ويقصر في العمل[(١)].

٨٤- الاجتماع على الذِّكر:

• عن سهل بن الحنظليَّة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قومٌ على ذكرٍ فتفرَّقوا عنه، إلَّا قيل لهم: قوموا مغفورًا لكم»[(٢)].

• وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جلَسَ قومٌ يذكرون الله تعالى فيقومون، حتى يُقال لهم: قوموا قد غفر الله لكم ذنوبكم، وبُدِّلَت سيئاتكم حسنات»[(٣)].

• وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جلس قومٌ يذكرون الله تعالى، إلَّا ناداهم منادٍ من السماء: قوموا مغفورًا لكم»[(٤)].

٨٥- إفشاء السلام:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أَوَلَا أدُلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أَفشُوا السلام بينكم»[(٥)].

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/ ٢١- ٢٣).

(٢) صحيح: رواه الحسن بن سفيان عن سهل، ورواه الطبراني في «الكبير»، وأحمد في «مسنده»، والطبراني في «الصغير» عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥٠٧).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، والضياء، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦١٠).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والضياء، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٠٩).

(٥) أخرجه مسلم (٥٤)- كتاب الإيمان- باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلَّا المؤمنون.

٨٦- حُبِّ الله تعالى وحب رسوله ﷺ:

• عن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، متى الساعة؟ قال: «**وما أَعْدَدْتُ للساعة؟**»، قال: حب الله ورسوله، قال: «**فإنك مع من أحببت**»[1].

قال أنس رضي الله عنه: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشدَّ من قول النبي ﷺ: «**فإنك مع من أحببت**».

قال أنس رضي الله عنه: «فأنا أحبُّ الله رسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم».

وفي رواية: حين قال رسول الله ﷺ: «**وما أعددتَ لها؟**» قال الرجل: ما أعددتُ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقة، ولكني أحبُّ الله ورسوله.

وفي رواية: ما أعددتُ لها من كثير أحمد عليه نفسي.

٨٧- البراءة مِن الشِّرْك:

• عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشِّرْكُ فيكم أخفى من دبيب النَّمْل، وسَأَدُلُّك على شيء إذا فعلتهُ أذهب الله عنكَ صغار الشِّرْك وكبارَه، تقول: اللهم إني أعوذُ بك أن أُشرِك بكَ وأنا أعلمُ، وأستغفِرُكَ لما لا أعْلَمُ**»[2].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٦١٧١) (١٠/ ٥٥٧)- كتاب الأدب- باب علامة الحب في الله، ومسلم (٢٦٣٩) (٤/ ٢٠٣٢)- كتاب البر والصلة والآداب- باب المرءُ مع من أحبَّ.

(٢) صحيح: أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»- الأصل (٢٧٤) الرابع

٨٨- العمل الصالح في عشر ذي الحِجَّة:

• عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام» - يعني: أيام العشر - قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلَّا رجلٌ خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»[١].

٨٩- الابتلاء:

• عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نَصَب[٢]، ولا وَصَبٍ[٣] ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غمٍّ، حتى الشوكة يشاكها، إلَّا كفَّر الله بها من خطاياه»[٤].

٩٠- الصبر على من فَقَدَ بصره:

• قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، إذا أخذتُ كَرِيمَتَيْكَ، فصبرتَ واحتسبت عند الصَّدمَةِ الأولى؛ لم أرض لك ثوابًا دون

والسبعون والمائتان (٢/ ٣٧٢)، وأخرجه أحمد في «المسند» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (٤/ ٤٠٣)، وكذا الطبراني كما في «فيض القدير» (٤/ ١٧٣)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ٦٩٤) رقم (٣٧٣١).

(١) أخرجه البخاري، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، والطبراني في «المعجم الكبير» عن ابن عباس.

(٢) النَّصَب: التَّعَبُ.

(٣) الوَصَب: دوام الوجع ولزومه، ويطلقُ على التعب والفتور في البدن.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري -واللفظ له- (٦٥٤١، ٥٦٤٢) (١٠/ ١٠٣)- كتاب المرضى- باب ما جاء في كفَّارة المرض (١٠/ ١٠٣)، ومسلم (٢٥٧٣) (٤/ ١٩٩٢، ١٩٩٣)- كتاب البر والصلة- .

الجنة»[١].

• وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: مَن أذهبتُ حبيبتيْه فصبر واحتسب؛ لم أرضَ له ثوابًا دون الجنة»[٢].

٩١- من صبر على فقْدِ صَفِيِّه:

□ قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والصَفِيُّ: أعمُّ من أن يكونَ ولدًا أم غيره»[٣].

• قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: ما لِعبدي المؤمن عندي جزاءٌ، إذا قبضتُ صَفِيَّه من أهل الدنيا، ثم احتسبه؛ إلَّا الجَنَّة»[٤].

٩٢- من حَمِد الله واسترجع عند فَقْدِ الوَلَد:

• عن أبي موسى رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ماتَ وَلَدُ العَبْدِ، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم وَلَدَ عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرةَ فؤاده؛ فيقولون: نعم. فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حَمَدَك واسترجع. فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجَنَّة وسَمُّوهُ بيْتَ الحمد»[٥].

---

(١) رواه أحمد، ومسلم عن أبي أمامة.

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن أبي هريرة، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨١٤٠).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٢٤٧).

(٤) رواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة.

(٥) حسن: رواه الترمذي، وحسَّنه، وصحَّحه ابن حبان، وحَسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٩٥).

٩٣- من مات له ثلاث أو اثنان من الوَلَد:

• عن واثلة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن دفن ثلاثة من الولد، حَرَّم الله عليه النار»[(١)].

□ قال المناوي: «أيْ من أولاده ذكورًا أو إناثًا، ولعلَّ المُراد من أولاد الصُّلْبِ، ويحتمل شموله لأولاد الأولاد، «حرَّم الله عليه نار جهنمِ» بأن يدخل الجنة من غير عذاب بالكُلِيَّة»[(٢)].

• وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنكُنَّ امرأة تُقَدِّم بين يديْها ثلاثة من ولدها، إلَّا كانوا لها حجابًا من النار». قالت امرأة: واثنين؟ قال: «واثنين»[(٣)].

٩٤- الصَّلاة ببيت المقدس:

• عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان بن داود لَمَّا بنى بيت المقدس، سأل الله عَزَّ وَجَلَّ خِلالًا ثلاثة: سأل الله حُكْمًا يُصادِف[(٤)] حُكْمَه فأُوتيه، وسأل الله مُلْكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده فأوتيه، وسأل الله – حين فرغ من بناء المسجد- أن لا يأتيه أحد لا ينهزه[(٥)] إلَّا الصلاة فيه، أن يُخرجه مِن خطيئته كيوم ولدته أمُّه، أما اثنتان فقد أُعطيهما، وأرجو أن

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٣٨).

(٢) «فيض القدير» للمناوي (٦/ ١٢٦).

(٣) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم.

(٤) أيْ: يوافِق حكمه.

(٥) لا ينهزه: أي، لا يدفعه.

يكونَ قد أُعْطِيَ الثالثة»[١].

٩٥- من دَعَا إلى الهُدَى والخير:

• عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومَن دَعَا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»[٢].

• وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سَنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فعُمِل بها بعده، كُتِب له مِثْلُ أجرِ من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة فعُمِل بها بعده، كُتب عليه مثل وِزْر من عَمِل لها، ولا ينقص من أوزارهم شيء**»[٣].

٩٦- مُعَلِّمُ الناس الخير:

• قال رسول الله ﷺ: «**إن الله وملائكتَه، حتَّى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، ليُصَلُّون على مُعَلِّم الناس الخير**»[٤].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده»، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبّان، والحاكم في «المستدرك» وصححه، وأخرجه أيضًا بن خزيمة، وابن عساكر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٩٠).

(٢) رواه أحمد، ومسلم (١٠١٧)- كتاب العلم- (٤/ ٢٠٥٩)- وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٣) رواه أحمد، ومسلم (٢٦٧٤)- كتاب العلم (٤/ ٢٠٦٠)، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٤) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، والضياء عن أبي أمامة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٨٣٨).

• وقال رسول الله ﷺ: «مُعَلِّمُ الخير يستغفر له كُلُّ شيءٍ حتى الحيتان في البحرِ»[١].

٩٧- مَن خُتِم له بصيام يوم:

• قال رسول الله ﷺ: «مَن خُتِم له بصيام يومٍ دخل الجنَّة»[٢].

□ قال المناوي: «أي: مَن خَتَم عمره بصيام يوم؛ بأنْ مات وهو صائمٌ، أوْ بَعْد فِطرِه من صَوْمِه. «دخل الجنة» أيْ: مع السابقين الأوَّلين، أوْ مِنْ غير سبق عذاب»[٣].

٩٨- قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر:

• عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبرُ، تنفُض الخطايا، كما تنفُضُ الشجرة ورَقها»[٤].

□ قال المناوي: «إن سبحان الله» أي: قول سبحان الله بإخلاصٍ وحضور ذهْن، وهكذا في الباقي «والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر تنفض» أي: تُسقِط «الخطايا» عن قائلها «كما تنفض الشجرة ورقها»؛

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط» عن جابر، والبزار عن عائشة، والترمذي عن أبي أمامة، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (ص٧٩)، و«صحيح الجامع» (٥٨٨٣).

(٢) صحيح: رواه البزَّار عن حُذيفة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٢٤).

(٣) «فيض القدير» للمناوي (٦/ ١٢٣).

(٤) حسن: رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٣٦).

تحقيقًا لمحو جميع الخطايا. والمراد بهذا وما أشبهه الصغائر لا الكبائر»[١].

٩٩- قول: لا حول ولا قوة إلا بالله:

• عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «قل لا حول ولا قوة إلَّا بالله، فإنها كنزٌ من كنوز الجنة»[٢].

١٠٠- قول: سبحان الله عدد ما خلق، سبحان الله ملء..:

• عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: رآني النبي ﷺ وأنا أُحرِّك شفتي. فقال لي: «بأي شيء تُحرِّك شفتيك يا أبا أمامة؟» فقلتُ: أذكر الله يا رسول الله: فقال: «ألا أخبرك بأكثر وأفضل من ذكرك بالليل والنهار؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: «سبحان الله عددَ ما خَلَق، سبحان الله ملء ما خلق، سبحان الله عدد ما في الأرض والسماء، سبحان الله ملء ما في الأرض والسماء، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه، سبحان الله ملء ما أحصى كتابه، سبحان الله عدد كل شيء، سبحان الله ملء كل شيء، الحمد لله عدد ما خلق، الحمد لله ملء ما خلق، الحمد لله عدد ما في الأرض والسماء، والحمد لله ملء ما في الأرض والسماء، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه، والحمد لله عدد كل شيء، والحمدُ لله ملء كل شيء»[٣].

---

(١) «فيض القدير» (٢/ ٤٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٦).

(٣) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٤٩) وهو حديث صحيح كما قال محقق كتاب «فضائل الأعمال» للحافظ ضياء الدين المقدسي، حديث رقم (١١٦).

١٠١- قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مئة مرَّة:

• عن أم هانئ ﵂ قالت: مَرَّ بي رسول الله ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله قد كبرت وضعفت أو كما قالت، فمُرني بعمل أعمله وأنا جالسة. قال: «**سَبِّحي الله مئة تسبيحة، فإنها تعدل لك مئة رقبة تعتقينها من ولد إسماعيل، واحمدي الله مئة تحميدة؛ فإنها تعدل لك مئة فرس مسرجة ملجمة تحملين عليها في سبيل الله، وكبِّري الله مئة تكبيرة؛ فإنها تعدل لك مئة بدنه مقلَّدة متقبلة، وهلِّلي الله مئة تهليلة. قال أبو خلف: أحسبه قال: تملأ ما بين السماء والأرض، ولا يرفع لك إلَّا أن يأتي بمثل ما أتيت**»[(١)].

١٠٢- قول: سبحان الله العظيم وبحمده:

• عن جابر بن عبد الله ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غُرِست له بها نخلةٌ في الجنة**»[(٢)].

✍ **أخي:** إن اليوم والليلة ألفٌ وأربَعمئة وأربعون دقيقة كل دقيقة تغرس بها خمسين نخلة في الجنة بمعدل ثلاثة آلاف نخلة في الجنة في الساعة. وقد قال رسول الله ﷺ: «**ما من شجرة في الجنة إلَّا وساقها من خالص الذهب**»[(٣)]. وذهب الجنة بينه وبين ذهب الدنيا أبعد ممَّا بين السماء والأرض.

فالدنيا بذهبها وكنوزها ولآلئها لا تساوي عند الله جناح بعوضه،

---

(١) حسن: رواه أحمد، وابن ماجه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٧٨).

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وابن حبَّان، والحاكم في «المستدرك»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (ص٦٤)، و«صحيح الجامع» (٦٤٢٩).

(٣) جزء من حديث صحيح.

وساقُ النخيل يغرس في أرض من فضة ومسك وزعفران، ويُسقى من أنهار خمر ولبن وعسل وماء غير آسن، وثمره ألين من الزبد، وأحلى مذاقًا من العسل، ليس فيه عجم[١].

فانظر كم ضيَّعت من هذا الخير الوفير.

✍ **أخي:** لله در القائل: «الوقت سيفٌ، فإن قطعتَه وإلَّا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحقِّ وإلَّا شغلتك بالباطل». يا لهما من كلمتين ما أنفعهما وأجمعهما وأدلَّهما على علو همَّة قائلهما ويقظته»[٢].

ساعة لربِّك فيها فلاحُك وسعدُك وأُنْسُك:

▫ قال الشيخ أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطى المعروف بابن شيخ الحزاميين: «وليكن لنا جميعًا بين الليل والنهار ساعة نخلو فيها بربنا جل اسمه، وتعالى قدسه، نجمع بين يديه في تلك الساعة همومنا ونطرح أشغال الدنيا من قلوبنا، ونزهدُ فيما سوى الله ساعة من نهار، فبذلك يعرف الإنسان حاله مع ربه، فمن كان له مع ربِّه حال تحرَّكت في تلك الساعات عزائمه، وابتهجت بالمحبة والتعظيم سرائره، وطارت إلى العلى زفراته وكوامنه، وتلك الساعة أنموذج لحالة العبد في قبره حين خلوه عن ماله وحبِّه، فمن لم يخل قلبه ساعة من نهار لما تحوشته من الهموم الدنيوية وذوات الأصار، فليعلم أنه ليس له ثم رابطة علوية، ولا نصيب من المحبة ولا المحبوبية، فليبك على نفسه، ولا يرضَى منها إلَّا بنصيب من قُرْب ربه وأنسه، فإذا حصلت لله تلك الساعة أمكن إيقاع الصلوات

---

(١) العجم: النَّوَى.

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٢٨) وما بعدها.

الخَمس على نمطها من الحضور والخشوع والهيبة للرب العظيم في السجود والرُّكوع. فلا ينبغي لنا أن نبخل على أنفسنا في اليوم والليلة من أربع وعشرين ساعة بساعة واحدة لله الواحد القهار، نعبده فيها حق عبادته، ثم نجتهد على إيقاع الفرائض على ذلك النهج في رعايته، وذلك طريق لنا جميعًا إن شاء الله تعالى إلى النفوذ»[١].

١٠٣- صلاة ركعتيْن لا سهو فيهما:

• عن زيد بن خالد الجهني ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من توضَّأ فأحسن الوضوء، ثم صلى ركعتيْن، لا يسهو فيهما، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه»**[٢].

١٠٤- من تعارّ من الليل فدَعَا استُجِيب له، أو صلَّى قُبِلت صلاته:

• عن عبادة بن الصامت ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعارَّ[٣] من الليل، فقال حين يستيقظ: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دَعَا استُجيب له، فإن قام فتوضأ ثم صلى قُبلَت صلاته»**[٤].

---

(١) انظر إلى كتاب «العقود الدُّرِّية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية» (ص١٩٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم عن زيد بن خالد الجهني، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (ص٨٤٠)، و«صحيح الجامع» (٦١٦٥).

(٣) أي: استيقظ.

(٤) رواه أحمد، والبخاري، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

١٠٥- التسوُّك لقيام الليل:

• عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قام أحدكم يُصَلِّي من الليل فليستك، فإن أحدكم إذا قرأ في صلاته وَضَع مَلَكٌ فاه على فيه، ولا يخرج من فيه شيء إلَّا دَخَل فم المَلَك**»[(١)].

• وعن ابن شهاب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قام الرجل يتوضأ ليلًا أو نهارًا فأحسن الوضوء واستنَّ، ثم قام فصلى فأطاف به المَلَكُ ودنا منه، حتى يضع فاه على فيه، فما يقرأ إلَّا في فيه، وإذا لم يستن أطاف به، ولا يضع فاه على فيه**»[(٢)]. فاجتماع شرف القرآن وشرف الصلاة والسواك يزيد من دُنُوِّ الأرواح القدسية، وفي هذا من الفيوض الرحمانيَّة ما فيه، والذي نفسي بيده لو لم يكن في فضيلة السواك ليلًا إلَّا هذا الحديث لكفى.

١٠٦- الفضل العظيم للفاتحة أم الكتاب والقرآن العظيم:

• عن أبي سعيد بن المعَلَّى قال: مرّ بي النبي ﷺ وأنا أُصَلِّي فدعاني فلم آته حتى صَلَّيت، ثم أتيت، فقال: ما منعك أن تأتي، فقلتُ: كنتُ أصلِّي، فقال: ألم يقل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ثم قال: «**ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد**» فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكَّرته، فقال: «**الحمد لله**

---

(١) صحيح: أخرجه تمام في «فوائده»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، والضياء المقدسي في «المختارة»، ورواه عنه أبو نعيم، وقال المناوي: قال ابن دقيق العيد: رواته ثقات، وصححه السيوطي والألباني انظر «صحيح الجامع» (٧٣٣).

(٢) صحيح: أخرجه محمد بن نصر في «الصلاة» عن ابن شهاب مرسلًا. وقال الألباني في «صحيح الجامع» (ص٧٣٦) صحيح، وأخرج نحوه البيهقي في «السنن»، والضياء في «المختارة» عن علي.

رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتِيتُه»(١).

□ قال الحافظ في «الفتح»: «والمراد بالعظيم عظيم القدر بالثواب المرتَّب على قراءتها وإن كان غيرها أطول منها» اهـ.

وأنت في دقيقة واحدة تستطيع أن تقرأ الفاتحة خمس مرَّات سردًا، وعدد حروفها هو (١٢٢) حرف، فإذا قرأتها مرة واحدة يُكتَب لك ١٢٢×١٠ = ١٢٢٠ حسنة؛ لأن لكل حرف (١٠) حسنات، فإذا قرأتها خمس مرات فيكتب في صحيفة أعمالك (٦١٠ حسنة)، فإذا قرأتها دقيقة واحدة في اليوم لمدة عامٍ كامل تغنم:

٥ × ١٢٢ × ١٠ × ٣٠ × ١٢ = ٢١٩٦٠٠٠ حسنة.

وأخيرًا أكرِّر على مسامعك ثوابيْن مَرَّا بك:

ثواب قراءة القرآن كاملاً في خمسة عشر ثانية من الزمان:

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في كل ليلة؟**»، فشقَّ ذلك عليهم وقالوا: أيُّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «**الله الواحد الصمد ثلث القرآن**»(٢).

□ قال الحافظ في «الفتح»(٣): «حمله بعض العلماء على ظاهره، فقال: هي ثلث باعتبار معاني القرآن؛ لأنه أحكام، وأخبار، وتوحيد، وقد

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٧٠٣) (٨/ ٣٨١)- التفسير- سورة الحج، (٥٠٠٦)- كتاب فضائل القرآن- فضل فاتحة الكتاب.

(٢) رواه البخاري (٥٠١٥)، ومسلم (٨١١).

(٣) «فتح الباري» (٨/ ٦٨٧).

اشتملت هي على القسم الثالث فكانت ثلثًا بهذا الاعتبار..» إلخ.

ثم ذكر بعده وقال: «ومنهم من حمل المثلية على تحصيل الثواب فقال: معنى كونها ثلث القرآن، أن ثواب قراءتها يحصل للقارئ مثل ثواب من قرأ ثلث القرآن».

□ ثم قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولأبي عبيد من حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن».

وإذا حُمِل على ظاهره فهل ذلك الثلث من القرآن مُعيَّن، أوْ لأيّ ثلث فرض منه؟ فيه نظر، ويلزم على الثاني أن من قرأها ثلاثًا كان كمن قرأ ختمة»[1].

□ وقال المباركفوري في «تحفة الأحوذي»: «قلت: حديث أبي أيوب المذكور في الباب بلفظ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فقد قرأ ثلث القرآن»، صريح في أن قراءة سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل قراءة ثلث القرآن، وكذا حديث أبي هريرة الآتي في هذا الباب يدلان على ذلك.

• وقوله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ **تعدل ثلث القرآن**» يُحمَل على أن قراءتها تعدل قراءة ثلث القرآن، ويحصل لقارئها ثواب قراءة ثلث القرآن، فالروايات بعضها يُفسِّر بعضًا. هذا ما عندي والله أعلم»[2] اهـ.

ففي ضوء شرح الحديث المذكور، ونظرًا على قول الحافظ المذكور وهو: «ويلزم على الثاني أن من قرأها ثلاثًا كان كمن قرأ ختمة كاملة إذا كان صحيحًا، فمشجعًا للقارئ الكريم على قراءة سورة الإخلاص أي

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٦٧٩).

(٢) «تحفة الأحوذي» (٨/ ١٦٨).

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ نقول: نستطيع بسهولة قراءتها (١٢) مرة في دقيقة واحدة، وتكون قد حصلت على أجر أربع ختمات من القرآن الكريم بإذن الله ورحمته سبحان.

والحديث المذكور هو الدليل من السُّنَّة على صحَّة هذا الأسلوب من الطرح في الدقيقة الواحدة ثواب أربع ختمات من القرآن الكريم

في الشهر ٣٠ × ٤ = ١٢٠ ختمة

في السنة ١٢٠ × ١٢ = ١٤٤٠ ختمة

فانظر كم حرفًا في القرآن الكريم، وكم حرفًا في (١٤٤٠) ختمة للقرآن في دقيقة واحدة يوميًّا على مدار السنة.

✍ **أخي الحبيب:** تستطيع أن تصلي على نبيك ﷺ (٥٠) مرة في الدقيقة فيصلي عليك الله بها (٥٠٠) مرة؛ لأن الصلاة الواحدة بعشر أمثالها.

• وقد مرَّ حديث رسول الله ﷺ: «**من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشر صلوات، وحطَّ عنه بها عشر سيئات، ورفع بها عشر درجات**»[(١)].

ففي دقيقة واحدة يوميًّا لمدة عام كامل يكون في ميزان حسناتك:

٥٠٠ × ٣٠ × ١٢ = ١٨٠٠٠٠ حسنة ورحمة، ومثلها محو سيئات، ومثلها رفع درجات.

❐ قال سهل بن عبد الله التستري: «الصلاة على محمد ﷺ أفضل

(١) صحيح: أخرجه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم في «المستدرك» وصحَّحه وأقرَّه الذهبي.

العبادات؛ لأن الله تعالى تولّاها هو وملائكته، ثم أمر بها المؤمنين، وسائر العبادات ليست كذلك»اهـ.

يا عالي الهمة.. هذا كنز الكنوز أزفّه إليك فلا تنسني يوم القيامة لكرامة الدّلال:

• عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة**»(١).

تقول: «اللهم اغفر للمؤمنين، والمؤمنات» في ثانيتين، وعدد المسلمين مليار ونصف، وأنت تقولها في الدقيقة الواحدة ثلاثين مرة، وفي السنة ٣٠× ٣٠ × ١٢ = ٧٢٠٠ مرة والحسنة بعشر أمثالها أي في السنة= ٧٢٠٠ مرة × ١٠ × ١٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ =٧٢٠٠٠ × ١.٥ مليار= ١٠٨.٠٠٠ مليار حسنة.

✍ أي أنك لو قلت: «اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات» لمدة دقيقة واحدة في اليوم لمدة سنة واحدة تكسب (١٠٨) ألف مليار حسنة.. فيا لله يا لله يا لله مِن نفس عَلِيَّة ذات هِمَّة ثانية تفعل في اليوم بل أضاعفه وتواظب على ذلك طيلة عمرها

لَـكَ الحمـدُ حمـدًا نَـسْتَلِذُّ بـه ذِكْـرَا ... وإنْ كنتُ لا أُحْـصِي ثنـاءً ولا شُـكْرَا

لَـكَ الحمـدُ حمـدًا طيِّبـا يمـلأُ الـسَّمَا ... وأقطارَهـا والأرضَ والـبَرَّ والبَحْـرَا

لَـك الحمـدُ حمـدًا سَرْمَـدِيًّا مُبَارَكًـا ... يَقِلُّ مِـدادُ البحـرِ عـن كُنْهِـهِ حَـصْرَا

---

(١) مرّ تخرجه وقد حسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٢٦)، وقال الهيثمي: إسناده جيد كما في «فيض القدير» و«مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٠).

لَـكَ الحَمـدُ تعظـيمًا لوجهِـكَ قـائمًا ... بحقـك في الـسَّرَاءِ مني وفي الـضَرَّا

لَـكَ الحمـدُ مقرونًـا بـشكرِك دائـمًا ... لك الحمدُ في الأولى لك الحمدُ في الأخرى

لَـك الحمـد موصـولًا بغـير نهايـةٍ ... وأنـتَ إلهـي مـا أَحَـقَّ ومـا أَحْـرَى

لك الحمـدُ يـا ذا الكبريـاءِ مَـنْ يَكُـن ... بحمدك ذَا شُكْرٍ فَقَـدْ أحـرزَا الـشُّكْرَا

لَـك الحمـدُ حَمْـدًا لا يُعَـدُّ لَحـاصِرٍ ... أَيُحْصِي الحَصَى والنبتَ والرملَ والقَفْـرا

لَـك الحمـدُ أضـعافًا مـضاعفةً عَـلَى ... لطـائِفَ مـا أحـلى لـدينا ومـا أمْـرَا

لكَ الحمـدُ مـا أَوْلَاك بالحمـدِ والثَّـنَا ... عـلى نِعَـم أَتْبعْتَهـا نِعَـمًا تَـتْرَى

لَـك الحمـدُ حمـدًا أنـتَ وفَّقْتَنَـا لَـهُ ... وعَلَّمْتَنَـا مِـن حَمْـدِك الـنَّظْمَ والنَّثْـرَا

لَـكَ الحمـدُ حَمْـدًا نَبْتَغِيـهِ وَسِـيلةً ... إليـكَ لتجديـدِ اللَّطـائِفِ والبُـشْرَى

الهمَّةُ العَلِيَّة العالية:

«إنَّ الهمَّة العالية خصلة شريفة، وخلَّة حميدة، وخلق رفيع، وأدب سامٍ، تتعشقها قلوب الكرم، وتهفو إلى اكتسابها نفوس الأبطال.

والناس إنما تعلو أقدارهم، وترتفع منازلهم بحسب أنصبتهم من علو الهمة، وشرف المقصد.

فمن علت همته اتصف بكل جميل، ومن دنت همته اتصف بكل خلق رذيل.

فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلَّا بأعلاها، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها.

والهمة العالية لا تزال بصاحبها، تضربه بسياط اللوم والتأنيب،

وتزجره عن مواقف الذل واكتساب الرذائل، وحرمان الفضائل – حتى ترفعه من أدنى دركات الحضيض إلى أعلى مقامات المجد والسؤدد.

والهمة العالية – أيضًا- ترفع القوم من سقوط، فتبدلهم بالخمول نباهة، وبالحطة رفعة، وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية؛ ذلك أن علو الهمة يستلزم الجد والإباء، ونشدان المعالي، وتطلاب الكمال، والترفع عن الدنايا، والصغائر، ومحقرات الأمور»(١).

أصناف الناس في شأن الهمة:

«الناس في شأن الهمة على أربعة أصناف:

أحدهم: رجل يشعر بأن فيه الكفايةَ لعظائم الأمور، ويجعل هذه العظائمَ هِمَّتَه.

وهذا مَنْ يسمى «عظيم الهمة»، أو «عظيم النفس»، أو «كبير الهمة»، أو «كبير النفس».

ثانيهم: رجل فيه الكفاية لعظائم الأمور، ولكنه يبخس نفسه، فيضع همه في سفساف الأمور، وصغائرها.

وهذا من يسمى «صغير الهمة»، أو «صغير النفس».

ثالثهم: رجل لا يكفي لعظائم الأمور، ويحس بأنه لا يستطيعها، وأنه لم يخلق لأمثالها، فيجعل همته وسعيه على قدر استعداده.

وهذا الرجل بصير بنفسه، متواضع في سيرته.

رابعهم: لا يكفي للعظائم، ولكنه يتظاهر بأنه قوي عليها، مخلوق لأن

(١) «الهمة العالية مُعَوِّقاتُها ومقوِّماتُها» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص٧)– دار القاسم.

يحمل أثقالها.

وهذا من يسمونه «فخورًا»، وإن شئت فَسَمِّهِ «مُتَعَظِّمًا»..»[(١)].

اختلاف الهمم[(٢)]:

يختلف الناس في هممهم، وأمانيهم، وشهواتهم؛ فمنهم من تسمو همته، ومنهم من تدنو، ومنهم من هو بين بين.

□ وفيما يلي أمثلة لذلك[(٣)]:

١ - اجتمع عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبد الملك بن مروان بفناء الكعبة؛ فقال لهم مصعب: تمنوا، فقالوا: ابدأ أنت، فقال: ولاية العراق، وتَزَوُّجَ سكينةَ ابنة الحسين، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله، فنال ذلك، وأصدَقَ كلَّ واحدةٍ خمسمئة ألف درهم، وجهزها بمثلها.

وتمنى عروة بن الزبير الفقه، وأن يحمل عنه الحديث، فنال ذلك.

وتمنى عبد الملك الخلافة فنالها.

وتمنى عبد الله بن عمر الجنة!.

---

(١) «رسائل الإصلاح للعامة» للشيخ محمد الخضر حسين (٢/ ٨٧).

(٢) نقلًا عن «الهمة العالية» لمحمد بن إبراهيم (ص١٩- ٢١).

(٣) انظر: «وفيات الأعيان وأنباء وأبناء الزمان» لابن خلكان (٣/ ٢٩- ٣٠)، وانظر «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٢٥٨- ٢٥٩)، و«بهجة المجالس وأنس المجالس» لابن عبد البر (١/ ١١٧- ١٢٧)، وانظر «المحاسن والمساوئ» لإبراهيم البيهقي (ص٣٠٦- ٣٠٩)، وكتاب «الفاضل في صفة الأدب الكامل» لأبي الطيب محمد والوشاء (ص١٩٢- ١٩٥)، تحقيق د. يحيى الجبوري.

٢- قال قتيبة بن مسلم لحصين بن المنذر: «ما السرور؟ قال: امرأة حسناء، ودار قوراء [١]، وفرس مرتبط بالفناء».

٣- قيل لضرار بن الحسين: ما السرور؟ قال: لواء منشور، وجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير.

٤- وقيل لعبد الملك بن الأهتم: ما السرور؟ فقال: رفع الأولياء، وحطُّ الأعداء، وطول البقاء مع القدرة والنماء.

٥- وقال آخر:

أطيبُ الطيباتِ قتلُ الأعادي ... واختيالٌ على متون الجياد

وأيادٍ حبوتهن كريمًا ... إن عند الكريم تزكو الأيادي

٦- قيل لبعض الحكماء: تمنَّ، قال: محادثةَ الإخوانِ، وكفافًا من عيش يسد خَلَّتي، ويستر عورتي، والانتقال من ظل إلى ظل.

٧- وقيل لآخر: ما بقي من ملاذِّك؟ قال: مناقلةُ الإخوانِ الحديثَ على التلاع العُفْر في الليالي القُمْرِ.

٨- قيل لامرئ القيس: ما أطيب العيش؟ قال: بيضاء رعبوبة [٢]، بالطيب مشبوبة [٣]، بالشحم مكروبة [٤].

٩- وقيل لطرفة مثل ذلك فقال: «مطعم شهيٌّ، وملبس دفيٌّ، ومركب وطيٌّ».

---

(١) دار قوراء: واسعة الجوف.

(٢) الرعبوبة: البيضاء الحسنة الرطبة.

(٣) مشبوبة: قد ظهر حسنها وأشرق لونها.

(٤) المكروبة: المفتولة المشبوبة.

١٠- وقيل للأعشى مثل ذلك فقال: «صهباءُ صافيةٌ، تمزجها ساقية، من صوب غادية».

١١- وقيل لَمَلِكٍ: ما السرور؟ فقال: «حِمًى ترعاه، وعدوٌّ تنعاه».

١٢- وقيل لراهب: ما السرور؟ قال: «الأمان من الوجل إذا انقضت مدة الأجل».

١٣- وقيل لمظلوم: ما السرور؟ قال: «كفايةٌ ووطنٌ، وسلامةٌ وسكن».

١٤- وقيل لمغنٍّ: ما السرور؟ قال: «مجلسٌ يَقِلُّ هذرُه، وعودٌ يصفو وتره، وعقول تفهم ما أقول».

١٥- وقيل لورَّاق: ما السرور؟ قال: «جلودٌ وأوراق، وحبر برَّاق، وقلم مشَّاق».

١٦- وقيل لبعضهم: ما السرور؟ قال: بنون أغيظ بهم عداتي، ولا تُقرع معهم صَفاتي»[١].

١٧- وقيل لفتاة: ما السرور؟ قالت: «زوجٌ يملأ قلبي جَلالًا، وعيني جَمالًا، وفنائي جِمالًا».

١٨- وقيل لطفيلي: ما السرور؟ فقال: «نَدامى تسكن صدورهم، وتغلي قدورهم، ولا تغلق دورهم».

١٩- وقيل لقانص: ما السرور؟ فقال: «قوس مأطورة[٢]، وشُرعة

---

(١) الصفاة: الصخرة الملساء، يعني لا يمسني أحد بسوء.

(٢) مأطورة: من أطرْت القوس إذا حنيتها فهي محنية.

مشزورة [١]، ونبال مطروة [٢]».

٢٠- وقيل لمحبوس: ما السرور؟ فقال: «فكاك يَفْجَأ، وإطلاق لا يرزأ».

٢١- قال محمد الخضر حسين:

ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى لفتَّشتُ عن وادٍ أعيش به وحدي [٣]

٢٢- وقال:

أنا لولا همةٌ تحدو إلى خدمة الإسلام آثرتُ الحماما [٤]

وهكذا تتفاوت الهمم، وتختلف الشهوات والأماني؛ فَكُلٌّ يعملُ على شاكلته، ولِكُلٍّ وجهةٌ هو مُوَلِّيها» اهـ.

علو الهمة:

«هذا الخلق يسمو بصاحبه «فيتوجه به إلى النهايات من معالي الأمور؛ فهو الذي ينهض بالضعيف يُضطهد أو يزدرى فإذا هو عزيز كريم.

وهو الذي يرفع القوم من سقوط، ويبدلهم بالخمول نباهة، وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية.

هذا الخلق هو الذي يحمي الجماعة من أن تتملق خصمها، وتسل يدها من أسباب نجاتها ومنعتها.

---

(١) شرعة مشزورة: الوتر مشدود على القوس.

(٢) نبال مطرورة: ذات طُرَّة وهيئة حسنة.

(٣) «خواطر الحياة» لمحمد الخضر حسين (ص٩١).

(٤) «خواطر الحياة» (ص٢٣٣).

أما صغير الهمة، فإنه يبصر بخصومه في قوة وسطوة، فيذوب أمامهم رهبة، ويطرق إليهم رأسه حطة، ثم لا يلبث أن يسير في ريحهم، ويسابق إلى حيث تنحط أهواؤهم»[١].

نعم يورد هذا الخلق صاحبه موارد التعب والعناء، ولكن التعب في سبيل الوصول إلى النهاية من معالي الأمور يشبه الدواء المر، فيسيغه المريض كما يسيغ الشراب عذبًا باردًا..

تلـذ لـه المـروءة وهـي تُـؤْذِي ومـن يعـشق يلـذ لـه الغـرام[٢]

«فالمكارم منوطة بالمكاره، والسعادة لا يعبر إليها إلَّا على جسر المشقة، فلا تُقطع مسافتها إلَّا في سفينة الجد والاجتهاد»[٣].

فعظيم الهمة قد يشتد حرصه على الشرف، حتى لا يكاد يشعر بما يلاقيه في سبيله من أنكاد وأكدار.

بل ربما كان الشرف الذي يركب له الأخطار والشدائد أعزَّ وقعًا، وأدلَّ على عظم همته من الشرف الذي يناله بيسر وسهولة..

ومـن تكـن العليـاءُ همـةَ نفسـه فكل الـذي يلقـاه فيهـا محبَّـب[٤]

ولذلك فعظيم الهمة يستخف بالمرتبة السفلى، أو المرتبة الوسطى من معالي الأمور؛ فلا يهدأ له بال، ولا يقر له قرار إلَّا حين يضع نفسه في

---

(١) «رسائل الإصلاح» (٢/ ٨٨).

(٢) «ديوان المتنبي» (٤/ ٧٥).

(٣) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ١٠٩).

(٤) «ديوان البارودي» (ص٤٣).

أسمى منزلة، وأقصى غاية[١].

□ وإلى هذا المعنى يشير قول نابغة بني جعدة:

بلغنا السما مجدًا وجودًا وسؤددًا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا[٢]

□ وكما قال الآخر:

وما أنا راضٍ أنني واطئ الثرى   ولي همة لا ترتضي الأفق مقعدا

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه؛ فلو كان يتصور للآدمي صعود السموات لرأيت من أقبح النقص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض، غير إنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن.

والسيرةُ الجميلة عند الحكماء خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل»[٣].

ثم إن عظيم الهمة لا يشغل باله أمر صغير، ولا يقلق فكره عمل يسير، بل يقوم بجلائل الأعمال التي تتعصى على أولي القوة من الرجال، ومع ذلك فلا يتبرم، ولا يقلق، ولا يشكو كثرة الأعباء.

له قلب لا يتعب فلا يبلغ منزلة إلَّا ابتدأ التعب؛ لِيَبْلُغَ منزلة أعلى منها، وله فكرٌ كلما جهد فأدرك حقيقة كانت الحقيقة أن يجهد فيدرك غيرها[٤].

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

---

(١) انظر: «رسائل الإصلاح» (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٢) «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد القرشي (ص٣٦٤).

(٣) «صيد الخاطر» (٢/ ٢٢٤).

(٤) انظر: «وحي القلم» (٢/ ٨٣).

وتكبر في عـين الـصغير صـغارها وتصغر في عـين العظـيم العظـائم

ولقد جَرَتْ سنة الله في خلقه ألا ينهض بأصر المقاصد الجليلة، ويرمي إلى الغايات البعيدة – غيرُ النفوس التي عظم حجمها، وكبرت هممها، فلم تتعلق إرادتها بسفاسف الآمال، ولا محقرات الأعمال»[١].

فإذا كان هذا الخلق الرفيع لا يقع إلَّا على معالي الأمور – فلا عظمة لهمم قوم يبتغون النهاية في زينة هذه الحياة، ويغرقون في التمتع بملذاتها المادية، كهؤلاء الذين يسرفون في الملابس المنمقة، والمطعومات الفاخرة، والمباني الشاهقة؛ فإن ذلك لا يعد فيما تتسابق فيه الهمم من مالي الأمور[٢].

وإن كان في لبس الفتـى شرف لـه فما السيف إلَّا غمـدُه والحمائـل[٣]

□ فإذا كان علو الهمة بتلك المكانة السامقة، والمنزلة العالية – فما أجدر العاقل اللبيب أن يعلي من همته، وأن يرفع من قدره، وأن يتطلب المعالي، ويسعى لها سعيها، وألا يقصر عنها، ولا يقعد دون نيلها؛ فإن علو الهمة مما يفتخر به، وسفول الهمة مما يذم ويعاب به، قال الشوكاني:

كـــن ناســـكًا تبـــتلا أو رائـــســًا تـــبجلا

وعـــدِّ عـــن مُحَمَّـــقٍ قَـــصَّر عـــن أن ينـــبلا

يـــصده قُعُـــودُهُ وعَجْـــزُهُ عـــن العـــلا[٤]

(١) انظر: «حياة الأمة» (ص٥٢٩)، و«السعادة العظمى» (ص٢٠٩).

(٢) انظر: «رسائل الإصلاح» (٢/ ٨٦).

(٣) «شرح ديوان سقط الزند» للمعري (ص٥٧).

(٤) ديوان الشوكاني «أسلاك الجوهر» (ص٣٠٢).

□ وهذا أبو فراس الحمداني يمدح نفسه، ويفتخر بعلو همته فيقول:

إني أبيت قليل النوم أرّقني ... قلب تصارع فيه الهَمُّ والهِمَمُ [١]

□ وهذا أبو الطيب المتنبي يفخر بعلو همته، واشتغاله بالجد والتشمير فيقول:

لولا العلا لم تَجُبْ بي ما أجوب بها ... وجناءُ حرفٌ ولا جَرْدَاءُ قَيْدُودُ

وكان أطيبَ من سيفي مضاجعةً ... أشباهُ رونقة الغيد الأماليدُ

لم يترُكِ الدهرُ من قلبي ولا كبدي ... شيئًا تُتَمِّمه عينٌ ولا جيدُ [٢]

□ وهذا علي بن المقرب العيوني يقول:

يُشَيِّعُني قلبٌ إلى العز تائقٌ ... ونفسٌ إلى العليا شديدٌ نزوعُها

أُشَرِّفها من أن يكون إباؤها ... لواجب حقٍّ أو لِضَيْمٍ خنُوعُها

وما أنا في السراء يومًا فَرُوْحُها ... ولا أنا في الضراء يومًا جزوعُها

سأنزلها الملحودَ أو رأسَ هضبةٍ ... من العزِّ يعيي كلَّ راقٍ طُلوعُها

وما طلبي العلياءَ إرثُ كلالةٍ ... فَيقْصُر خطوي دونها فأسوعُها [٣]

عليَّ لها سعيُ الكرام فإن أَمُتْ ... فَوَهابُها سَلّابُها ونَزُوعُها [٤]

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني (ص١٥٦).

(٢) ديوان «المتنبي» (ص٣٩، ٤٠).

(٣) أسوعها: أهملها.

(٤) علي بن المقرب العيوني حياته – شعره، (ص٢٢٧).

□ وهذا البارودي يقول:

سواي بتحنان الأغاريد يطرب ... وغيري باللذات يلهو ويعجبُ

وما أنا ممن تأسِرُ الخمرُ لبَّه ... ويملك سمعيه اليراعُ المثقبُ

ولكن أخو هَمٍّ إذا ما ترجحت ... به سورةٌ نحو العلا راح يدأب

نفى النوم عن عينيه نفسٌ أبيَّةٌ ... لها بين أطراف الأسنة مطلب (١)

□ قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ حاثًّا على علو الهمة: «وينبغي لمن كان صادق الرغبة، قوي الفهم، ثاقب النظر، عزيز النفس، شهم الطبع، عالي الهمة، سامي الغريزة - ألا يرضى لنفسه بالدون، ولا يقنع بما دون الغاية، ولا يقعد عن الجد والاجتهاد المبلغين له إلى أعلا ما يراد، وأرفع ما يستفاد؛ فإن النفوس الأبية، والهمم العلية لا ترضى بما دون الغاية في المطالب الدنيوية من جاه، أو مال، أو رئاسة، أو صناعة، أو حرفة، حتى قال قائلهم المتنبي:

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم

□ وقال آخر مشيرًا إلى هذا المعنى:

إذا ما لم تكن مَلِكًا مطاعًا ... فكن عبدًا لخالقه مطيعا

وإن لم تملك الدنيا جميعًا ... كما تهواه فاتركها جميعا

هما شيئان من مُلْكٍ ونُسْكٍ ... ينيلان الفتى شرفًا منيعا

---

(١) ديوان البارودي (ص٤٢).

□ وقال آخر:

فإما مكان يضرب النجم دونه سرادقه أو باكيًا لحمام

وقد ورد هذا المعنى كثيرًا في النظم والنثر، وهو المطلب الذي تنشط إليه الهمم الشريفة، وتقبله النفوس العلية»[1]..»اهـ[2].

الهِمَّة العالية وشرف المقصد:

□ قال الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد[3]: «الهمة العالية خلق سام، ومسلك رائع، تحبه النفوس، وتهفو إليه القلوب.

وأجمل ما في ذلك الخلق وأروع ما فيه – ما كان مقترنًا بشرف المقصد، ونبل الهدف والغاية.

فالناس تتفاوت هممهم رفعة وضعة، وتختلف مشاربهم عُلُوًّا وحِطَّة.

ولكن الشأن كل الشأن فيمن جمع إلى علو الهمة شرفَ المقصد، ونبلَ الهدف والغاية.

وإذا علمت نفسٌ طاب عنصرُها، وشرف وجدانها أن مطمح الهمم إنما هي غاية وحياة وراء حياتها الطبيعية – لم تقف بسعيها عند حد غذاء يقوتها، وكساء يسترها، ومسكن تأوي إليه.

بل لا تستفيق جهدها، ولا يطمئن بها قرارها إلَّا إذا بلغت مجدًا يصعد بها إلى أن تختلط بكواكب الجوزاء[4].

(١) «أدب الطلب ومنتهى الأرب» (ص١٢٧).

(٢) «الهمة العالية» (ص١٠٧- ١١٢).

(٣) المصدر السابق (ص١١٣- ١١٧).

(٤) «الحرية في الإسلام» (ص١٠).

ولا ريب أن أعلا المطالب، وأشرف المكاسب – هو ما كان لله وفي سبيل الله – تبارك وتعالى –.

ولذلك «لما كان مجد الآخرة أعظم المجد – كان ابتغاؤه أعظم الغايات، وكان هو الهمَّ الأكبر للمؤمنين الصادقين ذوي الهمم العالية، والنفوس الكبيرة الزكية.

أما الدنيا فإنها في نظرهم – مهما بلغت أمجادها – قليلة القيمة في جنب الآخرة؛ لذلك فهم يحاولون أن يبتغوا فيما آتاهم الله الدار الآخرة، مع أنهم لا ينسون نصيبهم من الدنيا»[١].

فاستصغار متاع الدنيا، وتحقير لذائذها في نفوس الناس يرفعهم عن الاستغراق فيها، ويكبر بهممهم عن جعلها قبلةً يولون وجوههم شطرها حيثما كانوا.

وقد بيَّن لنا العيان أن الإنسان متى عكف على ملاذ الدنيا، ولم يَصْحُ فؤاده عن اللهو بزخارفها – ماتت عواطفه، ونسي أو تناسى من أين تؤتى المكارم والمروءة، ودخل مع الأنعام في حياتها السافلة.

ولا يعني التزهيد والحط من متاع الحياة الدنيا ترغيب الإنسان ليعيش مجانبًا للزينة، ميت الإرادة عن التعلق بشهواته على الإطلاق.

وإنما يقصد من ذلك حِكَمٌ أخرى، ومنها تعديل الأنفس الشاردة، وانتزاع ما في طبيعتها من الشره والطمع؛ لئلا يخرجا بها عن قصد السبيل، ويَتَطَوَّحا بها في الاكتساب إلى طرق غير لائقة[٢].

---

(١) «الأخلاق الإسلامية» (٢/ ٤٧٥).

(٢) انظر: «الحرية في الإسلام» (ص٣٨).

ولذلك فالمؤمنون الصادقون لا يدنسون أنفسهم بالدناءات ومحقرات الأمور، ولا يريقون ماء وجوههم في سبيل الحصول على عرض من أعراض الدنيا، ولا يفنون أعمارهم ويبددون طاقاتهم بحثًا عن منصب أو جاه أو مُلك، يكون غايتَهم، ومنتهى طموحهم.

بل يرون أن الآخرة هي أولى بأن تُبتغى، ويُسعى لها سعيها؛ فنعيمها خير وأبقى، وملكها ملك لا ينقطع ولا يبلى.

* قال تعالى مخبرًا عن بعض ما يناله أهل الجنة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ [الإنسان].

فما ظنك بنعيم وملك وصفه الله بأنه كبير؟!.

• وقال النبي ﷺ: **«لَمَوْضعُ سوطِ أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها»**[1].

ولهذا فكلما علت همة الإنسان كانت مطالبه أسمى، وصغرت في عينه المطالب الدنيا، فلا يَكْلَفُ بها كثيرًا، ولا يتتبعها إلَّا بمقدار الحاجات[2].

□ قيل للعتابي: «فلان بعيد الهمة، قال: إذًا ليس له غاية دون الجنة»[3].

□ قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تبذل نفسك إلَّا فيما هو أغلى منها، وليس ذلك إلَّا في ذات الله عَزَّ وَجَلَّ في دعاء إلى حق، وفي حماية الحريم، وفي رفع هوان لم يوجبه عليك خالقك -تعالى- وفي نصر مظلومٍ.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١٧٠).

(٢) انظر: «الأخلاق الإسلامية» (٢/ ٤٧٥).

(٣) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٣).

وباذلُ نفسِه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصى»[١] .

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وجدت العمل للآخرة سالمًا من كل عيبٍ، خالصًا من كل كدر، موصلًا إلى طرد الهم على الحقيقة.

ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يُسَر؛ إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب، وزايد في الغرض الذي إياه يقصد.

ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم؛ إذ ليس مؤاخذًا بذلك؛ فهو غير مؤثر في ما يطلب.

ورأيته إن قُصد بالأذى سُرَّ، وإن نكبَتْه نكبةٌ سر، وإن تعب فيما سلك سُرَّ؛ فهو سرور أبدًا، وغيره بخلاف ذلك أبدًا»[٢] .

□ وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن رغَّب في علو الهمة، وبيَّن فضل الهمة العالية، وأن النفوس الأبية تسعى إليها وتتطلبها في شتى المطالب الدنيوية – قال: «وإذا كان هذا شأنهم في الأمور الدنيوية التي هي سريعة الزوال، قريبة الاضمحلال- فكيف لا يكون ذلك من مطالب المتوجهين إلى ما هو أشرف مطلبًا، وأعظم مكسبًا، وأرفع مرادًا، وأجل خطرًا، وأعظم قدرًا، وأعود نفعًا، وأتم فائدة؟

* وهي المطالب الدينية مع كون العلم أعلاها، وأولاها بكل فضيلة، وأجلها وأكملها في حصول المقصود، وهو الخير الأخروي؛ فإن الله سبحانه قد قرن العلماء في كتابه بنفسه وملائكته فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ

---

(١) «الأخلاق والسير» (ص١٦).

(٢) «الأخلاق والسير» (ص١٥، ١٦).

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران].

* وقصر الخشية له التي هي سبب الفوز لديه عليهم فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

* وأخبر عباده بأنه يرفع علماء أمته درجات، فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

• وأخبرنا رسول الله ﷺ: «**بأن العلماء ورثة الأنبياء**»(١).

---

(١) هذا جزء من حديث رواه أبو الدرداء رضي الله عنه ولفظ الحديث: «**وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورَّثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقًا يطلب به علمًا سهل الله به طريقًا إلى الجنة**».
والحديث أورده الإمام البخاري في «صحيحه» في باب العلم قبل القول والعمل (١/ ٢٥)، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٩٦)، وأبو داود (٤/ ٥٧) (٣٦٤١)، والترمذي (٥/ ٤٨) (٢٦٨٢)، وابن ماجه (١/ ٨١) (٢٢٣)، والدارمي في «سننه» (١/ ٢٠٨)، وابن حبان في «صحيحه» (١/ ٢٨٩) (٨٨) وغيرهم كثير.
من طريق عاصم بن رجاء بن حيوة، عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء الحديث بطوله.
وقد اختلف الرواة في إسناده، ومن ثم اُختلف في درجته.
فنقل ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٣٤) عن حمزة الكناني أنه حسنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ٢٨٩) (٨٨)، وحسنه في «صحيح الترغيب والترهيب» (ص٣٣) (٦٨).
وقال الدارقطني في «العلل» (٦/ ٢١٦) (٦١٧٣) وعاصم بن رجاء ومن فوقه إلى أبي الدرداء ضعفاء، ولا يثبت.
وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢/ ٤) (٢٥٩٩): دواد بن جميل حديثه مضطرب، وضعفه الأزدي، وداود لا يعرف كشيخه، وقال الدارقطني في «العلل»: عاصم ومن فوقه ضعفاء، ولا يصح. اهـ.

وناهيك بهذه المزية الجليلة، والمنقبة النبيلة.

فأكرم بنفسٍ تطلب غاية المطالب في أشرف المكاسب، وأحبب برجل أراد من الفضائل ما لا تدانيه فضيلة، ولا تساميه منقبة، ولا تقاربه مكرمة»[(١)].

عَوْدٌ على بدء:

كيف تعلو الهمم؟:

نُجْمِل هنا ما سبق ذكره من أسباب علو الهمَّة ونضيف إليه المزيد:

١ – الإخلاص.

٢– الصدق.

٣– البصيرة.

٤ – العِلْمُ.

٥ – اليقظة.

٦– الخروج عن المألوف والعادات.

٧– التفكُّر.

٨– الاجتهاد في حَصْر الذهْن، وتركيز الفِكْرِ في معالي الأمور.

٩– القصْد وصدق الإرادة.

١٠– العزم على الكمالات.

١١– الغيْرة.

(١) «أدب الطلب» (ص١٢٨).

١٢ – الدعاء.

١٣ – التنافس والتنازع بين الشَّخْص وهمّته.

١٤ – الحرص على الوقت.

١٥ – اعتراف المرء بقصور همَّته.

١٦ – مجاهدة النفس.

١٧ – قصر الأمل، وكثرةُ ذِكْرِ الموتِ.

١٨ – الزُّهْدُ في الدنيا.

١٩ – معرفة قيمة النَّفْس.

٢٠ – الابتعاد عن كُلِّ ما شأنه الهبوط بالهمَّة.

٢١ – مراجعةُ جَدْولِ العمل اليومي، والعزلة قليلًا، ومراعاةُ الأَوْلَوِّياتِ الأَهَمُّ فالمُهِمِّ.

٢٢ – كمالُ العقلِ.

٢٣ – التحوُّل عن البيئة المُثَبِّطة.

٢٤ – مصاحبة أصحاب الهمم العَالِية.

٢٥ – قراءة تراجمِ وسِيَرَ سَلَف الأمة.

٢٦ – الصَّبْرُ والمثابرَة.

٢٧ – الخُلْوَة.

٢٨ – واقعُ المسلمين المُرُّ والمؤلم يصنَعُ الرجالَ ويُعْلِي الهمم.

٢٩ – سَبْرُ فقهِ الابتلاءِ والدَّعْوَةِ.

٣٠ – كونُ الداعية على عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، وفهمه لمعنى

التوكُّلِ.

٣١- وصايا الربَّانيين ونصائحهم.

٣٢- ذكرُ الجنة والنار دوامًا وجعْلُهما نصْبَ العيْن يدفع إلى علو الهمم.

٣٣- جَعْلُ الهَمِّ هَمًّا واحدًا وجعْله في الله تعالى.

ونضيف الآتي:

٣٤- العفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان:

العفوُ إسقاط حقِّك جودًا، وكرمًا، وإحسانًا، وهو لا يزيد المرء إلَّا عِزًّا كما أخبر الصادق الأمين ﷺ، وإنما يتفاضل الناس في السماحة والسيادة على قدر تدبرهم للعواقب، وإسكاتهم الغَضبَ إذا طغى.

▢ قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «أحبُّ الأمور إلى الله ثلاثة: العفو عند المقدِرة، والقصدُ في الجدة، والرِّفق في العَبَدة»[(١)].

▢ وعن داود بن الزبرقان قال: «لا ينبل الرَّجُل حتى يكون فيه خصلتان: العِفَّة عمَّا في أيدي الناس، والتجاوز عنهم»[(٢)].

٣٥- التواضع:

والتواضع دليل على كِبَر النَّفْسِ، وعلو الهمَّة، وهو -في الوقت نفسه- سبيل لاكتساب المعالي، والتَّرقِّي في الكمالات، وينأى بصاحبه عن الاستنكاف من قبول الحق والأخذ به.

---

(١) «روضة العقلاء» (ص١٣١).

(٢) المصدر السابق (ص١٣١).

□ قال عبد الله بن المبارك: «كان يُقال: الغِني في النفس، والكرم في التقوى، والشرف في التواضع»[١].

□ ولله در القائل:

وأحسنُ أَخلاقِ الفتى وأتمُّها تواضعُه للنَّاسِ وهو رفيعُ

٣٦- الإنصاف:

وهو خلق رفيع، وأدب سامٍ، يَدُلُّ على كرم النَّفْس، وصفاءِ السريرة، والبعد عن الأثرة. وهو من الخِصالِ التي لا تنبتُ إلَّا في نفْسٍ زكيَّة كريمة نبتت في بيئة صالحة[٢].

فبالإنصاف يقوى الفَهْم، ويتسع الأفق، ويعلو القدر، ويسود الود وتقوى الصِّلات[٣].

قَدِمَ ابن عمر رضي الله عنهما مكة، فسألوه، فقال: «أتجمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن رباح -يعني: عطاءً» .

ومن الإنصاف الذي يدل على الرسوخ في الفضيلة أن يتحدث الرجل عن خصمه، فينسب إليه ما يعرفه من فضل.

أنشد رجل في مجلس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قول الشاعر:

فتًى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبعده الفقرُ

---

(١) «غذاء الألباب» (٢/ ٢٣٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٣٣).

(٣) «الهمة العالية» (ص١٨٧).

(٤) «صفة الصفوة» (٢/ ١٤٣).

كـــأن الثريَّـــا عُلِّقـــت بجبينـــه وفي خده الشِّعرى وفي الآخر البدر

□ فلما سمعها علي ﷺ قال: «هذا طلحة بن عبيد الله، وكان السيف ليلتئذٍ مجردًا بينهما!»[١].

□ ونقرأ في تاريخ العلامة محمد بن عبد السلام: «أن ابن الصباغ اعترض عليه في أربع عشرة مسألة، فلم يدافع عن واحدة منها، بل أقر بالخطأ فيها جميعًا»[٢].

٣٧- التفاؤل:

المتفائل واسع النَّظْرةِ، فسيح الصدر، عالي الهمة، موفور النَّشاطِ يَطِّرِحُ الكسل، ويُقبل على الجد والعمل.

بخلاف المتشائم؛ فهو فاتر الهمة، ثقيل الظل، متبلد كسول، لا تحدوه غاية، ولا يدفعه هدف، بل يعيش في عالم الأحلام والأوهام والخيال، ويشعر دائمًا بالخيبة والخذلان، ويسيء ظنه بالآخرين، ولا ينظر إليهم إلَّا بعين الشك والريبة؛ فهو مغلق النفس، ضيق الصدر، يَتَّقِدُ حسدًا، ويحترق غيرةً وكمدًا؛ لعجزه عن الرقي في المكارم، ولقلة بحثه عن العوامل التي سببت له هذا المزاج الأسود، ولقلة سعيه في علاج ذلك المرض العضال، الذي قعد به وحط من قدره، فعاش على هامش الحياة صغير الشأن، خامل الذكر[٣].

---

(١) «رسائل الإصلاح» (١/ ٤٣).

(٢) «رسائل الإصلاح» (١/ ٤٢).

(٣) انظر: «تكوين الشخصية» للدكتور نورى الحافظ (ص١١٤- ١١٦)، و«الهمة العالية» (ص٢١١).

٣٨- القدرة على السرور والابتهاج بالحياة:

الرجل المبتهج بالحياة يزيده ابتهاجه قوة إلى قوَّته، فيكون أقدر على الجِدِّ والنشاط وحسن الإنتاج ومقابلة الصِّعاب من الرَّجُل المنقبض الصدر، الممتلئ بالهَمِّ والغَمِّ.

والمستبشرون الباسمون للحياة خير الناس صحَّة، وأقدرهم على الجد والنشاط، وأقربهم إلى النجاح والفلاح، وأكثرهم سعادة واستفادة مما في أيديهم ولو كان قليلًا.

فالابتسام للحياة يضيئها، ويعين على احتمال متاعبها؛ فالعمل الشاق العسير يخف حمله بالنفس المشرقة المتفائلة.

فمن النعم الكبرى على الإنسان أن يعتاد النظر إلى الجانب المشرق في الحياة لا المظلم منها، وأن يُمنح القدرة على السرور يستمتع به إن كانت أسبابه موجودة، ويوجدها قدر المستطاع إن لم تكن.

ويخطئ كثير من الناس حين يظن أن أسباب السرور كلها في الظروف الخارجية، فيشترط؛ ليُسَرَّ مالًا، وبنين، وصحةً ونحوَ ذلك؛ فالسرور يعتمد على النفس أكثر مما يعتمد على الظروف الخارجية، وفي الناس من يشقى في النعيم، وفيهم من ينعم في الشقاء، وفيهم لا يستطيع التبسم بكل ماله، وفيهم من يتبسم دائمًا من أعماقه بأتفه ثمن وبلا ثمن.

وهناك نفوس تستطيع أن تخلق من كل شيء شقاءً ونكدًا، وهناك نفوس تستطيع أن تخلق من كل شيءٍ سعادة وأنسًا.

وهناك مَنْ ينغص على نفسه وعلى من حوله من كلمة يسمعها، أو يؤولها تأويلًا سيئًا، أو من عمل تافه حدث له أو منه، أو من رِبْحٍ خسره،

أو من ربح كان ينتظره فلم يحدث، أو نحو ذلك، فتراه بعد ذلك وقد اسودَّت الدنيا في نظره، ثم هو يُسَوِّدُها على من حوله.

فالمبتسمون للحياة ليسوا أسعد الناس حالًا لأنفسهم ومن حولهم فحسب، بل هم مع ذلك أقدر على العمل، وأكثر احتمالًا للمسؤولية، وأصلح لمواجهة الشدائد ومعالجة الصعاب، وأجدر بالإتيان بعظائم الأمور التي تنفعهم وتنفع الناس.

□ ولذا إذا أراد الأدباء أن يبالغوا في الثناء على الممدوح، ويبينوا عظم همته، واستسهاله للصعاب – وصفوه بأنه يبتسم في أحلك المواقف وأشدها خطرًا، قال أبو الطيب المتنبي يمدح سيف الدولة:

تَمُرُّ بكَ الأبطالُ كلمى هزيمةً ووجهك وضَّاحٌ وثغرك باسمُ [١]

فذو النفس الباسمة المشرقة يرى الصعاب، فيلذه التغلب عليها، ينظرها فيبسم، ويعالجها فيبسم، وينجح فيبسم، ويخفق فيبسم.

وذو النفس العابسة المتجهمة لا يرى صعابًا فيوجدها، وإذا رآها أكبرها، واستصغر همته بجانبها، فهرب منها، وطفق يسب الدهر، ويعاتب القدر، ويتعلل بـ «لو وإذا وإن» [٢].

ومما يُعين على السرور والابتهاج بالحياة أسبابٌ كثيرة ومن أهمها وأبرزها:

١ – الإقبال على الله ﷻ: فهو أصل السعادة، وينبوعها الأعظم، وكل سرور بدون الإقبال على الله لا يعد سرورًا في الحقيقة؛ فمن أراد السرور

---

(١) ديوان «المتنبي بشرح العكبري» (٢/ ٣٨٧).

(٢) «الهمَّة العالية» (ص ٢١٢، ٢١٣).

فليقبل على الله بكُلِّيته، حُبًّا وذكرًا، وإنابة، وخوفًا، ورجاءً، ونحو ذلك من سائر العبوديات.

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه – إلَّا الله– سبحانه – ومن عبد غير الله – وإن أحبه، وحصل به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة – فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم»[(١)].

وقال: «فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، وهي لا صلاح لها إلَّا بإلهها الله الذي لا إله إلَّا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلَّا بذكره وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلَّا بلقائه.

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت، وفي بعض الأحوال، وتارة يكون ذلك الذي يتنعم به والتذ غير منعم ولا ملتذٍ له، بل قد يؤذيه اتصاله به، ووجوده عنده.

أما إلهه الحق فلا بد له منه في كل حال وكل وقت، وأينما كان فهو معه»[(٢)].

□ ومنها طهارة القلب وسلامة القصد، ومنها قوة الاحتمال والتمرين، ومحاربة اليأس.

□ ومنها طَرْدُ الهَمِّ ومحاربة الكآبة، والقناعة.

□ ومنها التضحية وهي أفق واسع، وظلال وارف، تنعم فيه النفس

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٤– ٢٥).

بجمال السعة وبُعد المدى.

□ ومنها سعة الأفق، قال الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا استقبلت العالم بالنفس الواسعة رأيت حقائق السرور تزيد وتتسع، وحقائق الهموم تصغر وتضيق، وأدركت أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيِّق لا هي»[١].

□ قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

سهرت أعينٌ ونامت عيونٌ ... في أمور تكون أو لا تكونُ

فادرإ الهمَّ ما استطعت عن النفـ ... ـس فحملانُك الهمومَ جنونُ

إن ربًّا كفاك بالأمس ما كا ... ن سيكفيك في غد ما يكونُ[٢]

٣٩- التجافي عن الترف والنعيم:

• عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إيَّاك والتَنَعُّمَ، فإنَّ عباد الله ليسوا بالمتنعِّمِين**»[٣].

«ذلك أن التقلب في الترف، والإغراق في النعيم – يعد من أعظم الشواغل والقواطع، التي تشغل صاحبها عن تَطَلُّب الكمال، وتَقْطعُ عليه طريق المجد والسؤدد، ثم إن الإغراق في النعيم ينبت في نفس صاحبه أخلاقًا مرذولة من نحو الجبن، وقلة الأمانة، والإمساك في وجوه الخير.

(١) «وحي القلم» (١/ ٥٠٠).

(٢) «ديوان الشافعي» (ص٨٥).

(٣) حسن: رواه أحمد، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٥٣)، و«صحيح الجامع» رقم (٢٦٦٨).

وذلك مما يورثه ضعف الهمة، وحقارة الشأن.

فإذا تجافى المرء عن الترف والنعيم - دل ذلك على كبر نفسه، وعلو همته.

□ وذلك التجافي مما يعين على بلوغ العز، واكتساب الهمة العالية، كما قيل:

فمن هجر اللذات نال المنى ومن ... أكبَّ على اللذات عضَّ على اليد[١]

ولهذا جرت العادة أن من ينغمس في النعيم، ويغرق في الترف - يكون أشد الناس كراهة للحروب، وأقلَّهم نبوغًا في العلم، وأبعدهم عن معاناة المشاق، وتحمل المصاعب.

«فإذا أنبتت بيئات الترف فتى يزدري النعيم والزينة، ويطمح بهمته إلى الشرف الصميم - كان فضله في الشجاعة أظهر، وإقدامه أدعى للإعجاب؛ ولذلك ترى الأدباء إذا أرادوا أن يجعلوا إعجابك بشجاعة الممدوح أبلغ - أشاروا إلى أن النعمة والزينة لا تذهب برجوليته، ولا تقعد به عن حماية الشرف والكرامة»[٢].

□ قال الحطيئة يمدح سعيد بن العاص:

إذا هَمَّ بالأعداء لم تَثْنِ عزمَه ... كعابٌ عليها لؤلؤٌ وشنوفُ[٣]

---

(١) «الآداب الشرعية» (٣/ ٥٨٨).

(٢) «رسائل الإصلاح» (١/ ٨١).

(٣) الشنوف: مفردها الشنف، وهو القرط الأعلى.

حَصَان[١] لها في البيت زيٌّ وبهجةٌ ومشيٌ كما تمشي القطاة كتيفُ[٢][٣]

ولقد حدثنا التاريخ عن أفراد نشؤوا في بيوت توافرت فيها وسائل الرفاهية، ومع ذلك لم يكونوا بحال المترفين السادرين.

بل نشأوا وقد عظم في نفوسهم الطموح إلى معالي الأمور، فاحتقروا ما يسمى لذاتٍ حسيةً، وإن كانت طوع أيمانهم وشمائلهم، وأقبلوا على العلم أو على ضرب آخر من ضروب السيادة فأدركوا فيه غاية قصوى.

فهذا عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ قد نشأ في بيت إمارة، وحينما تولى الخلافة استطاع بما وهبه الله من الحكمة والروية، ألا يقيم للزينة والأطعمة الفاخرة وزنًا، فعاش عيشة الكفاف، وخزائن الأرض طوع يمينه.

ولما تجافى عن الترف والنعيم مع أنه يعيش في بحبوحته – دل ذلك على سمو نفسه، وعلو همته؛ فلذلك كان صيته أذكر، وشأنه أشهر، وتوفي وقد أبقى سيرةً غراء، وذكرًا أطيب من ريح المسك[٤].

وقل مثل ذلك في شأن ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز الذي كملت مروءته، وتناهى سؤدده، فكان مضرب المثل في العلم، والحلم،

---

(١) الحصان: العفيفة.

(٢) قوله: كما تمشي القطاة كتيف، يعني أنها قليلة المشي، مقاربة الخطو، ليست كمن اعتاد السير، والمعنى أن الممدوح إذا أراد الغزو فنهته امرأته عن ذلك مضى إلى سبيله ولم يلتفت إلى نهيها.

(٣) انظر «ديوان الحطيئة» (ص٢٥٦– ٢٥٨).

(٤) انظر: «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم نسخها وصححها وعلق عليها أحمد عبيد.

والشجاعة، والزهد، والعبادة مع أنه توفي وهو في التاسعة عشرة من عمره رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولم يكن ذلك ليتم - بعد توفيق الله - إلَّا لأنه تجافى عن الترف والنعيم، وآثر الجد ومعالي الأمور [١].

وكذلك الحال بالنسبة للإمام أبي محمد بن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ فلقد نشأ في بيت وزارة في الأندلس، وتولى هو نفسه الوزارة، ثم نفض يده، وانقطع للازدياد من العلم، حتى ارتقى إلى طبقة كبار العلماء بنظر مستقل، وقلم بارع [٢].

٤٠- التوازن، وإعطاء كل ذي حق حقَّه:

فهذا مما يعين على أداء المسؤولية، وتحمل التبعة، وأداء الحقوق، والسلامة من اللوم والتعذال.

وهذا بدوره يعين الإنسان على تحقيق ما يرومه ويصبو إليه، كما أنه دليل على حزمه، ووعيه، وحكمته؛ فقوة الشخصية تبدو في القدرة على الموازنة بين الحقوق، والملائمة بين الواجبات، التي قد تتعارض أمام بعض الناس.

فالعاقل الحازم يستطيع أن يعطي كل ذي حقٍّ حقه دون أن يُلحق جورًا بأحد [٣].

---

(١) انظر: «سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز» لابن رجب الحنبلي تحقيق عفت وصال حمزة.

(٢) «محاضرات إسلامية» (ص١٤٤).

(٣) «الهمة العالية» (ص١٥٧).

٤١- استشارة العقلاء العاملين، والحذر من استشارة الحمقى والقاعدين:

* فالشورى أمرها عظيم، وشأنها جلل؛ فلقد نوَّه الله ﷻ بذكرها، وأثنى على المؤمنين بقيامهم بها، فقال ﷻ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

* وأمر نبيه ﷺ مع وفور عقله، وسداد رأيه، وعلو مكانته- أن يأخذ بالشورى، قال ﷻ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولهذا كان ﷺ كثير المشاورة لأصحابه.

فالعاقل اللبيب، ذو الهمة العالية، والنظرة الثاقبة – لا يستبد برأيه، ولا يعتد بنفسه بحيث يقوده ذلك إلى ترك المشورة.

بل إنه يشاور أهل العقول السليمة، والتجارب السالفة، ممن يجمعون بين العلم والعمل، والنصح والديانة.

فبالشورى تُشحذ القريحة، وتتلاقح الفِكَرُ، وتنمَّى المعارف، وتُقوَّى الأواصر بين المتشاورين.

والشورى تنفي عن العبد الغرور، والإعجاب بالنفس، وتفتح له الأبواب، وتزيل عنه الحيرة والاضطراب.

▢ قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «نعم المؤازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد»[1].

▢ وقال بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٣٠٠).

ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً فـإن الخـوافي قـوةٌ للقـوادم[(١)]

أما ترك الشورى، أو استشارة الحمقى – فدليل الغرور، وآية الجهل.

وكذلك استشارة القاعدين؛ فإنها تورث الكسل والتخذيل؛ لأن القاعد لن يتصور الأمور كما ينبغي، ولن يجد في نفسه انبعاثًا للمعالي؛ ففاقد الشيء لا يعطيه.

٤٢- قبول النقد البناء، والنصيحة الهادفة:

فالنقد، والنصيحة إذا صدرا من ناقد بصير، أو ناصح أمين، أراد بنقده البناء، ورام بنصحه الخير – كان جديرًا بمن توجه إليه ذلك أن يأخذ به، ويشرح صدره له، وأن يتقبله بقبول حسن؛ فذلك مما يدل على كرم النفس، وسعة الأفق، وعلو الشأن.

وهو في الوقت نفسه سبب لعلو الهمة، وارتفاع المنزلة، وتناهي الفضل، والترقي في مراتب الكمال.

بل ينبغي لمتطلب الكمال – خصوصًا إذا كان رأسًا مطاعًا- أن يتقدم إلى خواصه وثقاته، ومَنْ كان يسكن إلى عقله من خدمة وحاشيته – فيأمرهم أن يتفقدوا عيوبه ونقائصه، ويطلعوه عليها، ويعلموه بها؛ فهذا مما يبعثه إلى التنزه من العيوب، والتطهر من دنسها، وهذا مما يؤهله لعليا المراتب، والسير قدمًا في درجها.

□ قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ لمولاه مزاحم: «إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي؛ فإن سمعت مني كلمة

---

(١)«ديوان بشَّار بن برد».

تربأُ بي عنها، أو أفعالًا لا تحبها – فعِظني عنده، وانهني عنه»[١].

٤٣- انتهاز الفُرَص:

فإن الفرص ثمينة، وإن فواتها لا يعوض، وإن انتهازها لدليل الحزم، وعنوان العقل والجد.

«ومهما حفظ الإنسان من الحكم، وكانت رغباته صالحة – فلن تتحسن أخلاقه وتقوى إلَّا إذا انتهز كل فرصة تسنح له»[٢].

□ قال البارودي:

بادر الفرصة واحذر فوتها ... فبلوغ العز في نيل الفرص

فابتدر مسعاك واعلم أن من ... بادر الصيد مع الفجر قنص[٣]

٤٤- توطينُ النفس على الاعتدال حال السرَّاء والضَرَّاء:

يَحْسُن بذي الهمَّة والشرف الرفيع أن يُوَطِّن نفسه على لزوم الاعتدال حال السرَّاء والضَرَّاء؛ فذلك من مقوِّمات الهمة العالية، ومن مظاهر المروءة الصادقة.

* قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد].

(١) «أقوال مأثورة» (ص٤٥٥).
(٢) «الأخلاق» (ص٣٨).
(٣) «ديوان البارودي» (ص٢٩٣)، وانظر: «الهمة العالية» (ص٢٤١).

* وقال عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [البقرة].

□ قال ابن الجوزي رحمه الله: «فمن تَلَمَّح بحر الدنيا، وعلم كيف تُتَلقى الأمواج، وكيف يصبر على مدافعة الأيام – لم يستهولْ نزول بلاء، ولم يفرح بعاجل رخاء»[(١)].

□ قال أحدهم:

تجري الأمور على حكم القضاء ... طيِّ الحوادث محبوبٌ ومكروهُ

وربما سرني ما كنت أحذره ... وربما ساءني ما كنت أرجوه [(٢)]

□ وقال الآخر:

ولا خير فيمن لا يوطِّنَ نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب [(٣)]

ومن هنا فذو الهمة والمروءة لا تبطره النعمة، ولا تُقنِّطُهُ المصيبة، ولا تطيش به الولاية في زهو، ولا ينزل به العزل في حسرة، ولا يحمله الغنى على الأشر والبطر، ولا ينحط به الفقر إلى الذلة والخنوع.

□ قال كعب بن زهير رضي الله عنه في قصيدته المشهورة –البردة–:

لا يفرحون إذا نالت رماحُهُم ... قومًا وليسوا مجازيعًا إذا نيلوا [(٤)]

---

(١) «صيد الخاطر» (٢/ ٢٤٣).

(٢) «جَنَّة الرضا في التسليم لِما قدّر الله وقضى» للغرناطي –تحقيق د. صلاح جرار (٣/ ٥٢).

(٣)

(٤) «الأصمعيات» (ص١٨٤).

«ديوان كعب بن زهير»، صنعه السكري، شرح ودراسة د. مفيد قميحة (ص١١٦).

فهو يمدح الصحابة ﷺ بأنهم لا يفرحون من نيلهم عدوًّا؛ فتلك عادتهم، ولا يجزعون إذا نالهم العدو؛ لأن عادتهم الصبر والثبات.

□ وقال عبد العزيز بن زرارة الكلابي:

كـلا بلـوتُ فـلا الـنعماءُ تُبطـرني ... ولا تَخَشَّعْتُ من لأوائها جزعـا [١]

□ وقال البعيث:

ولـست بمفـراحٍ إذا الـدهرُ سَرَّني ... ولا جازعٍ من صرفه المتقلـب [٢]

□ وقال ذو الخِرَق الطُّهوي:

فيئــي إليــك فإنــا معــشر صُــبُرٌ ... في الجدب لا خِفَّةٌ فينا ولا نـزق [٣]

□ وقال علي بن المقرب العيوني:

فـما أنـا في الـسراء يومًـا فَرُوحُهـا ... ولا أنا في الضراء يومًا جزوعُها [٤]

□ وقال سالم بن قتيبة: «ما تكبر في ولايته إلَّا من كَبُرت عنه، ولا تواضع لها إلَّا من كبر عنها»[٥].

□ وقال الإمام ابن قتيبة: «وفي كتاب كليلة ودمنة: ذو العقل لا تبطره المنزلة والسخيف يبطره أدنى منزلة، كالحشيش يحركه أضعف ريح والعز، وكالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت به الريح»[٦].

---

(١) «مع الرعيل الأول» لمحب الدين الخطيب (ص١٧٤).
(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٢٧٦)، وينسب البيت لتأبط شرًّا، انظر «عيون الأخبار» (١/ ٢٨١).
(٣) «الأصمعيات» (ص١٢٤).
(٤) «علي بن المقرني العيوني حياته - شعره» (ص٢٢٧).
(٥) «بهجة المجالس» (٢/ ٤٤٧).
(٦) «عيون الأخبار» (١/ ٢٨١).

□ وقال أحد الحكماء:

خلقـــان لا أرضى اخـــتلافهما تيـــهُ الغنـــى ومذلـــةُ الفقـــرِ

فـــإذا غنيـــت فـــلا تكـــن بَطِـــرًا وإذا افتقـــرت فَتِـــهْ عـــلى الـــدهر

واصـــبر فلـــست بواجـــدٍ خُلُقًـــا أدنـــى إلى فـــرج مـــن الـــصبر [(١)]

□ فإذا لزم المرء هذه الطريقة؛ فلم يَخِفَّ عند السراء، ولم يتضعضع حال الضراء - فأحرِ به أن يعلو قدره، ويتناهى سؤدده، وتكمل مروءته.

ولهذا لو أمعنت النظر في تراجم العظماء من الرجال - لألفيت أن لهذه الخصلة نصيبًا وافرًا من سيرهم، ولأدركت أنها كانت سببًا كبيرًا في نبوغهم وألمعيتهم.

فهم يتلقون المسارَّ والمحابَّ بقبول لها، وشكر لله عليها، واستعمال لها بما ينفع، واستعانة بها على أمور الدين والدنيا؛ فيحصل لهم من جرَّاء الفرح بها، ورجاء خيرها وبركاتها - أمور عظيمة، تتضاعف بها مسراتهم.

ويتلقون المكاره، والمضار، والهموم، والغموم - بالرضا، والشجاعة، والاحتساب، وبالمقاومة لما يمكنهم مقاومتُه، وتخفيف ما يستطاع تخفيفه، وبالصبر الجميل لما لا بد لهم منه؛ فيحصل لهم من آثار المكاره - من الرضا، والصبر، والاحتساب، والتجارب، وصلابة العود - أمورٌ عظيمة تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار، والآمال الطيبة [(٢)].

□ فهذا عمر بن عبد العزيز - على سبيل المثال - كان يقول: «أصبحت

---

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٨).

(٢) انظر: «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة» (ص٩- ١٤).

والسراء والضراء مطيَّتان على بابي، لا أبالي على أيهما ركبت»[(١)].

▢ ويقول: «أصبحت ومالي سرور إلَّا في انتظار مواقع القدر؛ إن تكن السراء فعندي الشكر، أو تكن الضراء فعندي الصبر»[(٢)].

▢ ولقد صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يقول؛ فقد لزم الاعتدال في جميع الأحوال، فكان شاكرًا في سرائه، متجملًا متجلدًا في ضرائه، متواضعًا في سيرته، شيمته الحلم، وزينته الصفح والعفو، لم تطِش به الولاية في زهو، ولم تنزل به المصائب في حسرة».

▢ روي أن رجلًا نال من عمر بن عبد العزيز فلم يجبْه، فقيل له: «ما يمنعك منه؟ قال: التَّقيُّ مُلْجَمٌ»[(٣)].

▢ وعن عبد الملك، أو قيس بن عبد الملك قال: «قام عمر بن عبدالعزيز إلى قائلته، وعرض له رجل بيده طومار[(٤)]، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يحبس دونه، فرماه بالطومار، فالتفت عمر، فوقع في وجهه، فشجَّه.

قال: فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو قائم في الشمس، فلم يبرح حتى قرأ الطومار، وأمر له بحاجته، وخلى سبيله»[(٥)].

---

(١) «الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز الخليفة الخائف الخاشع» لعمر بن محمد الخضر المعروف بالملاء، تحقيق د. محمد صدقي البورنو (٢/ ٤٣٦).

(٢) «الكتاب الجامع» (٢/ ٤٣٣- ٤٣٣) وانظر «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم (ص٩٧)، و«جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٢٨٧).

(٣) «الكتاب الجامع» (٢/ ٤٢٤).

(٤) الطومار: صحيفة مطوية.

(٥) «الكتاب الجامع» (٢/ ٤٢٣- ٤٢٤).

□ وروي أن عمر عبد العزيز لما ولي الخلافة خرج ليلة في السحر إلى المسجد ومعه حَرَسِيٌّ، فمرَّ برجل نائم على الطريق، فعثُر به فقال له: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا.

فهمَّ الحرسيُّ به، فقال له عمر: مهْ؛ فإنه سألني أمجنون أنت؟ فقلت: لا»[(١)].

□ وعن الربيع بن سبرة قال: «لما هلك عبد الملك بن عمر بن عبدالعزيز، وسهل بن عبد العزيز ومزاحم مولى عمر في أيام متتابعة – دخلتُ على عمر فقلت: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين، والله ما رأيت مثل ابنك ابنًا، ولا مثل أخيك أخًا، ولا مثل مولاك مولى قط، فطأطأ عمر رأسه.

فقال لي رجل معي على الوسادة: لقد هَيَّجْتَ عليه، قال: ثم رفع عمر رأسه، وقال: كيف قلت الآن يا ربيع؟ فأعدتُ عليه ما قلت أولًا.

فقال: لا والذي قضى عليهم بالموت ما أحب شيئًا من ذلك لم يكن»[(٢)].

□ وروي أن عمر بن عبد العزيز لما دفن ولده عبد الملك وعاد – مرَّ بقوم يرمون، فلما رأوه أمسكوا، فقال: ارموا ووقف، فرمى أحد الرامِيَيْنِ فأخرج [(٣)]، فقال له عمر: أخرجت فقصِّر، وقال للآخر: ارم، فرمى فقصَّر، فقال له عمر: قصَّرْت؛ فبلِّغ.

---

(١) «الكاتب الجامع» (٢/ ٤٣٦ - ٤٣٧).

(٢) «الكاتب الجامع» (٢/ ٤٢٧).

(٣) أخرج: أي كانت الرمية أبعد من الهدف، والتقصير بخلافه.

فقال له: مسلمة: يا أمير المؤمنين، أَتُفْرِغُ قلبك إلى ما تفرغت له، وإنما نَفَضْتَ يدك الآن من تراب قبر ابنك ولم تصل إلى منزلك؟

فقال له عمر: يا مسلمةُ، إنما الجزع قبل المصيبة، فإذا وقعت المصيبة فالْهُ عما نزل بك»[١].

□ وروي أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه بعض الناس يعزيه بموت ابنه عبد الملك، فقال عمر لكاتبه: «اكتب، ودقق القلم: أما بعد، فإن هذا أمر كنا وطَّنا نفوسنا عليه، فإذا نزل بنا لم نكرهه والسلام»[٢].

□ وعن الضحاك بن عثمان قال: «لما انصرف عمر بن عبد العزيز عن قبر سليمان بن عبد الملك – صُفَّت له مراكب سليمان، فقال:

ولولا التقى ثم النُّهى خشيةَ الردى ... لعاصيت في حبِّ الصبا كلَّ زاجر

قضى ما قضى فيما قضى ثم لا يرى ... له صبوة أخرى الليالي الغوابر

ثم قال: ما شاء الله، لا قوة إلَّا بالله، قدموا إليَّ بغلتي»[٣].

ومن أكابر السادات، ومن ذوي الفضل والمروءات قيس بن عاصم المنقري؛ فلقد كان ذا نفس مطمئنة لا تزعزعها الأعاصير؛ فلقد وطَّنها على كل وارد يرد.

«قيل للأحنف بن قيس: ما أحلمك!

قال: تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقري؛ بينا هو قاعد بفنائه،

---

(١) «الكتاب الجامع» (٢/ ٤٣٧).
(٢) «الكتاب الجامع» (٢/ ٤٣٧ – ٤٣٨).
(٣) «صفة الصفوة» (٢/ ٨٠).

مُحْتَبٍ [١] بكسائه أتَتْهُ جماعةٌ فيهم مقتول، ومكتوف، وقيل له: هذا ابنك قتله ابن أخيك!

□ فوالله ما حلَّ حُبْوتَه حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى ابن له في المجلس، فقال له: قُمْ فأطلقْ عن ابن عمك، ووارِ أخاك، واحمل إلى أمه مئةً من الإبل؛ فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

إني امرؤ لا شائن حسبي ... دنسٌ يُغيِّرُه ولا أَفْنُ [٢]

من منقرٍ في بيت مكرمةٍ ... والغصن يَنْبُتُ حوله الغُصْنُ

خُطباءُ حين يقول قائلهم ... بيض الوجوه أعِفَّة لُسْنُ

لا يَفْطَنون لعيب جارِهِمُ ... وهمُ لحفظ جواره فُطُنُ

ثم أقبل على القاتل فقال: قتلت قرابتك، وقطعتَ رحمك، وأقللت عددك، لا يبعدِ الله غيرك» [٣].

وإذا أردت أعظم مثال للاعتدال حال السراء والضراء – فالق نظرة عجلى على سيرة نبينا محمد ﷺ.

وأقرب شاهد على ذلك أنه لم يَحِدْ عن سبيل الزهد في هذه الحياة قيد أنملة؛ فَعَيشُه يوم كان يتعبد في غار حراء كعيشه يوم أظَلَّت رايته البلاد

---

(١) محتب: من الاحتباء، وهو أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره، ويشده عليها، وقد يكون الاحتباء بالعمامة أو اليدين عوض الثوب، ويقال: احتبى الرجل وإذا جمع ظهره وساقيه بثوبه، أو يديه، أو عمامته. انظر: «لسان العرب» (١٤/ ١٦١).

(٢) أفن: الأفن النقص.

(٣) «عيون الأخبار» (١/ ٢٨٦).

العربية، وأطَلَّت على ممالك قيصر من ناحية تبوك.

وكذلك مضاؤه في سبيل الدعوة، فقد قام يدعو إلى الهدى ودين الحق، ويلقى من الطغام والطغاة أذى كثيرًا، فيضرب عنه صفحًا أو عفوًا، ويمضي في سبيله لا يأخذه يأس، ولا يقعد به ملل، ولا يثنيه جزع.

وقد ظهر دين الله، وعلت كلمته بهذا العزم الذي تخمد النار ولا يخمد، وينام المشرفي ولا ينام[1].

□ قال ابن القيم: «فإذا جئت إلى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه، وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلوُّن الأحوال عليه، من سلْمٍ، وخوف، وغنًى، وفقر، وأمن، وإقامة في وطنه، وظعن عنه، وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول، والفعل، والسحر، والكذب، والافتراء عليه، والبهتان، وهو مع ذلك صابر على أمر الله، يدعو إلى الله. فلم يؤذَ نبي ما أوذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وجعله أقربَ الخلق إليه وسيلةً، وأعظمهم عنده جاهًا، وأسمعهم عنده شفاعةً، وكانت تلك المحن والابتلاء عَيْنَ كرامته، وهي ممَّا زاده الله به شرفًا وفضلًا، وساقه بها إلى أعْلَى المقامات»[2].

٤٥- طبيعة الإنسان[3]:

فهناك من الناس من جُبل على علو الهمة، فلا يرضى بالدون، ولا يقنع

---

(١) انظر: «العظمة» (ص٢٥- ٢٦)، «الاستقامة» لابن تيمية (٢/ ٢٧١- ٢٨١).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٠١)، و«الهمة العالية» (ص٢٢٣- ٢٣٠).

(٣) هذه الأسباب مأخوذة من كتاب «الهمة العالية» لمحمد بن إبراهيم الحمد.

بالقليل، ولا يلتفت إلى الصغائر، ولا تغدو بِلُبِّهِ الدنايا ومحقرات الأمور.

ولهذا قيل: «ذو الهمة إن حُطَّ فنفسه تأبى إلَّا عُلوًّا، كالشعلة في النار يصوِّبها صاحبها وتأبى إلَّا ارتفاعًا»[(١)].

□ قال عمر بن عبد العزيز: «إن لي نفسًا تَوَّاقَةً؛ لم تزل تتوق إلى الإمارة، فلما نِلْتُها تاقت إلى الخلافة، فلما نِلْتُها تاقت إلى الجنة!»[(٢)].

□ وقال بعضهم:

أمطـري لؤلـؤًا جبـال سرنديـــ ... ـــب وفيـضي آبـارَ تكـرورَ تـبرا

أنـا إن عـشتُ لـست أعـدم قُوْتًـا ... وإذا مـــتُّ لـــست أعـــدم قـــبرا

همتـــي همـــةُ الملـــوكِ ونفـــسي ... نفـسُ حـرٍّ تـرى المذلـة كفـرا[(٣)]

□ وقال أبو فراس الحمداني:

إني أبيـــت قليـــل النـــوم أرَّقنـــي ... قلبٌ تصارع فيـه الهـمُّ والهِمَـمُ[(٤)]

٤٦- أثر الوالدين، ودورهما في التربية الصحيحة:

فأثر الوالدين في التربية عظيم، ودورهما في إعلاء همم الأولاد خطير وجسيم؛ فإذا كان الوالدان قدوة في الخير، وحرصا على تربية الأولاد، واجتهدا في تنشئتهم على كريم الخلال وحميد الخصال، مع تجنيبهم ما ينافي ذلك من مساوئ الأخلاق ومرذول الأعمال - فإن لذلك أثرًا عظيمًا في

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٣).

(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣١).

(٣) «ديوان الشافعي» (ص٤٤).

(٤) «ديوان أبي فراس الحمداني» (ص١٥٦).

نفوس الأولاد؛ لأن الأولاد سَيَشِبُّون – بإذن الله- متعشقين للبطولة، محبين لمعالي الأمور، متصفين بمكارم الأخلاق، مبغضين لسفساف الأمور، نافرين عن مساوئ الأخلاق»[١].

ثم إن صلاح الآباء يدرك الأبناء، بل إن نبوغ الآباء يؤثر أيما تأثير في نفوس الأولاد؛ فمما يهيئ الناشئ للنبوغ «أن يسبقه أب أو جد بالنبوغ؛ فإن كثرة تردد اسم سلفه العبقري على سمعه، ومطالعته لبعض آثار عبقريته – يثيران همته، ويرهفان عزمه لأن يظفر بما ظفر به سلفه من منزلة شامخة وذكر مجيد»[٢].

ولا أدل على عظم شأن الوالدين في التربية، وأثرهما البالغ في نفوس الأولاد من حال سلفنا الصالح الذين خرجوا لنا أكرم جيل، وقدموا لنا أفضل رعيل، لا يدانيهم أحد في الفضل، ولا يُبلغ شأوهم في النبل.

فمن كان وراء هؤلاء الأبطال؟ ومن الذي صنع أولئك الرجال؟

إننا لو سبرنا أحوالهم، وتتبعنا سيرهم – لوجدنا أن وراء كل واحد منهم أبًا عظيمًا، أو أمًّا عظيمة، يربون أولادهم على تطلاب الكمال، ونشدان المعالي.

□ فهذا أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب ﷺ تنقل في تربيته بين صدرين مِنْ أملا صدور العالمين حكمة، وأحفلها بجلال الخلال، وكريم الخصال، فكان مغذاه على أمه فاطمة بنت أسد، ومراحه على أم

---

(١) انظر: «التقصير في تربية الأولاد المظاهر – سبل الوقاية والعلاج» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص ٥٠- ٩٢).

(٢) «رسائل الإصلاح» (١/ ١٨٠).

المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها»[١].

وهذا أمير المؤمنين، أريب العرب، وألمعيُّها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما من كان وراءه؟ لقد كان وراءه أم عظيمة هي هند بنت عتبة وهي القائلة – وقد قيل لها ومعاوية وليد بين يديها: إن عاش ساد قومه – قالت: ثكلته إن لم يسد إلَّا قومه.

وكان معاوية إذا نوزع الفخر بالمقدرة، وجوذب بالمباهاة بالرأي انتسب إلى أمه، فصدع أسماع خصمه بقوله: أنا ابن هند![٢].

[وهكذا أبوه له شأن عظيم في الجاهلية والإسلام][٣].

وهذا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه كان وراءه أمٌّ عظيمة كريمة شجاعة، وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

□ وهي القائلة – وقد نعي إليها ابنها عبد الله -: «ما يمنعني وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل».

□ وهي القائلة أيضًا قبل ذلك عندما استشارها ابنها عبد الله بن الزبير في قتال الحجاج: «اذهب؛ فوالله لضربة بالسيف على عز – أفضل من ضربة بالسوط على ذل»[٤].

---

(١) انظر صفحات من «سيرة الأم المسلمة» للشيخ د. محمد بن أحمد بن إسماعيل (ص٧٩).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «من تعليقات سماحة الشيخ عبد العزيز ابن باز على كتابه «الهمة العالية» لمحمد بن إبراهيم الحمد.

(٤) انظر: «عودة الحجاب» د. محمد بن إسماعيل (٢/ ١٣٦ – ١٤٦)، وانظر: «التقصير في تربية الأولاد» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص٤١ – ٤٧).

[وهكذا أبوه الزبير له شأن عظيم وكان حواري النبي ﷺ][(١)].

٤٧- النشأة في مجتمع مليء بالقمم:

فمن بواعث الهمة، ومهيئات النبوغ – أن يشب الناشئ الذكي في مجتمع مليء بالقمم الحقيقية من الأبطال المجاهدين، والعلماء العاملين؛ فهذا مما يحرك همته، ويبعث عزمته؛ كي يحذو حذوهم، ويسير على منوالهم.

٤٨- تقدير النوابغ، ورعاية المواهب:

فالنوابغ يحتاجون إلى توجيه مستمر، وإلى رعاية وصيانة، وإلى أن تُهَيَّأ لهم مقوماتُ النبوغ والألمعية.

فإذا نشأ الألمعي النابغة في مجتمع يَقْدُرُهُ قَدْرَه، وينظر إليه بعين الإكبار والتَّجِلَّة – هَفَتْ نفسُه لكل فضيلة، ورَنَتْ عينه إلى كل بطولة، فيزداد بذلك جدًّا في الطلب، وسعيًا إلى أقصى درجات الكمال.

ولهذا فلا عجب أن يظهر النابغون في العلم، والأدب، والشجاعة في بلاد الأندلس؛ لأن أهلها يعظمون من عظمه علمه، ويرفعون من رفعه أدبه.

وكذلك سيرتهم في رجال الحرب، يقدمون من قَدَّمَتْهُ شجاعتُه، وعظمت في الحروب مكايده[(٢)].

---

(١) «من تعليقات سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز على كتاب «الهمة العالية» للحَمَد.

(٢) «رسائل الإصلاح» (١/ ١٨٠).

٤٩- وجود المربين الأفذاذ، والمعلمين القدوات:

الذين يستحضرون عظم المسؤولية، ويستشعرون ضخامة الأمانة، والذين يتَّسمون ببعد النظرة، وعلو الهمة، وسعة الأفق، وحسن الخلق، والذين يتحلون بالحلم والعلم، والصبر والشجاعة، وكرم النفس والسماحة.

فأثر هؤلاء في التربية كبير، ودورهم الذي يقومون به غير يسير؛ فالواحد من هؤلاء الأفذاذ ممن اجتمع له ما اجتمع من خصال الخير، ومن معاني السمو والألمعية – لا بد أن يتأثر به طلابه، وأن ينطبعوا بطابعه؛ لأنه سيربيهم على معالي الأمور، ومكارم الأخلاق، والتطلع للكمالات.

فإن أتيت للعلم وجدته يفتح لهم أبوابه، ويشحذ قرائحهم لفهم معانيه، وإدراك مراميه، ورأيته يطلق لهم العنان في البحث، ويردهم إلى الصواب برفق إن أخطأوا، ويُثني عليهم إن ناقشوا فأصابوا.

بل إنه سيحرص جهده على أن يكون من تحت يده خيرًا منه، فلن يقف حجر عثرة أمام طلابه، ولن يجد في نفسه غضاضة أن يتفوق أحدهم عليه.

وما ذلك إلَّا لكرم نفسه، وعلو همته، وسعة أفقه، ولأنه يسعى للإصلاح، ويروم رفع الغشاوة عن الناس، ولأنه يعمل للآخرة، ويعلم أن أجره سيدوم ويتضاعف إذا هو خرَّج طلابًا يخلفونه في العلم، وينشرون ما تلقوه على يديه.

«يقص علينا التاريخ أنَّ في الأساتذة من يحرص على أن يرتقي تلاميذه

في العلم إلى الذروة، ولا يجد في نفسه حرجًا من أن يظهر عليه أحدهم في بحث أو محاورة.

يذكرون أن العلامة أبا عبد الله الشريف التلمساني كان يحمل كلام الطلبة على أحسن وجوهه، ويبرزه في أحسن صوره.

ويروى أن أبا عبد الله هذا كان قد تجاذب مع أستاذه أبي زيد ابن الإمام الكلامَ في مسألة، وطال البحث اعتراضًا وجوابًا، حتى ظهر أبو عبد الله على أستاذه أبي زيد، فاعترف له الأستاذ بالإصابة، وأنشد مداعبًا:

أعلمــه الرمايــة كــل يــوم فلــما اشــتد ســاعده رمــاني»[1]

وإن أتيت للمجالات الأخرى وجدت هذا المربي الفاضل يربيهم على خلق العدل، وفضيلة الإنصاف، والتجافي عن ساقط القول ومرذوله.

وستجده أيضًا يربيهم على خلق الشجاعة، وصرامة العزم، وعزة النفس، وإباءة الضيم، كما أنه سيربيهم على التواضع الجم، والبعد عن الإعجاب والتعالي على عباد الله.

فإذا تربى الطلاب على الدين القويم، ووصلت معانيه إليهم من طريقها الصحيح، وقام على التربية معلمون ربانيون مخلصون – رسخت الفضائل في نفوسهم، وَقَرَّتْ بها قرار ذات الصدع تحت ذات الرجع، فلا ترى من جرَّاء تلك التربية إلَّا حياءً وعفافًا، وأمانة وصدقًا، واستصغارًا للعظائم، وغيرة على المصالح، وما شئت بعدُ من عزة النفس، وكبر الهمة.

تلك الخصال التي لا تنبت أصولها، ولا تعلو فروعها إلَّا أن يتفيأ

(١) «رسائل الإصلاح» (١/ ٤٤).

عليها ظلال الهداية ذات اليمين وذات الشمال؛ فالإسلام دين ينير العقول بالحجة، ويهذب النفوس بالحكمة.

وكم أخرجت مدارسه، أو مجالس القوامين على هدايته من رجال يلاقون الأسود فيصرعونها، ويجارون الرياح فيسبقونها، يخفضون أجنحتهم؛ تواضعًا للمستضعفين، ويرفعون رؤوسهم؛ عزة على الجبارين، تعترضهم الأخطار فيخوضون غمارها، وتَعْتَلُّ قلوب أو عقول فيضعون الدواء موضع عللها، عدل كأنه القسطاس المستقيم، وسخاء كأنه الغيث النافع العميم، وجدٌّ في طلب العلم وإن كان بمناط الثريا، وطموح إلى المعالي وإن انتبذت وراء الفلك الدوَّار مكانًا قَصيًّا»[(١)].

□ قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ في وصيته للمعلمين: «ثم احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال منطبقًا على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال؛ فإن الناشئَ الصغير مرهف الحس، طُلَعَةٌ إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها، ولا ينالها اهتمامُكم.

وإنه قوي الإدراك للمعايب والكمالات، فإذا زيَّنتم له الصدق فكونوا صادقين، وإذا حسَّنتم له الصبر فكونوا من الصابرين.

واعلموا أن كلَّ نقْشٍ تنقشونه في نفوس تلامذتكم من غير أن يكون منقوشًا في نفوسكم – فهو زائل، وأن كل صبغ تنفضونه على أرواحهم من قبل أن يكون متغلغلًا في أرواحكم فهو – لا محالة – ناصل حائل، وأن كل سحر تنفثونه لاستنزالهم غير الصدق فهو باطل.

ألا إن رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة

(١) انظر: «رسائل الإصلاح» (١/ ٢٤، ٥٦١)، و«فيض الخاطر» (٦/ ١٢٧- ١٢٨).

بالقدوة، وأما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة – فهو ربح وفائدة»[1].

٥٠- **التشجيع:**

وقد سبق في الفقرات الماضية ذكر لشيء من ذلك.

والتشجيع بمعناه العام لا يختص بالنوابغ فحسب، ولا يقتصر على المربين والمعلمين، بل هو عام للنوابغ وغيرهم، في العلم أو في أي مجال آخر.

وهو كذلك ليس مسؤوليةَ المربين والمعلمين، بل هو يقع على عاتق كل أحد يستطيع ذلك، سواء من المعلمين أو المربين، أو الوالدين، أو الرؤساء أو غيرهم.

بل هو مسؤولية عامة الناس؛ فبإمكانهم أن يحرِّضوا على الخير، ويعينوا على البر.

فيجدر بمن يستطيع القيام بذلك أن يقوم به، من خلال الكلمة الطيبة، أو المبادرة بالهدية، أو من خلال رسالة الشكر والتقدير، أو غير ذلك.

فلذلك الصنيع أثره البالغ في رفع الهمم، وتنمية المهارة، والشعور بالثقة؛ ذلك أن الناس مجبولون على محبة التشجيع والدعم والشكر.

ولهذا لو تتبعنا سير العلماء والمصلحين، والمجاهدين، ثم بحثنا عن سر

---

(١)«عيون البصائر» لمحمد البشير الإبراهيمي (ص٢٩١)، وانظر كلامًا جميلًا حول هذا المعنى في «عيون البصائر» (ص٢٨٨- ٣٠٠)، وآثار محمد البشير الإبراهيمي (١/ ١٦١-١٦٦).

نبوغهم وألمعيتهم – لوجدنا أن كثيرًا منهم قد نال بسبب كلمة سمعها فَغَيَّرت مسار حياته، أو كانت سببًا في ثباته، وصبره، واستشعاره للمسؤولية، أو نحو ذلك.

وقد يصدر ذلك من بعض العامة، فيكون له وقعه وأثره.

□ عن حسين الكرابيسي قال: «سمعت الشافعي يقول: كنت امرءً أكتب الشعر، وآتي البوادي فأسمع منهم، وقدمت مكة وأنا أتمثل بشعر للبيد، وأضرب وحشي قدمي بالسوط، فضربني رجل من ورائي من الحجبة فقال: رجل من قريش، ثم ابن المطلب رضي من دينه ودنياه أن يكون مُعَلِّمًا!! ما الشعر؟

الشعر إذا استحكمت فيه قعدت معلمًا؛ تَفَقَّهْ يُعْلِكَ الله.

قال: فنفعني الله بكلام ذلك الحجبي، ورجعت إلى مكة، وكتبت عن ابن عيينة ما شاء الله أن أكتب، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد بن عبدالله الزنجي، ثم قدمت على مالك في المدينة، فكتبت موطأه»[١].

وهذا الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ابتلي بفتنة القول بخلق القرآن كان من أسباب ثباته رجل من عامة الناس، بل هو لص طرار.

□ قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «كنت كثيرًا أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم.

فقلت: يا أبه، مَنْ أبو الهيثم؟

فقال: لما أُخرِجْتُ للسياط، ومُدَّتْ يداي للعقابين إذا أنا بشاب يجذب

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ١٦٥).

ثوبي من ورائي، ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا.

قال أنا أبو الهيثم العيَّار، اللص الطرَّار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربتُ ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان؛ لأجل الدنيا؛ فاصبر أنت في طاعة الرحمن؛ لأجل الدين»[١].

٥١- التوجيه السليم ومراعاة الميول:

فلهذا الأمر أبلغ الأثر في علو الهمم، وشرف المقاصد، ونيل المآرب؛ ذلك أن نفوس الناس تختلف، ومشاربهم لا تأتلف؛ فكل نفس تميل إلى ما يوافق طبعها، وقد علم كل أناس مشربهم، وكل ميسر لما خلق له.

فهناك من الناس من همته عالية، وإرادته قوية، ولكنه ينزع بها إلى الشر والفساد، كحال بعض المجرمين الذين إذا عزموا على نوع من الإجرام لا يثني عزمهم شيء، بل إن إرادتهم قد تَفْضُل إرادة كثير من الأخيار في قوتها، ولكن عيبهم سوء الوجهة، وقلة المرشد الناصح.

فإذا ما وُجِّهت للخير، وحولت له كانت قوية في الخير كما هي قوية في الشر[٢].

وكذلك الحال بالنسبة لكثير من الناس، فقد يتوجه لمجال لا يلائم ميوله، ولا يناسب مواهبه، ومن هنا فلن تجد له إبداعًا، ولا تفوقًا.

فإذا حُوِّل إلى ما يناسبه، ووجه إلى ما يلائمه أبدع أيما إبداع؛ فلا يعني كوننا لا نبدع في كل شيء أننا لا نصلح لأي شيء[٣].

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٢٩- ٣٣٠).

(٢) انظر: «الأخلاق» (ص٥٥).

(٣) انظر: «قوة الإرادة وطرق تنميتها» د. صلاح مراد (ص٣٤).

٥٢- الإعلام:

فالإعلام له دور خطير، وأثر بالغ في توجيه الناس، والتأثير فيهم، فإذا ما وضع في أيدٍ أمينة، وحَكَمَتْه سياسة بناءة هادفة، تعلي منارات الهدى، وترفع ألوية الفضيلة، وتحمي المجتمعات من عوامل الفساد، وتحرص على رفع الأعلام، وحط الأقزام – فإن لذلك أبلغَ الأثر في علو الهمم، ورفعة الأمم.

٥٣- دور الأُدباء والمُفَكِّرين:

* قد رفع الله شأن الكتابة والبيان حين قال تعالى: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم]، والقسم بها تعظيم لقيمتها في قيادة الأمة قيادة رشيدة على منهج الله عز وجل.

* ولقد مجَّد الله قيمة القلم في أول لحظة من لحظات الرسالة المحمديَّة؛ في أوَّل سورة من سور القرآن الكريم: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق].

* وامتن الله على الإنسان فقال تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن].

فكيف إذا كان البيان أرقى البيان معنًى ولفظًا.

ولا ينكر أحد دور حسّان بن ثابت رضي الله عنه شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم المُؤَيَّد بروح القدس الذي كان كلامه على الكافرين أشد من رَشق النبْل، وشَفَى واشتفى، وكعب بن مالك رضي الله عنه الصحابي الشاعر الذي يُهَدِّدُ دَوْسًا ببيت شعر فتُسْلِمَ:

نُخَيِّرُهـا ولـو نطقـتْ لقالَـتْ ... قَـواطِعُهُنَّ دَوْسًـا أوْ ثقيفَـا

• وفي الحديث عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب: «ما نسِيَ ربك

لك – وما كان ربُّك نَسِيًّا بيتًا قلتَهُ»، قال: وما هو؟ قال: «**أنشده يا أبا بكر**» فقال:

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغُلَّاب

وعبد الله بن رواحة الصحابي الجليل رضي الله عنه.

□ قال محمد بن سيرين: «كان حسَّان وكعب يُعَارِضانِهم بمثل قولهم: بالوقائع والأيام والمآثِر، ويُعيِّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رَواحَة يُعَيِّرُهم بالكُفْرِ، فكان في ذلك الزمان أشدُّ القول عليهم قول حسان وكعب، وأهونُ القول قول عبد الله بن رواحة، فلما أسلموا وفَقِهوا الإسلام، كان أشدُّ القول عليهم قول ابن رواحة».

□ وقال صلاح الدين الأيوبي عن كاتبه العظيم والأديب الكبير القاضي الفاضل عبد الرحيم البِيْساني: «والله ما أخذتِ البلادُ بالعساكِرِ، بل برسائل القاضي الفاضل». وذاك هو وِسام صلاح الدين يُكرِّم به كاتِبَه، بل يُكرِّم به الأدب والأدباء، ويُظهر أثر الكلمة الطيبة الهادفة في إصلاح شؤون الأمَّة ونفي الخبث عنها، وتوحيد صفوفها، ورَفْعِها إلى مستوى معركة المصير التي أحسن صلاح الدين الإعدادَ لها حتى استردَّ بيت المقدس»[1].

□ وقال عنه ابن كثير: «ولما استقرَّ المَلِكُ صلاحُ الدِّين بمصر جَعَلَه كاتبَه وصاحِبَه ووزيرَه وجَليسَه وأنيسه، وكان أعزَّ عليه من أهله وأولادِه، وتساعَدَا على فتح الأقاليم والبلاد، هذا بِحُسَامِه وسِنانه، وهذا بقلمه

---

(١) مجلة «الأدب الإسلامي» – العدد الثامن (ص١).

ولِسَانه وبيانه»[١].

□ وبسمو الأدب تسمو الأمم وتعلو همتها، وعلى النقيض بسفول الأدباء والمفكرين وعمالتهم للصليبيين والمستشرقين تدمَّر الأمم.. فدناءة همة المفكِّرين والأدباء وتطاولهم على ثوابت الدين وماضي الأمة وتاريخها ورموزها تسقط الأمة بسبب هذا الطابور الخامس الذي..

يُرَمْـرِم مـن فُتـات الكُفْـرِ قوتـا ويلعـقُ مِـن كُؤوسِـهمُ الثمالـةْ

يُقَبِّـل راحـةَ الإفْـرِنْجِ دَومًـا ويلْـثَمُ دونـها خَجَـل نِعالـه

والواقع المُرَّ الذي تعيشه الأمة خير شاهد على دور المفكرين والأدباء في حياة الأمم وعُلُوِّ همتها، أو موتها بسفول ودناءة همتها.

□ في القرون الخيرية علا صوت حسان وكعب وابن رواحة ومن سار على دربهم، وفي مستنقعنا الآسن على صوت أدونيس، وعبد الوهاب البياتي، وأحمد عبد المعطي حجازي..

أنـتَ القتيـلُ بِكُـلِّ مَـن أحببتَـهُ فاختر لنفسِك في الهوى من تصطفي

الصفحات السُّودُ لمدارس التغريب والحداثة والتنوير كما عرضتها وثائق الاستخبارات الغربية:

□ كتاب «الصفحات السود لمدرسة التغريب والحداثة والتنوير» لمؤلفه الباحث محمد عبد الشافي القوصي؛ يفتح أشد ملفات الحداثيين خطورة، بالوثائق والأسماء بكل صراحة، حيث أظهر الكتاب تلك التوجهات الفكرية المشهورة طوال القرن العشرين.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٣/ ٢٧- ٢٨).

أحسب أن هذا الكتاب بمنزلة حصاد مرحلة، وشهادة عصر، ورسالة للأمة، وخلاصة رحلات ولقاءات وحوارات وقراءات متنوعة اضطلع بها المؤلف للبحث عن الحقيقة المجردة، والوقوف على معالم الحق.

كشف مؤلفه عن «تجليات المشهد التغريبي في العالم العربي» كما عرضته وثائق الاستخبارات الأجنبية بشهادة الشهود! وحجم الخطر الذي نقله أكابر التغريبيين العرب وسدنة العلمنة، أمثال: أنطون فرح، وسلامة موسى، ولطفي السيد، وطه حسين، ولويس عوض، وأدونيس، ويوسف الخال، وكمال أبو ديب، وصلاح عبد الصبور، وعبد المعطي حجازي، والبياتي، والسياب، وجابر عصفور، وغيرهم من حملة لواء التغريب!

فهو وثيقة مهمة وحجة واضحة، ودليل إدانة لمدارس «التبعية والتغريب والعلمنة التي حولت الثقافة والأدب غالبًا إلى حرب تهاجم الإسلام والمسلمين، وحوّلوا الفكر والفن إلى هتاف وصياح وصرخات تشنجية، ومارسوا أسلوب الإرهاب الفكري في وجه مخالفيهم، ومن ثَم أصبح الأدب لونًا من ألوان المطاردة العنيفة لكل ما هو جاد وأصيل، حتى وجد المخلصون أنفسهم محصورين في زوايا ضيقة، ومرغَمين على الاستسلام والصمت، وخلا الميدان إلَّا من التغريبيين والعازفين على أوتار القيثارة الرسمية.

ولعل صفحات هذا الكتاب الذي بين أيدينا تروي صورًا ومشاهد حية عن «المجتمع المغرَّب» في ميادين الفكر والثقافة والأدب؛ فهناك من يطالب بإزاحة اللغة العربية من الوجود طلبًا للنهضة التي ينشدها،

وهناك من يدعو إلى التخلص من تراثنا لتحقيق الحداثة والتنوير، وهناك من يتجرأ على المقدسات من أجل تحقيق عالمية الأدب، وغير ذلك من الوقائع المخزية والمشاهد الفاضحة التي يمارسها عبيد الحضارة الغربية.

الحرب على لغة القرآن:

يتساءل المؤلف بحسرة: هل إعلان الحرب على اللغة العربية والسخرية منها، وعزلها، بل ومحاولة التخلص منها ومن كل ما يتعلق بها: هل يعد هذا من فنون «الحداثة» وطرائق «التنوير» و«الليبرالية» التي يتغنَّى بها القوم، ويدعون الناس إلى اعتناقها؟! ولِمَ لم يتوقف الهجوم على اللغة العربية يومًا واحدًا منذ أن وطئ الاحتلال الأجنبي الوطن العربي، وحتى بعد رحيله؟!

ثم يجيب قائلًا: إذا كان القوم يزعمون أن اللغة الفصحى عاجزة عن أن تكون لغة العلم والفكر والثقافة والحضارة؛ فهل اللهجات العامية أقدر منها في هذه الميادين؟

بالطبع لا، لكن الأمر بخلاف ما يزعمه القوم؛ فأوروبا ودول الغرب بصفة عامة أدركت منذ الحروب الصليبية قوة الإسلام حضارة وتاريخًا وفكرًا وثقافة، وأيقنوا أن المسلمين إذا أحسنوا صِلتهم بالفكر والثقافة الإسلامية: فلن تكون في الأرض قوة تضارع قوتهم؛ وذلك لما حوته الحضارة والثقافة الإسلامية من القوى الروحية والمعنوية الربانية.

ويشير المؤلف إلى أنه في إطار كراهية أوروبا للإسلام وخوفها منه: كرهت كل ما يتصل بالإسلام ووقفت أمامه وجهًا لوجه، ومن ذلك اللغة العربية الفصحى؛ فهي لسان التنزيل ووعاء الإسلام، وعامل من

أكبر العوامل لتجميع المسلمين وتوحيد صفوفهم، وقيام الروابط القوية بينهم، وأوروبا تخشى وحدة المسلمين، وتعمل بكل وسيلة على تفتيتها بالقوميات والطائفيات.

□ ويؤكد المؤلف أن الحرب على لغة القرآن لم تتوقف بهلاك هؤلاء المرجفين القدامى، بل ما زالت جذوتها مستعرة إلى يومنا هذا: فهاهم الحداثيون ودعاة التغريب لا يألون جهدًا في مقاومة اللغة العربية وآدابها، ومحاولة وأْدِها والتخلص منها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

□ بعد أن عرض المؤلف صورًا مختلفة لألوان التبعية الفكرية والثقافية في مختلف الميادين؛ يتساءل قائلًا: تُرى: ماذا كانت نتيجة هذه التبعية للمذاهب الأدبية الغربية؟ وما ثمرة الهرولة وراء كل بدعة فكرية أو فلسفة أدبية جديدة؟ وما الخطورة التي ترتبت على الدعوة إلى تجديد الشعر في العصر الحديث؟ ولماذا فشلت كل هذه المحاولات، على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها الشعراء والنقاد من أصحاب هذا الاتجاه؟

□ وقد تأثرت الحياة الثقافية والفكرية بهذه الموجات الطاغية من المذاهب الغربية: ففسد المناخ الأدبي في بلدان العالم العربي، وشوهت الحياة الفكرية وغابت رؤاها.

□ وضمن حصار التبعية والتغريب – كما يقول المؤلف-: «نرى الأدب الحديث في بلادنا – بكل أجناسه- ازداد تأثرًا بهذه المذاهب، وتحوَّل بعضه على يد «المتغربين» إلى دعوات فاجرة وهجوم شرس على العقيدة الإسلامية وتراثها، فلم يقتصر التأثير على استعارة الأدوات الفنية، بل امتد إلى الخلفيات الفكرية والفلسفية التي تصدر عنها المذاهب

الأدبية الغربية، وصدرت قصص ودواوين تحمل صورتها وتدعو إليها صراحة وضمنًا.

كما توزّع قسم من أدبنا خلف الأيديولوجيات الكثيرة المختلفة، ووجدت الماركسية قبل سقوطها أدباء يجسدون أفكارها، ويدعون من خلال أعمالهم الأدبية إلى الالتحاق بها.

ووجدت الكتلة الغربية أبواقًا تدعو بقوة إلى اعتناق حضارتها وتقليد فنونها وآدابها، بل عن النصرانية التي هُزمت في بلادها وعُزلت عن الحياة دخلت بفضل الغزو الثقافي إلى إنتاج عدد كبير من أدبائنا ومثقفينا. وقد خلَّف هذا التيار وذاك آثارًا كبيرة في الأدب المعاصر، وفي مقدمتها: الرموز النصرانية المتفشية في الشعر الحديث، وقصص الإنجيل التي أصبحت مادة أساسية لعدد من الشعراء والقصاصين.

ومما يزيد الطين بِلَّة، ظهور أعمال أدبية تعبث بالقيم الإسلامية، كما ظهر في الأدب العربي الحديث؛ نحو العبث بالمفاهيم الدينية العليا، والاستخفاف بمقام الألوهية!

وهكذا اختلطت الأصوات وتوزّع قسم وافر من أدبنا المعاصر وراء المذاهب الأدبية الغربية، وحمل أدواتها الفنية من جهة، وقيمها وتصوراتها من جهة أخرى؛ ففقد كثيرًا من ملامح الشخصية العربية الإسلامية، وتحوَّل إلى أداة تهاجم الإسلام والمسلمين بشكل سافر، وتتطاول على المقدسات بوقاحة كبيرة.

وهذا هو السبب الرئيس وراء تراجع الأدب العربي عن موقع الريادة، ومن ثم تفوقت الآداب الأخرى عليه في الحقبة الأخيرة؛ وذلك لأن

الأدب العربي الحديث انحرف عن طريقه الطبيعي بما دخل عليه من مفاهيم وقيم وافدة من ناحية المضمون، وبما اصطنع من أساليب غربية من ناحية الأداء.

وانطلق دعاة التغريب يرددون بوعي وبدون وعي: أن الأدب العربي له استقلاليته عن الفكر الإسلامي، وله حريته في مجال الأداء دون اعتبار للمسؤولية الأخلاقية والحدود والضوابط التي قررها الإسلام للمجتمع، وهذه أخطر السهام المسمومة التي أصابت الأدب العربي الحديث والمعاصر، فضلًا عن تبعيته المطلقة للآخر.

فأمتنا تشهد اليوم انسلاخًا حضاريًا وهجومًا كبيرًا على أيدي هؤلاء القوم، ومن ذلك ما يرددونه من زخرف القول، وما يدَّعونه من حياد الفن وتحرره من قيود العقيدة، وهؤلاء يقدمون أدبًا سخيفًا وفنًّا مُدمِرًا للأخلاق، ومدمرًا للشعور، زاعمين أنه لا علاقة بين الدين والأدب، كما زعم إخوانهم في الغي أنه لا علاقة بين الدين والسياسة!

الهجمات المغرضة على الشعر العربي:

□ ويتساءل المؤلف: ما الخطورة التي ترتبت على الدعوة إلى تجديد الشعر في العصر الحديث؟ ولماذا فشلت كل هذه المحاولات اليائسة والمغرضة؟

فيقول: لأنه لم تكن الدعوة إلى تجديد الشعر صادقة من الأصل؛ فالتجديد عندهم كانت فحواه التخلص من موسيقى الشعر، هذا الباب الذي دخل منه شعراء الحداثة بدعوى أن «القصيدة العمودية» تحجر على الشاعر آفاق الرؤية، وتقص من أجنحة الخيال، وتجعله يرقص في

السلاسل، وقد بدأ الأمر في البداية محتشمًا بالالتزام بتفعيلات الخليل، غير أن الأمر انتهى بعد ذلك إلى الشكل الهجين الذي يسمى «قصيدة النثر» وإلى الدعوة إلى التخلص من كل لون من ألوان العروض الخليلية. وقد كان ذلك على صعيدين الإنجاز الشعري من جهة، بقيادة أدونيس وصبيانه، والإنجاز النقدي من جهة، بقيادة كمال أبو ديب وربائبه.

وقد برزت من خلال ذلك كله نظرية «الحداثة» الغربية التي كان يمثلها المستقبليون في أوائل هذا القرن، وتركزت مبادئهم في التمرد على الماضي والحاضر، والدعوة إلى تحطيم اللغة الشعرية التقليدية وتحرير الكلمات من معانيها الموروثة، والتخلص من العقل والمنطق، وتدمير القواعد والتراكيب اللغوية؛ طلبًا لحداثة اللغة، واستجلابًا للغموض الذي يعد ملمحًا أساسيًا في شعرهم استلهامًا من المذهبَين: الرمزي، والسريالي.

ويكفي أن تعلم أن رمز «المسيح» وَرَدَ في ديوان «أنشودة المطر» للسياب حوالي أربع وعشرين مرة، حتى لكأنك تظن السياب شاعرًا نصرانيًّا! وما ذلك إلَّا لانسياقه وراء «إليوت» الشاعر المتعصب للكاثوليكية.

وفي حالة استلهام الحداثيين للتراث العربي الإسلامي؛ يقدمونه بشكل مشوَّه، ويختارون منه النماذج والشخصيات الشاذة المنحرفة، أو التي احتاطت الأمة بحذر شديد من أفكارها وآرائها: كالحلَّاج، والسُّهروردي، ومهيار الديلمي، وغيرهم.

من يدفع أُجرة الزمَار؟!

▫ وقد ختم المؤلف كتابه بتوجيه ضربة دامغة لمعسكر الحداثيين في رأيي، وذلك بعرض بعض ما جاء في كتاب «الحرب الباردة الثقافية» الذي يُعرّي «ميليشيات الحداثة» أو «مارينز الثقافة العربية» حتى من ورق التوت الذي تواروا خلفه، كما يكشف دور المخابرات في عملية الاستيلاء على عقول البشر، ويفضح أكذوبة «السلام الأمريكي» الذي يبشر بعصر تنوير جديد يطلقون عليه اسم «القرن الأمريكي» أو هكذا زعموا!

▫ فيقول: إن خطورة كتاب «الحرب الثقافية الباردة» تكمن في قدرة مؤلفته على سرد الحقائق المتراكمة وجمع الصورة بجوار الصورة، من خلال الصبر والأناة في جمع المادة الأرشيفية والشهادات، لتكشف عن دور المخابرات الأمريكية في عالم الفنون والآداب، وتكشف لنا سر مواقف وتحولات عديدة في عالم الثقافة عندما كان مثقف الستينيات الملتزِم في مصر والوطن العربي يرقبها فاغرًا فاه، دون أن يدري أسبابها.

▫ ويدور موضوع هذا الكتاب - كما يشرح المؤلف - حول مؤامرات المخابرات المركزية الأمريكية الـ C.I.A والدور الذي قامت به في عالم الفنون والآداب بتمويلها لأنشطة ثقافية ومهرجانات فنية وموسيقية، وإنشاء مجلات أدبية واتحادات فنية وموسيقية، وإقامة مكتبات عامة ومراكز ثقافية في جميع أنحاء العالم، وبخاصة في أوروبا؛ لمواجهة المد الشيوعي ونفوذه الفكري والثقافي وسط تجمعات المثقفين، وذلك بغية الترويج للنمط أو «النموذج الأمريكي» في الحياة والفكر والثقافة.

▫ وترى المؤلفة أن ما فعلته (C.I.A) في عالم الفن والأدب لإعادة

بناء البنية الثقافية في العالم بما يؤدي إلى كراهية النمط القديم والهرولة وراء النموذج الأمريكي؛ يؤكد سرعة الثقافة في التأثير على الوعي وعلى الوجدان، من خلال الرواية الأدبية والدراما في السينما والتلفزيون والمعارض الفنية والحفلات الموسيقية، بحيث يُتخلَّ تدريجيًّا عن نمط قديم واكتساب نمط آخر، يركز على الحريات المطلقة دون ضوابط مقابل القيود القائمة في الشرق! فالجماهير كانت تتشرب على مدى أكثر من أربعين عامًا وبالتدريج ثقافةً معادية تداعب غرائز التملك والتفوق والأنانية، فأثبتَ هذا في النهاية أن تغيير نمط في السلوك والفكر أقوى من تغيير نمط الإنتاج.

إن هذا الكتاب سيرى القارئ له أنه أقوى صفعة في وجه ذلك التيار؛ لأنه أورد بالأدلة والبراهين والحجج الدامغة أسماء الأدباء والمثقفين التغريبيين، وكذلك أسماء الصحف والمجلات التي كانت تمولها وتشيد بهم مغرِّرة الناس باتجاهاتهم»[١].

٥٤- المواقف التي تمرّ بالإنسان:

«فكما أن الأحداث والمواقف التي تمر بالأمة تكون سببًا من أسباب علو الهمة – فكذلك الفرد نفسه إذا مرت به أحداث ومواقف، وتقلبات في حياته، من محن، وبلايا وغير ذلك – فإنها تؤثر فيه، وتترك أثرها في نفسه، وقد تكون سببًا لنهوضه ورفعته؛ ذلك أن للهمم خمودًا، وللعزائم

---

(١) «الصفحات السود لمدارس التغريب والحداثة والتنوير كما عرضتها وثائق الاستخبارات الغربية» مقالة لصلاح حسن رشيد بمجلة «البيان» العدد (٢٤٧) (ص٨٦- ٨٨).

فترةً، ولا يتيقظ من فترتها إلَّا من استفزته صروف الحوادث، وأرتْهُ كيف يرقى أناس إلى مكانة العز، وينحط آخرون إلى وهدة السقوط، ولا تفعل ذلك إلَّا بمن أدركت منه رمق حياة لم يزل نبضها خافقًا.

أما من جف طبعه، وسكنت إحساساته حتى التحق عند أولي البصائر ببهيمة الأنعام - فلا يحس لها وجيةً[١]، ولا يسمع لها ركزًا[٢].

ولهذا كان امرؤ القيس في حياة والده - شابًّا لاهيًا، عابثًا، همُّه ملاحقة النساء، وتشرابُ الخمور؛ إذ كان ينعم بطيب العيش تحت ملك والده.

وعندما قُتِل والده، وزال الملك الذي تحت يديه - أثَّر به ذلك الموقف أيما تأثير، فاستيقظ من رقدته، وهب من سباته، وأعلى من همته، وترك شرب الخمر، وبدأ يسعى في استعادة ملك أبيه.

▫ فبعد أن كان يقول:

لنا غنم نُسَوِّقُها غِزارٌ ... كأن قرون جلتها العصيُّ

فتملئ بيتنا إقطًا وسمنًا ... وحسبك من غنى شبعٌ وريُّ[٣]

▫ أصبح يقول: «لا صحو اليوم، ولا سكر غدًا، اليوم خمر، وغدًا أمر».

وآلى على نفسه ألا يأكل لحمًا، ولا يشرب خمرًا، ولا يدَّهن بدهن، ولا يصيب امرأة، ولا يغسل رأسه - حتى يقتل من بني أسد مئة، ويجزَّ نواصي مئة، بثأر أبيه»[٤].

---

(١) الوجية: الحركة والاضطراب.

(٢) انظر: «السعادة العظمى» (ص٦٤).

(٣) «ديوان امرئ القيس» (ص١٧١).

(٤) «ديوان امرئ القيس» (ص٨).

□ وأصبح يقول من أمثال قوله:

فلو أنما أسعى لأدنى معيشةٍ ... كفاني – ولم أطلب – قليلٌ من المال

ولكنما أسعى لمجدٍ مُؤَثَّلٍ ... وقد يدرك المجدَ المؤثلَ أمثالي[1]

فقوله: –ولم أطلب– جملة اعترض بها بَيْنَ الفعل «كفاني» وفاعله «قليل».

وفائدتها تحقير شأن المعيشة، وتبرئة سعيه أن ينضي الطلب إلى ما هو أدنى؛ فإنها مما يحصل بغير طلب ولا عناء.

وإنما الذي يحتاج إلى الطلب هو المجد المؤثل، ولا يدركه إلَّا عظماء الرجال[2]»اهـ[3].

سيد قطب وفرح الغرب بموت حسن البنا ونقطة التحوَّل في حياة سيد قطب:

كان سيد قطب علمًا من أعلام الأدب يُشار إليه بالبنان، وقدّر الله له نقطة التحول في حياته يوم مقتل الشيخ حسن البنا رَحِمَهُ اللهُ، ورأى السعادة الغامرة وفرح الأمريكان بمقتله وتهنئة الصليبيين بعضهم بعضًا بهذا الحدث الكبير، وتخلصهم من هذا الكابوس المخيف «حسن البنا»، وقتها كان الأستاذ سيد قطب في أمريكا، فكانت نقطة التحوَّل الكبيرة في حياته ليبدأ مشواره مع الله عَزَّ وَجَلَّ فكانت كتبه[4]، التي فاح شذاها، وضاع عبيرُها في الدنيا والأمصار.

---

(١) «ديوان امرئ القيس» (ص١٢٩).

(٢) انظر: «الحرية في الإسلام» (ص١٠).

(٣) «الهمة العالية» (ص١٥٣ – ١٥٥).

(٤) كل إنسان يُؤخذ منه ويُرَدُّ، وفي «ظلال القرآن» أخطاء كبيرة ومخالفة لاعتقاد أهل السنة لا نوافقه أبدًا عليها، وللإنصاف لا بد أن نذكر ما للرجل وما عليه.

٥٥- عزة النفس:

فعزة النفس تعني الارتفاع عن مواضع المهانة، ويقابلها الضعة، وهي انحدار النفس في المهانة [١].

فعزيز النفس لا يريق ماء وجهه، ولا يبذل عرضه فيما يدنسه، فيبقى موفور الكرامة، مرتاح الضمير، مرفوع الرأس، شامخ العرنين، سالمًا من ألم الهوان، متحررًا من رق الأهواء ومن ذل الطمع، لا يسير إلَّا وفق ما يمليه عليه إيمانُه، والحقُّ الذي يحمله ويدعو إليه؛ فعزة النفس من كبر الهمة، «وكبر الهمة يعقد الألسنة عن الانطلاق في مجاري التملق والمداهنة» [٢].

ولهذا تجد أن أشد الناس عزمًا ومضاءً هو أنزههم نفسًا، وأبعدهم عن الطمع وجهة.

□ قال الثعالبي: «ومن أحسن ما سمعت في القناعة قول ابن طباطبا العلوي:

كــن بــما أوتيتــه مقتنعًــا تَـسْتَدِمْ عــسر القنــوع المكتفــي

إن في نيــل المنــى وَشْــكَ الــردى وهــلاك المــرء في ذا الــسرفِ [٣]

□ قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَمَـتُّ مطـامعي فأرحـت نفـسي فـإن الـنفس مـا طمعـت تهـون

---

(١) «عزة النفس» و«السخاء» و«الإعراض عن الجاهلين» هذه الأسباب الثلاثة مأخوذة من «الهمة العالية» لمحمد بن إبراهيم (ص١٦٢- ١٨٤).

(٢) «حياة الأمة» (ص٣١).

(٣) «أحسن ما سمعت» (ص٢٢).

وأحييت القنوع وكان ميتًا ... ففي إحيائه عرضٌ مصون

إذا طمعٌ يَحِلُّ بقلب عبد ... عَلَتْه مهانة وعلاه هون[1]

□ وقال:

رأيت القناعةَ كنز الفتى ... فصرت بأذيالها ممتسك

فلا ذا يراني على بابه ... ولا ذا يراني به منهمك

وصرت غنيًّا بلا درهم ... أَمُرُّ على الناس شبه الملك[2]

□ ومما ينسب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله:

أفادتني القناعةُ كلَّ عزٍّ ... وهل عزٌّ أعزُّ من القناعةْ

فَصَيِّرْها لنفسك رأسَ مالٍ ... وصيِّرْ بعدها التقوى بضاعةْ

تُحز ربحًا وتغنى عن بخيل ... وتنعم بالجنان بصبر ساعةْ[3]

□ وأنشد ثعلب:

من عفَّ خفَّ على الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهه مبذول

وأخوك مَنْ وفَّرت ما في كيسه ... فإذا استعنت به فأنت ثقيل[4]

ثم إن عزة النفس تلقي على صاحبها مهابة ووقارًا في العيون، وتحرز له جلالة ومكانة في القلوب، وذلك مما تنشرح له صدور العظماء.

---

(١) «ديوان الشافعي» (ص٨٥).

(٢) «ديوان الشافعي» (ص٢٧).

(٣) «ديوان الإمام علي» (ص١٢١ - ١٢٢).

(٤) «عين الأدب والسياسة» (ص١٣٧).

وإنما عيب الرجل في أن يجعل هذه المكانة غايته المنشودة، أو أن يتخذها حبالةً لاصطياد مآرب لا يتعداه نفعها.

ولهذه الخصلة – كذلك- آثار صالحة في الاجتماع؛ فإن الأمة التي تُشْرَبُ في نفوسها العزة يشتد فيها الحرص على أن تكون مستقلة بشؤونها، غنية عن أمم من غيرها، وتبالغ في الحذر في أن تقع في يد مَنْ يطعن في نحر كرامتها، ولا يستحيي الإنسانية أن تراه مهتضمًا لحق من حقوقها [(١)].

ولئن كانت عزة النفس جميلةً رائعة فَلَهِيَ من أهل العلم أجمل وأروع.

ولئن كانت مرغوبةً مطلوبةً من كل أحد فلهي من أهل العلم أولى وأحرى.

فأكرم بمن رفعه العلمُ فرفع العلمَ، فصار عودًا مرًّا، ومكسرًا صلبًا، لا تلين له في نصرة الحق قناة، ولا يفت له عضد، يقف للمبطلين موقف الشجى بين الحلق والوريد، فيصارعهم بالحجة، ويفلجهم بالبينة.

وأجدر بذي العلم أن يكون ذا نفس عزيزة زكية، وساحة طاهرة نقية؛ حتى لا يكون الخلل حائلًا بينه وبين هداية الناس [(٢)].

□ ورحم الله القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني؛ إذ يقول في عزة أهل العلم:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما ... رأوا رجلًا عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أَكْرَمَتْهُ عزةُ النفس أُكرِما

(١) انظر: «رسائل الإصلاح» (١/ ١٢٥- ١٢٦).

(٢) انظر: «السعادة العظمى» (ص٢٠٩- ٢١٢)، و«حياة الأمة» (ص٣١- ٣٢).

ولم أقضِ حقَّ العلمِ إن كان كلما ... بدا طمعٌ صيَّرْته لي سُلَّمًا

وما كلُّ برقٍ لاح لي يستفزُّني ... ولا كل من لاقيت أرضاه منعما

إذا قيل: هذا منهلٌ قلت قد أرى ... ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتمل الظما

أُنَهْنِهُهَا عن بعض ما لا يشينها ... مخافة أقوال العدا فِيمَ أَوْ لِما

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأُخْدما

أأشقى به غرسًا وأجنيه ذِلَّةً! ... إذن فاتباعُ الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظَّموه في النفوس لَعُظِّما

ولكنْ أهانوه فهانوا ودنَّسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما [(١)]

وصفوة المقال في عزة النفس أنها ترجع إلى معرفة المرء قيمةَ نفسه؛ فلا يوردها إلَّا الموارد التي تليق بها؛ فيشعر بكرامة نفسه، ويشعرها بما لها من حقوق، فلا يسمح لمخلوق كائنًا من كان أن ينال منها مثقال ذرة، كما يشعر بما عليه من واجبات، فلا يسمح لنفسه أن يعتدي على حقوق الناس مثقال ذرة أيضًا.

وهي بمعناها الدقيق احترام نفسك من غير احتقار لأحد، وأن تقف موقفًا له جانبان: فإن نظرت إلى من هو أعلى منك في المنصب والجاه ونحو ذلك؛ فلا تُمَكِّنْهُ أن ينال من نفسك ولو ذرة، ولا أن يتعدى حدوده ولو شعرة.

---

(١) «أدب الدنيا والدين، والبداية والنهاية» لابن كثير (١١/ ٣٥٥)، و«خاص الخاص» (ص٢٢٨- ٢٢٩).

وإذا نظرت إلى من هو أسفل منك فلا تتعدى حدودك، وإذا شعرت باستخذائه وذلته فارفع مستواه ما استطعت حتى يصل إلى الحدود [١].

٥٦- السخاء:

فالسخاء يقوم على الشعور بأن للمال قيمةً تستدعي عدم الإسراف في إنفاقه؛ وأن للحياة الفاضلة مطالب يُبذل المال في سبيلها غير مأسوف عليه؛ فهو بذل ما ينبغي في الوجه الذي ينبغي الإنفاق فيه.

فمن أطلق يده في اتبــاع الشــهوات فهو مسـرف، ومن قبضـها عن الإنفاق في وجوه الخير فهو بخيل، أما السخاء فكان بين ذلك قوامًا.

وبما أن السخاء يقوم على الرحمة، وقلة الحرص على جمع المال – كان متصلًا بفضائل أخرى تعد من مقومات الهمة العالية، ومن مظاهرها الجلية؛ فالسخي في أغلب أحواله يأخذ بالعفو، ويتحلى بالحلم، ويجري في معاملاته على الإنصاف، فيؤدي حقوق الناس من تلقاء نفسه، وإذا قضى كان عادلًا، فلا تطمح نفسه إلى رشوة، ولا تحدثه أن يأخذ حقَّ ضعيف إلى قوي.

ولتجدنَّ السخيَّ بحق متواضعًا، لا يطيش به كبر، ولا تستَخِفُهُ الخيلاءُ، ولتجدنَّه أقرب الناس إلى الشجاعة وعزة النفس؛ وإنما يخسر الإنسان الشجاعة والعزة بشدة حرصه على متاع الحياة الدنيا.

---

(١) انظر: «فيض الخاطر» (٢/ ١٤٧ و١٤٩).

□ قال أبو الطيب:

فأَحْسَنُ وجهٍ في الورى وجهُ مُحْسِنٍ وأيمن كفٍّ فيهم كفُّ مُنْعِمِ [١]

أما البخيل فلفراغ قلبه من الرحمة، ولقلة اهتمامه بأن يكون له ذكر جميل، ولحرصه على جمع المال حرصًا يعمي ويُصمُّ - تجده قد فقد كثيرًا من المكارم، وجمع إلى الشح كثيرًا من الرذائل، كما قال عمرو بن الأهتم:

ذريني فإن البخل يا أمَّ هيثم لصالح أخلاق الرجال سروق [٢]

فإذا اتصف المرء بالسخاء زكت نفسه، ولانت عريكته، وقاده سخاؤه إلى أن يترقى في المكارم، وأن يتطهر من المساوئ والمعايب؛ فالسخي قريب من كل خير وبر.

□ قال الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضةً عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد، ومعاناة القوة في الصراع ونحوه.

أما الشح فلا يناقض تلك الطبيعة، ولكنه يَدَعُها جامدة مستعصية، لا تلين، ولا تستجيب، ولا تتيسَّر»[٣].

ولقد جرت سنة الله بأن السخي بحق يفوز بالحياة الطيبة، ولا تكون عاقبته إلَّا الرعاية من الله والكرامة؛ فلما كان السخي رحيمًا بالفقراء والمساكين والمحتاجين، حريصًا على إسعادهم وإدخال السرور والبهجة

(١) «ديوان المتنبي» (ص٤/ ١٤١).

(٢) «شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم»، دراسة وتحقيق د. سعود عبد الجابر (ص٩٢).

(٣)«وحي القلم» (٣/ ١٤).

في نفوسهم – كان جزاؤه من جنس عمله[١].

أثر السخاء في سيادة الأمة[٢]:

للسخاء أثر في سيادة الأمة؛ فالأمة تبلغ القدر الأسمى من السيادة بحفظ دينها، وسعة معارفها، وسمو أخلاقها، وصيانة أعراضها، ونباهة ذكرها، ومتانة اتحادها، وحماية أوطانها.

وكل هذه المقاصد الرفيعة الشأن – إنما تتحقق بالمال الذي يبذله الأسخياء من الناس.

فللسخاء أثر في حفظ الدين؛ فالمساجد التي تقام فيها الصلوات والمدارس التي تدرس فيها علوم الدين ووسائلُها، والجمعيات التي ترشد بمحاضراتها ومجلاتها إلى حقائق الدين، وتدعو إلى التمسك بعروته الوثقى، والمحاكم التي تُنْصَبُ للعدل بين الناس وتحكم بشريعة الإسلام الغراء – كل ذلك معدود من مآثر السخاء.

وللسخاء أثر عظيم في تنمية العلوم، وسعة المعارف، وذلك من خلال ما تجود به النفوس الكريمة من أموال تصرف في إنشاء مدارس للتعليم، أو طبع كتب قيِّمة، أو عقد مسابقات لتحقيق بحث علمي أو أدبي.

وللسخاء أثر في نبل الأخلاق وسلامتها من جهة أنه يحفظ الدين، وينمي العلوم.

وبحفظ الدين، ونمو العلوم ترتفع الأخلاق، وتبلغ الذروة في كمالها.

وللسخاء أثر في إنقاذ كثير من الناس من عوز الفقر، الذي قد ينجرف بهم إلى فساد الأخلاق، وضيعة الآداب.

---

(١) انظر: «الهداية الإسلامية» (ص٨٤– ٨٩).

(٢) انظر: «الهداية الإسلامية» (ص٨٩– ٩٢).

وللسخاء أثر في صيانة الأعراض؛ ذلك أن الكريم يبذل المال لذي الحاجة، فيصون وجهه من الابتذال بالسؤالِ، والسؤالُ يزري بصاحبه، ويجعله عرضة للوقيعة فيه.

ثم إن الأسخياء يصونون أعراضهم بما يسدُّون به أفواه أناس لولا عطاؤهم لأطلقوا ألسنتهم بذمهم وهجائهم، ولاختلقوا لهم معايب وهم منها براء.

□ قال بعض الشعراء:

وما خير مالٍ لا يقي الذمَّ ربَّه ... ونفس امرئٍ في حقها لا يهينها [(١)]

□ وقال المثقِّب العبدي:

لا يبالي طيبُ النفس به ... تلَفَ المال إذا العرض سَلِمْ

أجعل المال لِعِرْضي جُنَّةً ... إن خير المال ما أوفى الذِّمَمْ [(٢)]

□ وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أصون عرضي بمالي أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض بالمال [(٣)]

□ وقال الشافعي رحمه الله:

وعداوة الشعراء داء معضل ... ولقد يهون على الكريم علاجه [(٤)]

ولهذا فالبخلاء كثيرًا ما يكونون عرضة للهجاء، بل إن أكثر مادة للهجاء في الجاهلية هي البخل والبخلاء؛ فإذا هجي الرجل سارت

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٣٤٠).
(٢) «المفضليات» (ص٢٩٤).
(٣) «ديوان حسان بن ثابت» (ص١٩٢).
(٤) «ديوان الشافعي» (ص٣٤) تحقيق الزغبي.

الركبان بذمه وعيبه.

◻ قال الثعالبي: «قال بعض الرواة: أهجى بيت للعرب قول الأعشى:

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم ... وجاراتكم غرثى يَبِتْنَ خمائصا [(١)]

◻ ولهذا كان جرير يتألم كثيرًا من قول الأخطل:

قوم إذا استنبح الأضياف كَلْبَهُمُ ... قالوا لأُمِّهُمُ بولي على النار [(٢)]

وللسخاء أثر في نباهة الذِّكرِ بعد سلامة العرض؛ فإن الفضائل – والسخاء في مقدمتها – تطلق الألسنة بالثناءِ، والثناءُ الصادق من النعم التي تقابل بالارتياح والشكر.

◻ قال عمرو بن الأهتم:

وإن المجد أوَّله وَعُورُ ... ومصدر غِبِّه كرمٌ وَخيرُ [(٣)]

وإنك لن تنال المجد حتى ... تجودَ بما يَضَنُّ به الضمير

بنفسك أو بمالك في أمور ... يهاب ركوبها الوَرِعُ [(٤)] الدَّثور [(٥)]

◻ وكان خالد بن عبد الله القسري يقول: «تنافسوا في المغانم، وسارعوا إلى المكارم، واكتسبوا بالجود حمدًا، ولا تكتسبوا بالمال ذمًّا، ولا تَعِدوا بمعروف ولم تعجلوه، واعلموا أن حوائج الناس نعمةٌ من الله

---

(١) «أحسن ما سمعت» للثعالبي (ص١٣٠).

(٢) «ديوان الأخطل» (ص١٦٦).

(٣) الخِير: الشرف.

(٤) الورع: المتحرج، الدثور: الخامل النؤوم.

(٥) «المفضليات» (ص٤١٠).

عليكم، فلا تملوها فتعودَ نِقَمًا»[(١)].

□ وقال ابن حبان البستي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالواجب على العاقل إذا أمكنه الله من حطام هذه الدنيا الفانية، وعلم زوالها عنه، وانقلابها إلى غيره، وأنه لا ينفعه في الآخرة إلَّا ما قدم من الأعمال الصالحة - أن يبلغ مجهوده في أداء الحقوق من ماله، والقيام بالواجب في أسبابه، مبتغيًا بذلك الثواب في العقبى، والذكر الجميل في الدنيا؛ إذ السخاء محبة ومحمدة، كما أن البخل مذمة ومبغضة، ولا خير في المال إلَّا مع الجود»[(٢)].

□ ثم إن للسخاء أثرًا في ستر العيوب وإن كثرت، قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإن كثرت عيوبُك في البرايا ... وسَرَّك أن يكون لها غطاء

تَسَتَّرْ بالسخاء فكلُّ عيبٍ ... يُغَطِّيه كما قيل السخاء[(٣)]

وللسخاء أثر في ائتلاف القلوب، وتأكيد رابطة الإخاء؛ ذلك أنه يبذر محبة المحسنين في قلوب ذوي الحاجات.

بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

□ وكما يسخو المرء ثم إن من وجوه السخاء صرفَ المال في نحو ضيافة أو هدية ولو لغير ذي حاجة.

وهذا مما يذهب بالجفوة، ويجعل القلب من القلب قريبًا.

---

(١) «اتحاف النبلاء بأخبار وأشعار الكرماء والبخلاء» لابن المبرد الحنبلي تحقيق يسري البشري (ص٦٠).

(٢) «روضة العقلاء» (ص٢٣٥).

(٣) «ديوان الشافعي» (ص١٦) تحقيق الزغبي.

بل إنه يقضي على كثير من الأخلاق المرذولة، والتي من شأنها أن تفتك بالجماعة وتقضي على وحدتها، كرذيلتي الحسد والكبر؛ فالكبر من ذوي اليسار، والحسد من ذوي الحاجة والفاقة.

فبالسخاء يتواضع ذوو اليسار، وبه يزول الحسد من ذوي الحاجات.

أما أثر السخاء في حماية الأوطان فإن إعداد وسائل الدفاع إنما يكون بالمال، وعلى قدر سخاء الأمة يكون الاستعداد.

وسخاء الأمة في سبيل الدفاع يأتي على حسب شعورها بالكارثة التي تقع فيها إذا هي تركت الدفاع.

* هذا وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الإمساك عن الإنفاق في سبيل دفع العدو إلقاءٌ باليد إلى التهلكة، فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بماله في سبيل مجاهدة الأعداء فكذلك يسخو بسلاحه، فيقول:

لئن لم أكن فيكم خطيبًا فإنني بسيفي إذا جدَّ الوغى لَخَطيبُ[1]

□ وكما يسخو بسلاحه يسخو كذلك بقلمه فيقول:

ولي قلمٌ في أنملي إن هَزَزْتُه فما ضرني ألا أَهُزَّ المهندا[2]

من صور السخاء[3]: ومما ينبغي أن يعلم أن السخاء ليس مقتصرًا على بذل المال فحسب، بل إن مفهومه أوسع، وصوره أعمُّ وأشمل:

أ- فيدخل في قبيل الأسخياء من يكون له دين على آخر فيطرحه عنه، ويخلي ذمته منه، وهو يستطيع الوصول إليه دون عناء ولا تعب.

---

(١) «كتاب الصناعتين» لأبي هلال العسكري (ص٢٢).

(٢) «الهداية الإسلامية» (ص٩١).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٩- ٢٨٢)، و«الهداية الإسلامية» (ص٨٤- ٨٩).

□ «كان قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين، حتى إنه مرض مرةً، فاستبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم، فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مِمَّا لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالًا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حلٍّ؛ فما أمسى حتى كُسِرت عَتَبةُ بابه من كثرة من عاده»[(١)].

ب- ويدخل في قبيل الأسخياء من يستحق على عمل أجرًا فيترك الأجر من تلقاء نفسه.

ج- ويدخل في قبيلهم من يسعى في قضاء حوائج الناس، وتفريج كرباتهم.

□ عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «لأن أقضيَ حاجة أخ أحبُّ إلي من أن أعتكف سنة»[(٢)].

□ وقيل لابن المنكدر: «أي الأعمال أحبُّ إليك؟

قال: إدخال السرور على المؤمن».

□ وقيل: أي الدنيا أحب إليك؟

قال: «الأفضال إلى الإخوان»[(٣)].

---

(١) «مدارج السالكين» (ص٢/ ٢٧٨).

(٢) «عيون الأخبار» (٤/ ١٧٥).

(٣) «عيون الأخبار» (٤/ ١٧٤).

□ وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الناس بالناس مـا دام الحيـاة بهـم ... والسعد لا شـكَّ تـارات وهبَّـاتُ

وأفضل الناس ما بين الورى رجل ... تقضى عـلى يـده للنـاس حاجـات

لا تَمْنَعَنَّ يـدَ المعـروف مـن أحـد ... ما دمـت مقتـدرًا فالـسعد تـارات

وأشـــكر فـــضائل صـــنع الله إذ ... إليك لا لك عند الناس حاجات [١]

د- ويدخل في السخاء سخاوة الإنسان بجاهه، بحيث يبذله في سبل الخير، والشفاعات الحسنة، من إحقاق حق، ونصرة مظلوم، وإعانة ضعيف، ومشي مع الرجل إلى ذي سلطان، ونحو ذلك.

* قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء: ٨٥].

• وقال النبي ﷺ: «اشفعوا تؤجروا»[٢].

□ قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأدِّ زكـاةَ الجـاه واعلـم بأنهـا ... كمثل زكـاة المـال تـم نـصابها [٣]

هـ- ويدخل في السخاء سخاء الإنسان برياسته، فيحمله سخاؤه على امتهانها، والإيثار في قضاء حاجات المتلمس.

و- ومن السخاء سخاء الإنسان براحته، وإجمام نفسه، فيجود بها تعبًا وكدًّا في مصلحة غيره.

(١) «ديوان الشافعي» تحقيق خفاجي (ص٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ١١٨)، ومسلم (٢٦٢٧) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) «ديوان الشافعي» تحقيق الزغبي (ص٢١).

□ ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذاته لمسامره، كما قيل:

متَّيمٌ بالندى لو قال سائلهُ   هبْ لي جميعَ كرى عينيك لم ينم[١]

ز- ومن ذلك سخاء الإنسان بوقته في سبيل نفع الناس أيًا كان ذلك النفع.

ح- ومن جميل السخاء سخاء الإنسان بالنصح والإرشاد.

ط- ومن أعلى مراتب السخاء سخاء الإنسان بالعلم، وذلكم أفضل من السخاء بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال.

والناس في السخاء بالعلم مراتب متفاوتة، وقد اقتضت حكمة الله، وتقديره النافذ ألا ينفع به بخيلًا أبدًا.

ومن الجود به أن تبذله لمن يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحًا.

ومن الجود به أن السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جوابًا شافيًا، فلا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصرًا على ذلك.

ومن السخاء بالعلم أن لا يقتصر على مسألة السائل، بل يذكر له نظائرها، ومتعلقاتها، ومآخذها، بحيث يشفيه، ويكفيه.

ي- ومن السخاء سخاء الإنسان ينفع البدن على اختلاف أنواعه، كما قال ﷺ: **«يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة كلَّ يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه صدقه، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة يمشيها**

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٩).

الرجل إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة»[١].

ك- ومن السخاء سخاء الإنسان بعرضه لمن نال منه، كما جاء في خبر أبي ضمضم: قال النبي ﷺ: «**أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضيغم، أو ضمضم** – شك ابن عبيد [٢]- **كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك**»[٣].

□ قيل للشعبي: «فلان يَتَنَقَّصُك ويُشتِمُك، فتمثل الشعبي بقول كُثَيِّر عَزَّة:

هنيئـًا مريئًـا غـير داءٍ مخـامرٍ ... لِعَزَّةَ من أعراضنا ما استحلتِ

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مَقْلِيَّةً إن تَقَلَّتِ [٤]

وفي هذا السخاء من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق – ما فيه.

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى (ص٧٢٠).

(٢) هو محمد بن عبيد بن حساب.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٨٦)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٨٠)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص٦٥)، والخطيب البغدادي في «موضح أوهام الجمع والتفريق» (١/ ٣٥- ٣٦) كلهم عن أنس، وضعفه العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» (٣/ ١٦٣)، وكذلك الألباني في «إرواء الغليل» (٨/ ٣٢)، ولكن له شاهد عند أبي هريرة أخرجه ابن بشكوال في كتابه «الغوامض والمبهمات» (ص٤٤٩)، ونصه: «أن رجلًا من المسلمين قال: اللهم إنه ليس لي مال أتصدق به، فأيما رجل من المسلمين أصاب من عرضي شيئًا – فهو له صدقة، فأوحى الله إلى النبي ﷺ أنه قد غفر له». قال عنه ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٥٥٠): «صحيح».

(٤) «بهجة المجالس» (٢/ ٤٣٦).

ل- ومن السخاءِ السخاءُ بالصبر والاحتمال، والإغضاء.

وهذه مرتبة شريفة من مراتب السخاء، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعزُّ له، وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلَّا النفوس الكبار.

□ وينسب لأمير المؤمنين – علي ابن أبي طالب – رضي الله عنه قوله:

أُغَمِّضُ عيني عن أمورٍ كثيرةٍ ... وإني على ترك الغَمَوضِ قديرُ

وما من عمًى أُغضي ولكن لربما ... تعامى وأغضى المرء وهو بصيرُ

وأسكت عن أشياءَ لو شئتُ قُلْتُها ... وليس علينا في المقال أميرُ

أُصَبِّرُ نفسي باجتهادي وطاقتي ... وإني بأخلاق الجميع بصير [(١)]

م- ومن جميل السخاء سخاء المرء بالخلق، والبشر، والتبسم، والبشاشة، والبسطة، ومقابلة الناس بالطلاقة.

فذلك فوق السخاء بالصبر والاجتمال، والعفو، وهذا هو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان، وفيه من المنافع والمسار، وأنواع المصالح ما فيه [(٢)].

□ قال ابن حبان رحمه الله: «البشاشة إدام العلماء، وسجية الحكماء؛ لأن البشر يطفئ نار المعاندة ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصين من الباغي، ومنجاة من الساعي» [(٣)].

---

(١) «ديوان الإمام علي» (ص١٠٦)، وانظر سوء الخلق مظاهره – أسبابه – علاجه للكاتب (ص١٠٣- ١١٦).

(٢) انظر: «سوء الخلق» (ص٨١- ٩٠ و١٠١- ١٠٢).

(٣) «روضة العقلاء» (ص٧٥).

□ قيل للعتابي: «إنك تقى الناس كلهم بالبشر!.

قال: دفع ضغينة بأيسر مؤونة، واكتساب إخوان بأيسر مبذول»[(١)].

□ وقال محمد بن حازم:

وما اكتسب المحامد حامدوها ... بمثل البشر والوجه الطليق[(٢)]

ن- ومن السخاء حض الناس على الخير، وحثهم على الجود والإنفاق.

* ولهذا قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون].

فَذَكَرَ الله ﷻ مَنْ لا يحض على طعام المسكين في معرض الذم، وفي هذا أمر للعبد بأن يحض على طعام المسكين إن لم يستطع إطعامه بنفسه.

س- ومن ذلك دلالة الناس على وجوه الخير، وتذكيرهم بطرقه؛ فالدال على الخير كفاعله.

ع- ومن ذلك شكر الأسخياء، والدعاء لهم، وتشجيعهم على مزيد من البذل.

* ولهذا لما أمر الله نبيَّه ﷺ بأن يأخذ الصدقات من الأغنياء – أمره بالدعاء لهم كما قال ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فقوله ﷻ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ أي: ادع لهم، وقوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾، أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم[(٣)].

(١) «بهجة المجالس» (٢/ ٦٦٥).
(٢) «بهجة المجالس» (٢/ ٥٩٨).
(٣) «تفسير ابن سعدي» (٢/ ٢٨٣).

ف- ومن صور السخاء الخفية الجميلة – سخاوة النفس بترفعها عن الحسد، وحبِّ الاستئثار بخصال الحمد.

وذلك بأن يحب المرء لإخوانه ما يحب لنفسه، فيفتح المجالات أمامهم، ويعطيهم فرصة للإبداع، والحديث، والمشاركة، ونحو ذلك بعيدًا عن الأثرة، وحب التفرد بالخير.

ومما يَجْمُل في ذلك أن يفرح لفرحهم، ويحزن لإخفاقهم، فهذه من الصور الخفية للسخاء، وقلَّ من يتفطَّن لها، ويأخذ نفسه بها.

ص- ومن جميل السخاء ومحموده سخاء المرء عما في أيدي الناس، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه.

◻ قال ابن المقفع: «عَوِّدْ نفسك السخاء، واعلم أنه سخاءان: سخاوة نفس الرجل بما في يديه، وسخاوته عما في أيدي الناس.

وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل في باب المفاخرة.

وتركه ما في أيدي الناس أَمْحَضُ في التكرم، وأبرأ من الدنس.

فإنْ هو جمعهما، فبذل، وعفَّ فقد استكمل الجود والتكرم»[1].

◻ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلسان القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس فَجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم، وما في أيديهم – تَفَضَّلْ عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة»[2].

---

(١) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١٤٤).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٨٢).

ق- وأروع ما في السخاء سخاء المرء بنفسه، وأجمل ما في ذلك ما كان في سبيل الله.

هذا وقد مر الحديث عن هذا النوع فيما سبق.

□ قال أبو فراس:

ويـدعى كـريمًا مـن يجـود بمالـه ... ومن يبذل النفسَ الكريمة أكرمُ[١]

تفاضل الناس بالسخاء[٢]:

يتفاضل الناس بالسخاء على قدر هممهم، وإليك تفصيل ذلك:

أ- يتفاضلون من جهة حال الإنفاق؛ فالذي ينفق في السر أكمل في السخاء من الذي لا ينفق إلَّا في العلانية، قال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٧١].

ب- ويتفاضلون من جهة استصغار ما يُنفق واستعظامه؛ فالذي ينفق في الخير، وينسى أو يتناسى أنه أنفق - هو أسخى ممن ينفق ثم لا يزال يَذْكُر ما أنفق، ولا سيما ذكره في معرض الامتنان.

ج- ويتفاضلون في جهة السرعة إلى البذل، والتباطؤ عنه؛ فمن يبذل المال لذوي الحاجة لمجرد ما يشعر بحاجتهم - يَفْضُل من لا يبذل المال إلَّا بعد أن يسألوه.

د- ومن يقصد بالبذل موضع الحاجة - عرفه أو لم يعرفه- يكون

---

(١) «ديوان أبي فراس» (ص٦٢).

(٢) انظر: «الهداية الإسلامية» (ص٨٦- ٨٩).

أسخى ممن يخص بالنوال من يعرفه ويعرفونه.

«أعطى رجل امرأة سألته مالًا عظيمًا، فلامُوه، وقالوا: إنها لا تعرفك، وإنما كان يرضيها اليسير.

فقال: إن كانت ترضى باليسير فإني لا أرضى إلَّا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي»[1].

هـ- ومن يعطي عن ارتياح وتلذذ بالعطاء يعد أسخى ممن يحسن وفي نفسه حرج.

□ قال زهير ابن أبي سلمى يمدح حصن بن حذيفة بن بدر:

تـــراه إذا مـــا جئتـــه مـــتهلِّلًا كأنك تعطيه الذي أنت سـائله[2]

□ وقال بشار بن برد يمدح عقبة بن سلم:

لـيس يعطيـك للرجـاء ولا الخـو ف ولكـــن يَلَـــذُّ طعـــم العطـــاء

لا ولا أن يقـــال شـــيمته الجـــو د ولكـــنْ طبـــائعُ الآبـــاء[3]

و- ومن علامات رسوخ الرجل في السخاء ألا يجعل بينه وبين طالبي العرف حجابًا غليظًا.

ز- ومن علامات رسوخ الرجل في السخاء أن يلاقي خدمُه الزائرين والمُسْتَجْدِينِ بأدب جميل، وأن يستقبلهم بالبشر والترحاب؛ حتى يحفظ عليهم عزتهم.

---

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٣٣٧).

(٢) «ديوان زهير ابن أبي سلمى» (ص٥٢).

(٣) «ديوان شعر بشار بن برد»، السيد بدر (ص١٤).

□ قال ابن هرمة يمدح رجلًا:

هَـشٌّ إذا نـزل الوفـود ببابـه   سهل الحجاب مـؤدَّب الخـدام [(١)]

ح- وأبلغ ما يدلك على أصالة الرجل أن يَرِقَّ عطفُه، حتى يبسط إحسانه إلى ذي الحاجة وإن كان من أعدائه؛ فذلك من كِبَر النفس، ومن ضروب الأنفة والعزة.

□ قال أحدهم:

وأمنحـه مـالي وَوُدِّي ونـصرتي   وإن كان مُحْنِيَّ الضلوع على بغضي

□ حكي عن مصعب بن الزبير: «أنه لما ولي العراق جلس يومًا لعطاء الجند، وأمر مناديه فنادى: أين عمرو بن جرموز – وهو الذي قتل أباه الزبير – فقيل له: إنه قد تباعد في الأرض.

فقال: أيظن الجاهل أني أقيده بأبي عبد الله – يعني والده الزبير-؟ فليظهر آمنًا؛ ليأخذ عطاءه موفَّرًا!.

فعدَّ الناس ذلك من مستحسن الكبر» [(٢)].

ط- ومن علامات الرسوخ في السخاء أن يتألم المرء، وأن يتأسف أشد الأسف إذا سئل شيئًا وهو غير واجدٍ له.

□ قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يـا لهـفَ نفـسي عـلى مـالٍ أفَرِّقـه   عـلى المقلـين مـن أهـل المـروءات

---

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٨٩).

(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٥٣).

إن اعتذاري لمن قد جاء يسألني ... ما ليس عندي لمن إحدى المصيبات[١]

□ قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان سعيد بن العاص إذا أتاه سائل فلم يك عنده ما سأل قال: اكتب عليَّ بمسألتك سِجًّلًا إلى يوم يسري»[٢].

ي- ومن الأسخياء من تسمو به الحال، فيرى أن الفضل والمنة إنما هي لمن جاءه يستجديه؛ حيث تكرم عليه، وأحسن الظن به، فهذا من غرائب السخاء.

فهذا حبر الأمة، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: «ثلاثة لا أكفائهم: رجل بدأني بالسلام، ورجل وسع لي في المجلس، ورجل اغبرَّت قدماه في المشي إليَّ؛ إرادة التسليم عليَّ، أما الرابع فلا يكافئه عني إلَّا الله عَزَّ وَجَلَّ.

قيل: من هو؟

قال: رجل نزل به أمر، فبات لَيلَتَهُ يفكر بمن ينزله، ثم رآني أهلًا لحاجته فأنزلها بي!»[٣].

□ وينسب له رضي الله عنه أبيات جميلة في هذا المعنى يقول فيها:

إذا طارقاتُ الهمِّ ضاجعت الفتى ... وأعمل فِكْرَ الليلِ والليلُ عاكرُ

وباكرني في حاجة لم يجِدْ بها ... سواي ولا من نكبة الدهر ناصرُ

فرجت بما لي همَّه من مقامه ... وزايله همٌّ طروقٌ مسامرُ

---

(١) «ديوان الشافعي» تحقيق الزغبي.

(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٣٧٠).

(٣) «عيون الأخبار» (٤/ ١٧٦).

وكــان لــه فــضل عــليَّ بظنِّــه بي الخيرَ إني للـذي ظـنَّ شـاكرُ [(١)]

ك- وأرفع درجات السخاء أن يكون الرجل في حاجة مُلِحَّةٍ إلى ما عنده، فيدع حاجته، ويصرف ما عنده في وجوه الخير، وذلك ما يسمى بالإيثار.

* قال تعالى في معرض الثناء على الأنصار رضي الله عنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

* وقال تعالى في معرض الثناء على عباده المؤمنين: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان].

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم أخبر عنهم بإطعام الطعام على محبتهم له، وذلك يدل على نفاسته عندهم، وحاجتهم إليه».

وما كان كذلك فالنفوس به أشح، والقلوب به أعلق، واليدُ له أمسك.

فإذا بذلوه في هذه الحال فهم لما سواه من حقوق العباد أبذل»[(٢)].

□ قال دعبل الخزاعي:

ولـيس الفتـى المعطـي عـلى اليـسر ولكنه المعطي على العسر واليسر [(٣)]

□ وقال بعض الشعراء:

ليس جود الفتيان من فـضل مـال إنــما الجــود للمقــل المــواسي [(٤)]

---

(١) «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده» لابن رشيق القيرواني (١/ ٣٧).
(٢) «جامع الرسائل» لابن تيمية (١/ ٧٢).
(٣) «عيون الأخبار» (١/ ٣٤٤).
(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٣٤٤).

فإذا كان السخاء بتلك المثابة فما أجدر العاقل أن يأخذ نفسه به، وأن يجاهدها على اكتسابه.

وإذا كان من أعظم الأسباب لعلو الهمم وسيادة الأمم – فما أحرانا أن نربي نَشْأَنا على هذا الخلق العظيم، وأن نلقنهم أنه مرقاة السيادة والفلاح.

كما كان فرضًا علينا أن ننذرهم سوء المنقلب الذي ينقلب إليه البخلاء والمبذرون.

فإذا نحن فعلنا هذا أخرجنا للناس أمة تسمو أن تنحدر في تلك المدنية الهازلة المرذولة، ولا يجد خصومها لقهرها أو سلب حق من حقوقها طريقًا.

٥٧- الإعراض عن الجاهلين:

فهذا العمل سبب لعلو الهمة، ورفعة المنزلة، ووفور الكرامة، والبعد عن موجبات الذلة.

فمن أعرض عن الجاهلين حمى عرضه، وأراح نفسه، وسلم من سماع ما يؤذيه.

* قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف].

فهذه الآية جمعت أصول الأخلاق؛ فهي علاج رباني للراحة من شياطين الإنس.

فبالإعراض يحفظ الرجل على نفسه عزتها؛ إذ يرفعها عن مجاراة الطائفة التي تلذ الإقذاع والمهاترة.

□ قال الشافعي:

أعـرض عـن الجاهـل الـسفيه ... فكـل مـا قـال فهـو فيـه

مـا ضر نهـر الفـرات يومًـا ... لو خاض بعض الكـلاب فيـه [(١)]

□ وقال:

إذا سـبني نـذل تزايـدت رفعـةً ... ومـا العيـب إلَّا أن أكـون مسابـبه

ولـو لم تكـن نفسـي علـي عزيـزةً ... لَمَكَّنْتُها من كـل نـذل تحاربـه [(٢)]

□ وقال السموأل:

ربَّ شَـتْم سـمعتُه فَتَـصامَمْـ ... ـتُ وغَـيٍّ تركتـه فَكُفِيْـتُ [(٣)]

□ وقال المثقب العبديُّ:

وكـلامٍ سَـيِّئٍ قـد وقَـرتْ ... أذني عنـه ومـا بي مـن صَـمَمْ

فَتَعزَّيْـتُ؛ خـشاةً أن يـرى ... جاهـل أني كـما كـان زعـمْ

ولَبَعْضُ الصفح والإعراض عن ... ذي الخنا أبقـى وإن كـان ظَلَمْ [(٤)]

□ وقال الأصمعي: «بلغني أن رجلًا قال لآخر: والله لئن قلت واحدة لتسمعن عشرًا.

---

(١) «ديوان الشافعي» (ص٩٠).

(٢) «ديوان الشافعي» (ص٢٢).

(٣) «الأصمعيات» (ص٨٥).

(٤) «المفضليات» (ص٢٩٤).

فقال له الآخر: لكنك إن قلت عشرًا لم تسمع واحدة»[١].

□ وشتم رجل الحسن وأربى عليه، فقال له: «أما أنت فيما أبقيت شيئًا، وما يعلم الله أكثر»[٢].

□ وقال بعض الشعراء:

إني لأعرض عن أشياء أسمعها ... حتى يقول رجال إن بي حُمُقا

أخشى جواب سفيهٍ لا حياء له ... فَسْلٍ وظنَّ أناسٍ أنه صدقا[٣]

□ قال ابن المقفع: «واعلم أنك ستبتلى من أقوام بسفه سيطلع منك حقدًا. فإن عارضته أو كافأته بالسفه فكأنك رضيت ما أتى به؛ فأحببت أن تحتذي مثاله.

فإن كان ذلك عندك مذمومًا فَحَقِّقْ ذمَّك إياه بترك معارضته.

فأما أن تذمه وتمتثله[٤] فليس في ذلك سداد»[٥].

□ وقال الخطابي: «أنشدني ابن مالك، قال: أنشدني الدَّغولي في سياسة العامة:

إذ أمن الجهالُ جهلك مرة ... فَعِرْضُكَ للجهال غُنْمٌ من الغُنْمِ

وإن أنت نازيت السفيه إذا نزا ... فأنت سفيه مثله غير ذي حلم

ولا تعرض للسفيه ودارِهِ ... بمنزلة بين العداوة والسلم

---

(١) «عيون الأخبار» (٣/ ٢٨٥).
(٢) «عيون الأخبار» (٣/ ٢٨٧).
(٣) «عيون الأخبار» (٣/ ٢٨٤).
(٤) تمتثله: تحتذيه وتسلك مسلكه.
(٥) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١٥٥).

فيخشاك تاراتٍ ويرجوك تارة   وتأخذ فيما بين ذلك بالحزم [١]

٥٨- إباءة الضَّيم:

الضيم: الظلم والاضطهاد، وإباءته: كراهته والنفور منه.

والنفور الصادق من الضيم يستلزم الغضب عند وقوعه.

ولهذا الخلق صلة محكمة بخلقين عظيمين، هما: عزة النفس، والبطولة؛ فمن لم يكن عزيز النفس لم يتألم من أن يضام، ومن لم يكن بطلًا احتمل الضيم؛ رهبة أو حرصًا على الحياة.

□ قال أبو النشناش النهشلي:

فمت معدمًا أو عشْ كريمًا؛ فإنني   أرى الموتَ لا ينجو من الموتِ هاربه [٢]

□ وقال عَدِيُّ بن رعلاء الغساني:

ليس من مات ما ستراح بميْتٍ   إنما الميْتُ مَيِّتُ الأحياء

إنما الميْتُ من يعيش ذليلًا   سَيِّئًا بالُهُ قليلُ الرجاءِ [٣]

□ وقال سويد ابن أبي كاهل يمدح قومه:

وإباءٌ للدَّنِيَّات إذا   أعطي المكثور [٤] ضَيمًا فكنع [٥][٦]

---

(١) «العزلة» للخطابي (ص٢٠٦- ٢٠٧).

(٢) «الأصمعيات» (ص١٩٩).

(٣) «الأصمعيات» (ص١٥٢).

(٤) المكثور: المغلوب.

(٥) كنع: خضع.

(٦) «الأصمعيات» (ص١٩٧).

فإباءة الضيم من علامات الهمة العالية، ومن مقوماتها الأساسية.

ولهذا فإن الرجل الذي يغار على ذوي القرابة والصداقة والجوار، ويبذل في إنقاذهم من الضيم دمه، أو ماله، أو جاهه – يعظم بهذه المزية في أعين من يقدرون المكارم قدرها.

وأكبرُ أباةِ الضيم همةً، وأرقاهم في سماء السيادة مقامًا – هو من يغار على الأمة في دينها، ويأبى أن تمسها لفحةٌ من ضيم، فيجاهد في سبيل سلامتها من أن يهضم حق من حقوقها، أو يغتصب شبر من أوطانها [(١)].

ويصور لك إباء الرجل؛ لأن يضام قول عتبان الشيباني حين نزلت ثقيف متقلبة على أرض قومه:

فـلا صُـلْحَ مـا دامــت أرضــنا ... يقوم عليها من ثقيـفَ خطيـبُ [(٢)]

□ أو قُل إن شئت:

فلا صُلْحَ ما دامــت منـابرُ أرضـنا ... يقوم عليهـا مـن أمريكـا صَـلِيبُ

٥٩- النظر إلى من هو أعلى في الفضائل وإلى من هو أدنى في أمور الدنيا:

فهذا من مقومات الهمم، ومن أسباب النهوض للمعالي؛ فينبغي لمتطلب الكمالات أن ينظر إلى من فوقه في أمور الدين، والتقوى، والصلاح، والعلم، والعبادة، والكرم، ومحاسن الأخلاق، وسائر الفضائل.

وأن ينظر إلى من دونه في أمور الدنيا من منصب، أو جاه، أو مال، أو

---

(١) «رسائل الإصلاح» (٢/ ٧٢).

(٢) «العفو والاعتذار» للرقام البصري (١/ ١٨٦).

صحة، أو بناء، أو مركب أو نحو ذلك..

□ قيل في منثور الحكم: «وإذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء»[١].

□ وقال ابن العميد:

من شاء عيشًا هنيئًا يستفيد به ... في دينه ثم في دنياه إقبالا

فَلْيَنْظُرنَّ إلى من فوقه أدبًا ... ولينظرنَّ إلى من دونه مالا[٢]

فإذا أخذ المرء بهذا الأدب السَّني، وتوفر على اقتناء الفضائل، وألزم نفسه على التخلق بالمحاسن، ولم يرضَ من منقبة إلَّا بأعلاها، ولم يقف عند فضيلة إلَّا وطلب الزيادة عليها، واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلًا، ويبقى لها الذكر الجميل آجلًا - لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام، ويرتقي إلى النهاية في الكمال، فيحوز السعادة الإنسانية، والرئاسة الحقيقية، ويبقى له حسن الثناء مؤبَّدًا، وجميل الذكر مخلدًا[٣].

• وإلى هذا المعنى العظيم يسير قول النبي ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخلق - فلينظر إلى من هو أسفل- منه ممن فُضِّل عليه**»، وزاد مسلم: «**فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**»[٤].

□ قال ابن بطال رحمه الله: «هذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المرء لا

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص٧٢).

(٢) المصدر السابق (ص٧٣).

(٣) انظر: «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص٦٠- ٦١).

(٤) رواه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٨/ ٢١٣).

يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهدًا فيها – إلَّا وجد من هو فوقه؛ فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله، فيكون أبدًا في زيادة تقربه من ربه، ولا يكون على حال خسيسة من الدنيا إلَّا وجد من أهلها من هو أخس حالًا منه.

فإذا تفكر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فُضِّل عليه بذلكم من غير أمر أوجبه، فيلزم نفسه الشكر، فيعظم اغتباطه بذلك في معاده»[(١)].

٦٠- إدامة النظر في السيرة النبوية:

فالسيرة النبوية مليئة بالأحداث العظام، التي تبعث الهمة، وتوقظ العزمة.

فحياة النبي ﷺ كلها مليئة بالجهاد، والصبر، والمصابرة، وصدق العزيمة، وعلو الهمة.

ولا عجب في ذلك فهو سيد البشر، وخيرة الله من خلقه، وهو قدرة الناس أجمعين.

ولذلك لما بعثه الله؛ ليخرج العباد من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد أنشأ ﷺ يؤسس مبادئ العزة والكرامة، فاجتث من الأنفس شجرة الذلة من جذورها، وأعتق رقاب الأمة من الاستكانة؛ مخافة أن تهوي بها إلى أدنى درجات الضعة والدناءة، ولم يألُ جهدًا في إجراء دم الشهامة وكبر الهمة في عروقها الميتة، حتى أخرجها في قالب الكمال، لا تتردد إلَّا على أبواب الفضائل، ولا تبسط ساعديها إلَّا

(١) «فتح الباري» (١١/ ٣٣٠).

لمهات الأمور[١].

□ قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها – فليَقْتَدِ بمحمد رسول الله ﷺ وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاتساء به بِمَنِّهِ آمين»[٢].

٦١- الرحلة والتقلب في كثير من البلاد:

ولا سيما التقلب في بلاد تختلف بعاداتها، وأساليب تربيتها، ومناهج حياتها العلمية والسياسية.

«ولعل نبوغ ابن خلدون في شؤون الاجتماع ذلك النبوغ الرائع – إنما جاءه من نشأته في تونس، ثم سياحته في بلاد الجزائر، والمغرب الأقصى، والأندلس، ثم مصر – سياحة اعتبار، سياحةً اتصل فيها برؤساء حكوماتها، وأكابر علمائها، بل سياحة كان يقبض فيها أحيانًا على طرف

(١) انظر: «حياة الأمة» (ص٢٩- ٣٠)، وانظر: «العظمة» (ص٢٤- ٢٨) لمحمد الخضر حسين.

(٢) «الأخلاق والسير» (ص٢٤)، وانظر تفصيل ذلك في «صيد الخاطر» (٢/ ٤١٠- ٤١٣)، وانظر: «الشمائل المحمدية» للترمذي (ص١٨٦- ٢١٠) و(٣٦٢- ٢٨٣) تحقيق محمد عفيف الزغبي، وانظر «الأنوار في شمائل النبي المختار» للبغوي تحقيق الشيخ إبراهيم اليعقوبي (١/ ١٦١- ٣٥٨)، و«أخلاق النبي ﷺ وآدابه» لأبي الشيخ الأصبهاني تحقيق عصام الدين الصبابطي (ص١٣- ٩٨)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (ص٥٥١- ٦٥٦)، و«إحياء علوم الدين» (٢/ ٣٥٧- ٣٨٧)، و«شمائل الرسول ودلائل نبوته» لابن كثير (١/ ٧٣- ١٥٢)، ومحمد رسول الله وخاتم النبيين لمحمد الخضر حسين.

من سياسة تلك البلاد»[1].

وإذا درسنا تاريخ العلماء والأدباء الذين رحلوا عن أوطانهم، ووجهنا النظر إلى ما نتج عن رحلاتهم من فوائد تعود عليهم أنفسهم وعلى قومهم، أو على الأوطان التي حلوا بها — وقفنا على فوائد عديدة، وعوائد حميدة، يقدرها الباحثون عن وسائل رقي الأفراد والجماعات.

فمن أنفس ما يكتسبه الرجل في رحلته أن يعلم أشياء لم يكن يعلمها من قبل؛ فكم من عالم لم يبلغ المقام الذي يشار إليه بالبنان إلَّا بالرحلة.

كما أن في الرحلة عونًا على التمكن من بعض الأخلاق السامية، مثل خلق الصبر؛ لكثرة ما يلاقيه الراحل من متاعب بدنية، وآلام نفسية.

ومثل أدب المدارة؛ فإن البعيد عن وطنه أشد شعورًا بالحاجة إلى الأدب ممن يعيش بين قوم يعرفون من حسبه ومكانة بيته ما يجعل صراحته خفيفة على أسماعهم.

كما أن الراحل لا يخلو من أن يلاقي في رحلته رجالًا صاروا مُثُلًا عالية في مكارم الأخلاق، فيزداد بالاقتداء بهم كمالًا على كمال.

ثم إن الألمعي قد ينشأ في نبوغ، فيضيق بلده عن أنظاره الواسعة، وتطلعاته البعيدة، فيرحل إلى مدينة تكون أوسع مجالًا للآراء والأخذ والرد، فتعظم مكانته، ويكثر الانتفاع بحكمته.

ولولا الرحلة لما عظم شأنه، ولما كثرت ثمرات نبوغه.

ومما ذكر في هذا الصدد «أن القاضي يوسف بن أحمد بن كج الدِّيْنَوَري

---

(١) «رسائل الإصلاح» (١/ ١٨١)، وانظر: «حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية» لمحمد الخضر حسين.

قد بلغ في العلم مرتبة كبيرة، وقال له بعض من لقيه: يا أستاذ، الاسم لأبي حامد الغزالي، والعلم لك؟!

فقال القاضي: ذاك رفعته بغداد، وأنا حطتني الدِّيْنَوَرُ!»(١).

وربما أدرك الرجل في وطنه ضيق عيش يخشى أن يعوقه عن الازدياد في العلم، أو التفرغ لنشره بالتدريس والمذاكرة، فيرحل حيث يلقى كفافًا أو يسارًا يساعده على أن يقبل على الدرس والبحث بنفس مطمئنة.

أما البلاد التي يُرتَحل منها فإنها تستفيد من جهة أن العالم يرحل من وطنه وهو يحمل علمًا غزيرًا، أو يتحلى بأدب سنيٍّ، ثم ينزل بين جماعات مختلفة، فيرونه مثالًا لأهل العلم والأدب من قومه، فيرتفع شأن قومه في أنظارهم.

ثم إن البلاد التي يُرحل منها قد تحظى بالعلم بعد انقطاعه عنها، أو تقوم سوقه فيها بعد خمولها، والفضل في ذلك لرجال يرحلون إلى الحواضر التي هي منبع العلوم، ثم يعودون وقد امتلأوا مما اغترفوا من العلوم والفنون(٢).

أما البلاد التي يُرحل إليها فإنها تُفيد أيما فائدة ممن يفد إليها من العلماء والأدباء وأهل الفضل.

فرحلات العلماء والأدباء تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه أثبت وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها.

والأمثلة والشواهد على ما مضى كثيرة جدًّا، ولا أدل على ذلك في

---

(١) «رسائل الإصلاح» (٢/ ٧٩).

(٢) انظر: «رسائل الإصلاح» (٢/ ٧٥- ٨٥)، و«الرحلات» لمحمد الخضر حسين.

العصور الحديثة من رحلة العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – عليه رحمة الله– فلقد رحل من بلاده شنقيط إلى الديار السعودية، فأفاد واستفاد، وارتفع شأنه، وعلت مكانته؛ حتى أصبح في مقدمة أهل زمانه في العلم والفضل[١].

وقل مثل ذلك في شأن الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي – عليه رحمة الله– الذي رحل إلى جنوب المملكة العربية السعودية، فدعا إلى الله، وحرص على نشر العلم، فنفع الله به نفعًا عظيمًا تُرى آثاره إلى يومنا الحاضر[٢].

هذا وإن مما ينبغي التنبيه عليه أن السفر لا يذكي همة صاحبه، ولا يربي له ملكة الأدب – إلَّا إذا قارنته فِطْنَةٌ مستيقظة، تبحث عن أسرار الاجتماع، وتدقق النظر في تمييز الحسن من المعيب؛ لأن من الناس من لا يزيدهم الاغتراب إلَّا خورًا في طباعهم، وانحلالًا في أخلاقهم، وعقائدهم.

قد غمسوا وجوههم في الخبائث، حتى نضب منها ماء الحياة، وانسدل عليها من السماجة قناعٌ كثيف.

بل إن منهم من تتمادى به القحة، فَيُغِيْرُ على العقائد تسفيهًا وتضليلًا خصوصًا ممن ارتمى في أحضان أعداء الله، فسافر إلى بلادهم بلا عقيدة تردعه، ولا إيمان يزمُّه.

(١) انظر: «رحلة الحج إلى بيت الله الحرام» للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، للشيخ عبد الرحمن السديس.

(٢) انظر: «الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي ودعوته في جنوب المملكة العربية السعودية» تأليف موسى السهلي.

ولو انزوت هذه الفئة في حنايا بيوتهم لكان خيرًا لهم، وأخفَّ فتنة على السامعين لهم؛ فالسفر النافع – إذًا – ليس هو مبارحة الأوطان كيفما اتفق، ولا الجولان بالبلدان كيفما كان الحال[(١)].

٦٢ – استشعار المسؤولية:

• وذلك بأن يستشعر الإنسان مسؤوليته، ويعمل ما في وسعه ومقدوره، ويحذر كل الحذر من التهرب من المسؤولية، والإلقاء باللائمة والتبعة على غيره؛ فذو الهمة العالية يخوض معركة الحياة بعزم وإيمان؛ فلا ينتحل الأعذار للتخلص من الواجب، ولا يختلق الأسباب للتنصل من المسؤولية، بل لقد روَّض نفسه على تحمل المسؤوليات، والنهوض بالواجبات من غير ما ترددٍ أو إحجام؛ ذلكم أن المسؤولية في الإسلام عامة، تشمل كل فرد من المسلمين؛ فهم جميعًا داخلون في عموم قوله ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**»[(٢)].

فالمسؤولية مشتركة، كل امرئ بحسبه، هذا بتعليمه وكلامه، وهذا بوعظه وإرشاده، وهذا بقوَّته وماله، وهذا بجاهه وتوجيهه إلى السبيل النافع وهكذا.

فاستشعار المسؤولية مما يبعث الهمة، ويقود إلى التنافس في الخير، وبه تستجلب الخيرات، وتنال الهداية والبركات.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ

---

(١) انظر: «السعادة العظمى» (ص١٢٩ – ١٣٢).

(٢) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء].

٦٣- الحرص على الإفادة من كل أحد ومن كل موقف:

□ قال الشيخ محمد إبراهيم أحمد: «فقد تساعف الإنسانَ الأمورُ، فتسير على نحو ما يريد، وقد تخالفه الأمور، فتجري على خلاف ما يشتهي.

وقد يوفق بمن يعينه ويأخذ بيده، وقد يخذل فلا يجد إلَّا من يعوقه ويقف في طريقه.

وكثير من الناس يفيد من الأمور التي تجري في صالحه، ولكنه يقف مكتوف الأيدي إذا وقف أمامه أمر، أو حال دون بغيته حائل.

أما العاقل الحازم، ذو الهمة العالية، والبصيرة النافذة - فيحرص كل الحرص على أن يوظف الأمور كي تسير في صالحه، وأن يفيد من جميع المواقف التي تمر به مهما اختلفت عليه، فتراه «ينتفع بكل من خالطه وصاحبه، من كامل، وناقص، وسيِّئ الخلق، وحسنه، وعديم المروءة، وغزيرها.

وكثير من الناس يتعلم المروءة ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها، ما روي عن بعض الأكابر أنه كان له مملوك سيِّئ الخلق، فظ، غليظ، لا يناسبه.

فسئل عن ذلك، فقال: إني أدرس عليه مكارم الأخلاق!

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضد أخلاقه، ويكون بتمرين

النفس على مصاحبته، ومعاشرته، والصبر عليه»[١].

□ قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعةً عظيمةً، وهي أنه توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سببًا إلى تواليفَ لي عظيمة، ولولا استثارتهم نشاطي، واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف»[٢].

□ وهذا الأديب الكبير عباس محمود العقاد يقول في صدد الحديث عن أساتذته، وعن استفادته منهم: «استفد في مرحلة التعليم الابتدائي من أستاذين اثنين على اختلاف بينهما في طريق الإفادة؛ فإن أولهما قد كان قاصدًا، والآخر أفادني على غير قصد منه، فحمدت العاقبة على الحالين.

كان أحد الأستاذين الشيخ فخر الدين محمد الدشناوي، وكان يميل إلى التجديد والابتكار في التعبير، ويمنح أحسن الدرجات للتلميذ المتصرف في مناحي الكلام، وأقلَّها للتلميذ الذي يقتبس من نماذج الكتب.

وكانت دروسه تلتهب حماسةً ووطنيةً، ولها تأثيرها البليغ في نفوس التلاميذ، خصوصًا في زمن كانت تئن فيه البلاد من وطأة الاحتلال.

أما الأستاذ الثاني فمدرس الحساب»[٣].

□ ثم تحدث عن مدرس الحساب فقال: «كان يؤمن بالخرافات، وشفاعات الأولياء، وكان محدود الفهم في دروسه، ولا سيما المسائل

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣٥).

(٢) «الأخلاق والسير» (ص٤٨).

(٣) «ذكرياتي مع عباس العقاد»، لطاهر الجبلاوي، إعداد عباس طاهر الجبلاوي (ص٢٥).

العقلية في دروس الحساب»[1].

□ وبعد أن ذكر بعض المواقف مع ذلكم الأستاذ قال: «ولكن الدرس الأكبر الذي أحسبه أكبر ما استفدته مع جميع الدروس في صباي كان بصدد مسألة حسابية من تلك المسائل العقلية.

كنت شديد الولع بهذه المسائل، لا أدع مسألة منها دون حل مهما يبلغ من إعضالها.

وكان الأستاذ يحفظ منها عددًا كبيرًا محلولًا في دفتره يعيده على التلاميذ كل سنة، وقلما يزيد عليه شيئًا من عنده.

وعُرضت في بعض الحصص مسألة ليست في الدفتر، فعالجنا حلها في الحصة على غير جدوى، ووجب في هذه الحالة أن يحلها الأستاذ لتلاميذه فلم يفعل، وقال على سبيل التخلص: إنما عرضتها عليكم؛ امتحانًا لكم؛ لتعرفوا الفرق بين مسائل الحساب، ومسائل الجبر؛ لأنها تشتمل على مجهولين.

لم أصدق صاحبنا، ولم أَكُفَّ عن المحاولة في بيتي، وقضيت ليلةً ليلاءَ حتى الفجر، وأنا أقوم وأقعد عند اللوحة السوداء حتى امتلأت من الجانبين بالأرقام، وجاء الفرج قبل مطلع النهار، فإذا بالمسألة محلولة، وإذا بالمراجعة تثبت لي صحة الحل، فأحفظ سلسلة النتائج وأعيدها؛ لأستطيع بيانها في المدرسة دون ارتباك أو نسيان.

قلت: لقد حللت المسألة.

---

(١) «ذكرياتي مع عباس العقاد» (ص٢٥).

قال الأستاذ: أية مسألة.

قلت: المسألة التي عجزنا عن حلها في الحصة الماضية.

قال: أو صحيح؟ تفضل، أرنا همتك يا شاطر!

وحاول أن يقاطعني مرة بعد مرة، ولكن سلسلة النتائج كانت قد انطبعت في ذهني؛ لشدة ما شغلتني، وطول ما راجعتها، وكررت مراجعتها، وانتظرت ما يقال.

فإذا الأستاذ ينظر إليَّ شزرًا وهو يقول: لقد أضعت وقتك على غير طائل؛ لأنها مسألة لن تعرض لكم من امتحان.

وإذا بالتلاميذ يُعَقِّبون على نفحة الأستاذ قائلين: ضيَّعت وقتنا، ما الفائدة من كل هذا العناء؟»[١].

□ ثم عقب العقاد على هذا الحدث بقوله: «كانت هذه الصدمة خليقة بأن تكسرني كسرًا لو أن اجتهادي كان محل شك عندي، أو عند الأستاذ، أو عند الزملاء.

أما وهو حقيقة لا شك فيها، فإن الصدمة لم تكسرني، بل نفعتني أكبر نفع حمدته في حياتي، وصح قول: «نيتشه»[٢]: كل ما لم يقتلني يزيدني قوة.

لأني لم أحفل بعدها بإنكار زميل، ولا رئيس، وعلمت أن الفضل قيمته فيه، لا فيما يقال عنه أيًّا كان القائلون»[٣].

---

(١) «ذكرياتي مع عباس العقاد» (ص٢٧- ٢٨).

(٢) يعني به: فريدريك نيتشه، فيلسوف ألماني. انظر: «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة»لعبد الرحمن الميداني (ص٥٦٠).

(٣) «ذكرياتي مع عباس العقاد» (ص٢٨).

بل إن كثيرًا من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أمورًا تنفعه في معاشه، وأخلاقه، وصناعته، وحربه، وحزمه، وصبره.

قيل لرجل: مَنْ عَلَّمك البكور في حوائجك أوَّل النهار لا تُخِلُّ به؟

قال: مَنْ عَلَّم الطير تغدو خماصًا كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها، لا تسأم ذلك، ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض.

وقيل لآخر: منْ علَّمك السكون، والتحفظ، والتماوت حتى تظفر بإربك، فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته؟

قال: الذي علم الهرة أن ترصد جحر الفأرة، فلا تتحرك، ولا تتلوَّى، ولا تختلج حتى كأنها ميتة، حتى إذا برزت الفأرة وثبت عليها كالأسد.

وقيل لآخر: من علمك حسن الإيثار والبذل والسماحة؟

قال: من علم الديك يصادف الحبة في الأرض، وهو يحتاج إليها ولا يأكلها، بل يستدعي الدجاج، ويطلبهن طلبًا حثيثًا حتى تجيء الواحدة منهن، فتلتقطها وهو مسرور بذلك، طيب النفس به.

فإذا وضعت له الحبَّ الكثير فرَّقه ههنا وههنا، وإن لم يكن له دجاج؛ لأن طبعه قد ألِفَ البذل والجودَ، فهو يرى أنه من اللؤم أنه يستبد وحده بالطعام.

وكذلك كرام الأسود وأشرافها يُتعلم منها الأنفة وعزة النفس؛ فهي لا تأكل إلَّا من فريستها، وإذا مرت بفريسة غيرها لم تدن منها ولو جهدها الجوع[١].

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في «شفاء العليل» لابن القيم (ص١٤٧ - ١٦٤).

ومن جميل ما ينبغي على المرء في هذا الشأن أن يفيد من تجارب الآخرين؛ فالحياة كلها تجارب، واستفادة من التجارب، وميزة إنسان على إنسان، وأمة على أمة هي القدرة على الاستفادة من التجارب وعدمُها؛ فالحادثة تمر أمام جمع من الناس فيستفيد منها أحدهم بمقدار مئة، وآخر بمقدار خمسين، وثالث تمر منه الحادثة على عين بلهاء، فلا يستفيد منها شيئًا؛ فكم من الناس من لهم أعين ولكن لا يبصرون بها، وآذان ولكن لا يسمعون بها، وقلوب ولكن لا يعقلون بها.

والفرق بين من يستفيد من التجربة ومن لا يستفيد أن الأول يستطيع أن ينتهز الفرص في حينها، وأن يتجنب الخطر قبل وقوعه، على حين أن الثاني لا ينتهز فرصة، ولا يشعر بالخطر إلَّا بعد وقوعه.

وحينما تقرأ كتب التاريخ تقرؤها؛ لتستفيد من أعمال الناس، وما وقع لهم، وما صدر منهم، وما كان من نتائج أعمالهم، وتقرأ سير العظماء؛ لتتشبه بهم، وتدرك مواضع عظمتهم»[١] اهـ[٢].

٦٤- السلامة من الغرور ومن المبالغة في احتقار النفس[٣]:

«فهذان الأمران من أعظم الأسباب لدنو الهمم، والسلامة منهما من أعظم الأسباب لعلوها.

أما الغرور فهو أن يحتقر المرء كل من عداه، وأن يتطاول إلى ما ليس في قدرته، وأن يتدخل فيما ليس من شأنه، وأن يحكم على ما لم يُحِط به علمه.

(١) انظر: «فيض الخاطر» (١٠/ ٢١١).

(٢) «الهمة العالية» (ص ٢٣٠- ٢٣٤).

(٣) المصدر السابق (ص ٢٥٤- ٢٥٦).

حتى إن المغرور ليترفع عن الإصغاء إلى نصيحة، أو الاستماع لرأي، أو الخضوع لكبير، أو الإجلال لعالم.

وهذا المرض متفشٍّ في أمتنا؛ فكم من أمتنا من قضى عليه الخمول والكسل، ولو سألتهم عن ذلك لأجابوك: من نحن؟ وما قيمتنا؟ وماذا نستطيع أن نعمل؟ وهل بإمكاننا أن نوقف الشمس؟ أو أن نؤخر عجلة الزمن؟

كلا يا صاح، إنك شيء عظيم، تستطيع أن تفعل أشياء وأشياء، وما هؤلاء الذين تراهم ممن يملأون التاريخ بجلائل الأعمال إلَّا أناس مثلك، لهم مثل ما لك في الذكاء والموهبة، ولكنهم وثقوا بأنفسهم، وعرفوا قيمة مواهبهم.

وهذا المرض تبتلى به الأمم الضعيفة، المتنقلة من طور الخمول إلى دور اليقظة، أو المتردية من شامخ العزة إلى درك الضعف والذلة.

وإنه لمرض يتفشى في أمتنا اليوم، وحسبك أن تستمع إلى أحاديث الناس في المجتمعات العامة؛ لترى كيف يحمل كثير منهم مبضعَ الطبيب، يجرح به هذا، ويقطع به ذلك، وكيف ينطوي على غرور يجعل رأيه فوق الآراء، ونظره فوق الأنظار، وعلمه فوق كل علم.

وهو لا يفتأ في حديثه يصف الناس بالحماقة، وأهل العلم بالجهالة ونحو ذلك..

وحين تبتلى الأمة بهذه البلية فإنها تستعصي على نصح الناصحين، وتنحدر وهي تظن أنها في أعلى عليين، وتتراكم عليها المصائب، وهي تظن أنها أقوى من جميع أعدائها، تهزمهم بصرخة، وتردهم بإشارة،

وتدفعهم عنها بالضجة، والثرثرة.

□ أما المرض الثاني فهو المبالغة في احتقار النفس؛ فتجد من الناس من هو محطم النفس، مسلوب الإرادة، فاقد الأمل، قليل الثقة بنفسه وبأمته، لا يرى أن باستطاعته أن يقوم بشيء في هذه الحياة.

وما أقسى هذا الداء، وما أمرَّه على الأمة؛ إذ يشل حركتها، ويجعلها ذليلة أمام كل جبار، ضعيفة أمام كل قوي.

أما أنت فقد قعدت بك همتك، فازدريت نفسك، وانتقصت أمتك، ورضيت لنفسك أن تكون نسيًا منسيًّا.

مثل هؤلاء في أمتنا كثير، وأعجب من ذلك أنك ترى في هؤلاء المصابين بمرض الخمول والاحتقار للنفس من هو مصاب في الوقت نفسه بداء الغرور أيضًا؛ فهو يضع نفسه في أمته موضع المتكبر المتبجح المغرور.

ولكنه يطرق رأسه أمام الأعداء حطة، وذلة، ومهانة.

والسلامة كل السلامة أن يسلمك الله من هذه الأدواء؛ فالإنسان العاقل السوي، الذي ينظر إلى الأمور كما هي – هو ذلك الذي يسير على حد الاعتدال، فلا يُغَرُّ بما أوتي من ذكاء، وعلم، وقوة، فيزعم لنفسه كل فضيلة، ويتطاول بغروره إلى كل منزلة.

ولا يركن في الوقت نفسه إلى جوانب الضعف فيه، فيقوده ذلكم إلى المبالغة في احتقار نفسه، وازدراء إمكاناته ومواهبه، فيقعد عن كل فضيلة،

ويعيش في هذه الحياة كأنه همل مضاع، ولقًى مزدري»[(١)] اهـ.

٦٥- الشجاعة والإقدام، واطراح المبالغة في تعظيم شأن الخوف:

«فالشجاعة فضيلة عظيمة، وخصلة من خصال الخير عالية، فهي من أعظم مقومات الهمة، ومن أهم أسباب اكتسابها.

فالشجاع يخاف من العار الذي يلحقه من احتمال الضيم، أو يرغب في أن يدرك مجدًا شامخًا، فيقوده ذلك إلى أن يلقي بنفسه في مواضع الدفاع، لا يلوي جبينه عن طعان أو نضال.

والأمة لا تحوز مكانة يهابها خصومها، وتقرُّ بِها عينِ حلفائها - إلَّا أن تكون عزيزة الجانب، صلبة القناة.

وعزة الجانب، وصلابة القناة لا ينزلان إلَّا حيث تكون قوة الجأش، والاستهانة بملاقاة المكاره، وذلك ما نسميه شجاعة[(٢)].

«وحد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين، والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلمًا في المال، والعرض، وفي سائر سبل الحق»[(٣)].

والشجاعة لا تقتصر على الأقدام في ميادين الوغي، بل هي أعم من ذلك، فتشمل الشجاعة الأدبية في التعبير عن الرأي، وبالصدع بالحق، وبالاعتراف بالخطأ، وبالرجوع إلى الصواب إذا تبين، ونحو ذلك مما

---

(١) انظر: «أخلاقنا الاجتماعية» (ص١٠- ١٢)، و«لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم» (ص١٤١- ١٥١).

(٢) انظر: «رسائل الإصلاح» (١/ ٧٧).

(٣) «الأخلاق والسير» لابن حزم (ص٣٢).

سيمر بنا.

وليس من شرط الشجاعة ألا يجد الرجل في نفسه الخوف جملةً من الهلاك، أو الإقدام، أو نحو ذلك؛ فذاك شعور يجده كل أحد من نفسه إذا هو همَّ بعمل كبير أو جديد.

بل يكفي في شجاعة الرجل ألا يعظم الخوف في نفسه حتى يمنعه من الإقدام، أو يرجع به إلى الانهزام.

□ قال هشام بن عبد الملك لمسلمة: «يا أبا سعيد، هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو؟

قال مسلمة: ما سلمت في ذلك من ذعر يُنَبِّه على حيلة، ولم يَغْشَني فيها ذعر سلبني رأيي.

قال هشام: هذه هي البسالة»[١].

بل إن أشجع الشجعان يجدون في أنفسهم ذلك الشعور إذا هم خاضوا المعمعان، وغشوا ساحات الوغى.

لكن ذلك لا يحملهم على الإحجام والانهزام.

□ فهذا عمرو بن معدي كرب [٢] الزبيدي – وحسبك به شجاعة إقدامًا– يصف نفسه، ويصور حالته في ساحة الوغى، ويبين أن الخوف يداخله، ولكن لا يحمله على الفرار والإحجام، فلا ينقص ذلك من قدره، ولا ينزل من مكانته، حيث يقول:

---

(١) «رسائل الإصلاح» (١/ ٧٨).

(٢) انظر: «عمرو بن معدي كرب الزبيدي» لمطاع الطرابيشي.

ولقــد أَجْمَــعُ رِجْــلَيَّ بهــا حَــذَرَ المــوتِ وإني لفــرورْ

ولقــد أعْطِفُهــا كارهــةً حـين للـنفس مـن المـوت هريـرْ

كــلُّ مــا ذلــك منــي خلــقٌ وبكــلٍّ أنــا بــالروع جــديرْ [(١)]

فالشجاعة إذًا هي مواجهة الألم أو الخطر أو نحو ذلك عند الحاجة في ثبات، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس.

فالذي يرى النتائج، ويخاف وقوعها، ثم يواجهها في ثبات - رجل شجاع.

فالقائد الذي يقف على خط النار، فترتعد لذلك فرائصه؛ خشية من نزول الموت به، ثم يضبط نفسه، ويؤدي عمله كما ينبغي، هو رجل شجاع.

بل هو شجاع - أيضًا- إذا رأى أن خير عمل يعمله أن يتجنب الخطر، وأن الواجب يقضي عليه أن ينسحب بجنوده حيث لا خطر.

فإن هو أضاع في موقفه رشده، أو ترك موقفًا يجب أن يقفه، أو فر بجنوده من خطر كان عليه أن يقفه - فهو جبان.

فالشجاعة لا تعتمد على الإقدام والإحجام فحسب، ولا على الخوف وعدمه، وإنما تعتمد على ضبط النفس، وعمل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي.

□ قال عمرو بن العاص لمعاوية رضي الله عنهما: «لقد أعياني أن أعلم: أجبان أنت أم شجاع؟ فقال:

---

(١) «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (ص٨٢).

شـجاعٌ إذا مـا أمكنتنـي فرصـةٌ وإلا تكـن لي فرصـة فجبـان [١]

بل ليس بالمحمود أن يتجرد الإنسان من كل خوف؛ فقد يكون الخوف فضيلة، وعدمه رذيلة؛ فالخوف عند الإقدام على أمر مهم تتعلق به مصالح الأمة، أو يحتاج إلى اتخاذ قرار حاسم - فضيلة وأي فضيلة؛ إذ هو يحمل على الرَّويَّة، والتأني، والتؤدة، حتى يختمر الرأي، وينضج في الذهن [٢]؛ فلا خير في الرأي الفطير، ولا الكلام القضيب [٣]، والعرب تقول: «الخطأ زاد العَجُول»[٤].

□ كما أنها تمدح من يتريث ويتأني، ويقلِّب الأمور ظهرًا لبطن، وتقول فيه: «إنه لَحُوَّلٌ قُلَّبٌ»[٥].

ولهذا ما زال الحكماء ينصحون الناس ألا يقدموا على مواقع الخطر إلَّا أن تكون فائدة الإقدام أكبر من خسارته.

□ قال أبو الطيب المتنبي:

الـرأي قبـلَ شـجاعةِ الـشجعانِ هـو أول وهـي المحـل الثـاني

وإذا همـا اجتمعـا لـنفسٍ حُـرَّةٍ حازت من العلياء كـل مكـان [٦]

---

(١) «عيون الأخبار» (١/ ١٦٣).

(٢) انظر: «الأخلاق» (ص٢٠٥- ٢٠٦).

(٣) الرأي الفطير: هو الذي لم ينضج، والكلام القضيب: هو المرتجل انظر: «زهر الآداب» للحصري القيرواني (١/ ١٥٤).

(٤) «مجمع الأمثال» للميداني.

(٥) «الأمثال» لأبي عبيد (ص١٠٠).

(٦) «ديوان المتنبي» (٤/ ١٧٤).

□ وقال:

وكل شجاعة في المرء تغني ... ولا مثل الشجاعة في الحكيم [(١)]

وإنما الجبن المذموم، والخوف المرذول – هو ما بالغ صاحبه فيه مبالغة تخرجه عن طوره، فهذا هو خوف الجبان الرعديد، الذي يغلب جانب الشر، ويخشى سوء عواقبه.

أما الشجاع فلا يفكر كثيرًا في احتمال الشر، ثم إذا وقع لم يَطِرْ قلبه شَعَاعًا، بل يصبر، ويتحمله بثبات؛ إن مرض لم يضاعف مرضه بوهمه، وإن نزل به مكروه قابله بجأش رابط فخفف شدته؛ فمن الحكمة والعقل ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحول الشر؛ فليسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه، فإذا حدثت فَلْيقابلْها بشجاعة واعتدال.

□ قال أبو علي الشبل:

ودع التوقع للحوادث إنه ... للحي من قبل الممات ممات [(٢)]

وبالجملة فالشجاع ليس بالمتهور الطائش الذي لا يخاف مما ينبغي أن يخاف منه، ولا هو بالجبان الرعديد الذي يَفْرَقُ من ظله، ويخاف مما لا يخاف منه [(٣)].

ثم إن الشجاعة ليست هي قوةَ البدن؛ فقد يكون الرجل قويَّ البدن

(١) «ديوان المتنبي» (٤/ ١٢٠).

(٢) «صيد الخاطر» (٢/ ٣٣٩).

(٣) انظر: «الأخلاق» (ص٢٠٥- ٢٠٦)، و«فيض الخاطر» (٢/ ٢٠٥)، و«المسؤولية» (ص٣١- ٣٢).

ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وثباته.

والمحمود منها ما كان بعلم ومعرفة، دون التهور الذي لا يفكر صاحبه، ولا يميز بين المحمود والمذموم.

ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح.

فأما المغلوب حين غضبه فليس بشجاع ولا شديد [١].

أمور تعين على اكتساب الشجاعة:

□ هذا ومما يعين على اكتساب الشجاعة، واطراح المبالغة في تعظيم شأن الخوف – زيادة على ما مضى – ما يلي:

أ- **الدربة، والمران، والتعود:** فإن قلة الإلف لأمر من الأمور – تقود إلى الجبن؛ فالإنسان إذا لم يرَ الشيء ويألفه يجبن أمامه، كالطالب إذا لم يتعود الخطابة، فإنْ هو حاول تهدَّج صوتُه، وجفَّ ريقُه، وارتعشت أطرافه.

وكذلك من لم يتعود غشيان المجالس، ومخالطة الناس – فإنه يخاف منهم، ويلجئه الخوف إلى إيثار العزلة.

فإذا هو اضطر يومًا إلى الاجتماع بهم علاه الخجل، وزاد ارتباكه، واضطربت حركاته، وثقل على الناس، وثقلوا عليه.

وعلاج ذلك يكون بالدربة، والمران، والتعود، والممارسة، فلا يزال يتكلف الخطابة حتى يصير خطيبًا، والجرأة حتى يصير جريئًا [٢].

---

(١) انظر: «الاستقامة» لابن تيمية (٢/ ٢٧١).

(٢) انظر: «الأخلاق» (ص٢١٠).

□ قال البارودي:

واعْتَدْ على الخير؛ فالموفق من ... هذَّبه الاعتياد والدَّرَبُ[1]

ب- توطين النفس على وقوع المكروه، والحذر من تضخيم النتائج:

فمما يفيد في هذا الباب أن يفرض وقوع المكروه، ثم يُهَوِّنه ويوطن نفسه على احتماله، ثم يشرع في إنقاذ ما يمكنه إنقاذه.

فلو تصور أنه خطب ولم يُجِدْ، وانتقده السامعون، ثم صغَّر النتيجة وهوَّنها، وقال في نفسه: كلُّ خطيبٍ مُعَرَّضٌ لمثل ذلك - لتشجع، ولم يجبن.

بل ربما أصبح فيما بعد خطيبًا مِصْقَعًا، لا تُقَيِّدُه حُبْسةٌ، ولا يثنيه جماح.

وكذا لو قرر الأطباء أن تعمل له عملية جراحية فَقَدَّرَ الموت، واستصغره - لقابل الأمر بثبات وهكذا[2]..

□ قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «وطِّن نفسك على ما تكره يقلَّ همُّك إذا أتاك، ويعظم سرورك ويتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدَّرْتَه»[3].

ج- النظر في العواقب: وذلك بأن ينظر إلى عواقب كلٍّ من الجبن والشجاعة، فإذا ظهر له أن ما يصل إليه من الخير إنْ هو تشجع أعظمُ مما يصل إليه من الجبن - استحثه ذلك على الشجاعة.

فمن جبن عن أن يرحل عن بلده لطلب رزق أو علم - فلينظر في

---

(١) «ديوان البارودي» (ص٧٩).

(٢) انظر: «الأخلاق» (ص٢١١).

(٣) «الأخلاق والسير» (ص٢٦)، وانظر: «صيد الخاطر» (١/ ١١٠- ١١١)، و«دع القلق» (ص٣٥- ٤٤).

الأمر، فسيرى أن من المحتمل أن يصيبه مرض في رحلته، وأنه قد يموت في أرض غربته.

ولكن من المؤكد أنه إذا لم يرحل ضاق رزقه، أو قل علمه، أو كان جبانًا، أو جاهلًا حتمًا.

فالنظر في العواقب قد يحمل المرء على أن يكون شجاعًا، لا سيما إذا علم أنْ ليست الحياة بنبض القلب، ولا بالأكل والشرب، وإنما هي بالعمل الجاد، والإفادة والاستفادة، وإلَّا أصبح الإنسان من سقط المتاع لا قيمة له عند أحد..

وما للمرء خير في حياة إذا ما عدت من سقط المتاع

□ قال أعرابيٌ من باهلة:

فَلَلْمَوْتُ خيرٌ من حياة يُرى لها على الحر بالإقلال وسيم هوان [١]

* ولهذا كانت عناية القرآن بخصلة البطولة والإقدام؛ حيث أقبل على النفوس، وأخذ ينقيها من رذيلة الجبن والإحجام، ويذكرها بسوء عاقبة الجبناء، كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨].

فقد أشارت الآية إلى أن عاقبةَ الجبناءِ أن يبتلوا بذي قوة لا يعرف للعهد حرمة، ولا يقيم للعدل وزنًا.

ومن الذي يرتاب أن الموت في مواطن البطولة أشرف من حياة يغمرها الذل والهوان؟ [٢].

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٩).

(٢) انظر: «الهداية الإسلامية» (ص٣٩).

□ قال أبو الطيب المتنبي:

غــير أن الفتــى يلاقــي المنايــا كالحــاتِ ولا يلاقــي الهوانــا

وإذا لم يكــن مــن المــوت بــدٌّ فمــن العجـز أن تمـوت جبانًـا [(١)]

د- اطراح المبالاة بكلام الناس: فذلك هو باب العقل والراحة كلها، كما قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ [(٢)].

ولا يعني اطراح المبالاة بكلام الناس أن يتقصد المرء مخالفة الناس، وأن يعمد إلى مخاشنتهم، والإغلاظ عليهم؛ لأن الحكمة تقتضي مداراة الناس، ومعرفة أحوالهم، وإنزالهم منازلهم؛ فالحكيم الحازم العاقل يزن عقول من يلاقونه، ويحس ما تكن صدورهم، وتنزع إليه نفوسهم، فيصاحبهم وهو على بصيرة مما وراء ألسنتهم من عقول، وسرائر، وعواطف، فيتيسر له أن يسايرهم إلَّا أن ينحرفوا عن الرشد، ويتحامى ما يؤلمهم إلَّا أن يتألموا من صوت الحق [(٣)].

فإذا قام المرء بما تقتضيه الحكمة – فَلْيقدِم على ما قصد إليه دونما التفات أو مبالاة بكلام أحد؛ فلا لوم ولا تثريب عليه حينئذٍ.

هـ- أن يستحضر المرء أنْ لا سلامة من الناس: فالسلامة من الناس عزيزة المنال، خصوصًا إذا كان المرء ممن يتصدر ويقوم بجلائل الأعمال.

□ قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من قدَّر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم –

---

(١) «ديوان المتنبي» (٤/ ٢٤١).

(٢) انظر: «الأخلاق والسير» (ص١٧).

(٣) انظر: «رسائل الإصلاح» (١/ ٩٥).

فهو مجنون»[١].

فإذا كان الأمر كذلكم كان حريًّا بالمرء ألا يعظم شأن الناس في قلبه، وألا يجعل مراقبتهم والخوف من ثلبهم وعيبهم حائلًا بينه وبين تحقيق مآربه النافعة له، ولأمته، ووطنه.

❐ قال بشار بن برد:

من راقبَ الناسَ لم يظفرْ بحاجته وفاز بالطيباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ[٢]

❐ وقال سلم الخاسر:

من راقب الناس مات همًّا وفاز باللذةِ الجسورُ[٣]

وبالجملة فاحرص على أن تركز جهدك، وتستفرغ طاقتك في العمل الذي تراه صوابًا، ثم بعد ذلك أدِرْ ظهرك، وصمَّ أذنيك عن كل ما ينالك من لوم اللائمين، ونقد الظالمين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

ومما يعينك على ذلك أن تستشعر أن كلام الناس لا يضرك أبدًا إلَّا إذا اشتغلت به، وأن تتذكر جيدًا، بأن النقد الظالم إنما هو اعتراف ضمني بقدرتك وعلوِّ كعبك؛ فبقدر ذلك يكون النقد الموجه إليك.

ثم اعلم عِلْمَ اليقين بأن الناس لا يشغلهم أمرك كثيرًا؛ فهم مشغولون بأنفسهم في غالب أمرهم؛ فأدنى شيء يَحْدُثُ لهم ينسيهم ما

(١) «الأخلاق والسير» (ص١٧).
(٢) «ديوان بشار بن برد» (ص٦٠).
(٣) «بهجة المجالس» (١/ ١٢٢).

سمعوه عنك[(١)].

و- **معرفة قدر النفس**: وذلك بأن يعرف المرء قدر نفسه، فلا يقدم على عمل إلَّا وهو عالم بقدرته عليه، ولا يكلف نفسه إلَّا ما تطيقه؛ «فالذي يَقْدُرُ نفسه فوق قدرها إنما يرهقها، والذي يقدر نفسه أقل من قدرها إنما يضيع إمكاناتها سدى.

وأما الذي يقدر نفسه حق قدرها، فإنما يضعها في مكانها دون إرهاق لطاقتها، ودون إهدار لميزاتها»[(٢)].

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي للعاقل ألا يقدم على العزائم حتى يزن نفسه هل يطيقها، ويجرب ركوب بعضها سرًّا من الخلق؛ فإنه لا يأمن أن يُرى في حالة لا يصبر عليها، فيفتضح»[(٣)].

ز- **أن يستحضر أن الإخفاق لا يضر**: فإذا أخفق المرء في بداية أمره مرة أو أكثر — فلا ينزعج لذلك، وليعد الكرَّة بعد الكرة، وليعلم أن الإخفاق طريق النجاح، وأن الخطأ طريق الصواب؛ فليس الإخفاق عارًا إذا كنت بذلت جهدك بإخلاص، ولا يعد المرء مخفقًا حتى يتقبل الهزيمة كأنها دائمة ويتخلى عن المحاولة؛ فهذا أديسون مخترع المصباح الكهربائي — أخفق عشرة آلاف مرة قبل أن يصنع المصباح؛ فلا تقلق إذا أنت أخفقت مرة أو أكثر»[(٤)].

---

(١) انظر: «دع القلق» (ص٢٢٤- ٢٣٠).
(٢) «أنت وقدراتك» تأليف فرجينيا بيلارد، ترجمة د. عطية محمود هنا، إشراف ومراجعة تقديم د. عبد العزيز القوصي (ص٧).
(٣) «صيد الخاطر» (٢/ ٢٤٣).
(٤) انظر: «طاقتك الكامنة»، سمير شيخاني (ص٢٧١).

ح- **الثقة بالنفس**: وذلك بألا يقتصر على تذكر جوانب الضعف فيها؛ لأن ذلك يقود إلى المبالغة في احتقارها، وبالتالي تحجم ولا تقدم.

بل يتذكر مع ذلك جوانب القوة والإبداع فيها؛ حتى تنبعث إلى الإقدام، وتكتسب شيئًا من الهدوء والثقة.

□ قال الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي يحيا بالثقة تحييه الثقة»[(١)].

ط- **أخذ الأهبة والاستعداد**: فإذا أراد أن يتكلم في مجمع – على سبيل المثال- فَلْيَقُمْ بأخذ الأهبة والاستعداد؛ حتى لا يُرْتَجَ عليه، خصوصًا إذا كان في بداياته؛ فإن التقصير بالأخذ بالأسباب مما يضعف المرء ويربكه.

ومما ينفع في ذلك أراحة الجسم؛ ذلك أن الخوف يتبع التعب الذي ينال المجموع العصبي، كالذي ينال الشخص عقب مجهود كبير بذله، أو تفكير طويل فكَّره، أو حادثة جليلة هَزَّتْهُ؛ فهذه الأشياء وأمثالها تضعف المجموع العصبي، فإذا أخذ الجسم قسطًا من الراحة استرد الإنسان راحته، وزال خوفه[(٢)].

فإذا هو قام بالأسباب فليتوكل على الله، وليفوض الأمر إليه.

ي- **الإيمان بالقضاء والقدر والتسليم لله في الأمر**: فالإيمان بالقضاء والقدر يقتضي أن يوقن العبد بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وهذا يبعثه إلى أن يقدم غير هياب ولا مبال بها سيناله، فإذا كتب الله له حياة فلن تفوته وإن وقف في جفن الردى، وإن كتب له موتًا فلن يفوته أو

---

(١) «وحي القلم» (١/ ٢٣٢)، وانظر: «قوة الإرادة وطرق تنميتها» (ص٢٣).

(٢) انظر: «فيض الخاطر» (١٠/ ٢٢٣).

يفلت منه ولو كان في بروج مشيدة؛ فما يغني الفرار، وما يضر الإقدام؟

□ يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله:

أي يومي من الموت أفِر ... يوم لا يُقْدَر أو يوم قدر

يوم ما قُدِّر لا أرهبه ... وإذا قدر لا ينجي الحذر [(١)]

□ وكان معاوية رضي الله عنه يتمثل بهذين البيتين:

كأن الجبان يرى أنه ... سيقتل قبل انقضاء الأجلْ

وقد تدرك الحادثاتُ الجبان ... ويسلم منها الشجاع البطل [(٢)]

□ قال ابن القيم رحمه الله: «والذي يحسم مادة الخوف هو التسليم لله؛ فمن سلَّم لله، واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلَّا ما كتب له - لم يبقَ لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضًا؛ فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلَّمها إلى وليها ومولاها، وعلم أنه لا يصيبها إلَّا ما كتب لها، وأن ما كتب لها - لا بد أن يصيبها؛ فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.

(١) «ديوان الإمام علي» (ص٧٩- ٨٠).
(٢) «بهجة المجالس» (٢/ ٤٨٠).

وفي التسليم أيضًا فائدة لطيفة، وهي أنه إذا سلمها لله فقد أودعها عنده، وأحرزها في حرزه، وجعلها تحت كنفه؛ حيث لا تنالها يَدُ عَدُوٍّ عادٍ، ولا بغيُ باغٍ عاتٍ»[١].

ك- الصبر عند الصدمة الأولى: فإذا كان الإنسان في أول الطريق للخطابة، أو للحروب أو نحو ذلك – فإنه يحتاج إلى الصبر عند الصدمة الأولى؛ لأنه معرض للإخفاق، فإذا صبر في بداية الأمر هان عليه استدراك ما مضى.

وأما إذا أيس وترك الأمر من بدايته، فإنه لن ينال مجدًا ولا رفعة.

ل- الخطار بالنفس: فهذا مما تنال به الشجاعة، ويُطَّرح فيه الجبن، فقد يحتاج إليه الإنسان في بعض الأحايين؛ فالتاجر قد يحتاج إليه، والمتكلم، والمحارب كذلك.

- قال معاوية لعمرو بن العاص رضي الله عنهما: «من طلب عظيمًا خاطر بعظيمة»[٢].

- وكان عمرو يقول: «عليكم بكل أمر مزلقة مهلكة»، أي: عليكم بجسام الأمور»[٣].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٢).

(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣١).

(٣) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣١).

□ وقال كعب بن زهير رضي الله عنه:

وليس لمن لم يَرْكبِ الهولَ بُغيةٌ ... وليس لرحلٍ حطَّه الله حاملُ

إذا أنت لم تُقْصِرْ عن الجهل والخنا ... أصبت حليمًا أو أصابك جاهل [(١)]

□ وقال آخر:

الذلُّ في دعةِ النفوس ولا أرى ... عزَّ المعيشةِ دون أن يسعى لها [(٢)]

□ وقال آخر:

لا بد أن أركبَها صعبةً ... وقَّاحةً تحت علام وَقَاح

أُجْهِدُها أو تنثني دونه ... دون الذي أمَّلت أو بالنجاح

إما فتى نال المنى فاشتفى ... أو بطل ذاق الردى فاستراح [(٣)]

□ وقال علي بن المقرب العيوني:

سأمضي على الأيام عزم ابن حُرّةٍ ... يرى العَوْدَ فيها تكره النفس أحمدا

(١) «ديوان كعب بن زهير» (ص١٣٤).
(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٢).
(٣) «أدب الطلب» للشوكاني (ص١٢٩).

فإمـا حيـاة لا تُـذمُّ حميـدةٌ ... يُحـدِّث عنهـا مـن أغـار وأنجـدا

أنـال المنـى فيهـا وإمـا مَنيَّـةٌ ... تريح فؤادًا أحَّ[1] من غُلَّة الصدى[2]

ﮪ- **التقوى**: فتقوى الله ﷻ هي أعظم باعث على الشجاعة؛ لأن من عرف ربَّه، وقدره حقَّ قدره، وعظم وقاره وجلاله في قلبه – هانت عليه الدنيا، وزال من قلبه مهابة الخلق، وانقلبت في حقه المخاوف أمنًا.

فالتقوى هي العدة في الشدائد، والعون في الملمات، وهي متنزل السكينة، ومهبط الرَّوْح والطمأنينة، وهي مبعث القوة واليقين، ومعراج السمو إلى السماء، وهي التي تثبت الأقدام في المزالق، وتربط على القلوب في الفتن[3].

□ قال الشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ: «ومن تفقَّه في التقوى عرف أنها الوسيلة الكبرى للعظمة الصادقة؛ فإنها بذل الإنسان جهده وسعيه في طرق الفلاح».

ومن تَقْوى الرجل الذي رُزِق ألمعيةً متوقِّدةً، وهمةً ساميةً – أن يقتحم الأخطار، ويقذف في نفسه في معالي الأمور، فإذا هو في جلال وعظمة،

---

(١) أحَّ: سعل، والصدى: العطش.

(٢) «علي بن المقرب العيوني حياته – شعره» (ص٣٢٢).

(٣) انظر: «عيون البصائر» (ص٢٩١).

وإن لم يَجِدِ الزهوُ والكبرُ إلى نفسه منفذًا»[١].

ن- **الإكثار من ذكر الله**: فبذكر الله تطمئن القلوب، وتسكن النفوس. قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد].

وبذكر الله يقوى القلب، ويُغْلَب العدو، وتهون الصعاب.

ولهذا أرشدنا الله – تبارك وتعالى- إذا لقينا العدو أن نثبت وأن نذكره ﷻ لما في ذكره من الطمأنينة والثبات.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفال].

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في معرض حديثه عن فضائل الذكر: «إن الذكر يعطي الذاكر قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام بن تيمية في «سننه»، وكلامه، وإقدامه أمرًا عجيبًا، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمرًا عظيمًا»[٢].

وأفضل الذكر بعد القرآن تلك الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر.

وكذلك: «لا حول ولا قوة إلَّا الله»؛ فلها أثر عظيم في شجاعة

---

(١) «العظمة» (ص١٥- ١٦).

(٢) «الوابل الصيب» لابن القيم (ص١٠٦).

القلب وثباته.

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الكلمة العظيمة: «وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال، والدخول على الملوك ومن يُخَافُ، وركوب الأهوال ولها أيضًا تأثير في دفع الفقر»[(١)] اهـ[(٢)].

٦٦- الإقبال على ما ينفع، والإعراض عن كل ما لا ينفع:

وهذا الأمر جماع لما مضى من الأسباب المعينة على اكتساب الهمة العالية.

فمن شأن متطلب الكمال، والساعي إلى حميد الفعال – أن يقبل على كل أمر ينفعه، وأن يسلك السبل المفضية إلى ما رامه وأمَّله، وأن يتجنب كلَّ أمر يعوقه ويقطع سيره، وأن ينأى بنفسه عن كل ما من شأنه أن ينزل قدره، ويدني همته.

□ وللإمام ابن القيم في هذا الشأن كلام قيم؛ فإليك أيها القارئ هذا الكلام النوراني من ذلك العالم الرباني:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة، بل وإلى كل علم، وصناعة، ورئاسة بحيث يكون رأسًا في ذلك، مقتدى به فيه – يحتاج أن يكون شجاعًا مقدامًا، حاكمًا على وهمه، غير مقهور تحت سلطان تَخَيُّله، زاهدًا في كل ما سوى مطلوبه، عاشقًا لما توجه إليه، عارفًا بطريق

(١) «الوابل الصيب» لابن القيم (ص١٠٧).

(٢) «الهمة العالية» (ص٢٥٦- ٢٧٠).

الوصول إليه، والطرق القواطع عنه، مقدام الهمة، ثابت الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم، ولا عذل عاذل، كثير السكون، دائم الفكر، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفزه المعارضات، شعاره الصبر، وراحته التعب، مُحبًّا لمكارم الأخلاق، حافظًا لوقته، لا يخالط الناس إلَّا على حذر كالطائر الذي يلتقط الحب بينهم، قائمًا على نفسه بالرغبة والرهبة، طامعًا في نتائج الاختصاص على بني جنسه، غير مرسل شيئًا من حواسه عبثًا، ولا مُسَرِّحًا خواطره في مراتب الكون.

وملاك ذلك هجر العوائد، وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب»[(١)] اهـ[(٢)].

٦٧- نُبل النَّفْس:

▢ قال الجوهريُّ: «النُّبْل: النَّبَالَةُ والفضلُ. والنَّابِل هو الحاذقِ بالأمر، العليم بما يُصلحه.

▢ والنُّبْلُ: خُلُق حميدٌ يتحلَّى صاحِبُهُ بالذَّكاءِ والنَّجَابَة في ذاتِهِ، والفضلِ والرِّفقِ في تعامُله مع النَّاس مع حِذْقٍ في الرَّأْي والعَمَل.

● عن جُبَيْر بن مُطعِم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ للقُرَشِيِّ مِثْلَي قوَّة الرجل مِن غيرِ قريْش**». قلتُ للزُّهَري: ما عَنَى بذلك؟ قال: نُبْلُ

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص٢٧١- ٢٧٢).

(٢) «الهمة العالية» (ص٢٧٠- ٢٧١).

الرَّأي[١].

والنبيل: سَيِّدٌ في قومه:

• عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ وعمر: «هذانِ سِيِّدَا كُهُولِ[٢] أهلِ الجنَّةِ مِنَ الأوَّلِينَ والآخِرينَ إلَّا النَّبِيِّينَ والمرْسَلِين»[٣].

• عن كعب بن مالكٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال لبني ساعِدَةَ: «مَنْ سيِّدُكُمْ؟». قالوا: جُدُّ بن قيسٍ. قال: «بِمَ سَوَّدْتُمُوهُ؟». قالوا: إنَّهُ أكثرُنا مالًا، وإنَّا على ذلك لنَزُنُّهُ[٤] بالبُخْلِ؟. فقال النبيُّ ﷺ: «وأيُّ دَاءٍ مِنَ البُخْلِ؟». قالوا: مَنْ سيِّدُنا؟ قال: «بِشْرُ بنُ البَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ»[٥].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٨١)- واللفظ له- وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٨): «رواه أحمد ورجالُ أحمد رجال الصحيح».
وكذا رواه ابن حبان، والحاكم، والطيالسي، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «سننه»، والطحاوي، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٦٩٧)، و«صحيح الجامع» (٢١٨١).

(٢) الكهل من الرجال ما زاد على ثلاثين سنة إلى الأربعين، وقيل: إلى تمام الخمسين، وَوَخَطهُ الشيب.

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٣٦٦٥، ٣٦٦٦) عن أنس، وعلي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (ص٨٢٢)، و«صحيح الجامع» (٧٠٠٥).

(٤) زَنَّه: ظنه به واتهمه.

(٥) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٦٣) عن أبي هريرة واللفظ له وصححه ووافقه الذهبي، ورواه البخاري في «الأدب المفرد»، والطبراني في «الأوسط»، والخطيب عن جابر، والطبراني في «الأوسط» والخرائطي عن كعب بن مالك، =

□ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «ما رأيتُ أحدًا كان أسودَ منْ معاويةَ بن ابن سُفْيان». قلتُ: ولا عُمرَ؟ قال: «كان عُمَرُ خيرًا مِنْ معاويةَ، وكان مُعاويةُ أسودَ مِنْهُ»[(١)].

□ قيل لمعاويةَ: منْ أسْوَدُ الناس؟ قال: «أسْخَاهُمْ نفسًا حينَ يُسْأَلُ، وأحسنهم في المجالسِ خلُقًا، وأحْلمهم حِينَ يُسْتَجْهَلُ»[(٢)].

ذِكْرُ بعض خِصَالِ النُّبلاءِ:

□ قال ابن الجوزيِّ: «خُلقتْ لي هِمَّةٌ عاليةٌ تطلب الغاياتِ. فقلَّتِ السِّنُّ وما بلغْتُ ما أمَّلْت، فأخذتُ أسألُ تطويل العمر، وتقوية البدن، وبلوغَ الآمالِ. فأنكرتْ عليَّ العاداتُ، وقالت: ما جَرتْ عادةٌ بما تطلب. فقلتُ: إنما أطْلبُ من قَادرٍ يخْرِقُ العاداتِ».

□ وقدْ قيل لرَجُلٍ: «لنا حُوَيجَةٌ. فقال: اطلبوا لها رجيْلًا».

□ وقيل لآخر: «جئناكَ في حاجةٍ لا ترؤكَ، فقال: هلَّا طلبْتُمْ لها سَفاسِفَ الناسِ؟».

فإذا كان أهل الأنفَةِ منْ أرْبابِ الدُّنيا يقُولونَ هذا، فلِمَ لا نطْمَعُ في فَضْلٍ كريمٍ قادرٍ؟»[(٣)].

وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٠٤).

(١) «المنتقى من مكارم الأخلاق» (ص١١٥)، والسَّواد هنا من السؤدد، وهو النبل.

(٢) «المنتقى من مكارم الإخلاق» (ص١١٦).

(٣) «صيد الخاطر» (٢٩٧).

إلى أنْ يقُولَ: فالله الله، وعليكم بملاحظة سيرِ السَّلَفِ، ومطالعةِ تصانيفهمْ، وأخْبَارِهمْ فالاسْتِكثَارُ من مُطَالعةِ كتُبِهمْ رؤْيَةٌ لهمْ، كما قال:

فاتَنِي أنْ أرَى الدِّيَارَ بِطَرْفِي   فَلَعَلِّي أَرَى الديَارَ بِسَمْعِي

وإنِّي أخْبِرُ عن حالي، ما أشْبَعُ من مطالعةِ الكتبِ، وإذا رأيتُ كتابًا لم أرَهُ، فكأنِّي وقعْتُ على كنزٍ. ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوف في المدرسة النِّظاميَّة، فإذا به يحتوي على نحو ستَّة آلافِ مجلَّدٍ، وفي ثبت كتب أبي حنيفة، وكتب الحميْديِّ، وكتب شيْخِنا عبد الوهَّاب وابن ناصرٍ، وكتب أبي محمَّد بن الخشَّابِ، وكانت أحمالًا، وغير ذلك من كلِّ كتابٍ أقدرُ عليه.

ولو قلتُ: إنِّي طالعْتُ عشْرين ألف مجلَّدٍ كان أكثر وأنا بعد في الطَّلَبِ. فاستفدْتُ بالنَّظَرِ فيها مِنْ ملاحظةِ سيرِ القومِ، وقدْرِ هممهم، وحفظهم، وعباداتهم، وغرائبِ علومِهِمْ، ما لا يعرفه منْ لم يطالعْ. فصرْتُ أستزْرِي ما الناسُ فيه، وأحتقرُ هِمَمَ الطُّلَّابِ ولله الحمدُ.

وقال أيضًا: ما يتناهى في طلب العلم إلَّا عاشِقُ العلم، والعاشِقُ ينْبَغي أنْ يصْبِرَ على المكارِهِ، ومنْ ضرورةِ المُتَشَاغِلِ به البعد عن الكَسْبِ، ومُذْ فُقِدَ التَّفَقُّدُ لهم من الأمراءِ ومن الإخوانِ لازمهم الفقر ضرورةً. والفضائِلُ تُنادِي: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

فكُلَّما خافَتْ من ابْتلاءٍ قالتْ:

لا تحْسَبِ المَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبرًا

□ ولمَّا آثَرَ أحمدُ بنُ حنبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ طلب العلم وكان فقيرًا، بقيَ أربعين سنةً يتَشَاغَلُ به ولا يتَزوَّجُ، فينْبَغِي للفقيرِ أنْ يُصابِرَ فقْرَهُ كما فعل أحمدُ. ومَنْ يُطِيقُ ما أطَاقَ!؟ فقدْ رَدَّ مِنَ المال خمسين ألفًا، وكان يأكل الكامَخ ويتَأَدَّمُ بالمِلْح. فما شَاعَ له الذِّكْرُ الجميل جُزافًا، ولا تَرَدَّدَتِ الأقدام إلى قبره إلَّا لمعنى عجيبٍ، فياله ثناءً ملأَ الآفاقَ!، وجمالًا زيَّن الوجودَ، وعِزًّا نسخ كُلَّ ذُلٍّ. هذا في العاجل، وثوابُ الآجلِ لا يُوصَفُ. فالصَّبْرَ الصبْرَ أيُّها الطَّالِبُ للفضائِل، فإنَّ لذَّة الرَّاحة بالهوى، أو البطالة، تذهبُ، ويبْقى الأَسَى، وقال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

يَا نَفْسُ مَا هُوَ إلَّا صَبْرُ أيَّام ... كَأنَّ مُدَّتَهَا أضْغَاثُ أحْلام

يَا نَفْسُ جُوزِي عِنِ الدُّنْيَا مُبَادِرَةً ... وخَلِّ عَنْهَا فَإنَّ العَيْشَ قُدَّامِي[1]

□ قال عكرمةُ: «السَّيِّدُ الذي لا يغْلِبُهُ غضَبُهُ»[2].

□ قال الضَّحَّاكُ: «السَّيِّدُ الحسنُ الخلُقِ»[3].

□ قال الضَّحَّاكُ: «السَّيِّدُ: الحليمُ التَّقيُّ»[1].

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٥٥٢-٥٥٣).
(٢) «المنتقى من مكارم الأخلاق» (ص١١٥).
(٣) المرجع السابق (ص١١٥).

□قال كُشَاجِمُ:

لا أَسْتَلِذُّ العَيْشَ لَمْ أَدْأَبْ لَهُ ... طَلَبًا وسَعْيًا فِي الهَوَاجِرِ والغَلَسْ
وأَرَى حَرَامًا أَنْ يُواتِيَنِي الغِنَى ... حَتَّى يُحَاوَلَ بالعَنَاءِ ويُلْتَمَسْ
فَاصْرِفْ نَوالَكَ عَنْ أَخِيكَ مُوَفَّرًا ... فَاللَّيْثُ لَيْسَ يُسِيغُ إِلَّا مَا افْتَرَسْ [٢]

□قال الشاعر:

تَفَضَّلْ عَلَى مَنْ شِئْتَ وَاعْنَ بِأَمْرِهِ ... فَأَنْتَ وَلَوْ كَانَ الأَمِيرَ أَمِيرُهُ
وَكُنْ ذَا غِنًى عَنْ مَنْ تَشَاءُ مِن الوَرَى ... وَلَوْ كَانَ سُلْطَانًا فَأَنْتَ نَظِيرُهُ
وَمَنْ كُنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ وَوَاقِفًا ... عَلَى طَمَعٍ مِنْهُ فَأَنْتَ أَسِيرُهُ [٣]

---

(١) المرجع السابق (ص١١٥).
(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٨٨).
(٣) «صيد الخاطر» (ص٤٢٦).

أقوالٌ عَطِرات:

كُنْ خبرًا يروقُ جميلاً:

□ قال الشاعر:

تَلْقَى الكريمَ فتستدِلُّ بِبِشرِهِ … وتَرَى العُبُوسَ على اللئيم دليلًا

واعلم بأنك عن قليلٍ صائِرٌ … خَبَرًا، فَكُنْ خبرًا يروقُ جميلًا[(١)]

□ ولله در القائل: «مَنْ لم يرْكَب الأهوال لم ينل الرَّغَائِبَ، ومن ترك الأمر الذي لعلَّه أنْ ينال منْهُ حاجتهُ مخافة ما لعلَّهُ يُوقَّاهُ فليس ببالغٍ جسيمًا، وإنَّ الرَّجُل ذا المروءةِ ليكون خامل الذِّكْر خافض المنزلة، فتأْبى مرؤَتُهُ إلَّا أن يسْتَعْلِيَ ويرْتفعَ، كالشُّعْلة مِنَ النَّارِ التي يصُونُها صاحِبُها وتأبى إلَّا ارْتِفاعًا»[(٢)].

□ قال حبيبٌ الطَّائِيُّ:

أَعَاذِلَتِي مَا أَخْشَنَ اللَّيْلَ مَرْكَبًا … وَأَخْشَنُ مِنْهُ فِي الْمُلِمَّاتِ رَاكِبُهْ

ذَرِينِي وَأَهْوَالَ الزَّمَانِ أُقَاسِهَا … فَأَهْوَالُهُ العُظْمَى تَلِيهَا رَغَائِبُهْ[(٣)]

□ قال كعبُ بنُ زُهَيْرٍ:

وَلَيْسَ أَنْتَ لَمْ يَرْكَبِ الْهَوْلَ بُغْيَةٌ … وَلَيْسَ لِرَحْلٍ حطَّهُ اللهُ حَامِلُ

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَنَا … أَصَبْتَ حَلِيمًا أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلُ[(٤)]

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص١٩٤).

(٢) «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٣/ ١٨).

(٣) «العقد الفريد» (٣/ ١٩).

(٤) «العقد الفريد» (٣/ ١٩).

الفَرْقُ بين العزم والإرادة والهمِّ:

□ قال الكَفَوِيُّ: «دواعي الإنسان إلى الفعل مِن خيرٍ وشرٍّ على مراتب، منها: الإرادة، ومنها الهَمُّ، ومنها: العزم.

وذكر الفرق بين هذه الثلاثة فقال:

الهَمُّ: اجتماع النَّفْس على الأمر، والإِزْماع عليه، والعزم هو القصدُ على إمضائه، فالهَمُّ فوق الإرادة ودون العَزم، وهوَ «أي: الهَمُّ» أوَّلُ العزيمة[١].

• عن شَدَّاد بن أوس رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يقول في صلاته: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرُّشْدِ، وأسألُك شُكْرَ نِعْمَتِك، وحُسنَ عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادِقًا، وأسألُك من خير ما تَعْلَم، وأعوذُ بك من شرِّ ما تعلمُ، وأستغفِرك لما تعلم**»[٢].

• وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**ثلاثةٌ يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله، فأما الذين يحبهم الله: فرجل أتى قومًا فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابةٍ بينه وبينهم فمنعوه، فتخلَّف رجلٌ بأعقابهم فأعطاه سرًّا لا يعلمُ بعطِيَّته إلَّا الله، والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النومُ أحبَّ إليهم مما يُعدَل به نزلوا فوضعوا رؤوسهم، فقام أحدهم يتملَّقُني ويتلو آياتي.**

---

(١) «الكُلِّيات» للكفوي (ص٩٦١).

(٢) صحيح: رواه النسائي (٣/ ٥٤) واللفظ له، والترمذي (٣٤٠٧)، وأحمد (٤/ ١٢٥)، وقال مُحقِّق «جامع الأصول» (٤/ ٢٥٩): ورواه الحاكم وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وابن حبان في «صحيحه» برقم (٢٤١٦).

ورجل كان في سَرِيَّةٍ فَلَقِيَ العَدُوَّ فهُزِموا، وأقبل بصدره حتى يُقتَل أوْ يُفتَحَ له، والثلاثة الذين يُبغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغنى الظلوم»[١].

✍ **أخي:** علو الهمَّة بَذْرُ النِّعَم، والهمَّة رايةُ الجِدِّ[٢].

◻ قال الشاعر عن عالي الهمة:

إذا هــمَّ أَلْقَــى بَــيْنَ عَيْنَيْـهِ عَزْمَــهُ ... وَنَكَّــبَ عَــنْ ذِكْــرِ العَوَاقِــبِ جَانِبَـا

ولَمْ يسْتَتْــشِرْ فِي أَمْــرِهِ غَــيْرَ نَفْــسِهِ ... وَلَمْ يَــرْضَ إلَّا قَــائِمَ الـسَّيْفِ صَــاحِبَا[٣]

◻ عكف أبو صالحٍ أيُّوبُ بن سليمان على كتاب العروض حتَّى حفظهُ، فسأله بعضهم عن إقباله على هذا العلم بعْدَ الكِبَرِ، فقال: «حضرتُ قومًا يتكلَّمُون فيه فأخذني ذُلٌّ في نفسي أنْ يكُونَ بابٌ مِنَ العِلم لا أتكلَّمُ فيهِ»[٤].

اليقظة.. اليقظة:

◻ قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومِــن النــاس مَــن يعــيش شَــقِيًّا ... جيفــةَ الليــل غَافِــلَ اليقظــهْ

---

(١) حسن: رواه أحمد (٥/ ١٥٣)، والترمذي (٢٥٦٨) واللفظ له، وقال: هذا حديث صحيح، والنسائي (٥/ ٨٤) وهو في «المشكاة» حديث (١٩٢٢)، وحسنَّه محقق «جامع الأصول» (٩/ ٥٦٤).

(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٣٢٧).

(٣) «أسرار البلاغة» (ص١١٥).

(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص٥٤).

فـــإذا كـــانَ ذا حيـــاءٍ وديـــنٍ ... راقـــبَ الله واتَّقـــي الحَفَظَـــهْ

إنـــما النـــاسُ ســـائِرٌ ومقـــيمٌ ... والـــذي ســـار للمقـــيم عِظَـــهْ

□ قال العَزِّيُّ: «اليقظة هي القَوْمَةُ لله، المذكورة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ [سبأ: ٤٦]، فالقَوْمَةُ لله هي اليَقَظَةُ مِن سِنَةِ الغفلة»[١].

□ وقال أيضًا: «إن العبد إذا نهض من وَرْطة الغفلة استنار قلبه برؤية نور التنبيه فأوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة، وكُلَّما حَدَّق قلبه وطَرْفُهُ فيها شاهَدَ عظَمَتَها وكَثْرَتَها فيئس مِن عَدِّها والوقوفِ على حَدِّها»[٢].

□ وقال أيضًا: «اعلم أن العبدَ قَبْلَ وصول الداعي إليه في نوم الغفلة قَلْبُهُ نائمٌ وطَرْفُهُ يقظانُ، فصاحَ به الناصح وأسمَعَهُ دَاعِيَ النَّجاح وأَذَّن به مُؤَذِّنُ الرحمن: حَيِّ على الفلاح»[٣].

□ وقال الفيروزآبادي: «واليقظةُ عند القوم أوَّلُ منازل العبودية، وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه مِن رقدَة الغافلين، ولله ما أنفعَ هذه الرَّوْعَة، وما أعظمَ قدرَها وخطرَها، وما أقوى إعانَتَها على السلوكِ، فَمَن أَحَسَّ بها فقد أحَسَّ والله بالفلاح، وإلَّا فهو في سَكَرَات الغفلة، فإذا انتبه وتيقَّظ شَمَّر بهمَّته إلى السفر إلى منازله الأولى، فأخذ في أُهبة السَّفَر وانتقل إلى منزلة القوم، وهو العهدُ الجازِم على الشيء، ومفارقة كُلِّ قاطعٍ

(١) «لسان العرب» (٧/ ٤٦٦- ٤٦٧).
(٢) «تهذيب مدارج السالكين» (ص١٠١).
(٣) «تهذيب مدارج السالكين» (ص١٠١).

ومُعَوِّق، ومُرافقةُ كُلِّ مَعِين ومُوَصِّلٍ، وبحَسَب كمال انتباهه ويقظته تكون عزيمته، وبحسب قُوَّة عَزمِهِ يكون استعدادُهُ، فإذا استيقظ أوجبتِ اليقظةُ الفِكرةَ، وهي تحديقُ القلب نحو المطلوب الذي قد سَعِدَ به مُجْمَلًا ولم يهتَدِ إلى تفصيله وطريق الوصول إليه، فإذا صَحَّت فِكْرَتُهُ أوجبت له البصيرة وهي نورٌ في القلب ترى به حقيقة الوعدِ والوعيدِ والجنة والنار»[1].

□ ولله در ابن قيم الجوزية إذ يقولُ:

فحـيَّ عَـلَى جنَّـاتِ عَـدْنٍ فإنها ... منازلـك الأولَى وفيهـا المُخَـيَّمُ
ولكننـا سَـبْيُ العَـدُوِّ فهـل تُـرَى ... نعـودُ إلى أوطانِنَـا ونُـسَلِّمُ

فِفرُّوا إلى الله:

* قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ ﴾ [الذاريات].

□ قال الطبري: «عِنْدَ تفْسِير هذا الجزْءِ من الآية الكريمةِ -: «اهرُبوا أيُّها الناس مِنْ عِقَابِ الله إلى رَحْمَتِه بالإيمانِ به واتِّبَاعِ أمْره والعمل بطاعَتِه»[2].

□ وقال القُرْطبيُّ في معنى هذه الآيةِ الكريمةِ: قُلْ لهم يا مُحَمَّدُ، أيْ لقَوْمِكَ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ ﴾ [الذاريات]. أيْ: فِرُّوا مِنْ معاصيهِ إلى طاعَتِه. وذكر عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قوله في هذه الآيةِ: فرُّوا إلى الله بالتَّوْبَةِ مِنْ ذنوبكم، ورُويّ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أيضًا في هذه الآيةِ: فِرُّوا مِنْهُ إليه واعمَلُوا بطاعَتِهِ، وقال بعضهم: فرُّوا مِنْ طاعَةِ الشَّيْطانَ إلى

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي (٥/ ٣٨٨، ٣٨٩).
(٢) «تفسير الطبري» (١١/ ٤٧٣).

طاعةِ الرحمن، وقيلَ: فِرُّوا مِنَ الجهْلِ إلى العلم، ومِنَ الكُفْرِ إلى الإيمان، وقيلَ: فِرُّوا إلى ما سبق لكم من الله، ولا تَعْتَمِدُوا على حركاتِكُمْ»[١].

□ وقال الشَّوكانيُّ: «فِرُّوا إلى الله بالتَّوبةِ مِنْ ذنوبكمْ عن الكُفْرِ والمعاصي، وقيل معنى ففرُّوا إلى الله: اخْرُجوا مِنْ مَكَّةَ».

□ وقال الحسينُ بن الفضْلِ: «احترِزْوا مِنْ كُلِّ شيءٍ غيرَ الله فَمَنْ فَرَّ إلى غيرِهِ لم يمْتَنِعْ مِنْهُ، قيل: فِرُّوا مِنْ طاعةِ الشَّيْطانِ إلى طاعة الرحمنِ، وقيلَ: فِرُّوا مِنَ الجَهْلِ إلى العلمِ»[٢].

ففروا إلى الله:

□ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «أي: الجَأُوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه»[٣].

□ وقال النيسابوري: «أي: التجئوا إليه، ولا تعبدوا غيره، أمْرٌ بالإقبال عليه والإعراض عمَّا سواه»[٤].

□ وقال الجنيد: «الشيطان داعٍ إلى الباطل ففروا إلى الله يمنعكم منه».

□ وقال ذو النون المصري: «ففروا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر».

□ وقال عمرو بن عثمان: «ففروا من أنفسكم إلى ربكم، فروا إلى سبق لكم من الله، ولا تعتمدوا على جواريكم».

(١) «تفسير القرطبي» (١٧/ ٣٦-٣٧) باختصار وتصرف يسير.

(٢) «فتح القدير» (٥/ ٩١).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٣٨).

(٤) «حاشية السندي على تفسير ابن جرير الطبري» (٧/ ١٦).

□ وقال سهل بن عبد الله: «فرُّوا ممَّا سوى الله إلى الله»[١].

□ وقال أبو حيَّانَ: «فِرُّوا إلى الله: أَمْرٌ بالدُّخُولِ في الإيمانِ وطاعةِ الله، وجُعِل الأمرُ ذلك بلفظ الفرار لِيُنَبِّه على أنَّ وراءَ الناس عقابًا وعذابًا وأمْرًا حَقُّهُ أنْ يُفَرَّ مِنْهُ، فجمعتَ لفظة ففِرُّوا بيْنَ التَّحْذِيرِ والاستدعاءِ».

□ وقال الزَّمَخْشَرِيُّ: «فِرُّوا إلى طاعتِهِ وثوابِهِ مِنْ معصيته وعقابه ووحِّدُوه ولا تشركوا به شيئًا»[٢].

□ فالفِرَار: أن يَفزَعَ الإنسانُ ويهربُ من عقاب الله ومن الشيطان والمعاصي والجهل وكُلِّ ما عَدَا الله إلى طاعة الرحمن والدخول في الإيمان.

□ قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنْ منازلِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]: منزلةُ الفِرَارِ:

قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحقيقةُ الفِرَارِ: الهربُ مِنْ شيءٍ إلى شيءٍ،وهو نوْعَانِ: فِرَارُ السُّعَدَاءِ، وفِرَارُ الأشْقِيَاءِ.

ففرارُ السُّعَدَاءِ: الفِرَارُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ وفرارُ الأشقيَاءِ الفِرَارُ مِنْهُ لا إليهِ.

وأمَّا الفِرَارُ مِنْهُ إليه: ففرارُ أوليائِهِ.

□ قال صاحب المنازلِ: «هو الهربُ مِمَّا لمْ يكُنْ إلى منْ لم يزلْ. وهو على ثلاث درجاتٍ: فرارُ العَامَّةِ مِنَ الجهل إلى العلم عقْدًا وسعْيًا. ومن الكسلِ إلى التَّشْمير جِدًّا وعزْمًا، ومن الضِّيقِ إلى السَّعَة ثقةً ورجاءً.

يريد بما لم يكن «الخلق»، وبما لم يزلْ «الحقُّ».

---

(١) «تفسير القرطبي» (٩/ ٣٦، ٣٧).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ١٤٢).

وقوله: «فرارُ العامَّةِ من الجهل إلى العلم عقدًا وسعيًا»: فالفرارُ المذْكُورُ: هو الفرارُ من الجهْلَين: مِنَ الجهْلِ بالعلم إلى تحْصِيله، واعتقادًا ومعرفةً وبصيرةً، ومِنْ جهْلِ العملِ إلى السَّعْي النَّافعِ، والعملِ الصَّالح قصدًا وسعْيًا.

وقولُه: «ومِنَ الكسلِ إلى التَّشْميرِ جِدًّا وعزْمًا»: أي يَفِرُّ مِنْ إجابةِ دَاعِي الكسلِ إلى دَاعِي العملِ والتَّشْمير بالجدِّ والاجتهَادِ، والجدُّ هَهُنا هو صِدْقُ العمل، وإخلاصُهُ مِنْ شوائِبِ الفُتُورِ، ووعُودِ التَّسْويفِ والتَّهَاون، وهو تحت السِّين وسوف، وعسى ولعلَّ، فهي أضرُّ شيءٍ على العبد، وهي شجرةٌ ثمرها الخسران والنَّدَاماتُ.

وقولُهُ: «مِنَ الضِّيق إلى السَّعةِ ثقةً ورجاءً»: يريد هروب العبد مِنْ ضيق صدْره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعتَريه في هذه الدَّار مِنْ جهةِ نفسه. وما هو خارجٌ ممنْ نفسه ممَّا يتعلَّقُ بأسباب مصالحه، ومصالح مَنْ يتعلَّقُ به، وما يتعلَّقُ بما له وبدنه وأهله وعدُوِّهِ، يهربُ من ضيق صدْرِه بذلك كُلِّه إلى سعةِ فضاءِ الثِّقةِ بالله تبارك وتعالى، وصدْقِ التَّوكُّلِ عليه، وحسن الرَّجاءِ لجميل صُنْعِهِ به، وتوقُّعِ المرْجُوِّ مِنْ لطْفه وبرِّهِ.

وكلَّما كان العبدُ حسن الظَّنِّ بالله ، حسنَ فيه ألْبَتَّةَ، فإنه سبحانه لا يخيِّبُ أمل آملٍ، ولا يُضَيِّعُ عمل عاملٍ. وعبَّر عن الثِّقة وحسن الظَّنِّ بالسَّعَةِ، فإنَّهُ لا أشرح للصَّدْر، ولا أوْسَعَ له – بعد الإيمان– منْ ثقته بالله ورجائِهِ له وحسن ظنِّه به.

وبالجملة فصاحب هذا التَّجْريد: لا يقْنع مِنَ الله بأمرٍ يسكن إليه دون

الله، ولا يفرح بما حصل له دون الله، ولا يأسى على ما فاتَهُ سِوَى الله، ولا يستغْنِي بِرُتْبَةٍ شريفةٍ، وإنْ عظمَتْ عنده أو عند الناس، فلا يستغني إلَّا بالله. ولا يفتقرُ إلَّا إلى الله، ولا يفرحُ إلَّا بموافقته لمرضاةِ الله، ولا يحزنُ إلَّا على ما فاتَهُ من الله، ولا يخاف إلَّا من سقوطه مِنْ عينِ الله. واحتِجَابِ الله عَنْهُ، فكُلُّهُ بالله، وكُلُّهُ لله، وكُلُّهُ مع الله، وسيْرُهُ دائمًا إلى الله، وقد رُفِعَ له علمُهُ فشمَّرَ إليه، وتجرَّدَ له مطلوبه فعمل عليه، تُنَادِيه الأغيارُ: إليَّ، وهو يقولُ: إنَّما أريد مَنْ إذا حصل لي حصل لي كلُّ شيءٍ، وإنْ فاتني فاتني كلُّ شيءٍ، فهو مع الله مجرَّدٌ عنْ خلْقِهِ، ومع خلْقِه مجرَّدٌ عنْ نفسه، ومع الأمر مُجَرَّدٌ مِنْ حظِّه، أعْنِي الحظَّ المراحم للأمر، وأمَّا الحظُّ المعين على الأمرِ: فإنَّهُ لا يحطُّهُ تناوُلُهُ عنْ مرْتَبتِه، ولا يُسْقِطُه منْ عينِ ربِّهِ.

وهذا أيضًا موْضِعٌ غَلِطَ فيه منْ غَلِطَ منَ الشُّيُوخِ فظنُّوا أنَّ إرادةَ الحَظِّ نقْصٌ في الإرادةِ.

والتَّحْقيقُ فيه: أنَّ الحظَّ نوْعانِ: حظٌّ يُزَاحِمُ الأمرَ، وحظٌّ يؤازرُ الأمرَ. فالأوَّلُ هو المذموم، والثاني ممدوحٌ وتناوله منْ تمام العبوديَّة، فهذا لوْنٌ، وهذا لونٌ[1].

الرحلة إلى الله وما يعترضُها:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إذا عزم العبد على السَّفَرِ إلى الله تعالى وإرادته عرضت له الخوادع والقواطِعُ، فينْخدعُ أولًا بالشَّهواتِ والرِّياسات والملاذِّ والمناكِحِ والملابس، فإنْ وقف معها انقطع وإنْ رفضها، ولم يقفْ

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٠٤ - ٥١٠) باختصار.

معها وصدقَ في طلبه ابْتلي بوطْءِ عقبهِ[(١)]، وتقبيل يده، والتَّوْسِعة له في المجلس، والإشارة إليه بالدُّعَاءِ ورجاءِ بركتهِ، ونحو ذلك، فإنْ وقف معه انقطع به عن الله، وكان حظُّهُ مِنْهُ، وإنْ قطعَهُ، ولم يقفْ معه ابْتُلَي بالكرامات والكشُوفاتِ، فإنْ وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظَّهُ، وإنْ لم يقفْ معها ابتُلي بالتَّجْريد والتخلِّي ولذَّةِ الجمعيَّةِ، وعزَّةِ الوحدةِ والفراغِ مِنَ الدُّنيا، فإنْ وقف مع ذلك انقطعَ به عن المقصودِ، وإنْ لم يقفْ معه وسار ناظرًا إلى مُرادِ الله مِنْهُ، وما يُحِبُّهُ مِنْهُ، بحيثُ يكون عبدهُ الموقوف على محابِّه ومراضيه، أين كانت؟ وكيف كانت، تعب بها أو اسْتراحَ، تنَعَّم أوْ تألَّم، أخرجتْهُ إلى الناس أو عزلتْهُ عنهم، لا يختارُ لنفسه غير ما يختارُهُ له ولِيُّهُ وسيِّدُهُ، واقفٌ مع أمره ينفِّذُهُ بحسب الإمكان، ونفسه عنده عليه أهونُ عليه أنْ يقدِّمَ راحتها ولذَّتها على مرْضاةِ سيِّدهِ وأمره، فهذا هو العبدُ الذي قدْ وصل ونفذَ ولم يقطعه عن سيده شيءٌ ألْبتَّةَ»[(٢)].

• عن البراءِ بن عازبٍ رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا أخذْتَ مضجعكَ**[(٣)] **فتوضَّأْ وضوءَكَ للصَّلاةِ، ثمَّ اضطجعْ على شقِّكَ الأيمن، ثُمَّ قل: اللهمَّ إنِّي أسلمْتُ وجهي إليك**[(٤)] **وفوَّضْتُ أمْرِي إليك، وألجأْتُ**

---

(١) أي: السير خَلْفَه.

(٢) «الفوائد» (ص١٧٢).

(٣) «**إذا أخذت مضجعك**»: معناه إذا أردت النوم في مضجعك.

(٤) «**أسلمت وجهي إليك**». وفي الرواية الأخرى. «**أسلمت نفسي إليك**»: أي استسلمت وجعلت نفسي منقادة لك طائعة لحكمك. قال العلماء: الوجه والنفس هنا بمعنى الذات كلها، يقال: سلم وأسلم واستسلم بمعنى.

ظهري إليك[١]، رغْبَةً ورهْبَةً إليك[٢]، لا ملجأَ ولا منْجَى مِنْكَ إلَّا إليكَ. آمنْتُ بكتابك الذي أنزلْتَ، وبنيِّكَ الذي أرسلتَ، واجعلهُنَّ مِنْ آخر كلامك، فإنْ مُتَّ مِنْ ليلتكَ، مُتَّ وأنت على الفِطْرَةِ»[٣] قال: فرددْتُهُنَّ لأستذْكِرَهُنَّ فقلتُ: آمَنْتُ برسولك الذي أرْسلتَ. قال: «قُلْ: آمَنْتُ بِنَبيِّك الذي أرسَلْتَ»[٤].

الرُّجُولَةُ والفُتُوَّةُ والمُرُوءَةُ والإنسانيَّةُ:

هذه صفاتٌ أرْبعُ يرجع اشْتِقاقها إلى جِنْسِ الذُّكور وما يتحلُّون به من صفات القوَّةِ ونحوها، فالرُّجولة نسبةٌ إلى الرَّجل والفتوَّةُ ترجعُ إلى الفتى، والمروءَةُ إلى المرءِ، والإنسانيَّةُ ترْجعُ إلى الإنسان، وفي المجالِ الأخلاقي «أو الاصطلاحِيِّ»، نجد المقصود بالمروءة والإنسانيَّةِ[٥] أعمَّ من نظيرتها الفتوَّةِ والرُّجولةِ؛ لأنَّ المرءَ أو الإنسان قد يكون فتًى شابًّا أو رجلًا كهلًا، والرُّجولة في أظهر معانيها تعني اتِّصافَ الإنسان بما يوصفُ به الرِّجالُ عادةً مِنْ نحو تحمُّلِ الأعباءِ الثِّقال، ومنْ أبرزِ ذلك تحمُّلُ الرُّسُل الكرام لأعباءِ الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ [الأنبياء: ٧]، ومِنْ ذلك صدقُ الرجل فيما عاهد عليه ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ

---

(١) ألجأت ظهري إليك: أي توكلت عليك واعتمدت في أمري كله، كما يعتمد الإنسان بظهره إلى يسنده.

(٢) رغبة ورهبة: أي طمعا في ثوابك وخوفًا من عذابك.

(٣) الفطرة: أي الإسلام.

(٤) البخاري «الفتح» (١/ ٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠) واللفظ له.

(٥) سَوَّى ابن القيم بين صفتي المروءة والإنسانية وجعلهما مترادفين انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦٦).

﴿صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ومنها حُبُّ التطهُّر ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ [التوبة: ١٠٨]، ومنها أنَّ الرجل لا تشغله العوارِضُ عن ذكرِ الله والعملِ للآخرةِ مصْدَاقُ ذلك قول الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، فالرَّجل الحقُّ على ذلك هو من يتحمَّلُ الأعباءَ وينهض بها، ويصدقُ العهد، ويحبُّ الطهُّرَ، ولا تشغلُهُ سفاسِفُ الأمُور عنْ معاليها، أمَّا الفوَّةُ فإنها تعني اتِّصافَ المرءِ بما يُوصفُ به الفتى من النَّجْدَةِ والنَّشاطِ وتوقُّدِ الذكاءِ، قال طرفَةُ:

إذَا القَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتًى؟ خِلْتُ أَنَّنِي عُنِيتُ، فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ (١)

▫ وقال بعض الشُّعراء:

إِنَّ الفَتَى حَمَّالُ كُلِّ مُلِمَّةٍ لَيْسَ الفَتَى بِمُنَعَّمِ الشُّبَّانِ

▫ ولا تتوقَّفُ الفتُوَّةُ على المال أو الجاهِ، وإنما على شرفِ الأعمالِ والخصالِ..

قَدْ يُدْرِكُ الشَّرَفَ الفَتَى، وَرِدَاؤُهُ خَلَقٌ، وَجَيْبُ قَمِيصِهِ مَرْقُوعُ (٢)

▫ لقد لاحظ العرب بعض هذه المعاني، فقال الجوهريُّ: «الفتى: السَّخِيُّ الكريم (٣)، يقال: هو فتًى بيِّنُ الفتوَّةِ، ويتأكَّدُ هذا المعنى اللُّغويُّ للفتوَّة بما جاء في الذِّكر الحكيم منْ وصفِ أهل الكهف بأنَّهُمْ ﴿فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ [الكهف: ١٣]، وفي وهذا إشارةٌ واضحةٌ إلى أنَّ صفة الفتوَّةِ

(١) «ديوان طرفة» المعلقة.
(٢) عن «لسان العرب» (١٥/ ١٤٦)- ط. بيروت.
(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

فيهم تُفيد قوَّةَ تحمُّلهم وصلابةَ عزيمتهم وكمال عقُولهمْ المتمثّل في الإيمانِ بالله تعالى، يقول ابن كثيرٍ في تفسير هذه الآية الكريمة: ذكر اللهُ تعالى أنَّهُمْ فتْيَةٌ وهم الشَّباب وهم أقبلُ للحقّ وأهدى للسبيلِ منَ الشُّيُوخِ الذِينَ قدْ عتَوْا وانغمسُوا في دينِ الباطلِ، ولهذا كان أكثرُ المستجيبين لله ورسولهِ شبابًا، وأمَّا الشُّيوخُ مِنْ قريشٍ فعامَّتُهمْ بقُوا على دينهم ولم يُسْلِمْ منهمْ إلَّا القليل»[١].

وبهذا يتَّضحُ أنَّ الفتوَّة تُشِيرُ إلى معانٍ ذات قيمةٍ أخلاقيَّةٍ عظمى، حتى وإنْ كانت في الأصْلِ لا تُشْعِرُ بمدْحٍ ولا ذمٍّ كما يقول الفيروزآباديُّ[٢]، ثمَّ انتقلت اللفظةُ بعد ذلك للدَّلالةِ على معْنَى «استعمالُ الأخلاقِ الكريمة مع الخلقِ»، كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ:[٣] ومعْنَى هذه العبارةِ: أنَّ الفتوَّةَ هي التَّطْبيقُ العمليُّ والتَّنْفيذُ الفعليُّ لما تقْتضيه الأخلاقُ الحميدَةُ التي لا بُدَّ أنْ يتحلَّى بها مَنِ اتَّصفَ بالفتُوَّةِ، وقدْ عدَّهَا رَحِمَهُ اللهُ، من منازلِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتحة] فقال: حقيقةُ هذه المنزلة هي الإحسانُ إلى الناس وكفُّ الأذى عنهم، واحتمالُ أذاهمْ: «وهيَ إذنْ نتيجةُ حسنِ الخلُقِ، واستعْمالهُ «أي: إخراجُهُ إلى حَيِّزِ الوجُودِ بعدَ أنْ كان هيْئةً راسخةً في النَّفْسِ».

وأقْدَمُ منْ تكلَّمَ في الفتُوَّةِ جعفرُ الصَّادقِ ثُمَّ الفضيْلُ بن عياضٍ، والإمام أحمد بن حنبلٍ، وسهْلُ بن عبد الله التستريِّ والجنيدُ، «ومن سارَ على نهجهم»، وقدْ سُئِلَ جعفرُ الصادقُ عن الفتوَّةِ فقال للسَّائِلِ: ما تقولُ

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٧٨).
(٢) «بصائر ذوي التمييز» (٤/ ١٧١).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٣).

أنتَ؟ قال: إنْ أعْطيتُ شكرْتُ، وإنْ مُنِعْتُ صبَرْتُ، فقال «جعفرُ»: لكن المروءةَ عندنا: أُعطينا آثرْنَا، وإنْ مُنعْنَا شكرْنَا.

□ وقال الفضيلُ: «الفتُوَّةُ: الصَّفْحُ عنْ عثَرَاتِ الأخوانِ».

□ وقال الإمامُ أحمدُ: «الفتُوَّةُ: ترْكُ ما تهْوَى لما تخْشَى».

□ وقال الجنيْدُ: «الفُتُوَّةُ: ألَّا تُنَافِرَ فقيرًا، ولا تُعَارِضَ غنيًّا».

□ وقال لُمحَاسِبيُّ: «الفتوَّة: أنْ تُنْصِفَ ولا تنْتَصِفَ».

□ وقال الترمذيُّ: «الفتوَّة: أنَّء تكون خصيمًا لربِّكَ على نفسك، وقيل: هي ألَّا ترى لنفسك فضْلًا على غيركَ»[1].

□ وقد لخَّصَ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الأقوالِ عندما ذكر أنَّ أصْلَ الفتُوَّة عندهم هيَ أنْ يكون العبدُ أبدًا في أمْر «خدْمَةِ» غيره [2].

□ وهذا الخلقُ الرَّفيعُ لا يتأتَّى بكماله إلَّا لرسول الله ﷺ كما يقول الدَّقَّاقُ-: «فإنَّ كلَّ أحدٍ يقول يوم القيامةِ: نفسي نفسي، وهو يقول: أمَّتِي أمَّتِي» [3].

وفيما يتعلَّقُ بالفرقِ بين المروءةِ [4] والفتُوَّةِ فيتمثَّلُ في أنَّ بينهما عمومًا وخصوصًا يقول ابن القيم موضِّحًا لهذا الفرق: الفتُوَّةُ نوعٌ من أنواعِ المروءةِ إذ المروءةُ استعمالُ ما يجملُ ويزينُ ممَّا هو مختَصٌّ بالعبْدِ، أوْ متعدٍّ إلى

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٤)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ١٧٠) وما بعدها.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٥).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٥)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ١٧١).

(٤) انظر: «صفة المروءة» ووفقًا لما ذكر ابن القيم، فإن الإنسانية والمروءة يستويان في المعنى.

غيره، وتَرْكُ ما يُدنِّسُ ويشينُ مما هو مختصٌّ أيضًا به أو متعلِّقٌ بغيره، أما الفتوَّةُ فهي استعمالُ الأخلاق الكريمةِ مع الخلقِ [١]، أيْ إنَّ المروءةَ تتعلَّقُ بالنفس وبالغير، والفتوَّةَ تتعلَّقُ بالغير فقط إذ هي أنْ يكون المرءُ في خدمة غيره، أمَّا صِفَةُ الإنسانيَّةِ فهي والمُروءةُ سواءٌ» [٢].

يا هذا كن رَجُلا: وسِرْ بهمتك علك تلحق بهؤلاء الرجال:

* قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* وقال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ [التوبة: ١٠٨].

* وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

* وقد نعت الله الأنبياء بكونهم رجالًا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧].

فسِرْ على درب الرجال.

حسنُ السمت والهدى والدل موقوفٌ على عُلاة الهمم الربانيين الصالحين:

مادة (س م ت) تدل –كما يقول ابن فارس– على نَهْجٍ وقَصْدٍ وطريقة.

يُقال: سَمَت إذا أخذ النهْج.

ويُقال: إن فُلانًا لحَسَنُ السَّمْتِ: إذا كان مستقيم الطريقة متحرِّيًا لفعل الخير.

والسَّمْت (أيضًا) هيئة أهل الخير يُقال: ما أحسن سَمْتَه.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٣).

(٢) «نضرة النعيم» (٥/ ٢٠٤٢- ٢٠٤٤).

□ قال أبو عُبْيد: «السَّمْتُ يكونُ في حُسْنِ الهيئة والمنظر من جِهَة الخير والدِّين لا من جهة الجمال والزينة».

فحسن السَّمت هو حسن المظهر الخارجي للإنسان طريقة الحديث والصَّمْت، والحركة والسُّكُون والدُّخُولِ والخروج والسِّيرة العلميَّة في الناس بحيثُ يستطيع منْ يراهُ أو يسمعُهُ أنْ ينْسِبَهُ لأهلِ الخيرِ والصَّلاحِ والدِّيانَةِ والفلاحِ[1].

• عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الهَدْيَ الصَّالحَ والسَّمْتَ الصَّالِحَ والاقْتِصَادَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وعشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[2].

□ عن جابر بن سمرة رضي الله عنهما أنَّهُ قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ في ليلةٍ أضْحِيَانٍ[3]، فجعلْتُ أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر، وعليه حُلَّةٌ حمراءُ، فإذا هو عنْدِي أحسنُ منَ القمرِ»[4].

---

(١) «مقاييس اللغة» لابن فارس (٣/ ٩٩)، و«النهاية» لابن الأثير (٢/ ٣٩٧)، و«لسان العرب» (ص٢٠٨٧) طبع دار المعارف، و«المفردات» للراغب (ص١١٨).

(٢) أبو داود (٤٧٧٦) واللفظ له، وأحمد (١/ ٢٩٦) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (٤/ ٢٤٤) رقم (٢٦٩٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٧) رقم (٧٩١)، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: «إسناده حسن» (١٠/ ٥٠٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٩٢) بلفظ: «إن الهدى الصالح، والسَّمتَ الصالح، جزءٌ من سبعين جزءًا من النبوة» من رواية الطبراني في «المعجم الكبير».

(٣) ليلة أُضْحِيان: أيْ مضيئة.

(٤) صحيح: رواه الترمذي (٢٨١٢) في «الأدب» باب ما جاء في الرُّخصة في لبس الحمرة للرجال، وقال: هذا حديث حسن غريب وهو كما قال، ورواه الحاكم (١/ ١٨٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

• عن البراءِ بن عَازِب رضي الله عنهما أَنَّهُ قال: «كان النَّبيُّ ﷺ مربوعًا، وقدْ رأيْتُهُ في حُلَّةٍ حمراءَ، ما رأَيْتُ شيئًا أحسن منْهُ».

▫ قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُرَ إلى هدْيِ رسول الله ﷺ فلينظرْ إلى عمْرِ بْنِ الأَسْودِ»[1].

▫ قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه يوصِي الرِّجال والنساءَ: «مَنْ أدْرَكَ فيكُنَّ مِنَ امرأةٍ أوْ رجُلٍ فالسَّمْتَ الأولَ، السَّمْتَ الأوَّلَ، فإنَّا على الفطْرَةِ». قال عبد الله: السَّمْتُ: الطَّرِيقُ»[2].

▫ قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: «إنكم في زمانٍ كثيرٌ فقهاؤُه، قليلٌ خطباؤُه قليلٌ سؤَّالُه، كثيرٌ معْطُوه، العملُ فيه قائدٌ للهَوى، وسيأتي منْ بعْدِكم زَمانٌ قليلٌ فقهاؤُهُ، كثيرٌ خطبَاؤهُ، كثيرٌ سؤَّالُه، قليلٌ عطاؤُهُ، الهوى فيه قائدٌ للعمل. اعلموا أنَّ حُسْنَ الهدْيِ في آخر الزَّمَانِ خيرٌ مِنْ بعض العمل»[3].

▫ قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «القصدُ والتُّؤدَةُ وحسنُ السَّمْتِ جُزْءٌ مِنْ خمسةٍ وعشرين جُزءًا من النُّبُوةِ»[4].

▫ قالت عائشةُ رضي الله عنها: «مَا رأيْتُ أحدًا كان أشْبَهَ سمْتًا ودلًّا وهدْيًا

---

(١) «حلية الأولياء» (٥/ ١٥٦) وهو في «الحلية» بهذا اللفظ، وذكره الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٥١٠) وعزاه لأحمد.

(٢) الدارمي (١/ ٨٢) رقم (٢١٣).

(٣) «الأدب المفرد» (ص٢٧٥، ٢٧٦) وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: «سنده صحيح» (١٠/ ٥١٠) ولا يُقال مثله مِن قِبَل الرأي.

(٤) «الموطأ» (٩٥٤)، وقال محمد فؤاد عبد الباقي: رواه الطبراني في «الكبير» مرفوعًا ومثله لا يُقال بالرأي.

برسولِ الله ﷺ في قيامها وقُعُودِهَا مِنْ فاطمةَ رضي الله عنها»[١].

◻ قال إبراهيم النَّخَعيُّ رحمه الله: «كانوا إذا أتَوُا الرَّجُل ليأخذوا عنه نظروا إلى صلاتِهِ وإلى سمْتِهِ وإلى هيْئَتِه، ثمَّ يأخذونَ عنهُ»[٢].

◻ قال الأعمشُ رحمه الله: «كانوا يتعلَّمُونَ مِنَ الفقيهِ كُلَّ شيءٍ حتَّى لبَاسَهُ ونعْليْهِ»[٣].

◻ قال الأوزاعيُّ رحمه الله: «كُنَّا نَمْزَحُ ونضحك فلَمَّا صرْنَا يُقْتَدى بنا خشيتُ أنْ لا يسعُنَا التَّبَسُّمُ»[٤].

◻ قال الحسن البصريُّ رحمه الله: «كان الرجلُ يطلُبُ العلم فلا يَلبَثُ أن يُرَى ذلك في تخشُّعِهِ ولسانه وبصرِهِ ويَدِهِ»[٥].

◻ قال أبو العاليةِ رحمه الله: «أرْحَلُ إلى الرَّجُلِ مسيرةَ أيَّامٍ فأوَّلُ ما أتفقَّدُ مِنْ أمره صلاتُهُ، فإنْ وجدْتُهُ يقيمُهَا ويتمُّهَا أقمْتُ وسمِعْتُ مِنْهُ، وإنْ وجدْته يضيِّعُها رجعْتُ ولم أسمعْ مِنْهُ وقلتُ هو لغيرِ الصلاةِ أضْيَعُ»[٦].

◻ قال مالكٌ رحمه الله: «إنَّ حَقًّا على منْ طلبَ العلمَ أنْ يكون له وقارٌ وسكينَةٌ وخشْيَةٌ، وأنْ يكون مُتَّبِعًا لأثَرِ مَنْ مَضَى قبْلَهُ»[٧].

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٨٧٢) واللفظ له بسياق طويل، وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه أبو داود (٥٢١٧)، والنسائي في «عشرة النساء» (ص٣٠١) رقم (٣٥٤)، والحاكم (٤/ ٢٧٢)، (٤/ ٣٧٢) والبيهقي في «السنن» (٧/ ١٠١).
(٢) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٤٩).
(٣) المصدر السابق (٢/ ١٤٩).
(٤) المرجع السابق (٢/ ٤٤).
(٥) «شعب الإيمان» (٨/ ٤٢٧)، و«والآداب الشرعية» (٢/ ٤٥).
(٦) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٢٠).
(٧) «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٥).

❐ قال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان عُمَرُ أشْبَهَ الناس بهدْي رسول الله ﷺ وأشْبَهُ الناس بعمر ابنه عبد الله، وبعبد الله ابنُهُ سالم»[(١)].

❐ قال أبو عبيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يرحلونَ إلى عمرَ رضي الله عنه فينْظُرونَ إلى سمْتِه وهدْيِهِ ودِهِ فيتشَبَّهُونَ به»[(٢)].

❐ قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «لرجلٍ سألهُ أين تُريدُ؟ قال: إلى البصرةِ، فقيل له: منْ بقِيَ؟ قال: «ابنُ عوْنٍ آخذُ من أخلاقهِ، أخذُ من آدابِهِ»[(٣)].

❐ قال الوليد بن يزيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيْتُ الأزواعيَّ ضاحكًا حتَّى يُقهقه قطُّ، ولا مُلتفتًا إلى شيءٍ، ولقدْ كان إذا أخذ في ذكر المعاد وما أشْبههُ أقول في نفسي: لا يرى أحدٌ في المجلس لم يبْكِ قبلهُ»[(٤)].

❐ قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يكن بالمدينة أحدٌ أشْبَهَ بأهل العلمِ مِنِ ابْنِ عَجْلانَ، كنتُ أشَبِّهُهُ باليَاقُوتَةِ بين العُلَماءِ»[(٥)].

❐ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَنْ كَانَ مُلتمِسًا جَلِيسًا صَالِحًا ... فَلْيَأْتِ حَلْقَةَ مِسْعَرِ بْنِ كِدَامِ
فِيهَا السَّكِينةُ وَالْوَقَارُ وَأَهْلُهَا ... أَهْلُ العَفَافِ وَعِلْيَةُ الأَقْوَامِ[(٦)]

❐ كتب عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ اللَّهُ في وصيَّتِه التي أوْصَى بها أهلهُ

---

(١) «الفتح» (١٠/ ٥١٠).
(٢) «الصحاح» الجوهري (٤/ ١٦٩٩)، و«لسان العرب» (٣/ ١٤٢٣).
(٣) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٤٩).
(٤) «الجرح والتعديل» (١/ ٢١٧).
(٥) المرجع السابق (١/ ٢٧٣).
(٦) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٧٠).

ولدَهُ: «انظروا ما كان عليه أيُّوبُ ويونس وابنُ عونٍ واسألوا عنْ هدْيِ ابن عوْنٍ فإنَّكم ستجِدُون منْ يحدِّثُكُمْ عنْهُ»[١].

▢ قال عبد الرحمن بن مهديٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنَّا نأتي الرَّجُل ما نريدُ علْمَهُ ليس إلَّا أنْ نتعلَّمَ مِنْ هدْيِهِ وسمْته ودلِّه»[٢].

▢ وقال أيضًا: «كان عليُّ بن المدينيِّ وغير واحدٍ يحضُرون عنْدَ يحيى ابن سعيدٍ القطَّانِ ما يريدون أن يسْمَعُوا شيئًا إلَّا أنْ ينظروا إلى هدْيِهِ وسمْتِهِ»[٣].

▢ قال أبو عاصمٍ النَّبيلُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَاتَ حمَّادُ بن زيْدٍ يوم ولا أعلم له في الإسلامِ نظيرًا في هيئتِهِ ودلِّهِ وسمْتِهِ»[٤].

▢ قال عبيدةُ بن عثمانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ نظر إلى الأوزاعيِّ اكْتَفَى به ممَّا يَرى عليه منْ أثَرِ العبادَةِ، كنتِ إذا رأيْتَهُ قائمًا يُصلِّي كأنها تنْظُرُ إلى جسدٍ ليس فيه رُوحٌ»[٥].

▢ قال الحسنُ بن الرَّبيع رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما شبَّهْتُ أحمد بن حنبلٍ إلَّا بابنِ المباركِ في سمْتِهِ وهَدْيِهِ»[٦].

▢ قال ابن عليِّ بن المدينيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رأيتُ في كتب أبي ستَّةَ أجزاءٍ: مذهب أبي عبد الله وأخلاقهُ، ورأيْتُ أحمد يفعل كذا ويفعلُ كذا، وبلغني

---

(١) «أصول الاعتقاد» (١/ ٦٢).

(٢) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٤٩).

(٣) الموضع السابق نفسه.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٥٩)، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر (٣/ ١٠).

(٥) «الجرح والتعديل» (١/ ٢١٨).

(٦) مقدمة «المسند» للشيخ أحمد شاكر نقلًا عن «تاريخ الإسلام» للذهبي (ص٦٦).

عنه كذا وكذا»[١].

□ قال الميمونيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيتُ أحدًا أنظفَ ثوبًا، ولا أشدَّ تعاهُدًا لنفسه في شاربه وشَعْرِ رأسه وشعْرِ بدنه ولا أنْقَى ثوبًا وأشدَّ بياضًا منْ أحمد ابن حنبلٍ»[٢].

□ قال محمد بن مسلم: «كنَّا نَهابُ أنْ نُرَادَّ على أحمد بن حنبلٍ في الشَّيءِ أوْ نُحَاجَّهُ في شيءٍ من الأشياءِ، يعني لجلالته ولهيْبَةِ الإسلام الذي رُزِقَهُ»[٣].

□ قال المَرُّوذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم أرَ الفقير في مجلسٍ أعزَّ مِنْهُ في مجلس أبي عبدالله[٤]، كان مائلًا إليهم مقْصِرًا عنْ أهلِ الدُّنيا، وكان فيه حلمٌ، ولم يكن بالعجُولِ، وكان كثير التَّواضعِ تَعْلُوهُ السَّكينةُ والوقارُ، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفُتْيا لا يتكلَّمُ حتى يُسْأل، وإذا خرجَ إلى مسجدِهِ لمْ يتصدَّرْ، يقْعدُ حيث انتهى به المجلسُ»[٥].

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَقِيتُ عبد الوهاب الأنماطيَّ فكان على قانون السلفِ لم يسمعْ في مجلسه عيبَةٌ، ولا كان يطلبُ أجْرًا على سماعِ الحديث، وكنت إذا قرأْتُ عليه أحاديثَ الرَّقَائقِ بكى واتَّصلَ بكاؤُهُ فكان وأنا صغيرُ السِّن حينئذٍ يعمل بكاؤُهُ في قلبي، ويَبْنِي قواعِدَ الأدبِ في

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٤٩).
(٢) المرجع السابق (٢/ ١٢).
(٣) المرجع السابق (٢/ ١٢).
(٤) يعني: أحمد بن حنبل.
(٥) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢١٨).

نفسي، وكان على سمْتِ المشايخِ الذين سمِعْنَا أوصافهم في النَّقْلِ»[١].

□ وقال: «قد كان جماعةٌ من السلفِ يقصِدُونَ العبدَ الصالحَ للنَّظرِ إلى سمْتِهِ وهدْيِهِ، ولا لاقْتِبَاسِ علمه، وذلك أنَّ ثمرةَ علمه هدْيُهُ وسمْتُهُ»[٢].

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكمالُ عزيزٌ، والكاملُ قليلُ الوجودِ، فأوَّلُ أسبابِ الكمالِ تناسُبُ أعضَاءِ البدنِ، وحسن صورة الباطن، وصورةُ البدنِ تُسمَّى خلْقًا، وصورةُ الباطنِ تسمَّى خلقًا. ودليلُ كمالِ صورةِ البدنِ حسن السَّمْتِ واستِعْمَالُ الأدب، ودليلُ صورة الباطن حسن الطَّبائِعِ والأخلاقِ، فالطَّبَائعُ: العفَّةُ والنَّزاهةُ والأنفةُ من الجهلِ، ومباعدةُ الشَّرَهِ. والأخلاقُ: الكرمُ والإيثارُ وستْرُ العيوبِ وابْتداءُ المعروف والحلمُ عن الجاهلِ»[٣].

□ قال الحافظ في «الفتح»: «خرَّج أبو عبيدٍ في غريب الحديث: أنَّ أصحاب ابن مسعودٍ رضي الله عنه كانوا ينظرون إلى سمْتِهِ وهدْيه ودلِّه فيتشبهُّونَ به»[٤].

□ قال البدرُ العينيُّ صاحبُ «عمدة القاري على صحيح البخاري» رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي للناس الاقتداءُ بأهل الفضلِ والصلاحِ في جميع أحوالهم في هيئَتهم وتواضعهم للخلقِ ورحمتهمْ وإنصافهم من أنفسهم وفي مأكلهم

---

(١) «صيد الخاطر» (ص١٤٣).
(٢) المرجع السابق (ص٢١٦).
(٣) المرجع السابق (ص٢٨٩).
(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٥١٠).

ومشربهم واقتصادهم في أمورهم تبرُّكًا بذلك»[١].

□ قال الشاعرُ:

انْطِـقْ مُـصيبًا لا تكُـنْ هَـذِرًا عَيَّابَـةً نَاطِقًـا بِـالْفُحْشِ والرِّيَـبِ
وَكُنْ رَزِينًا طَوِيلَ الصَّمْتِ ذَا فِكَرٍ فَإِنْ نَطَقْتَ فَلَا تُكْثِـرْ مِـنَ الخُطَـبِ
وَلَا تُجِبْ سَـائِلًا مِـنْ غَـيْرِ تَرْوِيَـةٍ وَبِالَّذِي عَنْهُ لَمْ تُسْأَلْ فَـلَا تُجِـبِ[٢]

دناءة الهمة:

«دنو الهمة مسلك دنيء، ومركب وطيء، وخلق ساقط، وعمل مرذول، لا يليق بأهل الفضل، ولا ينبغي من أهل النبل والعقل.

والناس إنما تتفاوت أقدارهم بتفاوت هممهم.

ولذلك فدنيء الهمة لا قيمة له ولا قدر؛ لأنه مَيَّال للدعة، مؤثر للراحة، مخلد للأرض، قاعد عن المكارم، كَلِفٌ بالصغائر، مولع بمحقرات الأمور، هَمُّهُ خاصةُ نَفْسِه، فِكْرُه محصورٌ في مطعمه وملبسه، وقوت يومه وليلته.

أما تطلاب المعالي، نشدان الكمالات – فلا يخطر له ببال، ولا يحوم له حول ما يشبهه خيال.

هذه بعض ملامح دنو الهمة، وتلك بعض صفات داني الهمة، تلك الصفات التي تجعل من صاحبها غرضًا للذم، وعُرْضَةً لِلَّوم.

□ ولهذا عِيب على امرئ القيس قوله:

(١) «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» (٢٢/ ١٥٤).
(٢) «حُسْن السمت في الصمت» للسيوطي (ص٤٧).

لنــا غــنمٌ نُــسَوِّقُها غــزار كــأن قــرون جلَّتهــا العِــصَيُّ

وتمــلأ بيتنــا إقطًــا وســمنًا وحسبك من غنًى شبعٌ وريٌّ [١]

□ وعيب على طرفة بن العبد قوله [٢]:

ولولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى وجدِّك [٣] لم أحفلْ [٤] متى قام عُوَّدي [٥]

فمنهنَّ سبقي العاذلاتِ بشربة كُمَيْتٍ [٦] متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ

وكرِّي إذا نادى المضاف [٧] مُحَنَّبًا [٨] كَسِيْد [٩] الغضا نَبَّهْتَهُ المتورِّدِ [١٠]

وتقصيرُ يوم الدَّجنِ [١١] والدجنُ بَبَهْكَنَة [١٢] تحت الخِباء [١٣] المُعَمَّدِ

يقول: لولا حبي ثلاث خصال هن من اللذات – لم أبالِ متى قام

---

(١) «ديوان امرئ القيس» (ص١٧١).

(٢) «ديوان طرفة بن العبد» (ص٣٢– ٣٣).

(٣) جدِّك: قسم، والجد هو الحظ والبخت.

(٤) لم أحفل: لم أبال.

(٥) عُوَّدي: جمع عائد من العيادة للمريض.

(٦) كميت: وصف للخمرة، وهي التي لونها بين السواد والحمرة.

(٧) المضاف: المذعور الذي ضافته الهموم.

(٨) محنبًا: المحنب هو الفرس الذي في يديه الحناء.

(٩) سيد الغضا: نوع من الذئاب، وهو أخبثها، ويسمى ذئب الغضا.

(١٠) المتورد: الذي ورد الماء.

(١١) الدجن: الغيم في السماء، وتقصير يوم الدجن: تقطيعه بالعبث، وجعله قصيرًا باللعب.

(١٢) البهكنة: المرأة الجميلة الحسنة الخلق.

(١٣) الخباء المعمد: الخيمة.

عودي من عندي؛ آيسين من حياتي.

وهذه الثلاث هي: شرب الخمر، وإغاثة المذعور، وتقطيع اليوم الذي تلبدت سماؤه بالغيوم - بالتمتع بامرأة حسناء تحت الخباء المعمد.

هذا هو غاية همته، ومنتهى طموحه، ولولا ذلك - كما يقول - لم يبالِ بالمنية متى نزلت به[1]!.

□ وقريب من ذلك قول أبي نواس:

إنـــما العـــيش ســـماع ... ومـــدام ونـــدام

فـــإذا فاتـــك هـــذا ... فعـــلى الـــدنيا الـــسلام[2]

فتراه يقصر العيش اللذيذ على السماع، والمدام، والندام، وما عدا هذه الثلاثة - عنده - لا قيمة له تُذكر!.

فأي معنى لحياة هؤلاء وأمثالهم؟ وأي عظمة يبتغونها؟ وأي فضيلة يسابقون إليها؟.

فتلك الهمم والأماني وما شاكلها وجرى مجراها لا تعد من معالي الأمور، التي تتسابق فيه الهمم، بل إنها من سفولِ الهمة، ومما يأنفه الكرام، ويأباه ذوو المروءة والطبع السليم، ويجزع من أن يوصف به أهل الفضل والمكانة.

□ ولذلك جزع الزبرقان بن بدر أيّما جزع، وذلك عندما هجاه الحطيئة بقوله:

دع المكـــارمَ لا ترحـــل لبغيتهـــا ... واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي[3]

---

(١) انظر: «شرح المعلقات العشر» للزوزني (ص١١٢ - ١١٣).
(٢) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٢٥٩).
(٣) «ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت» (ص٥٠)، وانظر: «عيون الأخبار» =

وبلغ من جزعه أن استعدى على الحطيئة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فجعل عمر يهون البيت على الزبرقان، ويحمله على أنه معاتبة لا هجاء؛ كراهة أن يتعرض لشأن الحطيئة.

ولكن الزبرقان صَعُب، وعزَّ، وأنكر ألَّا تبلغ به مروءته وهمته إلَّا أن يأكل ويلبس [(١)].

ولذلك أيضًا فلا غرو أن يتردد على الألسنة ذمُّ الهمم الدانية وأصحابها.

□ قال حاتم الطائي:

لحى الله صعلوكًا مناه وهمُّه ... من العيش أن يلقى لبوسًا ومطعما

يرى الخِمْص تعذيبًا وإن يلقَ شبعةً ... يَبِتْ قَلْبُهُ من قِلَّة الهمِّ مبهما [(٢)]

□ وقال الآخر:

إذا ما الفتى لم يبغِ إلَّا لباسَهُ ... ومطعمَه فالخيرُ منه بعيدُ [(٣)]

□ وقال المعري:

وإن كان في لبس الفتى شرف له ... فما السيف إلَّا غمده والحمائل [(٤)]

□ وقال علي بن المقرب العيوني:

(١/ ٢٣٦).

(١) انظر: «العفو والاعتذار» للرَّقَّام البصري (١/ ٧٢- ٧٣)، و«تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري» لطه أحمد إبراهيم (ص٣٦).

(٢) «ديوان حاتم» (ص٤٥)، وانظر: «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٣).

(٣) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٨).

(٤) «شرح ديوان سقط الزند» للمعري (ص٥٧).

عَــدِمْتُ فــؤادًا لا يبيــت وهَمُّــهُ كرامُ المساعي وارتقـاءٌ إلى المجـد

لعمري ما دَعْـدٌ بِهَمِّـي وإن دنـت ولالِيَ مـن هنـد غـرام ولا وجـد

لكــن وجـدي بـالعلا وصـبابتي لعارفةٍ أُسْدي ومكرمة أُجْـدي (١)

□ وقال:

وذو الـدناءة لـو مَزَّقْـت جِلْدَتـه بشفرة الضَّيْمِ لم يَحْسِنْ لها ألما (٢)

□ وقال البارودي:

ومـا أنـا ممـن تـأسِرُ الخمـرُ لُبَّـه ويملك سمعيه اليراعُ المُثَقَّـبُ (٣)

□ وقال الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما ضعف الهمة فمنزلة الحيوان الذي لا هم له إلَّا أن يوجدَ كيفما وجد، وحيثما جاء موضعه من الوجود؛ إذ هو يولد ويكدح ويكد؛ ليكون لحمًا، وعظمًا، وصوفًا، ووبرًا، وشعرًا أثاثًا، ومتاعًا، وكأنه ضربٌ من النبات إلَّا أنه نوعٌ آخر من المنفعة»(٤)اهـ (٥).

أسباب دُنُوِّ الهمة:

نُجمل هنا ما سبق أن أوردناه من أسباب دناءة الهمة، ونضيف إليها أسباب أخرى:

١ - الوَهَن «حب الدنيا وكراهية الموت».

(١) «علي بن المقرب العيوني حياته - شعره»، تأليف د. علي الخضيري (ص٢٣٨).
(٢) «علي بن المقرب» (ص٢٥٨).
(٣) «ديوان البارودي شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم» (ص٤٢).
(٤) «وحي القلم» لمصطفى صادق الرافعي (٣/ ٣٧٩).
(٥) «الهمة العالية» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص٢٥ - ٢٨).

٢- التمنِّي.

٣- التسويف.

٤- إهدار الوقت في كثرة للأقارب والأصحاب، بدون هدف شرعي صحيح، وفائدة مُعْتَبَرة.

٥- كثرةُ التمتُّعِ بالمباحِ، والترفُ الزائدُ، والترفُّل في النَّعِيم.

٦- كثرة الخلطة، وصحبة البَطَّالين الذين سُفُلَت هِمَّتُهم.

٧- العجز والكسل.

٨- الغفلة.

٩- الفتور.

١٠- الفناء في مُلاحظة حقوق الأهل والأولاد، واستغراق الجهد في التوسُّعِ في تحقيق مطالبهم: «فقد تكون الزوجة فتنة لزوجها، فتصده عن العبادة، وتعوقه عن طلب العلم، والسعي للمعالي، وذلك بسبب رِقَّةِ دينها، أو كثرة طلباتها، وتخذيلها لزوجها.

وكذلك الأولاد قد يكونون فتنة وبلاء لوالدهم، فتراه يخاف عليهم، ويحرص على تأمين مستقبلهم، ويخشى من ضياعهم بعد فراقه الدنيا.

أما إذا انحرفوا عن سواء السبيل فلا تسل عن شقاء الأب وحسرته.

* وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤].

* وإذ يقول: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

• وقال ﷺ: «**إنَّ الولد مبخلة، مجبنة، مجهلة، محزنة**»[(١)].

فالزوجة والأولاد كثيرًا ما يثنون ذا الهمة عن مراده؛ ولهذا فكم عانى الكرام والشجعان منهم من تخذيلهم.

□ فهذا أحدهم يقول مبينًا عاقبته عندما أطاع زوجته في الشهوات:

أطعت العرس[(٢)] في الشهوات حتى ... أعادتني عسيفًا عَبْدَ عَبْدِ

إذا ما جئتها قد بعتُ عِذقًا ... تعانقُ أو تُقبِّل أو تُفدِّي[(٣)]

□ وهذا مالك بن الريب يصور حواره مع ابنته، التي تحاول ثَنْيَه عن الذهاب للجهاد في سبيل الله فيقول:

تقول ابنتي إن انطلاقك واحدًا ... إلى الروع يومًا تاركي لا أباليا

ذريني من الإشفاق أو قَدِّمي لنا ... من الحدثانِ والمنية واقيا

ستتلف نفسي أو سأجمع هجمة ... ترى ساقيها يألمان التراقيا[(٤)]

□ وهذا جؤية بن النضر، يحكي لنا ما دار بينه وبين زوجه طريفة عندما لامته على كثرة بذله وعطائه فيقول:

قالت طريفةُ ما تبقى دراهِمُنا ... وما بنا سرفٌ فيها ولا خرقُ

إنَّا إذا اجتمعت يومًا دراهمُنا ... ظلَّت إلى سبل المعروف تستبقُ

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٤١) برقم (٦١٤)، وصححه الألباني كما في «صحيح الجامع» (١٩٩٠).

(٢) العرس: هي الزوجة.

(٣) «عيون الأخبار» (١/ ٢٤٣).

(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٨).

ما يألف الدرهمُ المضروبُ خرقتَنا ... إلَّا يمر عليها ثم ينطلق

حتى يصيرَ إلى نذلٍ يخلده ... يكاد من صرِّه إياه ينمزق[(١)]

□ وهذا أحدهم يوصي بالخطار بالنفس، ويرى أن الجلوس مع العيال لا يليق بذي الهمة فيقول:

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة ... إن الجلوس مع العيال قبيح[(٢)]

وهذا لا يعني الدعوة على الزوجة والأولاد، وهضمهم حقوقهم، والتقصير في رعايتهم، بقدر ما هو دعوة للتوازن ووضع الأمور في نصابها، ومكانها اللائق بها، من غير ما إفراط أو تفريط[(٣)].

١١- اتباع الهوى.

١٢- العشق:

□ قال ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما كان العشق إلَّا لأرعنَ بطالٍ، وقلَّ أن يكون في مشغول ولو بصناعة، أو تجارة، فكيف بعلوم شرعية أو حكيمة؟!»[(٤)].

□ فهذا أحد الذين ابتلوا بالعشق ممن قَصَرَ همته على ملاحقة النساء، لما استنفر للجهاد أجاب بقوله:

---

(١) تُنسب الأبيات لحاتم الطائي، وطريفة كانت جارية له انظر: «الحماسة» للتبريزي (٤/ ٨٢٦)، و«ديوان حاتم الطائي» (ص٣٠٢)، وانظر: «الإسلام والحضارة الغربية» د. محمد محمد حسين (ص٢٤٦- ٢٤٧).

(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٨).

(٣) «الهمة العالية» (ص٧١- ٧٣).

(٤) «الآدب الشرعية» (٣/ ١٢٦).

يقولون جاهدْ يا جميلُ بغزوة وأي جهادٍ غيرَهن أريدُ

لكلِّ حديثٍ بينهن بشاشةٌ وكل قتيل عندهن شهيدُ [(١)]

فالعشق من مظاهر دنو الهمة، وهو شغل الفارغ، فهو يمثل صورة المعشوق للعاشق في خلوته، فيكون تمثيله لها إلقاءً في باطنه، فإذا تشاغل بما يوجب اشتغال القلب بغير المحبوب درس الحب، ودثر العشق وحصل التناسي [(٢)].

«فمن لم تكن له همة أبية لم يكد يتخلص من هذه البلية؛ فإن ذا الهمة يأنف أن يملك رقة شيء، وما زال الهوى يذل أهل العز» [(٣)].

▢ فأين هذا الذي يطلق العنان لرغباته، ويرسف في أغلال شهواته من الإمام الشافعي الذي يقول: «لو علمت أن الماء البارد يثلم مروءتي لما شربته» [(٤)].

▢ قال الأعشى:

أرى سفهًا للمرء تعليقَ قلبه بغانيةٍ خودٍ متى تَدنُ تَبعُدِ [(٥)]

▢ وقال ابن المعتز:

(١) «ديوان جميل بثينة» (ص ٢١).

(٢) «ذم الهوى» لابن الجوزي (ص ٤٧٣)، و«صيد الخاطر» لابن الجوزي (١/ ١٥٤-١٥٧).

(٣) «ذم الهوى» (ص ٤٧٧).

(٤) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لابن القيم (ص ٤٦٨).

(٥) «ديوان الأعشى» (ص ٤٧).

وإني وإن حنَّت إليك ضمائري فما قدرُ حبِّي أن يذل له قدري [١]

□ وقال أبو فراس الحمداني مفتخرًا بعلو همته، عائبًا على من سفلت همته، واسترقه هواه:

لقد ضلَّ من تحوي هواه خَرِيدَةٌ وقد ذلَّ من تقضي عليه كعابُ

ولكنني والحمد لله حازمٌ أعزُّ إذا ذلت لهن رقابُ

ولا تملك الحسناءُ قلبي كلَّه ولو شَمَّلَتْها رِقَّةٌ وشبابُ

وأجري ولا أعطي الهوى فضل وأهفو ولا يخفى عليَّ صواب [٢]

□ وقال عبد الواحد بن نصر:

وقد رام هذا الحبُّ أن يَسْتَرِقَّني فأنجدني صبرٌ عليَّ جميل [٣]

□ وقال أبو علي الشبل:

وآنف أن تعتاق قلبي خريدةٌ بلحظ وأن يروي صداي رضابُ

وللقلب مني زاجرٌ من مروءةٍ يجنِّبُهُ طُرْقَ الهوى فيجاب [٤]

□ وقال منصور الهروي:

خلقت أبيَّ النفس لا أتبع الهوى ولا أستقي إلَّا من المشرب الأصفى

ولا أحمل الأثقالَ في طلب العلا ولا أبتغي معروفَ من سامني خسفا

---

(١) «ذم الهوى» (ص٤٧٩).

(٢) «ديوان أبي فراس الحمداني» (ص١٣).

(٣) «ذم الهوى» (ص٤٨٠).

(٤) «ذم الهوى» (ص٤٨٠).

ولا أتحــرَّى العــزَّ فــيها يُــذِلُّني ولا أخطِب الأعمال كي لا أرى صرفا

ولست على طبع الذباب متى يُـذَدْ عن الشيء يسقط فيه وهو يرى الحتفا[١]

□ وقال ابن المقفع: «اعلم أن من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأقتلها للعقل، وأزراها للمروءة، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار – الغرامَ بالنساء».

ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأجم[٢] ما عنده وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن، وإنما النساء أشباه.

وما يتزين في العيون والقلوب من فضل مجهولات على معروفات باطلٌ وخدعة، بل كثير مما يَرْغَبُ عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه منهن.

وإنما المرتغب[٣] عما في رحله منهن إلى ما في رحال الناس كالمرتغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس.

بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام، وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلًا وتفاوتًا مما في رحالهم من النساء»[٤].

□ وقال: «ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس بلبِّه ورأيه يرى المرأة من بعيد مُتَلَفِّفَةً في ثيابها، فيصور لها في قلبه الحسن والجمال، حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر».

---

(١) «ذم الهوى» (ص٤٨٠).

(٢) يأجم: يكره ويمل.

(٣) المرتغب: الراغب إلى غير ما عنده.

(٤) «الأدب الصغير والأدب الكبير» لابن المقفع (ص١٤٩ – ١٥٠).

ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح، وأدمِّ الدمامة، فلا يعظه ذلك، ولا يقطعه عن أمثالها، ولا يزال مشغوفًا بما لم يذُق، حتى ولو لم يبق في الأرض غيرُ امرأة واحدة لَظَنَّ أن لها شأنًا غير شأن ما ذاق، وهذا هو الحمق، والشقاء، والسفه[١]»اهـ[٢].

١٣- التعلُّق بغير الله.

١٤- لا تتعدَّى اللباسَ والمظهَر.

١٥- تَعَلُّق الهمة بالمال والجاه.

١٦- تعلَقُ الهمة بالأكل.

١٧- حب الراحة وكثرةُ النوم.

١٨- الانحراف عن عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة.

١٩- التأثُّر بالصوفيَّة.

٢٠- اضطهاد العاملين للإسلام، والشعور بالإحباط في النُّفوسِ التي لا تفقهُ حقيقةَ البلاء.

٢١- التقليد الأعمى، والتبعِيَّة المطلقة للغرب وألتمسُّح بأعتابه.

٢٢- الرياء وعدم تجرُّد النيَّة.

٢٣- كَذِبُ العزيمةِ وتردُّدُها.

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما على العبد أضرُّ من عشائره وأبناء جنسه؛ فنظره قاصر، وهمَّته واقفة عند التشبُّه بهم ومباهاتهم، والسلوك أين

---

(١) المصدر السابق (ص١٥٠).

(٢) «الهمة العالية» (ص٤٦- ٤٩).

سلكوا، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لأحبَّ أن يدخلَ معهم»[(١)].

□ لسان حاله كما يقول دريد بن الصمَّة: «وما أنا إلَّا مِن غَزِيَّة إن غوت غويت وإن ترشد غزيَّةُ أرشُدِ»[(٢)].

٢٤- ضعف العقل.

٢٥- ضعف البصيرة.

٢٦- طول الأمل.

٢٧- الابتعاد عن الأجواء الإيمانية فترة طويلة.

٢٨- الابتعاد عن القدوة الصالحة.

٢٩- هجر القرآن وترك تدبُّرِه.

٣٠- ضَعْفُ الإيمان وأُلفَة المعاصي.

٣١- ضَعْفُ الغَيْرَة، وضعف تعظيم الحُرُمات.

٣٢- طبيعة الإنسان:

«فهناك من الناس من جُبل على دنو الهمة، والإخلاد إلى الأرض، والميل إلى الراحة الدعة، والكلف بالصغائر ومحقرات الأمور.

فلا يسعى في تطلاب الكمال، ولا يأخذ بالأسباب التي تعلي من همته، وترفع من قدره، فيعيش العمر كله وهو قابع في مكانه، لا يتقدم للأمام خطوة، ولا يرقى في سلم المجد درجة، بل ربما نزل للحضيض دركة بعد دركة.

---

(١) «الرسالة التبوكية» لابن القيم (ص٨٦).

(٢) «الأصمعيات» (ص١٠٧).

٣٣- التربية المنزلية:

فالتربية المنزلية لها دور عظيم في توجيه الأولاد سلبًا أو إيجابًا؛ فالبيت هو المدرسة الأولى للأولاد، والولد قبل أن تربيه المدرسة والمجتمع يربيه البيت والأسرة، وهو مدين لوالديه في سلوكه المستقيم، كما أن والديه مسؤولان إلى حد كبير عن انحرافه وفساده [١].

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكم ممن أشقى ولده، وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله، وترك تأديبه، وإعانته على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه.

ففاته انتفاعه بولده، وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة.

وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت أن عامته من قبل الآباء» [٢].

فكم من الناس من يربي أولاده على الجبن، والخوف، والهلع، والفزع، فَيُخَوِّفهم بالغول، وبالعفريت؛ ليكفوا عن عبثهم.

وأسوأ ما في ذلك أن يخوفهم بالطبيب أو المعلم.

ومن هنا ينشأ الولد جبانًا رعديدًا يَفْرَقُ من ظله، ويخاف مما لا يُخاف منه.

وكم من الناس من يربي أولاده على الميوعة والترف، والبذخ، والطيش؛ فينشأ الولد مترفًا منعمًا، همه خاصة نفسه فحسب، فلا يهتم بالآخرين، ولا يسأل عن إخوانه المسلمين، فلا يشاركهم أفراحهم، ولا

---

(١) انظر: «أخلاقنا الاجتماعية» للدكتور مصطفى السباعي (ص١٥٥)، و«نظرات في الأسرة المسلمة» للدكتور محمد الصباغ.

(٢) «تحفة المودود في أحكام المولود» لابن القيم (ص١٤٦- ١٤٧).

يشاطرهم أتراحهم.

فهذه التربية مما يفسد المروءة، ويقتل الاستقامة، ويقضي على الشهامة والشجاعة.

وكم من الناس من لا يربي أولاده على معالي الأمور، وإنما يربيهم كما تربَّى الخراف سواء بسواء؛ فلا هم له من أولاده إلَّا مطعمهم وملبسهم، وتلبية كافة رغباتهم، أما ما عدا ذلك فلا يخطر له ببال.

وما هنا ينشأ الولد بليدًا، ساقط الهمة، قليل المروءة.

ومن الناس من هو بعكس ما مضى؛ حيث تجده يشتد على أولاده، ويقسو عليهم أكثر من اللازم، فيضربهم ضربًا مبرحًا عند أدنى خطأ، ويبالغ في تعنيفهم عند كل صغيرة وكبيرة.

ومنهم من يهزأ بأولاده، ولا يرى أنهم أهل لشيء من المكرمات.

ومنهم من لا يأبه بمحادثة أولاده، ولا يلقي بالًا لتعليمهم آداب الحديث وطرائقه؛ فلا يصغي إليهم إذا تحدثوا، ولا يجيب عن أسئلتهم إذا سألوا، بل ربما كذَّبهم إذا أخبروا، ونهرهم وأسكتهم إذا تكلموا.

ومنهم من يشتد بالتقتير عليهم، وربما قصَّر عليهم في حاجاتهم الضرورية مع قدرته على توفيرها لهم، مما يشعرهم بالنقص والحاجة، وربما قادهم ذلك إلى البحث عن المال بأية طريقة، إما من السرقة، أو من مسألة الناس، أو بالارتماء في أحضان رفقة السوء.

ومنهم من يحرم أولاده من العطف والشفقة والحنان، مما قد يقودهم إلى البحث عن ذلك خارج المنزل.

إن هذه الأنماط من التربية مما يحول بين الأولاد وبين عزة النفس، وما

يتبعها من قوة القلب، وأصالة الرأي.

بل هي مما يولد الخوف في نفوسهم، ومما يورثهم الذلة، والمهانة، والخجل الشديد، وفقدان الثقة بالنفس.

إن «التربية النافعة ما كانت أثرًا لمحبة يطفئ البأس شيئًا من حرارتها، وصرامة تلطف الشفقة نبذة من شدتها، وهي التي يستوجب بها الوالدان دعاء الولد بقوله: ﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾»[1].

أضف إلى ذلك أن الأولاد يرثون طباع والديهم كما يرثون قاماتهم وأشكالهم.

□ ولذلك قيل: «إذا أردت ولدًا صحيحًا فتخير له آباء أصحاء أقوياء»[2].

□ ويقول الشاعر العربي في وصف ابنه:

أعـرف منـه قِلَّـة النُّعـاس ... وخِفَّـةً في رأسـه مـن راسي[3]

□ وقال عدي بن الرقاع:

والمـرء يـورث جـوده أبنـاءه ... ويموت آخر وهـو في الأحيـاء[4]

فإذا كان الوالد عديم المروءة، ساقط الهمة فإن ذلك الأثر سيلحق بالأبناء في الغالب.

---

(١) «حياة الأمة» (ص٢٥)، و«السعادة العظمى» لمحمد الخضر حسين (ص٩٩).

(٢) «الأخلاق» لأحمد أمين (ص٤٣).

(٣) المصدر السابق (ص٤٣).

(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٢٣٣).

٣٤- البيئة والمجتمع:

فلهذين الأمرين أهمية كبرى في علو الهمة وسفولها، فقد يكون ذلك سببًا لترقي الإنسان، وقد يكون بالعكس من ذلك تمامًا.

* والشأن في ذلك كالشأن في النبات؛ فالنبات في المنبت السوء لا تزال بيئته به حتى تضعفه وتميته، وفي المنبت الصالح ينمو ويترعرع، وينبت من كل زوج بهيج، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٨].

كذلك الإنسان إذا نشأ في بيئة صالحة؛ من بيت طيب، ومجتمع تشيع فيه الفضيلة، ومدرسة تُعنى بدين الطلاب وخُلُقهم، وكان يحكمه دين صحيح – نبت خير منبت، وتربى خير تربية، وإلَّا فما أحراه أن يكون سافل القدر، شريرًا، لا خير فيه»[(١)] اهـ[(٢)].

٣٥- قلة وجود المربين الأفذاذ والمعلمين القدوات:

«وهذا الأمر من أعظم أسباب دنو الهمة، فمما يؤسف عليه قلة المربين الأفذاذ، والمعلمين الناصحين القدوات، الذين يربون طلابهم على نشدان المعالي، وتطلاب الكمالات.

فتجد من المعلمين، من لا هم له إلَّا إلقاء الدرس فحسب، بِغَضِّ النظر عن توجيه الطلاب، وتربيتهم، والنصح لهم.

وتجد فيهم من يؤدي درسه بكل تثاقل وبرود، وكأن الدرس جبل على عاتقه يسعى لإزاحته، وبالتالي يفقد الدرس الحرارة والروح، فتقل فائدة

(١) «الأخلاق» (ص٤٨، ٤٩).
(٢) «الهمة العالية» (ص٦٧ – ٧٠).

الطلاب من الدرس، فلا يجدون اليدَ الحانيةَ، والقلب الرحيم، والنفس الأبية، التي تنشد عزَّهم، وتروم فلاحهم.

وتجد من المعلمين من هو ضعيف النفس، مهزوم الوجدان، مهزوز الشخصية، ساقط الهمة، ضيِّق النظرة، يربي الطلاب على الجبن والخور، والتقليد الأعمى.

ومن هنا يخرج الجيل الذي تربى على أمثال هؤلاء جيلًا جبانًا، ضعيف النفس، قانعًا بالدون، يرى أستاذه عقبة كؤودًا لا يستطيع تجاوزها.

٣٦- وسائل الإعلام:

فوسائل الإعلام لها دور خطير في التربية، ولديها قدرة كبيرة على الإقناع، وصياغة الأفكار، ولها دور بالغ في تنحية دور الأسرة والمدرسة.

فإذا ما انحرفت تلك الوسائل قادت الناس إلى الهاوية، وأصبحت معاول هدم وتخريب، وأدوات فساد وانحلال، ومدارس لتمييع الأخلاق، وقتل المروءة والرجولة.

وهذا سبب عظيم يقود إلى سفول الهمم ودنوها»[(١)].

٣٧- قلة التشجيع:

فكثيرًا ما يبرز أحد في ميدان من الميادين، ثم لا يجد من يأخذ بيده، ويعينه على نفسه.

بل ربما وجد من يُخَذِّلُه، ويضع العقبات في طريقه، ومن هنا تخبو ناره،

(١) «الهمة العالية» (ص٧٠- ٧١).

وتدنو همته.

٣٨- الإعجاب بالنفس والاستبداد بالرأي:

«فالإعجاب بالنفس، والاستبداد بالرأي آية الجهل، ودليل السفه ونقص العقل؛ فالمعجب بنفسه لا يستشير العقلاء، ولا يستنير برأي الأكياس الفطناء، من أهل العقول الراجحة، والتجارب السالفة، ممن جمعوا إلى جانب سداد الرأي والحكمة - النصحَ والتقوى والديانة؛ ذلك لأن خيالات الغرور ذهبت بذلك الإنسان كل مذهب، فجعلته معتدًّا بنفسه، مستبدًّا برأيه.

وهكذا يقضي العمر وهو يراوح مكانه، لا يتقدم لمكرمة، ولا يرتقي لمنزلة..

مثلُ المُعْجَبِ في إعجابه ... مثلُ الواقفِ في رأس الجبل

يبصر الناس صغارًا وهو في ... أعين الناس صغيرًا لم يزل»[1]

٣٩- استشارة النَّوكى[2] والمخذِّلين:

فكما أن الإعجاب بالنفس، والاستبداد بالرأي سبب لدنو الهمة - فكذلك الاستشارة إذا لم تطلب من أهلها، وتُبتغى من مظانها تكون سببًا لدنو الهمة.

وذلك كحال من يستشير النوكى، والمرجفين، والمخذلين؛ فإن استشارتهم تورد المهالك، وتَثني عن المعالي.

---

(١) المصدر السابق (ص٧٥).

(٢) النَّوكى: جمع أَنْوك وهو الأحمق فالنَّوكى: الحمقى.

٤٠- التردد:

فهناك من هو ذو رأي سديد، ومشاورة لأهل الرأي، فتراه يعزم على القيام بعمل من الأعمال بعد اقتناع تام، ومشاورة جادة، ودراسة متكاملة.

فإذا لم يبق إلَّا التنفيذ تردد وتثاقل، وقدم رجلًا وأخَّر أخرى، ثم يتمادى به الأمر إلى أن يترك ما عزم عليه إلى غير رجعة.

وكثيرًا ما يجيء التردد في أمرٍ ما من ناحية الشهوات والعواطف، كالذي يثق -على سبيل المثال- بما في العلم من خير وشرف، ويقعده عنه حبُّ الراحة، وإيثار الدعة، وما تنزع إليه النفس من اللذة الحاضرة.

□ والذي يقول:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمةٍ ... فإن فساد الرأي أن تترددا

إنما ينبه على التردد الناشئ عن نحو الشهوات والعواطف؛ فلذلك التردد المفسد للرأي، الموقع في خسر.

وإلَّا فلا يُعدُّ من التردد المذموم، ولا من قلة الحزم والعزم أن يستبين الرجل الحق أو المصلحة، فيقف دون عزمه مانع، كأن يعلم أن عقول الجمهور لا تتسع لقبوله، ويخشى الفتنة، فيرجئه ريثما يمهد له بما يجعله مقبولًا سائغًا.

كما لا يعد من قلة العزم أن يرى الرجل رأيًا ويعقد النية على إنفاذه، ثم يبدو له على طريق الحجة أنه غير صالح فينصرف عنه. وبالجملة فقوي العزيمة هو الذي تكون إرادته تحت سلطان عقله، فَيُقْبِل بها على ما يراه صوابًا، ويدبر بها عما يراه فسادًا[1].

(١) انظر: «رسائل الإصلاح» (١/ ٦٨- ٦٩).

□ قال عبد قيس بن خفاف:

وإذا تشاجر في فؤادك مرةً أمران فاعمد للأعفِّ الأجمل

وإذا هممت بأمر سوء فاتئد وإذا هممت بأمر خير فاعجلِ[1]

٤١- المبالغة في احتقار النفس:

فكثير من الناس مصابون بهذا الداء؛ فالواحد من هؤلاء يبخس حظه، ويبالغ في احتقار إمكاناته، ولا يثق في نفسه البتة، بل يرى أنه دون الناس؛ وأنه لا قيمة له، ولا أمل في نجاحه، ولا يمكن أن يصدر عنه عمل عظيم، أو ينتظر منه خير كبير.

فهذا شعور بالضعة وصغرِ الشأن، من شأنه أن يقتل الطموح، ويفقد ثقة الإنسان بنفسه، فإذا هو أقدم على عمل شك في مقدرته، وارتاب في إمكان نجاحه.

ومن طبيعة الناس أنهم يحتقرون من احتقر شأنه، ويدوسون بأقدامهم من استذل.

وفي الوقت نفسه يحترمون المقدام الواثق من نفسه، العالم بقدرها؛ فالثقة بالنفس فضيلة، وشتان بينها وبين الغرور الذي يعد رذيلة؛ فثقتك بنفسك تعني معرفتك الصحيحة بها، وبمقدار ما تتحمله من أعباء، وما تلتزمه من واجبات، وكذلكم علمك بما لديها من استعداد، وملكات، ومواهب.

---

(١) «المفضليّات» للمفضل الضبي (ص٣٨٥)، و«الأصمعيّات» للأصمعي (ص٢٣٠).

٤٢- الخور والمبالغة في تعظيم شأن الخوف:

فهذا السبب من أعظم الأسباب الداعية لدنو الهمة إن لم يكن أعظمها؛ فكم من الناس من أقصره الخوف عن تطلب الكمال، والسعي في درج العلا.

فهذا يَثنيه الخوف من الإخفاق عن تقديم أي عمل من الأعمال، وهذا يطير قلبه شعاعًا من الموت فيحجم عن منازلة الأعداء، وهذا يَفْرَقُ من التحدث أمام الناس؛ خشية أن يتلعثم، أو أن يُرْتَجَ عليه، وهذا لا يسطر حرفًا، ولا ينبس ببنت شفةٍ؛ حذرًا من انتقاد الناس له وهكذا..

وربَّ أمـور لا تـضيرك ضـيرةً ... وللقلب من مَخْشَاتِهنَّ وجيبُ [(١)]

* وللقرآن أبلغ الكلم في تصوير حال الجبناء، فانظروا إليه إذ يصفهم، ويريكم كيف يذوقون موتات الفزع المرة بعد الأخرى، فيقول: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾[المنافقون: ٤].

* ويريكم كيف يظهر أثر الجبن في أبصارهم، إذ يُقلِّبونها وهم في ذهولِ مَنْ أدركه الموت فيقول: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]» [(٢)].

كما أن القرآن نعى على الجبناء، ونبَّه على أنهم قد فقدوا جانبًا في رجولتهم.

* قال تعالى في توبيخ قوم تأخروا عن الجهاد في سبيل الله، وقعدوا مع

---

(١) مخشاتهن: خَشْيَتهنَّ، والواجب: الاضطراب والخوف، انظر: «الأصمعيات» (ص١٨٤).

(٢) «رسائل الإصلاح» (١/ ٨٢)، وانظر: «فيض الخاطر» (٤/ ٢٠٣- ٢٠٤).

مَنْ لم يُخْلَقْنَ للطعن والضرب: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧].

ولا يتوارى عن أعين القوم، ولا يسل يده من أيديهم في حرب لهم فيها أمن وسيادة - إلَّا من كان حظه من الرجولة ضئيلًا أو مفقودًا [١].

فهذا النوع من الجبن ضرب من الخوف المذموم؛ فهو نوع من الوهم الذي لا حقيقة له، يقوم في الأذهان الحائرة المبلبلة، فيحول بينها وبين الإقدام؛ فهو خوف مبعثه رضا الناس وسخطهم، وليس الخوف على المبدأ والعقيدة.

فالخوف الذي نشكوه خوف سلبي مانع من الإقدام؛ ولذا صح أن يكون وهمًا من الأوهام، بخلاف الخوف المحمود الذي يبعث على الإقدام، واستفراغ الجهد، واستنفاذ الوسع، وإعداد أعلى العدد [٢].

٤٣- ضيق الأفق:

فلهذا الأمر علاقة كبرى في دنو الهمة؛ فهو يشل العقل، ويصد عن رؤية الحق، ويؤدي إلى حصر التفكير، وضيق الرؤية، وإصدار الأحكام الناقصة أوالباطلة.

كما يؤدي إلى زيادة صغر النفس، والإفراط في الأثرة، والنكوص عن المعالي.

فهناك من الناس من لا يعنيه في هذه الدنيا إلَّا نفسه، وذلك كل تفكيره، وسعيه، وغرضه.

---

(١) انظر: «الهداية الإسلامية» (ص٣٩).

(٢) انظر: «المسؤولية» للدكتور محمد أمين المصري (ص٣١- ٣٢)

فإن عمل خارج هذه الدائرة فلهذه الغاية، فلا يفكر في الآخرين، ولا يعنيه شأنهم، سيان عنده شقوا أم سعدوا.

فهو يحد العالم بحدود نفسه، إذا فكر فكر فيها، وإذا عَمِلَ عمل لها، ولا يعنيه من العمل إلَّا مقدار ربحه، خسر الناس أم ربحوا، قد تعلم درس الأخذ، ولم يتعلم درس العطاء.

وما الدنيا عنده إلَّا قنطرة يعبرها للوصول إلى غاياته.

وهناك من هو أسوأ من هذا، وهو من رفع نفسه فوق الناس؛ فكأنهم لم يخلقوا إلَّا له، فلم تخلق عيونهم لا لتقع على مطالبه، ولا آذانهم إلَّا لتصغي إلى كلمته، ولا أيديهم إلَّا للعمل في خدمته، يسير في الحياة على ما يهوى، ويحب أن يسير الناس على ما يهوى، فهذا – في الحقيقة- طفل كبير، وكم من الناس مِنْ أطفال كبار، وهم في طفولتهم أشكال وألوان؛ فهو طفل في نفسه، وإن كان كبيرًا في سنه وجسمه؛ فالأمر في النفس ليس كالأمر في الجسم؛ فقد ينضج الجسم والنفس لا تزال على حالها نفس طفل، والشاعر كان حقًّا حين قال:

لا بأس بالقوم من طول ومن عِظَـمِ   جسم البغال وأحلام العصافير [١]

وضيِّقُ الأفق جبان رعديد، يخاف الأمور الصغيرة، ويشتد فزعه من الحوادث التافهة، ويغضب أشد الغضب للكلمة النابية، ويصل إلى أقصى حد من الانفعال للحوادث اليومية التي يكفي لمرورها غضُّ الطرف عنها، ويمكن بقليل من سعة العقل، وكبر النفس أن ينظر إليها ويبتسم من

(١) «ديوان حسان بن ثابت» (ص١٢٩).



حدوثها، ولكنه يمعن في الألم منها؛ لضيق أفقه، وصغر نفسه، وخفة عقله.

فالذي يؤمن أن يسير الناس كما يشتهي، ويعملوا ما يريد – فخير له ألا ينتظر طويلًا؛ لأنه قد رام مستحيلًا، ولكن خير من ذلك أن تأخذ الناس كما هم، وأن تتلقى شرورهم وأعمالهم الصغيرة بصدر رحب، وأفق واسع، ونفس مطمئنة.

وبالجملة فمن ضاق أفقه ضاق صدره، ودنت همته، وتنغصت حياته، ولم يصدر عنه خير كثير، أو عمل كبير [١].

٤٤- الاندفاع الزائد:

فتجد من الناس من يقبل على عمل من الأعمال باندفاع زائد، ونشاط خارج عن طوره، فيكلف نفسه من المهام ما ينوء بحمله، وما لا تطيقه نفسه، وما هي إلّا مدة وتني همته، وتنثني عزمته.

٤٥- المبالغة في تطلب الكمال:

فتجد من الناس من تهفو نفسه لغاية شريفة، فيعمل ما في وسعه؛ كي ينالها، ويصل إليها.

فإذا ما حال حائل دون الوصول إليها نزع عنها، ولم يحاول السعي لها مرة أخرى.

□ قال العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخطل أن ينزع الرجل إلى خصلة شريفة، حتى إذا شعر بالعجز عن بلوغ غايتها البعيدة انصرف عنها جملة، والتحق بالطائفة التي ليس لها في هذه الخصلة من نصيب.

---

(١) انظر: «فيض القدير» (٣/ ١٩٤)، (٥/ ١٧٠- ١٧١، ١٨٠).

والذي يوافق الحكمة، ويقتضيه حق التعاون في سعادة الجماعة أن يذهب في همه إلى الغايات البعيدة، ثم يسعى لها سعيها، ولا يقف دون النهاية إلَّا حيث ينفذه جهده، ولا يهتدي للمزيد على ما فعل سبيلًا»[١].

٤٦- قلة الصبر، واستطالة الطريق:

فتجد من الناس من يسلك طريق المجد والمعالي، سواء في طلب العلم، أو في الدعوة إلى الله، أو الجهاد في سبيل الله أو غير ذلك، فإذا ما استقَلَّ الطريق، وتوغل في السير، ورأى كثرة العوائق دونه – نفد صبره، ولم تسعفه همته، فيترك ما هم بالقيام به، ويَقْفُل راجعًا من منتصف الطريق.

□ أما صاحب الهمة العالية، والعزمة الصادقة – فلا يستطيل الطريق، ولا يلتفت إلى بُنَيَّاتها، بل يسير ولسان حاله يقول:

عليَّ طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر[٢]

□ ولهذا لما ذهب امرؤ القيس إلى قيصر الروم مستنجدًا به على بني أسد، وردِّ ملك أبيه الذي زال – صحب معه عمرو بن قميئة، وكان من أقدم شعراء بكر، فلما سارا في تلك الرحلة، واستقلا طريقها – بكى عمرو بن قميئة؛ لطول الطريق، فقال امرؤ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنَّا لاحقان بقيصرا

---

(١) «رسائل الإصلاح» (٢/ ٨٧).

(٢) «ديوان البارودي» (ص٢٣٩).

فقلــت لــه: لا تبـكِ عينُـك إنـما نحاول ملكًا أو نموت فنعـذرا[١]

فهو يقول: نحن نطلب الملك، فإذا بلغنا إربنا منه، وإلَّا ألححنا في الطلب، حتى نموت دونه، وفي هذا أشرف العذر لنا.

٤٧- كثرة الشواغل والقواطع:

من أهل، وصحب، وعوائد، وعوائق، ولهث وراء حطام الدنيا، كل ذلك مما يصرف الإنسان عن تطلاب المعالي، وبلوغ الأرب في المجد.

□ قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لــو أن لقــمان الحكـيم الــذي ســارت بــه الركبــان بالفــضل

بُــلي بفقــر وعيــال لمــا فــرَّق بــين التــبن والبقــل[٢]

٤٨- اختلاق المعاذير:

فمن أعظم أسباب دنو الهمم اختلاق المعاذير، والتماس المسوغات، التي نسوغ بها أخطاءنا وإخفاقنا، ونعلق عليها عجزنا وقعودنا.

وكثيرًا ما تكون تلك المعاذير، والمسوغات مجرد أوهام لا حقيقة تحتها، فلا تزال تلك الأوهام تكبر شيئًا فشيئًا حتى تكوِّن لنا سدًّا كبيرًا منيعًا، حجارتُه سوء الظن أحيانًا، وتخذيل النفس أحيانًا، والشك في النتائج والخوف من الإخفاق أحايين أخر.

وقد تَكُوْنُ تلك المعاذير حقيقية، كحال من يتعلل بقلة الذكاء، أو عدم النبوغ، وكحال من يتعلل بسوء الحظ، وقلة التوفيق، وبأن الظروف لم

(١) «ديوان امرئ القيس» (ص٦٤).

(٢) «ديوان الشافعي» (ص٧٠).

تواته، ولم تأت على وَفْق ما يريد، وكحال من يتعلل بتربيته الأولى، وأنه قد قُصِّر فيها، فلم يُوجَّه الوجهة الصحيحة، فأخفق ولم يعد قادرًا على استدراك ما فات.

وكحال من يتعلل بالبيئة التي يعيش فيها، أو الصحبة التي ابتلي بها، وكحال من يتعلل بكبر سنه، وضعف قواه، وقلة تحمله، فَيُسَوِّغ بذلك قعوده وعجزه.

فمثل تلك الأعذار والأعاليل قد يكون سببًا حقيقيًّا لدنو الهمة؛ إلَّا أنه لا يليق بالعاقل أن يستسلم لها، أو أن يسترسل معها؛ فمهما يكن من شيء فإن الفرصة متاحة، وإن الباب لمفتوح على مصراعيه لمن أراد المعالي وسعى لها سعيها.

فالإنسان بتوفيق الله، ثم بعزمه، وهمته، وتربيته لنفسه - قادر على التغلب على كثير من العقبات والصعاب.

وما الصعاب في هذه الحياة إلَّا أمور نسبية؛ فكلَّ شيءٍ صعبٌ جدًّا عند النفوس الصغيرة جدًّا، ولا صعوبة عظيمة عند النفس العظيمة؛ فبينما النفس العظيمة تزداد عظمة بمغالبة الصعاب إذا بالنفوس الهزيلة تزداد سقمًا بالفرار منها.

وإنما الصعاب كالكلب العقور؛ إذا رآك خفت منه وجريت نبحك، وعدا وراءك، وإذا رآك تهزأ به، ولا تعيره اهتمامًا أفسح الطريق لك، وانكمش في جلده منك.

فإذا اعتقدت بأنك مخلوق للصغير من الأمور لم تبلغ في الحياة إلَّا الصغير، وإذا اعتقدت أنك مخلوق لعظائم الأمور، وسلكت السبل

الموصلة لها - شعرت بهمة تكسر الحدود والحواجز، وتنفذ منها إلى الساحة الفسيحة، والغرض الأسمى.

ومصداق ذلك حادث في الحياة المادية؛ فمن عزم على المسير ميلًا واحدًا أدركه الإعياء إذا هو قطعه، وإذا هو عزم على قطع خمسة أميال قطع ميلًا، وميلين، وثلاثة من غير تعب؛ لأن غرضه أوسع، وهمته المدخرة أكبر.

إذا كان الأمر كذلك فلا تقنع بالدون، ولا تلتمس المسوغات وتختلق المعاذير.

فلا تتعلل بقلة الذكاء، وإنما استعمل ذكاءك خير استعمال.

نعم إنك لا تقدر أن تكون في الذكاء مئة إذا خلقت وذكاؤك في قوة عشرين، ولكنك قادر على استعمال ذكائك خير استعمال حتى يفيد أكثر ممن ذكاؤه مئة إذا هو أهمله، كمصباح الكهرباء إذا نظف مما علق به، وكانت قوته عشرين شمعة - كان خيرًا من مصباح قُوَّتُه خمسون إذا علته الأتربة، وأهمل شأنه.

ولا تتعلل بأنك لست نابغةً، ولا أن الظروف لا تواتيك، فالعالَم لا يحتاج إلى النوابغ وحدهم، والنجاح ليس مقصورًا على النوابغ دون سواهم، ولا على من تواتيهم الظروف.

ولا تتعلل بسوء الحظ؛ فلا يوجد مَنْ منحوا قدرة على التفوق من غير جهد، وعلى الإتيان بالعجائب من غير مشقة، وعلى قلب التراب ذهبًا بعصا سحرية؛ فلا يكن سوء الحظ - كما تزعم - عائقًا لك عن النجاح.

ولا تعتذر بتربيتك الأولى، ولا بعامل البيئة أو الوراثة؛ فهذه لا تعوق

الإنسان عن إسعاد حياته، وملئها بالجد والاجتهاد إذا منح الهمة العالية، والإرادة القوية، والتفكير الصحيح.

ولا تتعلل بكبر السن، وضعف القوى، فتقعد عن كل فضيلة، وتُقصر عن كل مكرمة، بل جدد نشاطك، واستثر همتك، واعمل ما في وسعك.

ولا يعني ذلك أنه يراد منك حال كبرك ما يراد منك حال شبابك، واكتمال نشاطك وفتوتك.

وإنما يراد أن تَجِدَّ في الاستفادة من طاقاتك الكامنة، وخبراتك السابقة قدر الإمكان، فلو سرت على هذا النحو لعادات لك الروح، ولتجدد فيك العزم [١].

□ على أن هناك من أصحاب الهمم العالية من يكبر وتكبر معه همَّتُه فهذا ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «وإني لأجد من حرصي على العلم، وأنا في عُشر الثمانين أشدَّ مما كنت أجدُه وأنا ابن عشرين سنة» [٢].

٤٩- قلة الحياء:

فلقلّة الحياء أثر عظيم في دنوِّ الهِمَّة، وسفول القدر، فقليل الحياء لا يأبه بدنو همته، ولا يبالي بسفول قدره، فلا يجد ما يبعثه للنهوض إلى الفضائل، ولا ما يرفعه عما هو مستغرق فيه من الرذائل..

يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاء

إذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستحي فاصنع ما تشاء

(١) انظر: «فيض الخاطر» (٦/ ١٢٧- ١٢٩، ٢٤٤).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب الحنبلي (١/ ١٤٦).

٥٠- قلة الإنصاف:

فقلة الإنصاف خصلة غير حميدة، تنساق بصاحبها إلى دركات سحيقة، فتقوده إلى الظلم، والكبر، وإيثار العاجلة على الآجلة.

□ وقلة الإنصاف تجر إلى التقاطع، وتبعد ما بين الأقارب والأصدقاء، قال الحكيم العربي:

ولم تــزل قلــةُ الإنــصافِ قاطعــةً ... بين الرجال وإن كانوا ذوي رحــم

وقلة الإنصاف تسقط الاحترام من العيون والقلوب، وتحول بين الرجل وبين أن يزداد علمًا، كما أنها تخذل العلم، وتطمس شيئًا من معالمه، وتحدث فيه فسادًا كبيرًا.

فمن قلة الإنصاف إلصاق التهم بالمخالف، وحمل كلامه على أسوأ المحامل، ورد الحق الذي معه، وأخذه بلازم قوله دون أن يلتزمه.

ومن ذلك ألا ينصف المرء أقرانه، أو من هم أحدث سنًّا منه؛ إما حسدًا من عند نفسه، أو خوفًا من ظهور مزيتهم عليه.

ومن قلة الإنصاف إصرار المرء على خطئه بعد ما يتبين له فساده، وأَنَفَتُه من قبول الحق والرجوع إليه بعد أن يتبين له وجهه؛ إما خوفًا من سقوط منزلته، أو لحسد تنطوي عليه دخيلة نفسه، أو حذرًا من تفوق الخصم، وحرصًا على الانفراد بخصال الحمد، أو متابعة للأصحاب، ومسايرة لمن هم على الشاكلة، أو لإرادة الإضلال، ومحاولة قتل الحق وطمس معالمه، أو غير ذلك من أسباب رد الحق والإصرار على الباطل[(١)].

---

(١) انظر: «رسائل الإصلاح» (١/ ٣٨- ٤٧)، وانظر: «أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص ٧١- ٧٥).

٥١- الحسد:

فالحسد ناتج عن ضعف الإيمان، وضيق العطن، والشح بالخير على عباد الله.

وهذه الأسباب وغيرها من موجبات سفول الهمة؛ ولذلك فالحاسد لا تعلو له مكانة، ولا ترتفع له منزلة؛ لأنه دنيء الهمة، مهين النفس؛ ولأنه بحسده اشتغل بما لا يعنيه، فأضاع ما يعنيه، وما يعود عليه بالنفع والخير.

▫ قال ابن المقفع: «ليكن ما تصرف به الأذى عن نفسك ألا تكون حسودًا؛ فإن الحسد خلق لئيم، ومن لؤمه أنه موكَّل بالأدنى فالأدنى من الأقارب، والأكفاء، والمعارف، والخلطاء، والإخوان.

فليكن ما تعامل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين مع من هو خير منك، وأن غُنْمًا حسنًا لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقتبس من علمه، وأفضل منك في القوة فيدفع عنك بقوته، وأفضل منك في المال فتفيد من ماله، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه، وأفضل منك في الدين فتزداد صلاحًا بصلاحه»[1].

٥٢- الطمع والجشع:

▫ ذلك أن الطمع والجشع من موجبات الذلة والحقارة، وسقوط الجاه والمنزلة، قال الإمام الشافعي:

العبـــــد حــــرٌّ إن قنــــع ... والحــــر عبــــدٌ إن طمــــع

فــــاقنع ولا تقنــــع فــــلا ... شيء يــــشين ســــوى الطمــــع[2]

(١) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١٤٤- ١٤٥).

(٢) «ديوان الإمام الشافعي» (ص٥٧).

□ وقال:

حسبي بعلمي إن نفع ما الذل إلَّا في الطمع[(١)]

□ وقال الآخر:

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرا

٥٣- الفرقة والاختلاف:

فلو أجَلْت النظر في حال المسلمين اليوم لوجدتهم متفرقين مختلفين، عن اليمين وعن الشمال عزين، وكل حزب بما لدين فرحون إلَّا من رحم ربك وقليل ما هم.

* فالفرقة والاختلاف من أسباب الهزيمة والضعف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾[الأنفال:٤٦].

وبسبب ذلك ينال العدو نيله من الأمة، ويتمكن من التغلغل فيها، والإيضاع خلالها؛ ابتغاء فتنتها وصدها عن دينها، وتوهين قواها.

وبسبب الخلاف تتفرق الكلمة، وتتبدد الجهود، وتنقبض الأيدي عن التعاون.

وإن المصيبة لتعظم، وإن الخطب ليجل عندما يقع الخلاف بين خاصة المسلمين، وبين أهل العلم والفضل.

ولن يغرق المرء في المثالية، فيحلم بألا يوجد خلاف البتة؛ فذلك غير ممكن؛ فسنة الله اقتضت وجود الخلاف، فليست المشكلة أن نختلف، وإنما هي ألا نعرف كيف نختلف.

---

(١) «ديوان الشافعي» (ص٥٦).

وليس الحل بألا نختلف أبدًا، وإنما هو بألا نُصعِّد الخلاف، وألا نسعى في إذكائه، وبأن نعرف كيف نختلف كما نعرف كيف نتفق، كما كان الصحابة رضي الله عنهم.

فهم خير الناس حال الوفاق وحال الخلاف؛ فمع أن الخلاف وقع بينهم في العديد من المسائل إلَّا أن قلوبهم كانت متوادة، متراحمة، متقاربة، متآلفة.

بل لقد كانوا رضي الله عنهم مثالًا يحتذى، ونهجًا يقتفى حتى في حال الفتنة والقتال؛ فبرغم ما حصل بينهم من قتال وفتنة إلَّا أن منار العدل والتقوى كان قائمًا فيهم؛ فلم يكفر بعض بعضًا، ولم يبدع بعضهم بعضًا.

بل لقد كانوا يأخذون العلم من بعض، ويلتمسون المعاذير لبعض، بل كانوا يثنون على بعض، ويترحمون على بعض.

٥٤- الانحراف في مفهوم الإيمان القدر:

لما انحرف كثير من المسلمين في مفهوم الإيمان بالقدر في العصور المتأخرة – قادهم ذلك إلى التخلف والانحطاط.

وذلك عندما اتخذ كثير منهم من الإيمان بالقدر مسوغًا واهيًا لعجزهم وانهيارهم؛ حيث جعلوه تُكأةً للإخلاد إلى الأرض، وذريعة لترك الحزم والجدِّ، والتفكير في معالي الأمور وسبل العزة والفلاح، تاركين الأخذ بالأسباب، ناسين – أو متناسين- أنَّ أقدار الله إنما تجري وفْق سننه الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير، ولا تحابي أحدًا كائنًا من كان.

فكان المخرج لهؤلاء أن يتكل المرء على القدر، وأن الله هو الفعال لما يريد، وأن ما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن؛ فَلْتمضِ إرادته، ولتكن

مشيئته، ولْيَجْرِ قضاؤه وقدره، فلا حول لنا ولا طول، ولا يدَ لَنَا في ذلك كله.

هكذا بكل يسر وسهولة، استسلام للأقدار دون منازعة لها في فعل الأسباب المشروعة والمباحة.

فلا أمر بالمعروف، ولا نهي عن المنكر، ولا جهاد لأعداء الله، ولا حرص على نشر العلم ورفع الجهل، ولا محاربة للأفكار الهدامة، والمبادئ المضللة، كل ذلك بحجة أن الله شاء ذلك!.

والحقيقة أن هذه مصيبة كبرى، وضلالة عظمى، أدت بالأمة إلى هوة سحيقة من التخلف والانحطاط، وسببت لها تسلط الأعداء، وجرَّت عليها ويلات إثر ويلات.

وإلَّا فالإيمان بالقدر على الوجه الصحيح يقضي على ذلك كله؛ فالأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر، بل هو من تمامه؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ أراد بنا أشياء، وأراد منا أشياء، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أمرنا بالقيام به، فالخلط بين هذين الأمرين يُلبس الأمر، ويوقع في المحذور.

وهذا ما لاحظه وألمح إليه أحد المستشرقين الألمان، فقال وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم المتأخرة: «طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله، والرضا بقضائه وقدره، والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار.

وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان؛ ففي العصر الإسلامي الأول لعبت دورًا كبيرًا في الحروب، وحققت نصرًا متواصلًا؛ لأنها دفعت في الجندي روح الفداء.

وفي العصور المتأخرة كانت سببًا في الجمود الذي خيَّم على العالم

الإسلامي، فقذف به إلى الانحدار، وعزله وطواه عن تيار الأحداث العالمية»[١].

٥٥- **العدوان الخارجي:**

مِنْ غزوٍ فكري، واحتلال عسكري، ومكر يهودي صليبي، وما ينضوي تحت ذلك من تنصير واستشراق.

فلقد كان لهذا العدوان على اختلاف طرائقه وأساليبه – أثر بالغ في تخدير الأمة، والوقوف في طريق نهضتها، والحيلولة دون تبوُّئها مكانَها اللائق بها.

ولقد كان الأعداء يرومون إخراج المسلمين من دينهم، وإبقاء الشعوب المسلمة هزيلة مستعبدة، ذليلة لا حول لها ولا طول، بل تكون تابعة للغرب، خاضعة لنفوذه.

وكانوا يرمون إلى قطع حاضر الأمة عن ماضيها؛ حتى تجهله، وتتنكر له، فتلحق بالغرب، وتسير في ركابه.

وكانوا كذلك يريدون الحد من انتشار الإسلام، ونهب الثروات من بلاد المسلمين، وتسخيرها لأطماعهم.

ولقد سلكوا لتحقيق تلك المآرب سبلًا شتى، من تأليف، واستغلال للإعلام، وسيطرة على التعليم إلى غير ذلك مما قاموا به.

وفي ظل ذلك الانحراف نجح الأعداء في تحقيق كثير مما أرادوه، ومما تحقق لهم فأدى إلى إضعاف الهمم أو إماتتها ما يلي:

---

(١) «الإسلام قوة الغد» بأول شمز (ص٩٠)، وانظر: «لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرهم» لشكيب أرسلان.

أ- تعطيل الحكم بما أنزل الله، وإحلال القوانين الوضعية محلها في أكثر بلاد المسلمين.

ب- نشر الفساد، والرذيلة، والإباحية الجنسية عن طريق دور السينما، والصحف، والمجلات، ومختلف وسائل الإعلام.

ج- نشر الأدب المتهتك، المستهتر بالقيم والثوابت.

د- إشغال الأمة بالتوافه من رياضة، وفن، ونحوها، حتى ماتت همم كثير من الشعوب، وتبلدت أحاسيسهم، ولم يعودوا يميزون بين ما ينفع وما يضر.

هـ- بلبلة الأفكار، وتشكيك الناس في معتقداتهم، وذلك من خلال الطعن المتواصل في دين الإسلام، وبِنَبيِّ الإسلام، والقول بأن الإسلام قد استنفذ أغراضه، ولم يعد صالحًا لهذا العصر.

و- إثارة الشبهات حول كثير من القضايا، كإثارتهم لقضية تحرير المرأة، وهي في حقيقتها دعوى يهدف من ورائها إلى تحطيم القيم، والأخلاق، والأسر، ونشر الفساد والانحلال.

وكذلك إثارتهم لبعض المسائل الخلافية، وتضخيم ذلك، وعرضه بصورة يخيل لقليل البضاعة من العلم أن الدين لا يوجد فيه شيء يتفق عليه.

وكذلك إثارتهم لمسألة الحدود الشرعية، وتشنيعهم عليها، وزعمهم بأنها تمثل الوحشية والهمجية.

وكذلك إثارتهم لقضية الميراث، وزعمهم بأنه هضم لحق المرأة، حيث لم تساوَ بالرجال، إلى غير ذلك مما يثيرونه من قضايا.

ز- تهوين شأن الحضارة الإسلامية، وتشويه التاريخ الإسلامي، بهدف تزهيد الناس فيه، ولفت نظرهم إلى الحضارة الغربية التي أضفوا

عليها دعاية مغرية.

ح- احتلالهم لأكثر بلاد المسلمين، ولم يسلم من ذلك إلَّا أقل القليل.

ط- القضاء على الحركات الجهادية.

ي- تمزيق الأمة، وتفريق شملها، وإثارة العداوات والأحقاد داخل صفوفها؛ كي يسهل القضاء عليها.

ك- إحداث الهزيمة النفسية لدى كثير من المسلمين، حيث فقدوا الثقة بأنفسهم وبدينهم، فقادهم ذلك إلى الإعجاب بالغرب، والنظر إليه بإكبار، وإجلال، وأخذ ما عنده دونما نظر أو تمحيص، مما أدى إلى ضياع الشخصية، وفقدان التميز.

ل- التحكم بمصير الشعوب، وامتصاص خيراتها.

م- السيطرة على وسائل الإعلام ووسائل التعليم والتوجيه في كثير من بلاد الإسلام.

ن- اصطناع العملاء من أبناء المسلمين؛ كي يقوموا بالدور المناط بهم من قبل أسيادهم.

س- استهلاك جهود العلماء والدعاة في مقاومة ما يروِّجونه من فساد وتغريب.

ش- رفع الأقزام من ممثلين ولاعبين ومنحرفين، وإضفاء الألقاب الرنانة عليهم، وفي مقابل ذلك يحط من شأن الأعلام من العلماء والقادة العظام.

هذه بعض آثار العدوان الخارجي، وواحدٌ منها كافٍ في إنهاك الأمة،

وإماتة هممها؛ فكيف بها إذا اجتمعت كلها؟[(١)].

مظاهر دنوِّ الهمة:

١ - دنو الهمة في طلب العلم.

٢ - الكسل في الدعوة إلى الله.

٣ - التهرب من المسؤولية.

٤ - البخل.

٥ - المِنَّة وتعداد الأيادي.

٦ - التكاسل في أداء العبادات.

٧ - التكلُّف والتصنُّع.

٨ - الإغراق في المظهرية الجوفاء.

٩ - الاشتغال بما لا يعني، والانصراف عما يعني.

١٠ - الانهماك في الترف.

١١ - الاشتغال بسفاسف الأمور ومحقرات الأعمال.

١٢ - العشق.

١٣ - التحسُّر على ماضي وترك العمل.

١٤ - كثرة التلاوم وقِلَّة العمل.

١٥ - كثرة الشكوى إلى الناس.

١٦ - الاسترسال مع الأماني الكاذبة.

١٧ - التسويف والتأجيل.

١٨ - الافتخار بالآباء العظام والعيش على أمجادهم.

---

(١) انظر: «أسباب دنو الهمة» من كتاب «الهمة العالية» (ص٦٧ - ٩٧).

١٩- كثرة المزاح والإسفاف فيه.

٢٠- اليأس من الإصلاح.

٢١- استجداء الناس ومسألتهم.

٢٢- الكِبر والتعالي.

٢٣- الكذب.

٢٤- قلة الحياء.

٢٥- الحقد.

٢٦- مجاراة السفهاء.

٢٧- تتبَّع العثرات، والفرح بالزلات.

• والأمل كله في رحمة الله ومَنِّه وفضله وكرمه أن يتدارك المرء برحمته **«يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث فأصلح لي شأني كُلَّه، ولا تَكِلني إلى نفسي طرفةَ عَيْنٍ»**(١).

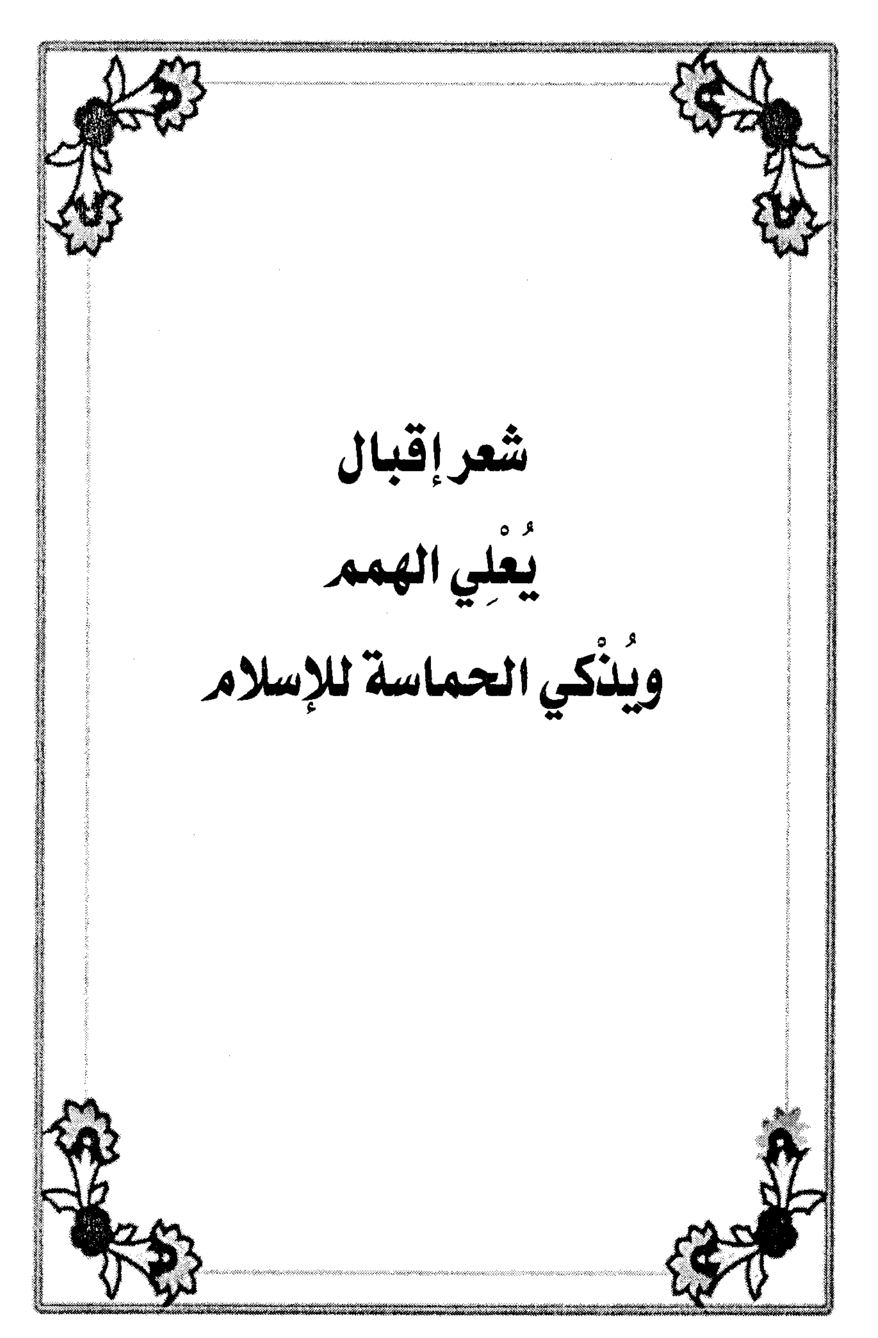
• عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ: كان إذا كَرَبهُ أمرٌ قال: **«يا حيُّ يا قيُّوم برحمتك أستغيث»**(٢).

اللهم لا كرب يعدل ما أمتنا فيه، فارزقنا همة عالية نصلح به شعث أمورنا ونسير على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها ولا يزيغ عنها إلَّا هالك.

---

(١) صحيح

(٢) حسن: رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٧٧٧).



شعر إقبال
يُعْلِي الهمم
ويُذْكي الحماسة للإسلام

شعر إقبال يُعْلِي الهمم ويُذْكي الحماسة للإسلام

□ قال العلّامة أبو الحسن الندوي عن محمد إقبال: «.. إني أحببتُه، وشُغِلتُ به كشاعر «الطموح»، والحب والإيمان، وكشاعر له عقيدة، ودعوة، ورسالة، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية، وكأعظم ناقدٍ لها، وحاقدٍ عليها، وكداعية إلى المجد الإسلامي، وسيادة المسلم.. أشهد على نفسي أنِّي كلما قرأتُ شعره جاش خاطري، وثارت عواطفي، وشعُرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي للحماسة الإسلامية في عروقي، وتلك قيمة شعره، وأدبه في نظري».

□ وقال الأستاذ عباس العقَّاد: «.. إن إقبالًا هو طرازُ العظمة الذي يتطلَّبه الشرق في الوقت الحاضر، وفي كُلِّ حين؛ لأنها عظمةٌ ليست بالدنيويَّة المادية، وعظمةٌ ليست بالأخروية المُعرضة عن هذه الدنيا، وهو زعيم العمل بين العدوَّتين من الدنيا والآخرة قوّام بين العالمين كأحسن ما يكون القَوَّام».

□ وقال الدكتور طه حسين: «شاعران إسلاميان رفعا مجدَ الآداب الإسلاميَّة إلى الذروة، وفرضا هذا المجد الأدبَّي الإسلاميَّ على الزمان، أحدهما إقبال شاعر الهند والباكستان..».

□ وقال الدكتور عبد الوهاب عزَّام: «لا أعرف كشعر إقبال، معرِّفًا بالحياة، داعيًا إليها، معظِّمًا الإنسان، مُشيدًا بمكانته في هذا العالم، نافثًا الأمل، والهمَّة، والإقدام في نفوس الناس».

□ وقال الدكتور أحمد الشرباصي: «.. ولم أر شاعرًا يتصوَّر للمسلم صورةً مثاليَّةً عاليةً كتلك الصورة التي يرسمها إقبال في مواضع كثيرة عن

شعره، إنَّه يصوِّر المسلم حينًا كأنه ماء في رقَّته، وحديد في شدَّته يهزأ بالصِّعاب، ويعلو على التراب، ويسري مع الأفلاك، ويجري مع الأملاك..».

□ وقال الدكتور أحمد حسن الزيَّات: «.. فإذا كان حسَّان رضي الله عنه شاعر الرسول ﷺ، فإنَّ إقبالًا شاعر الرسالة»[1].

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنْ تَضِقْ بالجهاد في الأرض ذَرعًا ... فحرامٌ مسراكَ فوقَ السَّحاب[2]

□ وقال عن الصبح الذي يريده:

إنَّا لنجهلُ مطلعَ الصُّبح الذي ... يُدعى بيوم أو غدٍ في الأزمُن

لكنَّما الصبحُ الذي ارتجَّت له ... ظُلَمُ العوالم، من أذانِ المؤمن

كلمات للحياة:

□ لصرعى الحضارة الغربية من تدَنَّت هممهم يقول إقبال: «لم يستطع بريقُ العلوم الغربية أن يُبهر لبِّي، ويعشي بصري، وذلك لأني اكتحلت بإثمد المدينة».

□ ويقول: «مكثت في أتُون التعليم الغربي؛ وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود».

□ ويقول: «لم يزل، ولا يزال فراعنةُ العصر يرصدونني، ويكمنون لي، ولكني لا أخافهم، فإني أحمل اليدَ البيضاء، إنَّ الرجل إذا رُزِق الحبَّ

---

(١) ديوان «محمد إقبال» (٢/ ١٣، ١٤) ـ إعداد سيد عبد الماجد الغوري- دار ابن كثير- سورية.

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٩).

الصادق، عرف نفسه، واحتفظ بكرامته، واستغنى عن الملوك والسلاطين، لا تعجبوا إذا اقتنصتُ النجوم، وانقادت لي الصِّعاب، فإني من عَبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرَّفت بوطأته الحصباء، فصارت أعلى قدْرًا من النُّجوم، وجرى في إثره الغبار، فصار أعبق من العبير».

□ وفي ذكر مُقوِّمات حياةِ الأمة الإسلامية لابدَّ من علو الهمة في الاتصال الدائم بنبيِّها، والتشبُّع بتعاليمه واتباعه، والتفاني في حبِّه، يقول إقبال: «إنَّ قلب المسلم عامر بحبِّ المصطفى ﷺ، وهو أصلُ شرفنا، ومصدر فخرنا في هذا العالم، إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى، كان يرقد على الحصير، إنَّ هذا السيد الذي نام عبيدُه على أسرَّة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد، فكان أن وُجدت أمَّةٌ، ووُجد دستورٌ، ووُجدت دولةٌ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعًا، وإذا كان في الحرب فسيفُه يقطر دمًا، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين، بأبي هو وأمي، لم تلد مثله أمٌّ، ولم تُنجِب مثلَه الإنسانية، افتتح في العالم دورًا جديدًا، وأطلع فجرًا جديدًا، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع، ويأكل مع مولاه على خِوانٍ واحدٍ، جاءته بنت حاتم أسيرةً مقيَّدةً سافرة الوجه، خجلةً مطرقةً رأسها، فاستحيا النبي ﷺ، وألقى عليها رداءه.

نحن أعرى من السيدة الطائية، نحن عراةٌ أمام أمم العالم، لطفه وقهره كلُّه رحمة، هذا بأعدائه، وذلك بأوليائه، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة، وقال: لا تثريبَ عليكم اليوم! نحن المسلمون من الحجاز، والصين، وإيران، وأقطار مختلفة، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ، نحن أزهارٌ كثيرة العدد، واحدة الطيب والرائحة، لماذا لا أحبُّه، ولا أحنُّ إليه،

وأنا إنسان، وقد بكى لفراقه الجذع، وحنَّت إليه سارية المسجد؟! إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كله، أنعم بمدينة فيها الحبيب!»[١].

□ ويقول في دعائه لربه: «أنت غنيٌّ عن العالمين، وأنا عبدك الفقير، فاقبل معذرتي يوم الحشر، وإن كان لا بدَّ من حسابي فأرجوك يا رب، أن تحاسبني بنجوةٍ من المصطفى ﷺ، فإني أستحي أن أنتسبَ إليه وأكون في أمته، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي»[٢].

□ مَن تتبَّع التاريخ علم أن محبةَ سلفنا لنبيهم وعلوَّ همتهم في اتباعه والإيمان به كانت مصدرَ علمهم العميق، وحكمتِهم الرائعة، ومعانيهم البديعة، وبطولتهم الفائقة، وشخصيَّاتهم الفذَّة، وعبقريتهم النادرة، إليه يرجع الفضلُ في غالب عجائب الإنسانية، ومعظم آثارهم الخالدة في التاريخ، فلما تجرَّد الخَلَفُ من ذلك، كانوا صورًا من لحم ودم، وكانوا قطيعًا من غنم.

لقد «اكتست صحراءُ العرب بفضل هذا النبيِّ الأمي حلَّةً أنيقة، وانبتت زهرةً يانعة، إن عاطفةَ الحرية نشأت في ظل هذا النبي، بل ترعرعت ونمت في حِجره، وهكذا كان يوم هذا العالَمُ المعاصر مدينًا لأمسه.

لقد وضع قلبًا نابضًا خفاقًا في جسد الإنسان البارد، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة.

هزم كلَّ طاغوت، وحطَّم كل صنم، وأورق به كلُّ غصن يابس وأزهر وأثمر، إنه رُوحُ معركة بدر وحُنين، وإنه مربِّي الصِّدِّيق والفاروق

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٠- ٣١).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣١).

والحسين.

أذانُ صلاة الحرب وجرسُ سورة «الصافات» غيضٌ من فيضه، جعل سيف صلاحِ الدين البتار، ونظرة بايزيد النافذة مفتاحَ كنوز الدنيا والآخرة.

جرعةٌ من كأسه أورت العقل والقلب.

واجتمع بها العلمُ والحكمة والدين والشرع، والإدارةُ والحكم مع قلوب أواهةٍ مخبتة منيبة في الصدور.

إن جمالَ قصر الحمراء، والتاج الذي نال خراج الملائكة، وإعجاب القدِّيسين هو نفحةٌ من نفحاته، ولمحةٌ قصيرة من لمحاته، وومضته من أنواره وبركاته.

ظاهرُه تلك التجلياتُ والنفحات، وباطنُه درٌّ مكنون لم يطلعْ عليه العارفون، ولم يصِلْ إلى كنهه السالكون.

فلا ريب أنه يستحقُّ ثناءَ الجميع وشكرَهم وحمدهم؛ لأنه أسبغ نعمةَ الإيمان على هذه الحفنة من التراب».

شفةٌ تُحيي وعينٌ تَجذبُ ... وحَّدا الأشتات هذا عجَبُ [(١)]

يَهَبُ النَّاسَ جديدَ النَّظَر ... يَجْعَلُ البيدَ كروض نَضِرِ [(٢)]

فترى الأُمَّةَ مِنْهُ سائره ... بلهيب مِنْهُ حَرَّى ثائره

شررًا في قلبها قَدْ أشعلا ... فأحالَ الطِّينَ فيها شُعَلا

---

(١) كلامه ونظره يجذب البعيد إليه حتىٰ يصيرا كنفسٍ واحدة.

(٢) يهب الناس نظرًا جديدًا فيرون الأشياء علىٰ غير ما رأوها قبلاً، فرب حسن يصير قبيحًا، وقبيح يصير حسنًا.

سـيرهُ يعطـي الـترابَ البـصَرا ... فـإذا الـذرَّةُ سـيناءَ تَـرَى [(١)]

عـارِيَ العقـل بجـداوه كـسا ... وَهَـبَ الثـورةَ هـذا المفلِـسا [(٢)]

يـنفُخُ الجمـرةَ في موقِـده ... ويـذيب الغِشَّ مـن عـسجده [(٣)]

ويفـكُّ العبـدَ مِـنْ أغلالـه ... ويُجـير القِـنَّ مـن أقيالـه

يجـذب الإنـسانَ شـطر المقـصد ... جاعـلَ الـشَّرع زمامًـا في اليـدِ

نكتـةَ التوحيـد يوحيهـا إليـه ... أدبَ الطاعـة يمليـه عليـهْ [(٤)]

نشيد عُلاة الهِمَم

الـصِّينُ لنَـا والعُـرْبُ لَنَـا ... والهِنْـدُ لنَـا والكُـلُّ لَنَـا

أضْـحَى الإسـلامُ لنَـا دِيْنًـا ... وجَمِيْـعُ الكَـوْنِ لَنـا وَطَنَـا

تَوحيـدُ الله لنـا نـورٌ ... أعْـددنا الـرُّوحَ لـه سـكَنا

الكـوْنُ يَـزولُ ولا تُمْحَـى ... في الـدَّهْرِ صَـحائفُ سُـؤْدِدِنَا

بُنِيَـتْ في الأرضِ مَعابِـدُها ... والبَيـتُ الأوَّلُ كَعْبَتُنَـا

هُـو أوَّل بيـتِ نحفَظُـهُ ... بحيـاةِ الـرُّوحِ ويحفَظُنَـا

فِي ظِـلِّ الـسَّيف ترَبَّيْنـا ... وبَنَيْنـا العِـزَّ لِـدَولَتِنَا

---

(١) ترى الذرة على ضآلتها طور سيناء. الذرة لا ترى إلا في نور الشمس، ولكن هذا الرسول الذي يتحدث عنه الشاعر يحيي الموات، وينير الظلم، فترى الذرة طور سيناء.

(٢) العقل عريان مفلس حتى يمده الرسول فيكسوه ويغنيه أي: هو يهدي العقل ويقويه.

(٣) يشعل العقل، ويميز له الخبيث من الطيب.

(٤) يقيده بالشريعة ليجذبه إلى المقصود ويعلمه توحيد الله وأدب الطاعة فترى الإنسان حرًا من عبادة الكبراء مقيدًا بالشرع.

عَلَمُ الإسلامِ على الأيّا | م شعارُ المجدِ لِلَّتِنَا
بهلالِ النّصر يُضيءُ لنا | ويُمَثِّل خِنجَر سَطوَتِنَا
وأذانُ المُسلِمِ كانَ له | في الغَرْب صدًى من هِمَّتِنَا
قولوا لِسَماءِ الكونِ لقدْ | طاوَلْنا النَّجْمَ بِرِفعَتِنَا
يا دَهْرُ لقد جَرَّبتَ على | نيرانِ الشِّدَّةِ عَزْمتَنَا
طُوفانُ الباطِلِ لم يُغرِقْ | في الخَوفِ سفينةَ قوّتِنَا
وعلى أغصانِكَ أو كارٌ | عمَرَتْ بِطلائِع نَشأتِنَا
يا دجلةُ هَلْ سجَّلت عَلى | شطَّيكَ مآثِرَ عزّتِنَا
أمواجُكِ تَروي للدُّنيا | وتُعيدُ جواهِرَ سيرَتِنَا
يا أرْضَ النورِ من الحَرَمَيْـ | ـن ويا ميلادَ شريعَتِنَا
رَوْضُ الإسلام ودَوحتُهُ | في أرْضِكِ رَوّاها دمُنَا
ومُحمَّد كان أميرَ الرَّكْـ | ـبِ يقودُ الفوْزَ لنُصرَتِنَا
إنَّ اسمَ محمَّدِ الهادي | رُوحُ الآمالِ لِنَهْضَتِنَا
دَوَّتْ أنشودةُ «إقبالٍ» | جَرَسًا يَحدو فيه الزَّمنَا
لِيُعيدَ قوافِلَنا الأولَى | في المَجدِ ويبعَثَ أُمَّتَنَا[1]

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٩١- ٩٢).

الشكوي وجواب الشكوى

«حديث الروح»

لا بد لعالي الهمَّة أن يعرف قدْر نفسه وقدْر أمته.

□ يقول محمد إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

شكْوايَ أمْ نجْوايَ في هذا الدُّجى ... ونجومُ ليلي حُسَّدي أو عُوَّدي

أمسيتُ في الماضي أَعِيْشُ كأنما ... قطعَ الزَّمانُ طريق أَمْسِي عن غَدِي

والطيرُ صادحةٌ على أَفْنَانِهَا ... تبكي الرُّبى بأنينها المتجدِّدِ

قد طالَ تَسْهِيْدِي وطالَ نشيدُها ... ومَدَامِعِي كالطلِّ في الغُصْن النَّدِي

فإلى متى صَمْتِي كأنِّي زهرةٌ ... خَرْسَاءُ لمْ تُرْزَقْ بَراعَةَ مُنْشِدِ

❊❊❊

قَيْثَارَتي مُلِئَتْ بأنَّاتِ الجَوى ... لا بُدَّ للمَكْبُوْتِ مِنْ فَيَضَانِ

صَعدَتْ إلى شَفَتي بلابلُ مُهْجَتِي ... لِيَبِيْنَ عنها مَنطقي ولِسَاني

أنا ما تَعَدَّيْتُ القناعةَ والرِّضا ... لكنَّما هي قصةُ الأَشْجَانِ

أَشْكُوْ وفي فَمِيَ التُّرَابُ وإنَّما ... أَشْكُوْ مُصابَ الدِّين للدَّيَّانِ

يَشْكُوْ لكَ اللهمَّ قلبٌ لمْ يَعِشْ ... إلَّا لحمدِ عُلاكَ في الأَكْوَانِ

❊❊❊

قد كانَ هذا الكونُ بلْ وُجودِنا ... رَوْضًا وأزهارًا بغيرِ شَمِيْم

والوردُ في الأَكْمَامِ مجهولُ الشَّذَا ... لا يُرْتَجى وردٌ بغيرِ نَسِيم

بَلْ كَانَتِ الأَيَّامُ قبلَ وجودِنا ... لَيْلًا لظالِمِها وللمَظْلُوم

لَمَّــا أطَــلَّ مُحَمَّــدٌ زَكَــتِ الرُّبــى ... واخــضَرَّ في البُسْتَانِ كـلُّ هَـشِيْم

وأَذَاعَتِ الفِرْدَوسُ مَكْنُونَ الـشَّذا ... فــإذا الــوَرى في نُــضْرةٍ ونَعِــيم

مَنْ كان يَهتِفُ باسـم ذاتِـكَ قَبْلَنَـا ... مَــنْ كــان يَـدْعو الواحـدَ القهَّـارا

عَبَدُوا تَمَاثِيـلَ الـصُّخورِ وقدَّسُـوا ... منْ دُونِـكَ الأَحْجـارَ والأشـجارا

عَبَدُوا الكَوَاكبَ والنُّجومَ جَهَالَةً ... لَمْ يَبْلُغُــوا مِــنْ هَــدْيِهَا أَنْــوَارا

هَــلْ أَعْلَــنَ التَّوْحِيْــدَ داعٍ قَبْلَنَــا ... وهَدَى الشُّعُوبَ إليـكَ والأَنظـارا

كُنَّــا نُقَــدِّمُ لِلــسُّيُوفِ صُــدُورَنا ... لَمْ نَخْــشَ يَوْمًــا غَاشِــمًا جبَّــارا

قَدْ كَانَ فِي اليُوْنَانِ فَلْـسفَةٌ وفي الــ ... ـرُّومَانِ مَدْرَسَةٌ وكـانَ المُلْـكُ في سَاسَانِ

لَمْ تُغْــنِ عَــنْهُم قــوَّةٌ أو ثَــرْوَةٌ ... في المَــالِ أو في العِلْــم والعِرْفــانِ

وبِكُــلِّ أرض ســامِريٌ مَــاكِرٌ ... يَكْفِــي اليهــودَ مَؤُوْنَــةَ الــشَّيطانِ

والحِكْمَــةُ الأُولى جَــرَتْ وثنيَّــةً ... في الــصِّين أو في الهِنْـدِ أو طُـوْرانِ

نَحْنُ الذِيْنَ بِنُورِ وَحْيِكَ أَوْضَحُوا ... نَهْــجَ الهُــدى ومَعَــالِمَ الإِيــمَانِ

مَنْ ذا الذي رفعَ الـسُّيوفَ ليرفـعَ ... ـمَكَ فَوقَ هاماتِ النُّجوم مَنـارَا

(١) في الأصل هكذا، وفيه اضطراب، ويمكن أن يستقيم الوزن على حساب المعنى فيكون:

قد كان في «اليونان» و«الرومان» مَدْ ... رَسَةٌ، وكانَ المُلْكُ في ساسان

كنَّا جبالًا في الجِبَالِ وربَّما ... سِرْنا على مَوْج البِحارِ بحارَا

بِمَعابِدِ الإفْرَنْج كانَ أَذَانُنَا ... قبلَ الكَتائِبِ يفتحُ الأَمْصَارَا

لَمْ تَنْسَ إفريقِيَّةُ ولا صَحْراؤُها ... سَجَدَاتِنا والأرْضُ تَقْذِفُ نارَا

وكانَّ ظِلَّ السَّيْفِ ظِلُّ حديقةٍ ... خَضْراءَ تُنْبِتُ حوْلنا الأزْهَارا

CBEDEDCBCBED

لَمْ نخشَ طاغوتًا يحارِبُنا ولو ... نَصَبَ المنايا حَوْلنا أسْوارَا

نَدْعُو جِهارًا لا إلهَ سِوى الَّذي ... صنعَ الوجودَ وقدَّر الأقدارَا

ورؤوسُنا يا ربِّ فوقَ أكفِّنا ... نَرْجُو ثوابَك مَغْنَمًا وجِوارَا

كُنَّا نرى الأصنامَ مِنْ ذهبٍ ... فَنَهْدِمُهَا ونَهْدِمُ فَوْقَها الكفَّارَا

لو كانَ غيرَ المُسْلمينَ لَحَازَهَا ... كنْزًا وصاغَ الحِلْيَ والدِّيْنَارَا

CBEDEDCBCBED

كم زُلْزِلَ الصَّخْرُ الأشمُّ فما وهَى ... مِنْ بأسِنا عَزمٌ ولا إيْمَانُ

لو أنَّ آسادَ العَرِيْن تفزَّعتْ ... لَمْ يَلْقَ غيرَ ثَباتِنا الميدانُ

وكأنَّ نيرانَ المدافعِ في صُدُوْ ... رِ المؤمنينَ الرَّوحُ والرَّيحانُ

توحيدُك الأعلى جَعَلْنَا نَقْشَه ... نُورًا يُضيءُ بِصُبْحِهِ الأزمانُ

فغدتْ صدورُ المؤمنينَ مَصَاحِفًا ... في الكونِ مسطورًا بِها القرآنُ

CBEDEDCBCBED

مَنْ غيرنا هدمَ التماثيلَ الَّتي ... كانتْ تُقدِّسُها جَهَالاتُ الوَرى؟

حتَّى هَوَتْ صُوَرُ المعابِدِ سُجَّدًا ... لجلالِ مَنْ خَلقَ الوجودَ وصوَّرَا

وَمَـن الأُلى حَمَلُـوا بعـزم أكُفِّهـمْ باب المدينـةِ يـومَ غـزوَةِ خَيْـبَرَا [١]

أمَّـنْ رَمـى المَجُـوس فأطفِئـتْ وأبَانَ وجْـهَ الحـقِّ أبْلَـجَ نـيِّرًا [٢]؟

ومن الـذي بـذلَ الحيـاةَ رخيـصةً ورأى رِضَاكَ أعـزَّ شيءٍ فاشْـتَرَى

نحـنُ الَّـذين استيقظتْ بـأذانهم دُنيا الخليقـةِ مِـنْ تهاويـل الكَـرى

نحـنُ الَّـذين إذا دُعـوا لـصلاتهم والحربُ تسقي الأرض جامًا أَحْمَرا

جعلوا الوجوهَ إلى الحجاز وكبَّروا في مـسمع الـرُّوح الأَمـينِ فكـبَّرا

محمودُ مثـل إيـاز [٣] قـام كلاهمـا لـكَ بالخُـشُوع مطلِّيـا مُـسْتَغْفِرا

والعبـدُ والمَـوْلى عـلى قَـدَم التُّقـى سجدا لوجهِكَ خاشعينَ على الثَّرى

بَلَغـتْ نهايـةَ كـلِّ أرض خَيْلُنـا وكـأنَّ أبْحُرَهـا رمـالُ البَيْـدِ

في محفـل الأكـوانِ كـان هلالُنـا بالنَّصر أوضـحَ مـنْ هـلال العِيْـدِ

في كـلِّ موقعـةٍ رفعنـا رايـةً للمجـدِ تُعلـنُ آيـةَ التَّوحيـدِ

أُمَـمُ البرايـا لم تكـن مـن قبلنـا إلا عبيـدًا في إسـارِ عبيـدِ

بلغـت بنـا الأجيـالُ حرِّيَّاتهـا مـن بعـد أصـفادٍ وذلِّ قيـودِ

(١) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) هو السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي.

(٣) إياز: هو مولى السلطان محمود السبكتكين.

رُحْمـاكَ ربِّ هـل بغـير جِبَاهِنـا عُـرف السُّجودُ ببيتـكَ المَعْمُـورِ
كانت شِغافُ قُلوبِنا لكَ مُصْحفًا يحـوي جـلالَ كتابِـكَ المَسْطورِ
إنْ لمْ يكـنْ هـذا وفـاءً صـادقًا فـالخلقُ في الـدُّنيا بغـير شُعورِ
مـلأ الـشعوبَ جُنَاتُهـا وعُـصاتُها مِـنْ مُلْحِـدٍ عـاتٍ ومِـنْ مَغْـرورِ
فإذا السَّحَابُ جرى سَقاهُم غَيْثَه واختـصَّنا بـصواعِقَ التَّـدْمِيْرِ

قد هبَّتِ الأصـنامُ مـنْ بعـد البلى واستيقظت من قبل نفـخ الـصُّورِ
والكعبـة العليـا تـوارى أهلُهـا فكـأنَّهم مَـوْتى لغـير نُـشورِ
وقوافـلُ الـصَّحراءِ ضـلَّ حُـدَاتُها وغـدتْ منازِلُهـا ظِـلالَ قُبُـورِ
أنا ما حسَدْتُ الكافِرْينَ وقدْ غَدَوْا في أنعُـم ومواكِـب وقُـصورِ
بـلْ مِحنتـي ألَّا أرى في أُمَّتـي عمـلًا تقدِّمـه صَـداقَ الحُـوْرِ[١]

لـكَ البريَّـةُ حكمـةً ومـشيئةً أَعْيَـتْ مَـذَاهِبُها أُولي الألْبـابِ
إنْ شئْتَ أجريتَ الصَّحارى أنهُرًا أو شـئْتَ فالأنهـارُ مـوْجُ سرابِ
فـإذا دُهـي الإسـلامُ في أبنائـه حتَّـى انطـوَوْا في محنـةٍ وعـذابِ
فثـراؤُهُم فقـرٌ ودولـةُ مجـدهم في الأرض نهْـبُ ثعالـبٍ وذئـابِ
عاقَبْتَنـا عـدلًا فهـبْ لعـدوِّنا عـن ذنبـه في الـدَّهر يـوم عقـابِ

---

(١) الصداق: المهر.

عاشُوا بثَرْوتِنا وعِشْنا دُونَهم ... للموت بين الذُّلِّ والإملاقِ

الدِّين يَحْيا في سعادةِ أهله ... والكأسُ لا تبقى بغير السَّاقي

أين الذين بنار حبِّك أرْسَلُوا الـ ... أنوارَ بين محافل العشَّاقِ

سكَبُوا اللَّياليَ في أنينِ دُموعهم ... وتوضَّؤُوا بمدامع الأشواق

والشمسُ كانت من ضياءِ وُجُوههمْ ... تُهْدِي الصَّباحَ طلائعَ الإشراقِ

❊❊❊

كيفَ انطوتْ أيامُهم وهمُ الأُلى ... نشرُوا الهُدى وعَلَوْا مكانَ الفَرْقَدِ [(١)]

هجروا الدِّيارَ فأين أزمعَ [(٢)] ركبُهُمْ ... منْ يهتدي للقوم أو منْ يَقْتدي

يا قلبُ حسبُك لمْ تُلمَّ [(٣)] بطيفِهِمْ ... إلَّا على مصباح وَجْهِ مُحَمَّدِ

فازُوا من الدُّنيا بمجدٍ خالدٍ ... ولهم خلودُ الفوزِ يوم الموعِدِ

يا ربِّ أَلْهِمْنا الرَّشادَ فما لنا ... في الكَوْن غيركَ منْ وليٍّ مُرْشِدِ

❊❊❊

ما زالَ قَيْسٌ والغرامُ كعهدهِ ... وربوعُ ليلى في ربيع جمالِها

وهِضابُ نجدٍ من مَراعيها المَها ... وظباؤُها الخفراتِ ملءُ جبالِها

والعشقُ فيَّاضٌ وأُمَّةُ أحمدٍ ... يتَحَفَّزُ التاريخُ لاستقبالِها

لو حاولتْ فوق السَّماء مكانةً ... رفَّتْ على شمس الضُّحى بهلالِها

---

(١) الفَرْقَد: وهو نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريبًا، ولذا يُهتدي به، وهو المسمَّى «النجم القطبي».

(٢) أَزْمَعَ: قَصَدَ وتوجَّه.

(٣) لمْ تُلِمَّ: لم تنزل بهم.

ما بالُها تَلْقَى الجدودَ عواثرًا [١] وتصُدُّها الأيّامُ عن آمالِها

❊❊❊

هَجْرُ الحبيبِ رمَى الأحبةَ بالنَّوى وأصابهُمْ بتَصَرُّم الآمَالِ

لو قد مللنا العِشْق كانَ سبيلنا أو نستكين إلى هوى وضلال

أو نصنعَ الأصنام ثمَّ نبيعها حاشا الموحِّد أن يذلَّ لمال

أيامُ سلمانَ بنا موصولةٌ وتُقى أُويس في أذانِ بلال

❊❊❊

يا طِيْبَ عَهْدٍ كنتَ فيه مَنارَنا فبعثْتَ نور الحقِّ مِنْ فارانِ

وأسرْتَ فيه العاشقين بلَمْحَةٍ وسقيتهم راحًا بغير دِنَانِ

أحرقْتَ فيه قلوبَهم بتوقُّدِ الإيمان لا بتَلَهُّب النِّيرانِ

لم نبقَ نحنُ ولا القُلُوبُ كأنَّها لم تَحْظَ مِنْ نارِ الهوى بدُخَانِ

إنْ لمْ يُنَرْ وجهُ الحبيب بوصلِهِ فمكانُ حُزْنِ القلبِ كلُّ مكانِ

❊❊❊

يا فرحة الأيام حين نرى بها روض التَّجلِّي وارفَ الأغصان

ويعود محفلُنا بحسنك مسفرًا كالصُّبح في إشراقه الفينان

قد هاجَ حزني أنْ أرى أعداءنا بين الطِّلا [٢] والظِّلِّ والألحان

ونعالجُ الأنفاس نحن ونصطلي في الفقرِ حينَ القومُ في بستان

---

(١) الجُدود العَواثِر: الحظوظ الخائبة.

(٢) الطِّلا: الخمر.

أشْرِقْ بنـــورِك وابعـــثِ الـــبرق القـــديمَ بومـــضةٍ لِفَرَاشـــكَ الظَّمْـــآنِ

ـــــــــ

أشــواقُنا نحــوَ الحجــازِ تطلَّعــت كحنــينِ مُغْــتربٍ إلى الأوطــان

إنَّ الطيورَ وإنْ قَصَصْتَ جناحها تــسمو بفطرتهـــا إلى الطَّــيران

قيثـــارتي مكبوتـــةٌ ونـــشيدُها قد مـلَّ مـن صـمتٍ ومـنْ كـتمانِ

واللَّحنُ في الأوتـار يرجُـو عازفًـا ليبـــوحَ مـــن أسراره بمعـــانِ

والطُّور [(١)] يرتقبُ التجلِّي صارخًا بهـوى المَـشُوْقِ ولَـــهْفَةِ الحَـيْرانِ

ـــــــــ

أكبادُنـا احترقـتْ بأنَّـات الجَـوى ودماؤُنـــا نهـــرُ الـــدُّمُوع القـــاني

والعطرُ فاض من الخمائـل والرُّبـا وكأنَّـــه شـــكوى بغـــير لـــسان

أو ليس منْ هَوْلِ القيامـة أن يكـو ن الزَّهـرُ نمَّامًـا [(٢)] عـلى البُـستانِ

النَّمـــلُ لا يخـــشى ســـليمانًا إذا حَرَسَـــتْ قُـــراه عنايـــةُ الـــرَّحمن

أرشدْ براهِمَـةَ الهُنـودِ ليرفعـوا الــ إسـلامَ فـوقَ هياكـلِ الأوْثـانِ

ـــــــــ

ما بالُ أغصان الصَّنوبر قـد نـأت عنهــا قَمَارِيُّهَــا [(٣)] بكــلِّ مكــانِ

وتعرَّتِ الأشجارُ من حُلـل الرُّبـا وطيورهـــا فـــرَّت إلى الوديـــانِ

---

(١) الطُّوْر: هو الجبل الذي تجلَّى اللهُ عليه لموسىٰ عليه الصلاة والسلام وكلَّمه.

(٢) نمَّامًا: هو مَن يُزيِّن للناس الكلام بالكذب.

(٣) القماريُّ: هو ضرب من الحمام مطوَّق حسن الصوت.

يـــا ربِّ إلَّا بُلْـــبُلًا لم ينتظِـــرْ وحيَ الرَّبيع ولا صَبَا[1] نيْسانِ

ألحانُـه بحـــرٌ جـــرى مـــتلاطِمًا فكأنَّـه الحـــاكي عـــن الطُّوفـــانِ

يا ليت قـومي يسمعون شـكاية هي في ضميري صرخـةُ الوجـدانِ

جواب الشكوى

□ ثم نظَم محمد إقبال بعد هذه القصيدةِ قصيدةً أخرى، وضَّح فيها تقصير المسلمين، وإهمالهم لدينهم، وعدم إتقانهم أمر دنياهم، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

كـلام الـرُّوح لـلأرواح يَسْري وتدركـه القلـوب بـلا عنـاءِ

هتفـتْ بـه فطـارَ بـلا جنـاح وشـقَّ أنينُـه صـدرَ الفـضاءِ

ومعدنُـــه تُـــرابيٌّ ولكِـــنْ جَـرَتْ في لفظِـهِ لغـةُ الـسماءِ

لقـد فاضـت دمـوع العِـشق فيـه حـديثًا كـانَ عُلْـويَّ النـداءِ

فَحَلَّـقَ في ربـا الأفـلاكِ حتَّـى أهـاجَ العـالمَ الأعْـلَى بُكـائِي

تحـاوَرَتِ النُّجـومُ وقُلْـن صـوتٌ بقـرب العـرش موصـول الـدُّعاءِ

وجاوبــت المجــرَّة عــلَّ طيفًــا سَرَى بـين الكواكـبِ في خَفَـاءِ

وقـال البـدرُ هـذا قلـبُ شـاكٍ يُواصـل شـذْوهُ عنـد المـساءِ

ولم يعرفْ سـوى رضـوان صـوتي ومـا أحـراه عنـدي بالوفـاء

ألمْ أكُ قبـلُ في جنّـاتِ عَـدْنٍ فـأخرجني إلى حـينٍ قـضائي

---

[1] صبَا: ريح طيِّبة تهبُّ من جهة المشرق.

وقيـل هـو ابـن آدم في غُـرُورِ ... تجـاوزَ قـدْرَه دونَ ارْعِـواءِ[١]

لقـد سَـجَدَتْ ملائكـةٌ كـرامٌ ... لهـذا الخلـق مـن طـينٍ ومـاءِ

يُظَـنُّ العِلْـمُ في كيـفَ وكَـمْ ... وسرُّ العَجْـز عنـه في انطـواءِ

ومـلءُ كُؤوسِـهِ دمـعٌ وشـكوى ... وفي أنغامـهِ صـوتُ الرَّجـاءِ

فيـا هـذا لقـدْ أبلغـتَ شـيئًا ... وإن أكثـرتَ فيـه مِـنَ المِـراءِ

❊❊❊

عَطايانـا سـحائبُ مُرْسَـلاتٍ ... ولكـنْ مـا وجـدنا السَّـائلينا

وكـلُّ طريقنـا نَـوْرٌ[٢] ونـورٌ ... ولكـن مـا رأينـا السَّـالكينا

ولم نجـدِ الجـواهرَ قـابلاتٍ ... ضـياءَ الـوحي والنُّـور المبينـا

وكـان تـراب آدم غـيرَ هـذا ... وإنْ يـكُ أصـله مـاءً وطينـا

ولو صـدقوا ومـا في الأرض نهـرٌ ... لأجرينـا السَّـماء لهـم عُيونـا

❊❊❊

وأخـضعنا لِمُلْكِهِـم الثُّريَّـا ... وشـيَّدنا النُّجـوم لهـم حُـصونا

ولكـنْ أَلْـحَدُوا في خـيرِ ديـن ... بنـى في الـشَّمس مُلْـكَ الأوَّلينـا

تُـراثُ محمَّـدٍ قـد أهملـوه ... فعاشـوا في الخلائـق مُهْمَلِينـا

تـولَّى هـادمُو الأصـنام قُـدْمًا ... فعـاد لهـا أولئـك يـصنعونا

أبـاهم كـان إبـراهيمَ لكـن ... أرى أمثـال آزَرَ[٣] في البنينـا

---

(١) ارعواء: كف وارتداع.

(٢) النَّور: الزهر.

(٣) آزر: اسم والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان ينحت الأصنام حِرْفَةً.

وفي أَسْلافِكم كانتْ مزايا بكلِّ فم لذِكراها نَشِيْدُ
تضُوعُ[١] شقائقُ الصَّحراءِ عِطْرًا بريَّاها وتبتسمُ الورودُ
فهلْ بقيتْم محاسنُهم لديكم فيجمل في دلالِكم الصُّدودُ
لقد هاموا بخالقهم فناءً فلم يكتب لغيرهِمُ الخلودُ
وكوثرُ أحمد منكم قريبٌ ولكنْ شوقكم عنه بعيدُ

***

وكمْ لاح الصَّباحُ سَنًا[٢] وبُشْرى وأذَّنتِ القَماري والطُّيورُ
وكبَّرت الخمائل في رباها مطلِّيةً فجاوبها الغديرُ
ونوم صباحكم أبدًا ثقيلٌ كأنَّ الصبح لم يدركه نورُ
وأضحى الصَّوم في رمضان قيدًا فليس لكم به عزمٌ صبورُ
تمدَّن عصرُكم جمع المزايا وليس بغائبٍ إلا الضمير

***

لقد ذهب الوفاءُ فلا وفاءً وكيف ينالُ عهدي الظَّالمينا
إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانٌ ولا دُنْيا لمن لم يُحْي دِينا
ومَنْ رَضيَ الحياةَ بغير دين فقدْ جعلَ الفناء لها قَرينا

حِرْفَةً.

(١) تَضُوعُ: تفرح وتنتشر.
(٢) السَّنا: الضياء.

وفي التوحيد للْهِمَم اتِّحادٌ ولَنْ تبنوا العُلا مُتفرِّقينا

تساندتِ الكواكبُ فاستقرَّتْ ولولا الجاذبِيَّةُ ما بقِينا

꧁꧂

غَدَوْتُمْ في الدِّيار بلا ديارِ وأنتم كالطُّيورِ بلا وكُورِ

وكلُّ صواعق الدُّنيا سِهامٌ لبيدَرِكم وأنتم في غرورِ

أهذا الفقر في علم ومالٍ وأنتم في القطيعةِ والنُّفورِ

وبيعُ مقابرِ الأجدادِ أضحى لدى الأحفادِ مدعاةُ الظُّهورِ

سَيُعْجَبُ تاجرو الأصنام قُدْمًا إذا سمعوا بتجَّار القبورِ

꧁꧂

مِن المتقدِّمين إلى المعالي على نهج الهداية والصَّواب

ومِن جبهاتهم أنوارُ بيتي وفي أخلاقهم يُتلى كتاب

أما كانوا جُدُودكم الأوالي بناةَ المَجْد والفنِّ العجابِ

وليس لكم من الماضي تراثٌ سوى شَكْوَى اللُّغوب[1] والاكتئابِ

ومن يَكُ يومهُ في العيش يأسًا فما غَدُهُ سوى يوم العذابِ

꧁꧂

أتشكُو أنْ ترى الأقوامَ فَازُوا بمجدٍ لا يراه النَّائمونا

مَشَوْا بهدي أوائِلِكم وجدُّوا وضيَّعتم تراث الأوَّلينا

أيُحْرمُ عاملٌ وردَ المعالي ويسعدُ بالرُّقيِّ الخامِلُونا

---

(١) اللُّغوب: التعب والإعياء.

ألـيسَ مـن العدالـة أنَّ أرْضِي يكـون حـصادُها للزَّارعينـا

تَجلِّي النُّـور فـوق الطُّـور بـاقٍ فهل بقيَ الكليمُ (١) بطُـورِ سِـينا؟

ﭢﭣﭤﭥ

ألمْ يُبْعَـث لأُمَّـتكم نبـيٌّ يوحِّـدكم عـلى نهـج الوئـام

ومـصحفُكم وقبلـتُكم جميعًـا منـارٌ للأخـوة والـسَّلام

وفـوق الكـل رحمـنٌ رحـيمٌ إلـهٌ واحـدٌ ربُّ الأنـام

فـما نـارُ ألفـتكم تـولَّى وأمـسيتُم حيـارى في الظَّـلام

وحـسن اللُّؤْلُـؤ المكنـونِ رهـنٌ صـوغ العِقْـد في حُـسْن النِّظـام

ﭢﭣﭤﭥ

وكيـف تغـيَّرتْ بكـمُ اللَّيـالي وكيـف تفرَّقـت بكـمُ الأمـاني

تـركتم ديـنَ أحمـدَ ثـم عُـدْتُم ضـحايا لِلْهـوى أو للهـوان

رقيُّ الشَّعبِ قـد أضـحى لـديكم تقـرِّرُه صـلاحيةُ الزمـانِ

وكيـف تُقـاسُ أوهـامٌ ولغـوٌ بحكمـة منـزلِ الـسَّبع المثـاني

أرى نـارًا قـد انقلبـت رمـادًا سـوى ظـل مـريض مـن دخـانِ

ﭢﭣﭤﭥ

أَرى الفقـراءَ عبَّـادًا تقـاةً قيامًـا في المـساجد راكعينـا

هـم الأبـرارُ في صـوم وفطـرٍ وبالأسـحارِ هُـمْ يَـسْتَغْفِرُونا

وليس لكـم سـوى الفقـراء سـترٌ يـواري عـن عيـوبكم العُيُونـا

---

(١) الكليم: لقب سيدنا موسىٰ عليه والصلاة والسلام.

أضــلَّت أغنيــاءكم الملاهــي | فهــم في ريــبهم يتردَّدونــا
وأهـلُ الفقـر مـا زالـوا كنـوزًا | لـــدينِ الله ربِّ العالمينـــا

أرى التفكـيرَ أدركـهُ خمــولٌ | ولم تبـقَ العــزائمُ في اشـتعال
وأصبحَ وَعْظُكم مـن غـير سِـحْرٍ | ولا نــورٌ يُطِــلُّ مــن المقـال
وعنـد النَّـاس فلـسفةٌ وفكـرٌ | ولكـن أيـن تلقـين (الغـزالي [١])
وجلجلَـةُ الأذان بكـلِّ أرض | ولكـن أيـن صـوتٌ مـن بـلالِ
منـائرُكم علـتْ في كـلِّ حـيٍّ | ومـسجدُكم مـن العبَّـاد خـالي

فـأَينَ أئمـةٌ وجنـودُ صـدقٍ | تهـابُ شَـبَاةَ [٢] عـزمهمُ الحـرابُ
إذا صـنعوا فـصنعهمُ المعـالي | وإنْ قـالوا فقـولهُم الـصَّوابُ
مـرادُهم الإلـهُ فـلا ريـاءٌ | ونهجهـمُ اليقـين فـلا ارتيـابُ
لأمَّـتهمْ وللأوطـانِ عاشـوا | فلـيس لهـم إلى الـدُّنيا طِـلابُ
كمثل الكأس تُبْـصِرُها دِهاقًـا [٣] | ولـيس لأجلهـا صُـنِع الـشَّرابُ

جهـادُ المـؤمنين هـمْ حيـاةٌ | ألا إنَّ الحيـاةَ هـيَ الجهـادُ

(١) الغزالي: هو أبو حامد محمد الغزالي، أحد أعلام المسلمين، لقب «بحجة الإسلام» صاحب مصنفات سائرة، توفي عام ٥٠٥هـ بمدينة «طوس».
(٢) شَبَاةَ، جمعها الشِّبَا والشبوات: شباة كل شيء، أي حدُّ طرفه.
(٣) دِهاق: مُمْتلئ، يقال: كأس دهاق، أي ممتلئ.

عقائدُهم سواعدُ ناطقاتٌ وبالأعمال يثبتُ الاعتقادُ

وخوفُ الموتِ للأحياء قبرٌ وخوفُ الله للأحرار زادُ

أرى ميراثهم أضحى لديكم مضاعًا حيثُ قد ضاعَ الرَّشادُ

وليس لوارثٍ في الخير حظٌّ إذا لم يحفظِ الإرث اتِّحادُ

***

لأيِّ مآثر القوم انْتَسَبْتُم؟ لتكتسبوا فخارَ المُسلمينا

فأين مقامُ ذي النُّورين[١] منكم ودولةُ عزِّه دُنيا ودِيْنَا

وفقرُ عليٍّ الأواب هلا ربحتم فيه كنزَ الفاتحينا

أقمتمْ في الذُّنوب وفي الخطايا وتغتابون حتَّى الصَّالحينا

وهم ستروا عيوب الخلق فضلًا وإن كانوا أبرَّ المُتَّقينا

***

أريكةُ قيصَرٍ[٢] وسريرُ كِسرى[٣] قد احْتَمَيا بملكهم العَمِيم

وأنتم تطمحون إلى الثُّريا بلا عزم ولا قلبٍ سليم

تضيعون الإخاء وهم أقاموا صروحَ إخائهم فوق النُّجوم

طلبتُمْ زهرةَ الدنيا وعدْتُم بلا زهرٍ يضوعُ[٤] ولا شميم

وكان لديهم البستان محضًا وهم أصحاب جنات النَّعيم

(١) هو لقب الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.
(٢) قيصر: لقلب ملوك الروم.
(٣) كسرىٰ: لقب ملوك الفرس.
(٤) يَضُوع: يفوح وينتشر.

يُعيدُ الكونُ قصَّتهم حديثًا ... ويُنشئ منْ حديثهمُ الفنونا
فكمْ نَزَحُوا عنِ الأوكارِ شَوْقًا ... إلى التَّحْلِيقِ فَوْقَ العالمينا
ويأسُ شبابكم أدمى خطاهم ... فظنُّوا فيه بالدِّين الظُّنونا
هي المدنيَّةُ الحمقاءُ ألقتْ ... بهم حول المذاهب حائرينا
لقد صنعتْ لهم صنمَ الملاهي ... لتحجبَ عنهم الحَرَمَ الأمينا

لقد سئم الهوى في البِيْدِ قَيْسٌ [1] ... وملَّ من الشِّكاية والعذابِ
ويحاولُ أن يُباح العِشْقُ حتى ... يرى ليلاه [2] وهي بلا حجابِ
يريدُ سفور وجهِ الحُسن لَّما ... رأى وجهَ الغرام بلا نقابِ
فهذا العهد أحرقَ كلَّ غرس ... من الماضي وأغلقَ كلَّ بابِ
لقد أفنت صواعقُه المغاني ... وعاثتْ[3] في الجبال وفي الهضابِ[4]

هي النَّارُ الجديدة ليس يُلقى ... لها حطبٌ سوى المَجْدِ القديم
خُذوا إيمانَ إبراهيمَ تَنْبُتْ ... لكمْ في النَّار روضاتُ النَّعيم
ويذكو من دم الشهداء وردٌ ... سَنِيُّ العطر قدسيُّ النَّسيم

(١) قيس: من أشهر عشاق العرب.
(٢) ليلى: من أشهر عاشقات العرب.
(٣) عَاثَتْ: أفسدتْ.
(٤) هَضاب: جمع هَضْبة، وهو جبل منبسط ممتد على وجه الأرض.

ويلمـعُ في سـماء الكـون لـونٌ	مـن العُنَّـاب مخضوبُ الأديـم
فلا تفزعْ إذا المَرْجَانُ[١] أضحى	عقـودًا للـبراعم والكُـروم

فكَـمْ زالـتْ ريـاضٌ منرباهـا	وكم بادتْ نخيلٌ من في البـوادي
ولكـنْ نخلـةُ الإسـلام تنمـو	عـلى مـرِّ العواصـف والعـوادي
ومجـدُك في حِمَـى الإسـلام بـاقٍ	بقـاءَ الـشَّمس والـسَّبع الـشِّدادِ
وإنَّـك يوسـفُ في أيِّ مـصر	يـرى كنعانَـه[٢] كـلَّ الـبلادِ
تـسير بـك القوافـلُ مُـسرعاتٍ	بـلا جـرس ولا ترجيـع حَـادِي

ضـياؤك مـشرقٌ في كـلِّ أرض	لأنـكَّ غـير محـدودِ المكـانِ
بَغَـتْ أمـمُ التَّتَـار[٣] فأدركتْها	مـن الإيـمان عاقبـةُ الأمـانِ
وأصـبح عابـدو الأصـنام قُـدْمًا	حماةَ الحِجْر[٤] والـرُّكن اليماني[٥]
فـلا تجـزع فهـذا العـصر ليـل	وأنـت الـنَّجم يـشرق كـلَّ آنِ
ولا تخشَ العواصفَ فيـه وانهـضْ	بـشُعلتك المـضيئةِ في الزَّمـانِ

(١) المَرْجَان: صغار اللؤلؤ.

(٢) كنعان: أرض فلسطين.

(٣) التَّتَار: قبائل كانت تسكن في أواسط آسيا، أصلهم من المغول، اشتهروا بغزواتهم، وأسلم كثير منهم بعد هجومهم علىٰ بغداد.

(٤) الحجْر: يريد به الشاعر حجْر الكعبة.

(٥) الركن اليَمَاني: هو ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود.

أعـدْ مـن مـشرقِ التَّوحيـد نـورًا يـــتمُّ بـــه اتِّحـــاد العالمينـــا
وأنــت العطــرُ في روض المعــالي فكيـــفَ تعـــيش محتبـــسًا دفينـــا
وأنـــت نـــسيمهُ فاحمـــلْ شـــذاه ولا تحمـــلْ غبـــارَ الخاملينـــا
وأرســل شــعلةَ الإيـمان شمــسًا وصُـــغْ مِـــنْ ذرةٍ جـــبلًا حـــصينا
وكــن في قمَّــةِ الطُّوفــان موجًــا ومُزنًـــا يمطـــر الغيـــث الهَتُونـــا

فباســم محمـــدٍ شـــمسِ البرايـــا أقيمـــت خيمـــةُ الفلـــك المُنـــيرِ
تَلألأَ في الريــاض وفي الــصحارى وفـــوقَ المـــوج والـــسيلِ المغـــيرِ
ونَـــبْض الكـــونِ منـــه مُـــسْتَمِدٌّ حرارتَـــه عـــلى مـــرِّ العـــصورِ
ومـــن مـــراكش (١) يغـــزو صـــداه رُبُـــوعَ الـــصِّين بالـــصَّوت الجهـــيرِ
ومـــا مـــشكاةُ هـــذا النُّـــور إلا ضـــميرُ المـــسلم الحـــرِّ الغَيُـــورِ

ورفـــعُ الـــذِّكر للمختـــار رفـــعٌ لقـــدرك نحـــو غايـــاتِ الكـــمالِ
فكن إنسانَ عـيْنِ الكـون واشْـهد مقامـــك عاليًـــا فـــوقَ المعـــالي
بخنجرِ عزمـك الوثَّـاب لاحـت عـــلى الأعـــلام أنـــوارُ الهـــلالِ
نـــداؤك في العنـــاصر مـــستجابٌ إذا دوَّى بـــصوتٍ مـــن بـــلالِ
وعقلُـك في الخطـوب أجـلُّ درع وعـــشقُك خـــير ســـيفٍ للنِّـــضالِ

(١) مراكش: مدينة تقع في المغرب الأقصى.

خلافـةُ هـذه الأرضِ استقرَّت بمجـدك وهـو للـدنيا سـماءُ
وفي تكبيرهـا القـدسيِّ يبـدو صـغيرًا كـلُّ مـا ضـمَّ الفـضاءُ
فيـا مـنْ هـبَّ للإسـلام يـدعو وأيقـظ صـدقَ غيرتـه الوفـاءُ
سـترفعُ قَـدْرَك الأقـدارُ حتـى تـشاهد أنَّ سـاعدك القـضاءُ
وقيل لـكَ احْـتكِمْ دنيـا وأخـرى وشـأنك والخلـودَ كـما تـشاءُ [1]

□ولله در القائل:

أيهـا الـساقي! مـن النـور اسـقني وآسِ في قلبـي جِـراح الـزَّمَن
شـعلةُ المـاء التـي مـن زمـزم قيـصرٌ يعنـو لهـا كالخـدم
مُقلـةُ المُبـصر منهـا أبـصرُ وشِـعابُ الفِكـر منهـا أنـور
تجعـلُ الريـشةَ طـودًا قـاهرا وتُـري الثعلـب ليثًـا زائـرا
هـيَ تـسمو للثُريَّـا بـالثَّرى وتعـي القطـرةُ منهـا أبحـرا
املأ الكـأس بـصفوِ ونـيِّرِ نـوِّرِ الفكـرَ بنـورِ القمـرِ [2]

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٩٣- ١١٠).
(٢) «ديوان إقبال» (١/ ١٢٩).

حياة الذات بعلو همتها بتخليق المقاصدِ وتوليدها:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنَّــما يُبقــي الحيــاة المقــصدُ ... جَـرَسٌ في ركبهـا مـا تَقْـصد [1]

سِرُّ عــيش في طِــلاب مُـضمَر ... أصــلُه في أمــل مــستترُ

أُحــي في قلبــكَ هــذا الأمــلا ... لا يَحُــلُ طينُــك قــبرًا مُهمَــلا

يخفِقُ القلـب بـه بـين الـصدورْ ... هــو في صــدرك مــرآة تُنــير

يهـبُ الـتربَ جَناحًــا يَـصعَد ... ولموسى العقـل خَـضْرًا يُرْشِـد [2]

إنــما يحيــا الفــؤادُ الآمــلُ ... وإذا حــيَّ يمــوت الباطــلُ

فــإذا عــيّ بتخليــق المُنَــى ... هِــيضَ سِــقطاه وأودَى وَهَنـا

أمــلُ الــذاتِ لهيــبٌ يَـستعِرْ ... أو هــو المــوج الــذي لا يـستقِرْ

وهَــقُ المقــصودِ حَبْــل الأمــل ... إنَّــه خَــيْط كتــاب العمــل [3]

ومـمــاتُ الحــيِّ فقــدان الرجــاءْ ... يُطْفـئُ الـشعلةَ فِقـدانُ الهـواء [4]

---

(١) المقصد مثل جرس القافلة ينبهها للسير.

(٢) هو من العقل كالخَضِر من موسىٰ يهديه ويبين له الحقائق. في بيان: أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها.

(٣) الوهق: حبل فيه أنشوطة تمسك به الخيل المسيبة، ويصاد به. وخيط الكتاب: الخيط الذي تجمع به أوراقه بعضها إلىٰ بعض.

(٤) «ديوان إقبال» (١/ ١٣٦).

□ وعن دناءَة الهمم يقول:

جوهرُ الآسادِ أضحى خزَفَا — حين صار القوتُ هذا العلَفا
ذلكَ القلبُ عن الصَّدر نأى — جوهر المرأة فيها صَدِئا
فذوى في القلب شوق العَملِ — وهُيامُ السَّعي خَلْفَ الأمل
ذهب الإقدامُ والعزمُ الأليلْ — والسَّنا والعزُّ والمجدُ الأثيلْ
بُرثن الفولاذِ فيها قد وَهَنْ — واستكان القلب في قبرِ البدن
ونما الخوفُ بنقص المَنَّة — قَطَعَ الخوفُ جذور الهمَّة
كلُّ داءٍ في سقوط الهمم — يجعل الأحياء مثل الرِّمَم
نامت الأسد بسحر الغنم — سمَّتِ العجزَ ارتقاءَ الأُمم[1]

وقال في الخَوَر والعجز:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

يحسَب العجزَ قُنوعًا خانِعُ — لصروف الدهر ذلٌّ طائِعُ
قاطعٌ سُبلَ الحياة الخَوَرُ — قَلْبُه خوفًا وكِذْبًا يُضْمرُ
قَلْبُهُ مِنْ كلِّ خيرٍ فارغُ — ليثه في كلِّ خبثٍ والغُ
في كمينٍ راصدٌ هذا اللئيمْ — فاحذرنْ يا صاحبَ العقل السليمْ
احذرنْ يا صاحِ مِنْ تزيينه — إنَّه الحِرباء في تلوينه
إنَّه يخفى على أهل النظر — لَبَّسَ الحقّ عليهم واستتر

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ١٤٦ - ١٤٧).

في ثيـاب اللـين حينًا يظهـرُ ... وهـو حينًا في اتـضاعٍ يُستَرَ
وهـو طَـورًا في ثيـابِ المُجبـرِ ... وهـو طـورًا في حجـابِ القَـدَر
وهـو حـينً في لبـاس الـتَّرف ... يُلبسُ الصِّحةَ ثوبَ الدَّنَف (١)

وعالي الهمّة:

□ يقول عنه إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِي رمـاد اليـوم منَّـا ترقُـدُ ... شُـعلةٌ يرمـي بها الكـونَ الغـدُ
روضـةٌ تُـضمرها أكمامُنـا ... ضاءَ مـن صبح غـدٍ أبـصارُنا (٢)
أنـت يـا فـارسَ طِـرف الـزَّمن! ... أنـت يـا نـورًا لعـين الممكـنِ
موكـبَ الإنـشاءِ هيَّـا زيِّـن ... وتمكـنْ في سـواد الأعْـيُن
قُـمْ فـسكِّن مـن ضَـجيج الأمـم ... وامـلأ الآذان زهـرَ الـنَّغَم
جـدِّدَنْ في النـاس قـانون الإخـاء ... وأدِرهـا كـأسَ حـبٍّ وصـفاءْ
أبلـغ النـاس رسـالاتِ الـسَّلامْ ... وأعـدْ في الأرض أيـام الوئـام
مـنْ بنـي الإنـسان أنـت الأمـلُ ... أنـت مـنْ ركـب الحيـاة المنـزلُ
أذبْلَـتْ كـفُّ الخريـف الـشجرا ... فاغـدُ في الـروض ربيعًـا نـضِرا
نحن مـن فيـضك نـسمو للقُلَـلْ ... في جهاد الكون نمضي كالشُّعل (٣)
أيُّهـا الغافـلُ عـمَّا حُمِّـلا ... أنـت في الكـونين أعـلى منـزلا

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ١٥٨ - ١٥٩).
(٢) الأكمام جمع كِم:الزهرة قبل أن تنفتح، يقول: إن الكم عندنا سينفتح عن روضة، وعيوننا تضيء بنور المستقبل.
(٣) «ديوان إقبال» (١/ ١٥٧ - ١٥٩).

افــتحنْ عينــا وأُذنًــا وفــما ... تُبْــصِرِ الحــقَّ طريقًــا مُعلَــما [1]

قوة الذات وعلو الهمة:

قــوةَ الــذَّات احفظنهــا أبــدا ... وكــنِ الألمــاس لا تقطـر النـدى

أنـضج القطــرة كــالطَّود تُــرى ... حــاملًا غــيمًا مُفيــضًا أنهــرا

أثبــتِ الــذَّات وفيهــا حَقِّــق ... فِــضةً كــن بالتئــام الزِّئبــق [2]

ومــنَ الــذَّات أَبِــنْ أسرارهــا ... حــرِّكَنْ عــن لحنهــا أوتارهــا [3]

قصة الألماس والفحم:

قــصةٌ أخــرى بهــا أُدلي إليــك ... يفــتح الحــقُّ بهــا بابًــا عليــك:

قــال للألمــاس فحــمُ المعــدِنِ: ... يــا حليــفَ النُّــور طــول الــزَّمن!

نحــن صــنوان نَمانــا والــدُ ... أصــلُنا في الكــون أصــلٌ واحــدُ

وعــلى التيجــان أنــت الزينــةُ ... وأنــا في الــتُّرب حظِّــي الذلَّــة

لــك حــسنٌ في المرايــا يــسطعُ ... وأنــا مِــنْ كــفٍّ تــرب أضــيَع

مـن ظلامـي قـد أضـاء المجمـرُ ... ورمــــادًا آض فيَّ الجـــــوهر

مَــوطئ الأقــدام بــين البــشر ... قــدرموا في مهجتــي بالــشَّرَر

إنَّ حــالي ببكــاء لَحَــرى ... هل ترى أصلي وفصلي هل تـرى؟

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ١٥٧ - ١٥٩).

(٢) كن في صلابة الفضّة باجتماع الذرّات المضطربه كالزئبق.

(٣) «ديوان إقبال» (١/ ١٦٣).

إنَّنـي مـوج دُخـانٍ يُعقَـد ... كـلُّ مـا فيَّ شرارٌ يَـصعدُ
ومـن الأنجـم فيـكَ الرَّونـقُ ... كـلُّ جنـبٍ فيـك نـورٌ يُـشرق
تـارةً نـورٌ بعينَـيْ قيـصرا ... تـارةً فـصٌّ يـزين الخِنجـرا

ꕥꕥꕥ

قـال: فاسمع يـا رفيقي وافهما ... ينـضج الـتربُ فيغـدو خاتَمـا
شـنَّ فـيما حولـه حربًـا ومـرّ ... وغـدا بـالحرب صـلبًا كـالحجر
هـيكلي مِـنْ نـضجه قـد نـوَّرا ... وبـصدري كـم شـعاعِ أسـفرا
أنـت مِـنْ ضَـعفٍ وكيـان تنفَـق ... وبلـيـنٍ في قـوام تُحْـرَق
اهجُـرنْ خوفًـا وغـمًّا لا تهُـن ... وانضَجَنْ كالصَّخر والألماس كُـن
مـن أجـاد الـسعي والأخـذ معا ... فهـو في الـدَّارين بـدرٌ طلعـا
وبحِجْـر الكعبـةِ انظـر حجـرا ... كـانَ مـنْ قبـلُ ترابًـا حُقِـرا
جـاوَزَ الطـورَ عـلاءً لا جـرم ... ورَجَـتْ تقبيلَـهُ كـلُّ الأمـم
قـوةُ الأحيـاء عـزٌّ ونجـاهْ ... والونَى والذلُّ منْ ضعفِ الحياه (١)

ꕥꕥꕥ

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٦٣- ١٦٤).

محاورة نهر الجنّح وجبل هما لا.. ومعنى دوام حياة الأمَّة في التمسُّك بسنَّتها:

جاش نهر الجنج يومًا جائلا ... في سفوح من هِمالا قائلًا:[1]

صاغك الحقُّ نجيًّا للسَّماء ... وحمى رجلَك سيرًا في العراء

قُيِّدت رجلُك عن سيرٍ فما ... هيبةٌ فيك ورأسٌ قد سما؟

إنما العيش مسيرٌ وُصلا ... وحياةُ الموْج في أن يجفِلا

غضِبَ الطَّودُ لقول النَّهَرِ ... فرمت أنفاسُه بالشررِ

قال: يا مرآة وجهي! ويلكا ... كم حوى صدري بخارًا مثلكا

إنَّ هذا السَّيْرَ فيهِ الحَيْنُ لكْ ... مَنْ يزُل عنْ نفسه يومًا هلكْ

بمقَامٍ لكَ هلَّا تأبَه! ... أفخارٌ بالرَّدى يا أبلهُ!

يا وليد الفَلك المرتفعِ! ... صِرْتَ دونَ السَّاحل المتَّضعِ

قد وهبتَ النَّفس بحرًا غاصبا ... وأبحت الرُّوح لصًا سالبا

كُنْ كوردٍ في رُباه عاكفِ ... لا تَرُم للريح كفَّ القاطف[2]

إنَّما العيشُ نماءٌ في المكانْ ... وبروضِ الذَّات قطفُ الأقحوانْ

في دهورٍ لم تُزحزحْ أرجُلي ... أتُراني زائلًا عن منزلي؟

---

(١) الخطاب من نهر الجنج لجبل هما لا، وخلاصة المحاورة: أن النهر يعيِّر الجبل بالعجز عن المسير فيجيب الجبل بأن البقاء في ثبات الكائن في مقامه، وأنَّ الفناء في زواله عن مقوماته. وهذه المحاورة تصوِّر رأي إقبال في إثبات الإنسان ذاته وتقويتها، وأنَّ نفيها، أو الغفلة عنها يودي بها.

(٢) الريح: الرائحة. لا ترم أن يقطفك الناس لتفوح رائحتك.

وإلى الأفــلاك قــدِّي يــصعد فعــلى ســفحي الثُّريــا ترقــد

أنــت تَفنــى في خِـضَمٍّ خِـضرِمِ وقــلالي مــسجدٌ للأنجــمِ

وبعينـــي لاح سرُّ الفلــــكِ وبــسمعي طــيرانُ المَلَــكِ

وبنـــارِ الجـــدِّ طـــولَ الـــدَّهَر قد حوى صدري صنوفَ الجوْهرِ

«صخرٌ قلبي وناري في الصَّخر لــيس للــماء إلى نــاري ممــرّ»

قطـرةٌ إن كنـت فـاحفظ نفـسكا جاهـد الأمـواج واجنُـب يأسـكا

وابتـغِ النُّـور وكـنْ درًّا يُـضيءْ ثـم كـن قُرْطًا عـلى وجـهٍ وضيءْ

أو فــزد واعــلُ ســحابًا ممطــرا يُـشعل الـبرق ويهمـي أبحـرا [١]

يبــسط البحــرُ لجــدواك يــدا شـاكيًا مـنْ فاقـةٍ يرجـو النَّـدى

فهــو في فيــضك دون الموجــة وهـو في جـدواكَ بـادي الذِّلَّـة [٢]

مَن كانوا عُلاة الهمم وزينة الدنيا:

صِرْت يـا إكـسيرُ تُرْبًـا سـافلا يـا وليـدَ الحـقِّ صِرْتَ البـاطِلا

اقطــع الأكــوان حُــرًّا لا تَهُــنْ شــمعةً في محفـل الأحـرارِ كُـنْ

إيـه يـا غافـلُ عـن أصـل الزَّمـانْ كيف تدري ما خلود الحيوان [٣][٤]

---

(١) إن كنت ماءً فاحفظ نفسك في البحر حتىٰ تصير لؤلؤة، أوْ كُنْ سحابا.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ١٦٥ - ١٦٧).

(٣) الحيوان: الحياة.

(٤) انظر «ديوان إقبال» (١/ ١٧٤).

□ وقال:

أيــنَ أيــامٌ بهــا ســيفُ الــدهَر صرَّفتْــه في أيادينــا القُــدَرا!

قد غرسنا الدِّين في أرض القلوب وجلونا الحـقَّ مـن سـتر الغيـوبْ

ومِــنَ الــدُّنيا حلَلنــا العُقَــدا واســتنار الــتُّربُ منّــا سُــجَّدا

منْ كؤوس الحقِّ صرَّفنـا الرَّحيـق وهَــدَمْنا حانــةَ العــصرِ العتيــقْ

كأسُــنا كانــتْ سِراجَ المحفِــل صَــدْرُنا كــانَ لقلــبِ مُــشعَلِ

إنَّ هــذا العــصرَ مِــنْ آثارنــا مــن عَجــاج ثــارَ في تــسيارنا

روضــةُ الحــقِّ ارتــوت مِــنْ دمنــا عــزَّ أهــلُ الحــقِّ في الــدنيا بنــا

كــبَّرَ العــالَمُ مــن تكبيرنــا كعَبــاتٍ شــادَ مِــنْ تعميرنــا

«اقــرأ» الحــقُّ لنــا قــدْ علَّمــا بيــدينا رزقَــهُ قــد قــسَّما (١)

فلــدينا عــزَّةٌ مــنْ «لا إلــه» نحــن لِلْكَــونينِ حُــرَّاسُ أبَــاهْ

قَــدْ تركنــا غــمَّ أمــس وغــد ووفينــــا لحبيــــبِ أوْحَــــدِ

نحــنُ ورَّاثُ هــداةٍ للبــشرْ نحــنُ عنــد الحــقِّ سرٌّ مــدَّخر

لا تــزال الــشمس تُبــدي نورنــا غيمُنــا فيــهِ بــروقٌ وسَــنا

ذاتُنــا المــرآة للحــقِّ، اعلَــم آيــةُ الحــقِّ وجــودُ المــسلم (٢)

❧❧❧

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ١٧٦ - ١٧٧).

عالي الهمة:

نــائحٌ والليــل ســاج ســادلُ ... يهجَـعُ النــاسُ ودمعــي هاطـلُ

تــصطلي روحــي بحــزنٍ وألمْ ... وردُ «يـا قيُّـوم» أُنْـسي في الظُّلَـمْ

أمـلًا في الــصدر صـيَّرتُ دمـا ... لــيُرَى في أدمُعــي مُنــسجما

مــا احتراقــي كــشقيقٍ أبــدا ... فيم أستجدي من الفجر النَّدى (١)

أنــا كالــشَّمع دمــوعي غُــسُلي ... في ظـلام الليـل أذكـى شُـعَلي

محفـلُ النــاس بنــوري يُــشرقُ ... أنــشرُ النُّــور ونَفــسي أحــرق

مــا لنــاري في الحــشا مــن فَـترةٍ ... مــا بأســبوعي فَـراغُ الجمعـة(٢)

إنَّ روحــي في ســحيق الجَــسد ... آهــةٌ ثــوبَ غبــارٍ ترتــدي(٣)

مُــذْ بــراني الحــقُّ فجـرَ الخلقـة ... زلزلــتْ أوتــارَ عــودي أنَّتــي

أنَّــــةٌ للْعِــــشْق تُفــــشي سرَّهُ ... آهــةٌ في العِــشْق تُــذكي جمـرهُ

تعجـل العــصفَ لهيبًـا يُحـرقُ ... وفَراشًـا مـنْ تـراب تخلُـق(٤) (٥)

---

(١) الشقيق: زهر أحمر يجعله الشعراء مثلاً للاحتراق. ويقول إقبال: ما هذا الاحتراق الذي هو لون لا حقيقة له، ولماذا أستجدي الندىٰ من الفجر كالشقيق وغيره من الزهر. أنا أحترق بناري كالشمع وأتخذ من دمعي ندىٰ.

(٢) أيامه كلُّها عملٌ وجهدٌ، ليس فيها يوم راحة.

(٣) روحه آهة والجسد تراب يسترها كما يتردىٰ الإعصار بالغبار.

(٤) تجعل العصف – وهو الهشيم ضعيف اللهب- نارًا قوية تحرق غيرها، وتخلق من التراب فراشًا هائمًا يهفو علىٰ النار.

(٥) «ديوان إقبال» (١/ ١٨٩).

لا.. لا يا قيود الأرض.. الأرض لا تحدُّني وتعوقني:

لا تحدُّ الأرضُ قلبَ المسلمِ ... لا يُرَى في تيهِ «أَنَّى وكمِ»[1]

ليس للمسلم في الأرض عَطَنْ ... حائرٌ في قلبه كلُّ وطنْ[2]

حصِّلِ القلبَ ففي وُسْعَتِهِ ... ضلَّ هذا الكونُ في فُسْحته

عقدةَ الأقوات حلَّ المسلمُ ... هجر الدارَ الإمامُ الأعظم[3]

أمةٌ ملء الدُّنَى قد أسَّسا ... جعل التَّوحيد فيها أُسُسا

صارتِ الأرضُ لدينا مَسْجِدا ... إذ أشاعَ الفَضْلَ فينا وهدى

ذلكَ المحمودُ في الذِّكرِ الحكيمْ ... ذلكَ المحفوظُ بالله الرَّحيم

تفزعُ الأعداءُ منْ هيبتهِ ... في ارتعادٍ منْ سَنا طلعتهِ

فلماذا أرض أهليهِ هجرْ؟ ... أتراه خشية الأعداء فرّ؟

حجبَ القصَّاصُ معنى القصَّةِ ... غلطوا في فهم معنى الهجرة

هجرةٌ شَرْعُ حياةِ المسلمِ ... هجرةٌ سرُّ ثباتِ المُسلم

---

(١) أي: لا يتيهِ في عالم العِلل والمقادير.

(٢) يقول إقبال في ديوان «ضرب الكليم»:

إنما الكافر حيرا ... ن له الآفاق تيه

وأرىٰ المؤمن كونًا ... تاهت الآفاق فيه

يعني: أن المؤمن المجاهد لا تعوقه ولا تحيره عقبات هذا العالم، بل يسخرٌها كما يشاء.

(٣) الإمام الأعظم رسولُ الله ﷺ.

إنهـا التِّـسيار نَحْـو الوُسـعةِ ... ولأجـل الـيمِّ تـركُ القطـرة[1]

اهجـرِ الزَّهـرة أجْـلَ الروضـة ... إنَّ هـذا الخـسْرَ ربـحُ الكثـرةِ

شرفُ الـشَّمْسِ مـسيرٌ مطلـقٌ ... فيـه مـن فـوق البرايـا تخفُـق

لا تكـنْ نهـرًا مـن الـسُّحْب يُمَـدّ ... وكـن البحـرَ، عُبابًـا لا يُحَـدّ

اقـصدن تـسخير كـلِّ العـالَم ... لـتُرى لـسلطانَ أهـلِ العـالَمَ

لا يقيِّـدُك مُقـامٌ في الـورى ... وكـنِ الحـوتَ يَـسيحُ الأبحُـرا

كـلُّ مـن حُـرِّر مِـنْ ذُلِّ الجهـات ... فلـكٌ يُزهِـرْ مـنْ كـلِّ الجهـاتْ

تـركَ الـوردَ شـذاهُ فـسرى ... في فـسيح المـرْجِ عِطْـرًا نَـشَرا

يـا أسـيرًا قـد ثـوى في روضـةِ ... عنـدليبًا هـائمًا في وردةِ!

سـيِّرَنْ نفـسك حـرًّا كالـصَّبا ... ثـم عـانق كـلَّ أزهـار الرُّبَـى

فـانتظِمْ في سـلكه كالـدُّررِ ... أوْ غبـارًا في الرِّيـاح انتـشِرِ[2]

إنما الحياة هكذا: علو الهمّة والعيش بين الخطر:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

سرُّ هـذا الأمـر يـا ذا البـصر: ... «الحيـاةُ العـيشُ بـين الخَطـرِ»

---

(١) في القرآن الكريم: ﴿قَالُوٓا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾[النساء: ٩٧] فالهجرة ترك المكان الذي يعسر فيه العمل إلى المكان الذي يتيسر فيه أداء الواجب.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٢١٧- ٢١٨).

يتحدَّاك برضوى العاليه … في امتحانِ لِقِواكَ العاتيه

ويناديك أن اقصمْ ظهرها … وبحدِّ السيف فاصهرْ صخرها

ليس كفءَ الليث في صولته … حَمَلٌ يرجفُ في ذلَّته

إنْ حكى الصَّعوةَ صقرٌ كاسِرُ … فهْوَ كالصَّعوة واهٍ خائِرَ

كتبَ الشارعُ ربُّ الحكمة … لكَ هذا اللوحَ، لوحَ القُدْرَة

يَشْحذُ العزم بنارِ العمل … ويرقِّيكَ لأعلى مَنْزِل

وإذا تَلْغَبُ يعطيك القُوى … ويربِّي منك طودًا ما خَوى

إنَّ دين المصطفى دينُ الحياه … شَرْعُه للنَّاس قانون الحياه

إنْ تكنْ أرضًا يصيِّركَ السَّماءْ … ويربِّيك كما الحقُّ يشاءْ

يصقل المرآةَ مِنْ صخرِ شديد … وينقِّي الرِّينَ منْ قلب الحديدْ

ضيَّع القومُ شعارَ المصطفى … ضيَّعوا رَمز بقاءٍ عُرِفا

ذلك الغصن العسِيُّ المعتلي … مُسلمُ الصَّحراء ربُّ الجَمَل

الذي البطحاء أزكتْ غَرْسَهُ … ورياحُ البيد ربَّت نفسَه

أذْبَلتْهُ اليومَ ريحُ العَجم … صيَّرته النايَ روحُ العَجَم

قاتلُ الآساد ذبحَ الغنم … وطءُ نمل مسَّه بالألم

من أذابَ الصَّخرَ من تكبيره … راعه البلبل في تصفيره

من علا الطودَ سريعًا مُصعِدا … غلَّ بالتُّكلان رجلًا ويدا

من برى الأعناق ضربًا عَضبُه … يَلْدِمُ الصَّدر ويَدمَى قلبُه

مُوقظ الآفاق مِنْ خطَواتِهِ … قُيِّدت رجلاه في خَلْواته

مـنْ أطـاع النـاسُ طـرًّا أمـرَه | واجتـدى دارا وكسرى بـرَّه
رضِي القُنـع وأكـدَى جِـدُّه | وارتـضى الكِدْيـةَ عِـزًّا جَـدُّه

كمـاتِ الفـردِ تفنـى الأمـمُ | ولهـا يومًـا قـضاءٌ يُحـتَمُ
أمـة الإسـلام تـأبى أجـلا | أصلها الميثاق في ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [1]
لا تخـاف المـوتَ هـذي الأمَّـةُ | ﴿نَحۡنُ نَزَّلۡنَا﴾ لـديها حجـةُ [2]
دامَ ذكـرٌ مـا أقـام الـذَّاكرُ | بـدوام الـذِّكر دامَ الـذَّاكر [3]
ذلـك المـصباح أنَّـى يُطفَـأ؟ | قال ربي عالمًا: ﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ [4]
أمَّـة الحـقِّ إلى الحـقِّ تُنيـبْ | أمَّـةٌ يَعْـشَقُها أهـلُ القلـوب [5]
مُصْلتٌ بالحقِّ ذا السَّيفُ الـصَّقيلْ | مُصْلتٌ من غمد آمـال الخليـل [6]

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] يعني: أنها قائمة على عقيدةٍ أزليةٍ عامةٍ خالدة فهي دائمة بدوام هذه العقيدة.

(٢) إشارة إلى الآية: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر].

(٣) المعنى: إن كان الذكر محفوظًا فلا بدَّ أن يدوم الذَّاكر، فلا ذكر بدون ذاكر.

(٤) الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ [التوبة: ٣٢].

(٥) إلى الحق تنيب: الحق هنا الله تعالى.

(٦) إبراهيم الخليل: كان يأمل أن تخرج من ذريته أمةٌ موحدة فانجلت آماله عن هذه الأمة.

مـا سـوى الحـقِّ محـاهُ برقُـه ... ليعيـد الحـقَّ حيًّـا نطقُـه

نحـنُ للتَّوحيـد أقـوى حجـةٍ ... للكتـابِ اختارنـا والحكمـةِ (١)

روضـنا كـان لهيـبُ التـتَر ... حَلْيَنـا كـان نِثـارُ الـشَّرر (٢)

فلإبـراهيم فينـا فطـرةٌ ... وإلى المـولى لـدينا نـسبةٌ

مـن لهيـب قـد جنينـا زهَـرا ... نـار نمـرودٍ رَدَدْنـا كـوثرا

كـلُّ نـارٍ يوقـدُ الـدَّهرُ لنـا ... زهـراتٌ حـين تـأتي روضَـنا

ذهـب الـروم وفُـضَّ الموكـبُ ... شرقُهـا أقـوى وأقـوى المغـربُ

كـأسُ ساسـان مـن الغـمِّ دَمُ ... حـانُ يونـان خـرابٌ مُظلـم (٣)

عابـدَ الواحـدِ! وحِّـد واهجـرن ... كـلَّ تفريـقِ وللحـقِّ ارجعَـنْ

أيُّهـا المُغفـل معنـى الكلـم ... أثْبـتَنْ في القلـب ألفـاظَ الفَـم

قـوَّةَ الإيـمان زِدْ بالعمـلِ ... مـات إيـمانٌ إذا لم يَعْمـلِ (٤)

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١].

(٢) يعني: كانت نار التتر علينا بردًا وسلامًا، بل كانت روضة لنا كما كانت النار لإبراهيم.

(٣) ساسان الذي تنسب إليه دولة الفرس الساسانية التي سيطرت من القرن الثالث الميلادي.

(٤) «ديوان إقبال» (١/ ٢٣٦- ٢٣٨).

عالي الهمة يقنع باليسير ولا يمد اليد إلى الغير:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

أشعِرَنَّ القلبَ «الله الصمد»	تخلَّصَنْ مِنْ قيد أسباب وحدّ
ليسَ عبدُ الله عبدَ السَبب	ما الحياةُ الحقُّ دورَ اللَّولب [1]
ليسَ غيرَ الله يرجو المسلمُ	وهْو للنَّاس جميعًا سَلَمُ
لا تبُثَّنَّ شَكاةً أحدا	لا تمدَّنَّ إلى الخَلق يدا
فيمَ للأجواد حملُ المِنَن	أنت، منْ لا ونعَم في حَزنِ
لا ترُم ورق لئيم يُنغصُ	يوسفٌ أنت، فأنَّى ترخُصُ؟
إنْ تكن نملًا وكنتَ المقْعَدا	لا تؤمِّل منْ سليمان جَدَى
خفِّفِ الزاد، طريقٌ وعِرُ	عش ومتْ حرًّا. عداك الغرَرُ
اجعلن «أقلِلْ من الدُّنيا» الشِّعارْ	و«تعش حرًّا» بها كلَّ الفخار
وكن الإكسيرَ لا التُّربَ بها	معطيًا لا سائلًا. في حبِّها [2]

ꕥꕥꕥ

أنت قد غرَّك صبحٌ كاذبُ	أنت عن نَفْسِك حقًّا ذاهب
أنت شمسٌ نَفسَك اعرِف كلَّ حين	لا تُضئها منْ نجوم الآخرين
إنَّ في قلبك نفسًا من سواك	باعَتِ الآكسيرَ بالتُّرب يداك

(١) إن أخلَصَ الإنسان لله، وتوكَّل عليه لا يقيده ما يقيد الناس من أسباب، بل يخلق هو وسائله إلى غاياته، وليست الحياة دورات آلية بل فيها إرادةُ الإنسان وعزيمته.

(٢) الضمير يرجع إلى الدنيا.

حَـيٌّ فـرْدٌ نفسَه قـد عَرفـا ... وقبيـل عـن سـواه صـدفا

عـن طريـق المصطفى لا تـذهبَنْ ... واتـرك الأربـاب، والله اعبُـدَن[1]

عالي الهمة سما فوق السماوات العُلَى:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قـد سـما المسلم أعـلَى مَـنْ سَـما ... لـيس يـرضى بمُسام في السَّما

وِردُه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ في المـأزِق ... ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ تـاجُ المَفـرِق

حمـلَ الكـونين طـرًّا ظَهـرُه ... وحـوى بـرًّا وبحـرًا صـدرُه

أذْنُـه للرَّعـد إمَّـا جَلجـلا ... صـدرُه لِلْـبَرق إمَّـا نـزلا

قاتِـلُ الـزُّور، وللحـقِّ وزَرْ ... أمـرُه المعيـار في خـيرٍ وشرّ

جمـرُه كـلُّ لهيـبٍ في حـشاه ... جـوهرٌ فيـه كـمالٌ للحيـاه

لـيس في ضوضـاء هـذي الأمـم ... نغمـةٌ إلا أذانَ المُـسلمِ

هـو في العفـو وفي البـذل عظـيمْ ... وهـو حـين القَهـر ذو طبـعٍ كـريم

لُطفُـه في الحَفـلِ جـبرُ المنكـسِرْ ... قهـرُه في الحـرب صـهرٌ للحجَـر

هـو في الـرَّوض صـفيرُ البُلبـلِ ... وهو في البِيـد انقـضاض الأجـدل

قلبُـه تحـت سَـماءٍ لا يقـرّ ... هـو فـوق الزُّهْـرِ مـا إن يـستقرّ

طـائرٌ ينقُـر نجـمَ الحُبـكِ ... طـائرًا فـيما وراء الفَلَـكِ

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١).

أنتَ، يا منْ لم يَطِرْ منك جَناحْ! | دودةٌ في ظلمةِ التُّرب تُراح
مستكينٌ تشتكي جور الزَّمانْ | قد أصبتَ الذُّلَّ من هَجر القُران (١)
قد هَبَطْتَ الأرضَ طُهرًا كالنَّدى | بالكتاب الحيِّ أمسكت يدا
فإلامَ العيشُ في التُّرب؟ ارحلا | اصعدَنْ فوق السمواتِ العُلَى (٢)

كلمات نيّرات:

عليك السَّيْرَ لا ترغب مَقيلا | وسِرْ كالشَّمس لا تَرقُبْ دليلا
وهَبْ للآخرينَ متاعَ عقل | ونارَ العِشْق فاحْفَظْها بَديلا

cs&&cscs&

يرى قلبُ الشُّجاع الليث وهمًا | وفي قلب الجبان الظَّبي بَبْرُ
فإن تجبُنْ رأيت الموجَ وحشًا | وإنْ تشجُعْ فإنَّ البَحْرَ برُّ

cs&&cscs&

تقول: بطيرنا عَلِقتْ قيودُ | وفي شَركِ الجسوم لها همودُ
ومعنى الرُّوح بالأجسام يعلو | مِسنُّ سيوفنا هذي الغُمودُ

cs&&cscs&

طريقُك فانحتنه في كفاح | طريقُ سواك مسلكُه عذابُ
فإنْ أبدعت في عمل فريّ | لك الحسنى حبيبي والثوابُ

cs&&cscs&

(١) القُران: والقُرآن.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٢٤٣- ٢٤٤).

دليـلُ القلـب لا يـرضى نـزولًا ... ولا يُرضـيه مـاؤك والـتُّرابُ

فـلا تحسبه في جسدٍ مقيمًا ... فـلا يـرضى بـشطٍّ ذا العُباب

❊ ❊ ❊

إلام تعيش في رثّ الإهاب؟ ... إلام تعيش نملًا في تـرابِ؟

فَطِـرْ كالـصَّقر معتزمًـا وحلِّـقْ ... إلامَ أسيرُ حبٍّ في اليَبَابِ؟

نصيحة صقر لفرخه:

تعلَّم بنيَّ بأنَّ الـصُّقورْ ... لها قلبُ ليثٍ وجسمٌ صغير

فكنْ مُحْكَم الرأى شهمًا جسورا ... عليَّ السجايا أبيًّا غيورا

بُغاث الطيور اهجرنها بعيدا ... ودعها إذا لم تُردْ أن تصيدا

فتلكَ الرعاديدُ نسلُ اللئام ... تدسُّ مناقيرها في الرَّغامْ

أرى البازَ صيدًا لما اصطاده ... إذا قلَّد الصيد ما اعتاده[1]

فكم باشقٍ قد أتاه النَّوى ... بصحبةِ لقَّاطِ حبٍّ هوى

فنفسكَ فاحفظْ وعِشْ في جذل ... جريئًا متينًا قويَّ العضل

ودعْ للدراريج[2] لينَ الجَسَدْ ... وكن مخلبًا كالمُدَى أوْ أَحَدّ

متاعُ الحياة، تعلَّم، جهادُ ... وصَبْرٌ على محنةٍ واجتهادُ

نقول لفرخ عقاب عتيق ... «بريق الدماءِ يفوقُ العقيق»

---

(١) يعني: إنْ قلَّد الصقر الطيور الضعيفة التي يصطادها في عاداتها كان هو صيدًا لها مغلوبًا علىٰ أمره.

(٢) الدراريج: جمع دراج وهو طائرٌ معروف.

ولا تبـغ سِرْبًـا كَـسِرْب الغـنمْ توحَّـدْ كقومِـك منـذ القِـدَمْ

سـمعتُ وصاة الـصُّقور العتاق بـألَّا نقـيم بظـلٍّ وسـاق

فلـيس لنـا في ريـاض مجـال فـسيحُ الفيـافي لنـا والجبـالْ

ولقْطـك حبًّـا بـأرض خطـاء حبانـا الإلـه عنـان الـسماء

فأمَّا خطيْ في التراب النجيب [١] فـأشرفُ منـه حِمـامٌ مُريـب

فـإن بـساط البـزاة الحجـرْ يجـدّ مخـالبهنَّ الـصَّخرْ

نـماك الأوابـد زرق العيـون كأنـك عنقـاء جـوٍّ متـين

أصـيلٌ أبيٌّ بيـوم الخَطَـرْ كفيـل بإنـسانِ عـين النمَّـرْ

جناحُـك مـن سَـطوَاتِ الـبروق من الشهب [٢] فيك كريم العروق

فَطِرْ في السماوات لا تخش خطبا وكـلْ مـا أصـبت يبـسًا ورَطْبًـا

ولا تَقْـبلَنْ طعمـةً مـن أَحَـدْ وكنْ راشِـدًا واسـتمع للرَّشَـدْ [٣]

حياتَك فابغ في الخطر الجليل:

غـزالٌ بـثَّ شـكواه غَـزَالًا فَقَـال سأقـصُدُ البلَـدَ الحرامَـا

أرى الـصَّيَّاد حـولي كـلَّ حـينٍ فـلا أسـتطيعُ في أرض مُقامـا

أبـدِّل خيفـةَ الـصَّيَّاد أمْنـا وأنفـي الغـمَّ عـن قلبـي المعنَّـى

أجـابَ رفيقُـه أن يـا خَلـيلي حَياتَـكَ فـابغ في الخَطَـرِ الجَليـل

(١) يعني: الصقر ونحوه.

(٢) الشهب: أي البيض، وفيها تورية بشهب السماء.

(٣) «ديوان إقبال» (١/ ٢٨٥- ٢٨٦).

ونفْسَكَ فَاحذنْ في كُلِّ آنٍ وعش أمضَى من السيف اليَماني

ففي الأخطار لِلْهِمَم اختبارُ لأرواح وأجسادٍ عيارُ [1]

فِطرتي لا ترتضي دَعة المنازل:

ماذا أقول وفطرتي لا تَرتضي دَعة المنازلْ

قلبي على قلقٍ كما تهفو الصَّبا حولَ الخمائلْ

فإذا نظرتُ إلى جميلٍ رائعٍ حلوِ الشَّمائلْ

خَفَقَ الفؤادُ إلى الَّذي يعلوه حسنًا في المحافلْ

فمنَ الشرار إلى النُّجوم إلى الشُّموس رقيّ آملْ

إنِّي ليهلكني القرارُ فما أعوجُ على المراحلْ

وإذا شربتُ منَ الرَّبيع الكاس تسري في المفاصلْ

أشدو بشعرِ آخرٍ وربيعي الآتي أغازلْ

طلبي النهايةُ في الَّذي لا ينتهي فيه المُسائلْ

لا صابرٌ نَظَري ولا قلبي عن الآمالِ غافلْ [2]

شررًا كُنَّا:

أمَّةٌ كانت ومن حكمتها نحنُ آثارٌ على مرِّ العُصورْ

قد عرفنا سرَّ تقديرٍ مضى فمضينا نقتفي سرَّ الدهورْ

شررًا كنا، أجدنا نظرًا فإذا شمسٌ على الكونِ تسيرْ

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٢٩٥- ٢٩٦).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٩٧).

صرصر البيـــداءِ في فطرتنـــا / أذبلـتْ ريـحُ الـصَّبا فينـا الزُّهـورْ

رُبَّ صـــيدٍ قـــد أخـــذنا وثبـــةً / دون أشراكٍ كـما انقـضَّت صـقور

كلـما أمكَـــنَ طـــرفٌ فاركـــضنْ / كم أماتَ العزمَ تـدبيرُ الأمـور[١]

لنا غايةٌ من الشمس أعلى:

ولنــا غايــةٌ مــن الــشمس أعــلى / إنهــا الــشمس صُــوَّة الرَّكْتــانِ[٢]

إيه يـا قطـوةً عـن الـنفس تاهـتْ / تطلبـــين المحـــالَ في الأكْـــوانِ

إنَّ عــــارًا معيـــشة البحـــر إن لم / تطلعنـــي منـــه درَّةً ذات شـــان

يـا جهـولًا بقـدر نفـسك لـولا / أنت كان العتيق كالـصَّوان[٣] [٤]

يا لها من أمنيات:

مُنيتـــــي أن يــــتجلَّى / ذلـــك البـــدرُ الـــتَّمامُ

فيـــدي تُمْـــسكُ صـــدري / وبعينـــــيَّ اقتحــــامُ

ويقـــول الحـــسن: صـــبحي / لـــيس يغـــشاه ظـــلام

فيقـــولُ الحـــبُّ: وجـــدي / لـــيس يخبـــو والهيـــام

لـــيس مـــن يـــومي وأمـــسي / وغــــــدي فيَّ زمــــام

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٠٢).

(٢) الصُّوَّة: أحجار تجعل علامة علىٰ الطريق.

(٣) يعني أن الإنسان جهل قدر نفسه وقدَّر أشياء ليس لها قيمة إلا بتقديره.

(٤) «ديوان إقبال» (١/ ٣١٠- ٣١١).

لـــيس لي نَجْـــدٌ وغـــورٌ ... لـــيس يحـــويني مقـــام

رِقَّـــة الأسرار أبغـــي ... وكؤوسًـــا لا تـــرام

ولتـــسنيم الجنـــان ... طهـــر حـــورٍ في الخيـــام

بـــل ونظـــرٌ للـــودودِ ... إذ يقـــولُ لي ســـلام

يـــا لإنعـــام الحبيـــب!! ... حـــين ينظـــر.. والكـــلام

□ ولله در القائل:

نحنُ تربٌ، وكالنجوم سفارا ... في أعالي السماء نبغي قرارا

قل لأهل السَّماءِ: إنَّ ترابًا ... نال بالحبِّ في السماء مطارَا

نحن في الحبِّ زهرةٌ في نسيم ... وبكـدٍّ الحياة نقدحُ نارا

لا يستويان:

أيـنَ مِـنْ يفـق الـشَّواهيـ ... ـن جناحُ العندليب

أينَ منْ يلقطُ مِنْ حب ... على الأرضِ تريـب

مـن فتـى يلقـط عنقـو ... د الثُّريـا لا يَخيْـب

أينَ مـنْ يسري بروض ... كنـسيم في هبـوب

مَنْ بصير في ضمير الزهـ ... ـر للسرِّ يصيب

أيـن فـوق الأرض ظـنٌّ ... سـارًا أو شـكٌّ مريـب

من طموح جاوز الأفلا ... ك لِلْمَسْرى الرَّحيـب

حبَّـذا عقـلٌ فـسيحٌ ... قـد أحـاطَ العالَمين

نـورُ أمـلاكٍ ونـا ... ر الأنـسِ فيـه دونَ مـين

نحـنُ مِـنْ خلـوةِ عِـشقٍ ... قـد برزنـا بالـسَّجايا

فجعلنـا مـوطئ الأقـدا ... م في الأرض مَرايـا

فـانظرنْ همَّتنـا كيـ ... ـف لعبنـا بالعطايـا

قد أضعنا الكـونَ جهـرًا ... حـينَ حزنـاهُ خفايـا

قـدْ نزلنـا شـطَّ نهـرِ ... نبـصرُ المـوج سَرايـا

تبـصرُ الأعـينُ سـطرًا ... مِـنْ غُـدُوٍّ وعَـشايا

شـعلةً كنَّـا جميعًـا ... وانتثرنـا كالـشَّررْ

أهـلَ شـوقٍ وحنـينٍ ... ورجـاءٍ ونَظَـرْ [(١)]

□ ولله درّه حين يقول:

رأيـت الحـب يـأبى كُـلَّ وغـدٍ ... كميـتِ الطـير تأبـاه الـصقور

□ وحين يقول:

قطـوفَ الـورد! لا تجـزعْ لـشوكٍ ... كذاك الـشَّواكُ مـن نَفَس الرَّبيـع

يا لُبينى أوقدي طال المَدى:

يـا لُبينـى أوقـدي، طـالَ المـدى ... أوقدي عـلَّ عـلى النَّار هـدى [(٢)]

أوقدي يـا لـبُن قـد حـارَ الـدَّليل ... أوقـدي النَّـارَ لأبنـاءِ الـسبيل

ارفعـي النَّـار وأذكـي جمرهـا ... علَّ هـذا الركـبَ يعـشو شـطرها

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٢٦- ٣٢٧).

(٢) إشارة إلى الآية في قصة موسى عليه السلام: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ [طه].

شرِّدي هذا الظلامَ الجاثِما ... أرشدي هذا الفراشَ الهائما

حبَّذا النارُ بليلٍ توقدُ ... حبَّذا المؤنسُ هذا الموقدُ؟

حبَّذا عندك هذا النزلُ ... لو حوانا في سفارٍ منزل

ما لذا المنزلِ قد سار الفريق ... إنَّما النِّيران أعلامُ الطَّريق

قد ترحَّلنا من الفجِّ العميق ... لا نبالي بقريب أوْ سحيق

رنَّ في آفاقنا هذا النِّداء ... فأممنا البيت يحدونا الرَّجاء[1]

قد غنينا عن مبيتٍ ومقيلْ ... وعن الأمواه والظلِّ الظَّليل

وعن الرَّغبة والخوفِ سُوى ... خُلع النعلان في وادي طوى[2]

نحن لا نرضى بنار الغَسَق ... نحن لا نرضى بنور الشَّفَق

نحن لا نرضى بنجم الصُّبْح لاح ... لا ولا نرضى تباشيرَ الصَّباحْ

نحن لا نرضى نجومًا لامعه ... إنما نبغى شموسًا طالعه

قد رحلنا بالجوى والحُرقِ ... وغنينا عن رسيم الأينق

أين منا طائراتٌ سبَّق ... جَمَعَ الغَرْبُ لها والمشرقُ

نحن ركبٌ في جواه مُوضع ... لم يَسَعْهُ في جواه موضعُ

كلُّ حُرٍّ ضاق عنه الموطنُ ... وانطوى دون مناه الزَّمنُ

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾ [الحج].

(٢) النعلان هنا كناية عن الرغبة والخوف والإشارة إلى الآية في قصة موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [طه].

كـلُّ طيّـارٍ عـلى مـتن الفكـر — وعـلى مـتنِ هيـام لا يقـر
طـائرٌ منـه يغـارُ الملَـك — طـائرٌ مـن تحتـه ذا الفلـكُ
بـارقٌ في اللَّـوْح لا ينطفـئُ — كـلُّ غايـاتٍ لديـه مبـدأُ
زوِّينـا بهيـام ووجيـب — زوِّدي يـا لُبنَ مِنْ هـذا اللهيـب

꧁꧂

جـالَ في الظلـماءِ نـورٌ مـن نغَـم — مُزِّقـتْ منـه ديـاجيرُ الظُّلـم
أشـعاعٌ فيـه صـوتُ صـائح — أمْ كـلامٌ منـه نـورٌ لائـح؟
أذنَ الرَّكـب لهـذا المنشـدِ — أطربَ الناشـدَ صـوتُ المنشد [1]
سـال في القلـب مسيلَ المطـر — ينبـتُ الـرُّوح بسـهبٍ مقفـرِ
أو خريـرِ المـاء مـن نبـع زُلال — بـشَّر الغـارقَ في بحـر الرِّمـال
رَنَّ في نفسـي رنـينُ الجـرس — صـاح في أذني فقيـدٌ مـبلس
طـوتِ البيـداءُ عنـه السَّابلهْ — وهـداهُ الصَّوْتُ شَطْرَ القافلـه
سـبقَ القلـبُ إليـه الأذنـا — كـبلالٍ لـلصلاةِ أذَّنـا
دارَ قلبـي شـطرَ هـذا المطـربِ — دورةَ الإبـرة شـطر القُطْـبِ
«غننـي يـا منيتـي! لحـنَ النُّشور — ابركـي يـا نـاقتي! تـمَّ السُّرور
عُـدْتَ يـا عيـدي إلينـا مرحبـا — نِعْمَ مـا روَّحـتَ يـا ريحَ الصَّبا»

꧁꧂

---

(١) المنشد في الشطر الأول: منشد الشعر، وفي الثاني : الذي يدلُّ على الضَّالة، الناشد من ينشدها.

حبذا الصَّوْتُ فَمَنْ هـذا البشير؟ ومـن الهـاتفُ بالقَلْـبِ الكسير؟
وَمَـنِ المُسْعدُ في هـذي الهمـوم؟ ومَـن البـارقُ في هـذي الغيـوم؟
ومـنِ الهـابط في نـورِ السَّما هاديًـا في الأرض جيـلًا مظلـما؟
ومـن الهـادي إلى أرض الحبيـب يعرف النهج وقـد حـارَ اللَّبيـب؟
ومـنِ السَّائقُ شَـطْرَ الحَـرَم وإلى الأصـنام سَـيْرَ الأمـم؟
ومـن القـارئ في بيـت الصنم سورة الإخـلاص في هـذا النغم؟
وَمَـنِ الحـرُّ الـذي قـد حطـما مـن قيـود الأسرِ هـذا الأدهمـا؟
وَمَـنِ الآبي عـلى كـلِّ القيـود وَمَـنِ القـاطِعُ أغـلالَ العبيـد؟
ومَـنِ الباعـثُ في ميـت الأمـم ثـورةَ العـزَّةِ مـن هـذي الهِمـم؟
لاحَ الغُـرَّة في هـذا السَّـواد بـصَّ كـالجمرة في هـذا الرَّمـاد
جـرف النَّـاس أيٌّ مزيـد ضـلَّ فيـهِ المقتـدي والمرْشِـدُ
عـارض المـوج عـلى أغمـاره وطـوى اللُّـجَّ عـلى تيَّـاره
وطغـى اللُّـجَّ عليـه والـتطم فرسًـا كالـصَّخر في هـذا الخِضَم
سـبح اللُّـجَّ وبالـشطِّ استقر داعيًـا والنـاسُ غرقـى في النَّهـر
يجـرفُ التيَّـار جـسمًا جامـدا تَقْـذِفُ اللُّجَّـةُ قلبًـا خامـدا
إنَّ عـزم الحـرِّ بحـرٌ مُزْبـدُ جـائشٌ في الـدَّهر لا يَتَّئِـدُ
هـذه الأقـدارُ في تيـسارها هِمـمُ الأحـرارِ في أسـفارها [١]
ومـن الـشَّاعر يُـذكي القافيـه فهـي نـورٌ وهـي نـارٌ حاميـه؟

---

(١) هذه: مبتدأ، وهمم: خبر.

تَقْـشعرُّ الأرضُ مـن أوزانـه ويهـيمُ الـنَّجْمُ مـن ألحانـه

هـو بالأشـعار بحـرٌ فـائض وهـو للأزمـان قلـبٌ نـابض

حدَّثتـه الأرض عـن أخبارهـا وحَبَتْـهُ الزُّهـر مـن أسرارهـا

هـو بـالأمس خبـيرٌ بِغَـدِ وهـو اليـومَ نجـيُّ الأبـد

كَـشَفَ اللهُ عـن الغيـبِ لـه فلـسانُ الغيـب يُمْـلي قولـه

عَـرَفَ الـشَّرقَ وراد المغربـا فـانجلى الـسِّرُّ لـه مـا كُـذبا

فـرأى العلـمَ سـبيلًا للـرَّدى إذ رأى القلـب خليًّـا مِـنْ هـدى

صـوتُ همَّـام عـلى شـطِّ المزار أسمعَ اليقظان في هذي الـدِّيار [(١)]

***

هِممُ الأحرار تَحيي الرِّحما:

فطـرةُ الله التـي أوْدَعهـا كلُّ نفسٍ خابَ مـنْ ضَـيَّعها

إنهـا سرُّ الحيـاة الخالـدة دونهـا كـلُّ حيـاةٍ هامـدة

إنَّهـا التيَّـارُ مثـلَ الكَهْربـاء إن يُعطَّـلْ لمحـةً كـان الفنـاء

إنَّـما العـيشُ جهـادٌ لا يَقـرّ وركودُ الحـيِّ مـوت مـستمرّ

من يضيء ذا الـسرَّ في أعماقـه ضـاقتِ الأفـلاكُ عـن آفاقـه

وتعـالى عـن حـدودِ الأزمنـة وتجـافى عـن قيـود الأمكنـة

شُـعلٌ في قولـه تـضطرم وطـما في المـوت روح العمـل

---

(١) انظر «اللمعات» لعبد الوهاب عزّام بتصرف.. «ديوان إقبال» (١/ ٣٤٦- ٣٤٩).

مُلطعٌ في اليأسِ صُبْحَ الأمـلِ نافخٌ في المـوت روح العمـل

أرأيت الغيث في أرضٍ موات منبتًـا فهيـا أفـانين النَّبـات

هِمـمُ الأحـرارِ تحيـي الرِّمَمَـا نفخـةُ الأبـرار تحيـي الأممـا

لا يُـصدُّ الحـرُّ عـمَّا يأمـل أو يحـدُّ البـزُّ فـيما يفعـل

هـو بـالله العـليِّ اتـصلا جـلَّ ربي عـن حـدودٍ وعـلا

مـنْ يُـضيء في قلبـه إيمانُـه وينـرْ في سـبله وجدانُـه

فهـو بـالله عـليٌّ وقـويّ وهـو بـالله غنـيٌّ ووليّ

جاهـد واللهُ في تيـسيره تحـسبُ الأقـدارَ في تقـديره

قـائمٌ بـالحقِّ بـين البـشر مـا لـه في باطـلٍ مـنْ وَطَـر

يُمْـسِك الـدُّنيا ولا تُمْـسِكُه يملـك الأرضَ ولا تملكـه

وترى الدُّنيا انطـوت في كبـه لـيس منهـا ذرةٌ في قلبـه

إنَّـه القـانون بـالله سرى عادلًا في حكمه بـين الـورى

يـسعُ النَّـاسَ جميعًـا همُّـه في سـبيل الله مـاضٍ عزمُـه

جاهـدٌ في الخـيرِ لا يتَّئـد عزمُـه في صَـدْرِه يتَّقـدُ

وفقـيرٌ وغنـاه لا يُحَـدّ فقره استغناؤه عـنْ كـلِّ يـد

هـو بـالله وفي الله غنـيّ ضاقَ عن هذا الغنى كلُّ ثري

صغار الهمم:

إنَّ في النـاس قلوبًـا جامـده ... جذوةُ الإقـدامِ فيهـا خامـده
همُّهـا مـا يبتغيـه الجسـدُ ... كـلُّ مـا تهـوى طعـامٌ وددُ
حـدَّدَتْ آرابُهـا آفاقَهـا ... فحكتْ في ضِيقها أخلاقَها
لا تبـالي حـين تبغـي أربـا ... عُمِـرَ الكـونُ بـهِ أم خَرِبـا
إنَّمـا قانونهـا أهواؤهـا ... سُـخِّرت في نفعهـا آراؤهـا
وتـرى أهواءهـا تغلبُهـا ... كـلَّ حـينٍ في هـوىً يجـذبُها
وإلى الأرض تراهـا مُخْلِـدَه ... لا تُرى نحو المعـالي مُـصْعده
إنَّمـا آفاقُهـا هـذا البـدن ... إنَّمـا مَبْرَكهـا هـذا العَطَـن
إنَّمـا أحياؤهـا كـالرِّمم ... خامداتِ العَزْم موتى الهِمَـم

صُنَّاع الحياة المسلمون نعم العابدون:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنَّمـا العـالَمُ طُـرًّا مَعْبـدُ ... كلُّ مَـنْ أحسنَ، فيـه يَعْبُـد
كـلُّ مَـنْ أدلى بقـولٍ طيِّـب ... ينبـتُ الخيـرَ كغيـث صـيِّب
كلُّ منْ أحسن يومًا عمـلا ... كـلُّ مـن أحيـا مواتًـا همـلا
كلُّ منْ في أرضـه قـد زرعـا ... ليقيتَ النَّـاس والعُجْـم معـا
كلُّ منْ يغرسُ مخضرَّ الشَّجر ... فيـه للإنسـان ظـلٌّ وثمـر
كل منْ يَنْبِطُ بئـرًا في السـبيل ... تنفعُ الظمآن منْ حرِّ الغليـل

كـلّ مـنْ يبنـي بنـاءً حـسنا ... كـلُّ مـنْ صـنعه قـد أتقنـا

كلُّ مَنْ أحدث علـمًا للبشر ... ينفع الناس ولم يقصد لـشر

كلُّ مَنْ أحدث فكـرًا مُحكـما ... يبتغـي للنـاس خـيرًا عمـما

كـلُّ مَـنْ جـدَّ وإنْ لم يجـد ... لم يـضع وقتًـا بلهـوٍ ودِدِ

كـل مـن أثـر فيهـا أثـرًا ... خالدًا للخير ما بين الـورى

كلُّ مـنْ في دهـره قـد أجمـلا ... فكـرةً أو قولـةً أو عمـلا

كلّهُـم لله نِعْـمَ العابـدُ ... كلُّهـم للخـيرِ نعْـمَ القاصـدُ

فاصطنع للخـيرِ فكـرًا ويـدا ... ولسانًا وابغ في الخـير يـدا [1]

لا رهبانية في الإسلام:

لـيس منـا مـن ثـوى في صـومعه ... يحـبسُ الأعـمال والفكـر معـه

ضـاق نفـسًا عـن مجـالٍ وسـعا ... فثـوى في ضـيقهِ قـد خَنَعـا

لـيس شـيئًا أنْ تُـرَى معتـزلا ... عابـدًا تخـشى البرايـا وجِـلا

إنَّـما العابـد مـنْ خـاضَ الحيـاة ... موضـحًا فيـه سـبيلًا للنَّجـاة

آخـذًا بالَـذْلِ مـا عنـه حـول ... ذاكـرًا مـولاه في كـلِّ عمـل

إنَّـه بـالحق موصـولٌ ومَـنْ ... يتَّـصلْ بـالحقِّ لا يخْـشَ الفـتن

ثـورةٌ مـضمرةٌ في حلمـه ... إنْ يفكِّـرْ ظـالمٌ في ظلمـه

أرأيـت الـصَّقْرَ في متن الرِّيـاح ... يطلـبُ الـرزق بعـزم وجنـاح

طـائرًا في الجـو يـسمو عازمـا ... لا يُـرى حـول الـدَّنايا حـائما

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٥٠- ٣٥١).

يأكلُ الجوع ولا يرضى الجيف / لو يراه الجوعُ يومًا ما أسفّ

فإذا الجدُّ رماه في الشَّرك / لم يطقْ صبرًا عليه فهلك

ليس يحوي الحد يومًا سبك / فأسار الحدِّ فيه مهلك

يا فتى هذا الجهادُ الأكبر / عزماتُ الحرِّ فيه تُخبر

قلَّ في النَّاس عليه صابرُ / ليس إلا الحرُّ فيه ظافر

يا أسير الوَهْم أقدم لا تُبَلْ / وامضِ فيمن صحَّ عزمًا واتَّكل [١]

عُلوُّ الهمة في التوكل:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَنْ يَنَمْ عن سعيه لا يتَّكل / إنَّما التكلانُ سعيٌ متَّصل

مُقْدمٌ في أمره المتَّكِلُ / واثقٌ بالله فيما يأمُلُ

عازمٌ ماض على خيرِ سنن / لا يبالي بِعِقاب أو مِحَن [٢]

أرأيتَ الطَّير في نورِ الصَّباح / تطلب الرزق بعزم وجناح

أنَّها تخرجُ في كفِّ القدر / مقدماتٍ لا تبالي بالخطر

طالباتِ الرزق في كلِّ رجا / تملأ الجوَّ وثوقًا ورَجا

يا لها منْ أمل قد صوَّرا / طائرًا يطلب رزقًا قُدِّرا

أرأيت العَزْمَ في شكل جناح / خافقًا لا ينثني دونَ النَّجاح

لا يصد الطيرَ خوفُ التَّهلُكه / أو تبالي بطريقِ مهلكه

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٥١- ٣٥٢).

(٢) العقاب: جمع عقبة.

ضرب المختـــار هـــذا مـــثلا ... للـذي يـسعى عظـيمًا أمـلا [(١)]

أرأيـــتَ الطَّـــير في أوكارهـــا ... راجيـاتٍ رزقهـا في دارهـا؟

ثاويـــاتٍ تبتغـــي أرزاقهـــا ... ليس تَـدْري مـنْ إليهـا سـاقها

مـــن ونـــى في ســـعيه لم يتَّكِـــلْ ... إنَّــه للــوهم والعَجْــزِ وكــل

إنَّــما الـــتُّكلان عـــزمٌ وعمـــل ... إنَّـه الإقـدامُ في ضـوء الأمـل

إنَّـــه الإعـــداد والعـــزم معًـــا ... إنَّـه الحـرُّ إلى القـصد سـعى

إنَّــه التقـــديرُ في ســـعي البـــشر ... هو عنـدَ الله مـنْ بعـضِ القـدر

هِمَـــمُ الأحـــرار في إيمانهـــا ... سُـنَنُ الخـلَّاق في أكوانهـا

ســـنةُ الله التـــي لا تبـــدَّلُ ... مـا لهـا كـرُّ اللّيـالي حـوَّلُ [(٢)]

▢وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

آهِ مـــنْ لي بقلـــوبٍ واعيـــه ... مُقْـدِماتٍ في المعـالي سـاعيه

آهِ مَـــنْ يفقـــه هـــذا الكَلِـــما؟ ... آهِ مـنْ يـدركُ هـذا الـنَّغما؟

أيُّهـا المـسلمُ مـاذا قَـدْ عـدا؟ ... كنتَ في الأرض جهادًا وَهُـدى

آهِ للنُّـــور الـــذي قـــد طفئـــا ... آهِ للْقَلْـبِ الـذي قَـدْ صَـدِئا

آهِ للنَّـــار الـــذي تـــشتعل ... فيـضيء الأرضَ منهـا شُـعَلُ

خَمَـدتْ فالقلـب بـردٌ وهمـود ... خَمَدَتْ فـالنَّفس عَجْـزٌ وركـود

---

(١) كما جاء في الحديث: لو توكلتم على الله حق التوكل؛ لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا، وتروح بطانا.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٣٥٢- ٣٥٣).

إنَّ هـذا القـول زِنْـدٌ وحجـر ... ليت شعري هل لديه مـنْ شرر

إننـي أُضْرِمُ هـذا الألمـا ... علَّـه في القلـب يـذكي ضَرَمـا

إننـي أنفـخُ في هـذا السَّواد ... علَّ جمـرًا محرقًـا تحت الرَّماد

علَّنـي أُذْهـبُ هـذا الخبثـا ... علَّنـي أمحَـقُ هـذا العبثـا

إنَّنـي أبعـثُ فـيهم نغمـي ... علَّنـي أبْعـثُ مَيْـتَ الهمـم

إنَّنـي أُمْطـرُ في أرضٍ مـوات ... علَّها تُنْبتُ ألـوان النَّبـات[١]

الأمل وعلو الهمة:

لا ترانـا في جهـادٍ نيـأسُ ... لَـيْسَ مِـنْ أمَّتنـا مَـنْ يئسـوا

أشـعل الإيمـان في كـلِّ دُجـى ... واقـدحِ العـزم إذا الهَـوْلُ دجـا

وَارْفَعَـنْ في كـلِّ ليـلٍ شُـعَلا ... وابعـثَنْ مِـنْ كـلِّ يـأسٍ أمـلا

وصـلِ القَلْـبَ بخـلَّاق الرجـاء ... واخلقَـنْ في كـلِّ حـينٍ مـا تـشاء

إنـما الإنـسانُ فكـرٌ وعَمَـل ... يَـصْدعُ الظلـماءَ في نـور الأمـل

أمـل الإنـسان في القلـب ضـياء ... وهـو في الكـفِّ جهـادٌ ومَـضاء

إنَّـه النَّـار التـي تَـشْتَعلُ ... إنَّـه الـنَّجمُ الـذي لا يأفُـلُ

إنْ دَجَـا باليـأس ليـلٌ غَيْهَـب ... يَـصْدَعُ الظُّلمـةَ هـذا الكوكـبُ

هـو وَحْـيُ الله يهـدي عبـده ... ويُرِيـه في الـدَّياجي قَـصْدَه

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٥٣).

هــو نــورُ الله في أفــق النجــاه هــو هــدي الله في هــذي الحيــاه

إنَّــه القُطــب إليــه يَنْــزِعُ كــلُّ قلــبٍ وإليــه يَفْــزعُ

إبــرةٌ تهــدي إلى قَــصْدِ الــسبيل تَقْــصدُ القُطْــبَ وعنــه لا تميــل

يــا دلــيلًا هاديًــا في كــلِّ واد أنــت سرُّ الله في كــلِّ فــؤاد

يَقْــدحُ القلــبُ إذا مــا خفقــا شررًا منــه منــيرًا مُحْرِقــا

فهــو نــورٌ وهــو نــارٌ يَلْــذَعُ يوضــح الــنَّهج وفيــه يَــدْفعُ

فأوْمُــلْ لخــيرٍ وصــابرْ لا تمــلّ إنَّــما الــدُّنيا رجــاءٌ وَعَمَــل

وقــضاءُ الله عــونُ الآملــين وهــو في عَــوْنِ الأبــاةِ العــاملين

لا يــردُّ الله قلبًــا آمــلا لا يــردُّ الله عبــدًا عــاملا

ربَّ عبــدٍ مخلــصٍ قــدْ أقــسما فــأبرَّ اللهُ مِنْــهُ القــسما[1]

وجهــادُ العبــد أولى أن يُــبر إنَّــه الفعــلُ عــلى القــولِ أبــرّ

إنَّ عــزمَ الحــرِّ فيــه قَــسَمُ مُــضْمَرٌ يَعْلَمُــه مَــنْ يَعْلَــمُ

قــد تــولَّى اللهَ هــذا المقْــسِمُ فــدعاه في يقــينٍ يقــسم[2]

---

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر: «ربَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره».

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٣٥٤).

المعراج[١]:

□ يقول إقبال:

وذَرَّةٍ طـار فيهـا الـشَّوقُ صـاعدةً ... تُغيرُ في عَرَصات الشَّمسِ والقمـرِ
يا رِفْقةَ المَرجِ! تلقى الصقرَ مُقدمـةً ... دُرّاجـةٌ تمـلأ الأنفـاسَ مـن شرَرِ
المسلمُ السَّهم، والأفـلاكُ غايتُـه ... سرائرُ الرُّوح في المعراج فـادَّكر[٢]
جهلتَ ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ أسرارًا فلا عجبٌ ... ما زال مَدُّك محتاجًا إلى القمـرِ[٣]

□ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا طغـى الـيمُّ فهيَّـا أقـدمنْ ... مـا حـاجتي مَلّاحـه والـسُّفُن
لقـد محـا سـحرَك تكبيـري فهـل ... تَقْوى على جحـوده يـا وَهِـن؟[٤]

المؤمن عالي الهمة:

□ قال عنه إقبال:

إنَّ للمـؤمن العجيـب الـشانِ ... كـلَّ حـينٍ جديـدَ شـانٍ وآنِ

---

(١) الذرة التي يملؤها الشوق تعلو علىٰ الشمس والقمر، والدُّرَّاجة إذا ملأ صدرها الحماس قاتلت الصقر، فإنما القوة الحق قوة الروح، لا شيءٍ يستعصي عليها.

(٢) يريد أن في المعراج سرُّ الروح. وهو رمز إلىٰ أنَّ المسلم سهمٌ هدفه الفلك.

(٣) جهلت أسرار الآيات في أول سورة النجم، التي يذكر فيها الوحي، وتقريب الرسول إلىٰ ربه. وليس جهلك عجيبًا، فإن نفسك لم تكمل، ولا تزال خاضعة لما يؤثر فيها محتاجة إليه، كما يحتاج البحر إلىٰ القمر في مدِّه «ديوان إقبال» (٢/ ٢٤).

(٤) «ديوان إقبال» (٢/ ٤١).

هـو في قولـه الـسَّديدِ وفي الفعـل ... عـلى الله واضـحُ البرهـانِ

فيـه قدسـيَّةٌ إلى جـبروتٍ ... ومـن القهـرِ فيـه والغفـرانِ

إنْ تُؤلَّـف هـذي العناصرُ كـان ... المسلمُ المستعلي عـلى الحِـدْثان

هـو تُـربٌ سـما يجـاورُ جبريـلَ ... ويـأبى الحلـول في الأوطـان

لـست تـدري بـسرِّه فـتراه ... قارئًـا وهـو صـورةُ القـرآن

فيـه عـزمٌ عـلى القـضاءِ دليـلٌ ... وهـو في العَـالَمِين كـالميزان[(١)]

هـو بَـرد النَّـدى بقلـب شـقيقٍ ... وبقلـب البحـار كالطُّوفـان[(٢)]

ليلـه والنهـار لحـنُ حيـاةٍ ... في انـسجام كـسورةِ الـرَّحمن[(٣)]

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ:

يبلـغُ المنـزلَ سـارٍ لا ينـامْ ... مُـسرجُ عـينَ هِزبْـرٍ في الظـلامْ

إنَّـما للعبـدِ تُمَنَّـى راحـةٌ ... لـيس للحـرِّ عـلى الأرض حمـامْ

□ ويقول عن الرجل العظيم:

هـو في الحـبِّ عميـقٌ ... وهـو في الـبُغْض عميـقْ

وهـو في المَجْمَـع خـالٍ ... ومِـن الحـشْرِ طليـقْ

---

(١) يقول إقبال في مواضع كثيرة: إنَّ عزم المؤمن من القدر أو هو مشير على القضاء والقدر، وإنَّ رأيه وعمله ميزان الصلاح والفساد في الحياة. وهنا يقول: إنَّ ميزان الأعمال في الدارين الدنيا والآخرة.

(٢) هو تارةً كالنَّدىٰ يبرد قلب الشقائق، وتارةً كالموج الهائج في البحر.

(٣) «ديوان إقبال» (٢/ ٥٣).

مثـــلُ شـــمع الحفـــل؛ في الحفـــل وحيـــد ورفيـــقْ [١]

مثلُ شمس الـصُّبح؛ فِكـرٌ ... فيـــه نُـــورٌ وبَريـــقْ

لفظـــه حـــرٌّ يـــسيرُ ... لكـــنِ المعنـــى دقيـــقْ

نظـــرٌ فيـــه ســـديدٌ ... عن بني العصر سحيقْ [٢]

□ويقول:

لـن يكـونَ الـشَّاهينُ عبـدَ بُغَـاثٍ ... ألحفظِ الأبـدانِ رُوحـي أُبـيرُ؟ [٣]

□وعن علوِّ همّة الزاهد في الدنيا يقول:

تُـذلُّ الحـوائجُ صـيدَ الرِّجـال ... تـرى الليـث كالثَّعلـب المحتقَـر

إنِ الـــذَّاتُ أيّـــدها فَقْرُهـــا ... فعنــدي وعنــدك مُلــك البَـشرْ

قِـــوامُ الـــشُّعوب بحُـــرٍّ فقـــيرٍ ... إلى سُـدّة المُلـك مـا إنْ نظـر [٤]

□ويقول لصريع الفرنجة دنيِّ الهمَّة:

مِـنْ تجـلّي الفـرنج نلـتَ وجـودًا ... فهـمُ منـك هـيكلًا قـد أقـاموا

ومن (الذات) هيكل التُّرب خـالٍ ... أنـت غِمـدٌ مُـذَهَّب لا حـسامُ

ووجــودُ الإلــه عنــدك ريــبٌ ... وأرى الريـــبَ في وجـــودك أنتـــا

---

(١) يكون في جمعٍ من الناس كأنه وحده، له فكره ونظره. مثل الشمعة في الحفل رفيقة الحاضرين، ووحيدةٌ بحرقتها ونورها.

(٢)«ديوان إقبال» (٢/ ١٠٣).

(٣)«ديوان إقبال» (٢/ ١٢٥).

(٤)المصدر السابق (٢/ ١٢٦).

إنَّما الكونُ جوهرُ (الذات) يُجْلَى ... فانظرنْ أيَّ جوهرٍ قد دفنتا[١]

꧁꧂

□ ويقول عنه أيضًا:

بلا دينٍ ولا تينٍ ... هوَتْ في الفخِّ رجلاه[٢]

دواءُ العاجزِ المغلوبِ ... «لا غلّابَ إلا هُو»

وصيَّادُ المعاني ما ... رَجَتْ في الغَرب عيناه

فضاءٌ مونِقٌ لكنْ ... غزالُ المِسك خلَّاه[٣]

يقوِّم ذاتَه سحَرًا ... بدمع العَيْنِ أوّاهْ[٤]

فهذا الزَّهْر أحسَنُه ... على الأمواهِ تلقاهُ

وديرُ الكون، زُونُ الرِّيـ ... ـح والألوانِ معناهُ[٥]

على الكُفار مُستوْلٍ ... وذو الإيمان مولاه[٦]

□ أمَّا عالي الهمة عنده فهو:

كالعقاب صَيْدُه للنَّيِّرَيْن ... في السماء طوفه بالخافِقَيْن[٧]

---

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٦).

(٢) يشير إلى مصطفى كمال واتِّباعه سياسةً لا دينيةً، واتِّخاذه الحروف اللاتينية للغة التُّركية.

(٣) لا يجد صياد المعاني في أوربة غزالاً مسكيًا يصيده فإنما هي فضاءٌ لا صيد فيه. أي: لا يجد المعاني الجميلة التي يحبُّها.

(٤) الأواه: المتعبِّد، الرقيق، كثيرُ الدعاء.

(٥) هذا العالم الذي هو معرض لأصنامٍ من الألوان والروائح، يستعبد الكفرَ، ولكنَّه مسخرٌ للمؤمن.

(٦) «ديوان إقبال» (٢/ ١٢٩).

(٧) المصدر السابق (٢/ ١٦٢). والنَّيِّرَان: الشمس والقمر. والخافقان: المشرق والمغرِبُ.

□ وعن عالي الهمة يقول:

قد عَلَا منزلة الشمس مقامًا ... ضاربًا في مسبح النجم خيامَا

□ ويقولُ عن عالي الهمَّة مشرقِ الإيمانِ قدسيِّ الضمير:

لا تحاولْ دركَ المعَالي بكاووسَ ... وخسرو في غابرِ الأزمانِ

طُفْ إذا شئتَ حَوْلَ ذاتِ: حرًّا ... لا تَطُفْ بالسَّريرِ والإيوان

قَدْ تباعَدْتَ عن مَقامِك حتَّى ... صِرْتَ في ذِلَّةِ الأسيرِ العَاني

لا تَسِرْ واهنَ الخُطى كبغاثِ الطيرِ بينَ الطُّلولِ والجُدْران

كُنْ نَظِيرَ الشَّاهين في القِمَم الشَّمَّاءِ لا في مسارِب الوُدْيَان

تتحرَّى الطيورُ عِنْدَ بناء العُشِّ أعلى الفروع في البُسْتان

لَسْتَ دونَ النُّسور بأسًا فحاولْ ... دارةَ النَّجْمِ أو ذُرى كِيوان

مِنْ مِهادِ الثَّرى إلى التِّسْعةِ الأفلاكِ فَوْقَ الزَّمان فَوْقَ المَكَان

غَيِّرِ العالمَ القديمَ وعَمِّر ... فيه دُنيا جديدةَ البُنْيان

والذي يَنْشُد الجِهاد فناءً ... في رضا الحقِّ وهو ماضي الجَنانِ

هو سرُّ الأقدارِ وهو قضاءُ الحقِّ في المُمْكناتِ والإمكانِ

فَتَمثَّلْ نضالَ أسلافِك الأمجادِ نَحْوَ العُلى بغيرِ تَوَاني

وتَدَبَّرْ كيف استهانوا بِبَذْلِ الرُّوح والمالِ في رضا الرَّحمن

أظْهِرِ الجَوْهَرَ الكريمَ مِنَ الأصداف واجْعَلْهُ باديًا لِلْعيَان

وتَحَرَّرْ مِنْ هيكلِ الماءِ والطِّين وَمِنْ ظُلمةِ الهوى والهَوان

واجعلِ الفطرةَ النقيَّة نبراسًا لعينيكَ بَيْنَ قاصٍ ودان

كُلُّ مَنْ ضاعَ حظُّه مِنْ جلالِ الحقِّ بَيْنَ الجُحودِ والنِّسيان
لَمْ ينَلْ طُولَ عُمْرِه مِنْ جمالِ الحقِّ غيْرَ الإبعادِ والحِرْمان
مبدأ العِشْقِ والصَّبابة قَهْرٌ وخطوبٌ موصولةُ الأشجان [(١)]
وهو مِنْ بعدها دلالٌ وتيهٌ بين طيبِ المثنى وَصَفْوِ الأماني
ويعودُ المحبُّ بالقُرْب محبوبًا وَيَنْسى لواعجَ الهِجْران
الوجودُ الأسمى هو المؤمنُ الحرُّ الأبيُّ الوفيُّ في كلِّ آنِ
وبقايا الوجودِ فيما سِواهُ مَظْهرٌ حائلٌ وظلٌّ فانِ
حِيْنَ يَدْعُو أنْ لا إلهَ سوى الله القديرِ المهيمنِ الدَّيَّان
يُذْعِنُ الكَوْنُ والمكانُ ولا يُشْرِقُ إلَّا بفوزِه القَمَرانِ [(٢)]

□ويقول عن العرب المسلمين عُلاةِ الهِمَم:

يا لها مِنْ ذِكرى لأمجادِ العَرَبْ ... آيةٌ كُبْرَى وتاريخٌ عَجَبْ
حرَّروا أقدارَهم بالعَزَماتِ ... في جميع الكَوْنِ مِنْ كلِّ الجهاتِ
فازْدَهى مِنْ نورهم كلُّ مكانِ ... وتغنَّى باسمِهم كلُّ زمانِ
لمْ تَدُمْ عُزَّى [(٣)] ولم تَبْقَ مناةُ [(٤)] ... هَوَتِ الأصنامُ تحْتَ الضَّرباتِ

---

(١) الأشجان: الهموم والأحزان.
(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٥٠- ٣٥١).
(٣) عُزَّى: صنم كان لبني كنانة وقريش، أو شجرة من السَّمُر كانت لغطفان بنوا عليها بيْتًا وجعلوا يعبدونها، فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه فهدم البيت وأحرق السَّمُرَة..
(٤) أحد أصنام العرب في الجاهلية.

حِيْنَ نادى المؤمنون (الله أكبر) زالَ كِسْرى وانْطَوَتْ أعلامُ قَيْصَر

أيُّ سيل هادرٍ عمَّ الصَّحارى أيُّ طوفانٍ جرى يغزو البحارَ

هؤلاءِ العَرَبُ الصِّيدُ الأباه وحَّدوا الخَلْقَ بتوحيدِ الإله

شعلةٌ مِنْ نورها الحقُّ أضاء مَنْ تحدَّى نارَها أضحى هَبَاء

قد أبادوا كلَّ شيطانٍ مريد وأزالوا كلَّ جبارٍ عنيد

وسَمَوْا فوقَ الدَّراري منزلا كلُّ هذا كانَ مِنْ أنوارِ (لا)[1]

بينما العالمُ كالعَظْم الرَّميم في سهوبِ الأرضِ أو دَيْرٍ قَدِيم

أنشؤوا دنياه في خلقٍ جَدِيْدْ وأقاموها على النَّهْجِ الرَّشيد

أيقظوا الدُّنيا بتكبير الأذان فجرى الحقُّ على كلِّ لِسان

كلُّ خيرٍ يُرتجى مِنْ غَرْسِهِم كلُّ نورٍ يُجْتَلى مِنْ شَمْسِهِم

كلُّ روض بالمعالي مُخْصبُ فهوَ مِنْ شاطئ نَهْرِ العَرَب

قد أزالَ العُرْبُ من لوح القُلوب نَقْشَ غير (الله)، علَّام الغُيوب

فأقاموا في شَمالٍ وجنوب ثورةَ الإيمانِ في كلِّ الشُّعوب

فترى في أُمم الغَرْب العبيد حطَّموا القَيْدَ بعزم مِنْ حَدِيْد

أعلنُوا الحربَ على ساداتِهم واستردُّوا أمْنَ حرِّيَّاتِهِمْ

***

يا مقيمًا في زوايا الحُجُرات يَحْشُدُ الألفاظَ حَشْدَ المَكْتَبات

إنْ تكنْ في مثل نيران الخليل أَسْمِعِ النّمرُودَ تَوْحِيْدَ الجليل

---

(١) لا: أي لا إله إلا الله.

والـذي تبـصرُه حـولَ الفَـضاء — لا يـساوي قَـدْرُه وزنَ الهَبَـاء
كـلُّ حـرٍّ في يديـه سـيفُ (لا)[١] — ثـمَّ لا يَقْبَـلُ عَنْـهُ حِـوَلا
فهـو للعليـاء دومًـا في صُـعُود — أمـرُه النَّافـذُ في كـلِّ الوجـود
أيهـا الـشادي بقـرآنٍ كـريم — وهـو في عُزْلَتِـهِ نـاءٍ مُقـيم
قـمْ واسْـمِعْه لكـلِّ العـالمين — قُـمْ وأبْلِغْـه البَرايـا أجمعـين[٢]

❊❊❊

عِـشْ ولـو يومًـا عزيـزَ المَطْلَـب — أجنبيًّـا عـنْ طريـقِ الأجْنَبـي
مَنْزِلُ الـشَّاهينِ في أوجِ الـسَّحاب — مـا لَـهُ يَـسْكُنْ في وَكْـرِ الغُـرَاب
لم يَـزَلْ في الـرَّوضِ ظـلٌّ وَثَمَـر — فـالتَمِسْ عُشَّك في أعـلى الـشَّجَر
كُنْ كحدِّ السَّيفِ في صِدْقِ المَضاء — واحْتَسِبْ نَفْسَكَ في كفِّ القَـضاء
إنَّ في رُوحِـك سـيلًا كالعُبـاب — يَنْـسفُ الـشُّمَّ ويهـوي بالهِـضاب
انـدفاعُ الـسَّيْل إثبـاتُ البَقَـاء — وسـكونُ اللَّيْـلِ معنـاهُ الفَنَـاء
أنـا لمْ أسـلُكْ إلى الفِقْـهِ سـبيلا — أتحـرَّى الحُكْـمَ فيـه والـدَّليلا
لم أكـنْ في الفَقْـرِ ذا فهـم دَقِيْـق — في سـلوكٍ بـين رُوَّادِ الطَّريـق
فكرةٌ جاشَ بهـا القلـبُ اضْـطرابا — ثمَّ لمْ أمْلِكْ عـن القَـوْلِ احْتِجَاجـا
كُنْـتُ في الـدِّين حَدِيْـدَ البَـصَر — رَغْـمَ مـا بي مـنْ قـصورِ النَّظَـر
وانجلـت واحـدةٌ بَـيْنَ مئـات — بَعْـدَ لأي مـن ألـوفِ المُشكِلات

---

(١) لا: أي لا إله إلا الله.

(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٥٦- ٣٥٨).

فـاغْتَنِمْ مـنْ فـاقتي حظًّـا يـسيرا ... فَعَـسَى ألا تـرى مِـثْلي فَقِـيرا
أيهـا الـشَّادي بقـرآنٍ كـريم ... وهـو في ركـن مـن البيـتِ مُقِـيْم
قُـمْ وأبْلِـغْ نـورَه للعـالمين ... قُـمْ وأسـمعه البَرايـا أجمعـين
إنْ تكُـنْ في مِثْـلِ نِـيرانِ الخَليـل ... أسْـمَعَ النَّمـرودَ توْحِيْـدَ الجَليـل
منْ لـهُ مـنْ ثـروة الهـادي نَـصيب ... فَهْوَ مـنْ جبريـلَ في الـدُّنيا قَريـب
يـا غريبًـا عَـنْ مقـام المُـصْطفى ... عُدْ إلى الحـقّ تَجِـدْ نُـورَ الـصَّفا (١)

❊❊❊

□ وعن الرجل الحرِّ من كل قيود الأرض، عالي الهمة يقول:

فَوْقَ مسرى الـنَّجْمِ للحـرِّ هَـدَفْ ... وِرْدَهُ في كـلِّ حـينٍ لا تَخَـفْ
آمِـنٌ في سِـلْمِه في حَرْبِـه ... رأسُـه في الكـفِّ لا في جَيبِـه
عَـرَفَ اللهَ فَلَـمْ يَرْهَـبْ سِـواه ... كيفَ يخشى الخَلْقَ منْ خافَ الإلـه
لا يـرى قـطُّ مَـعَ البُـؤْسِ المريـر ... عَبْـدَ سـلطانٍ ولا ظِـلَّ أمِـيْر
جَمَـلٌ في البِيْـدِ موصـولَ الـصِّيام ... يَحْمِـلُ الأثقـالَ والـشَّوْكَ طَعـام
هُـوَ نَـبْضٌ في عُـروقِ الأمَـلِ ... وهـو سَـعْيٌ في طريـق العَمَـلِ
مـنْ عـلا تكبـيرُه مِـنْ غـير تَـاج ... يُلْـزمُ التيجـان تقـديمَ الخَـراج
قَـدْ ذكَـتْ نيرانُنـا مِـنْ جَمْـرِه ... وَجَـرَتْ أنهارُنـا مِـنْ خَمْـرِه
جنَّـةُ الـوَرْدِ شَـذًا مِـنْ سِـحْرِه ... شـعلةُ المَجْـدِ سـنًا مـنْ فكـره

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٦٢).

وتــرى في قــصرِهِ ربَّ الــسَّرير راعــشًا مــنْ سَــهْمِ عُرْيــانٍ فَقِــيْر

شــأْننا في الــدِّين لا يعــدو الخَــبَرْ وهــو في الــدِّين شُــهودٌ ونَظَــرْ

نَحْنَ عند الباب نستجدي الأماني وهـو في الـدَّار وفي طِيْـبِ المَجَـاني

أصْــبَحَ الــدَّيرُ لــدينا مَقْــصدا نحــنُ لِلْغَــيْرِ نبيــعُ المَــسْجِدا

وهو يُـسْقَى مـنْ يمـينِ المُـصْطفى كــوثرًا عَــذْبًا بــه الــوردُ صَــفا

في ضــميرِ الحــرِّ تكبــيرُ الإلــه في جبــينِ الحــرِّ تقــديرُ الأُمــم

نحــنُ للإفــرنج أسْــلَمْنا القِيــادا واتخــذناهُم لــدى الجُــلَّى عَتَــادا

وابتغينــــا عنــــدهم عِزَّتنــــا وجعلنـــــا ودَّهـــــم قِبْلتنـــــا

وشـــعارُ الحـــرِّ عـــزمٌ وإبـــاء رزقُــه مِــنْ يــدِ جبَّــار الــسَّماء

فلغــير الله مــا مَــدَّ اليمــين لغــــير الله لم يَحْــــنِ الجَبــــين

متعــةُ الــدُّنيا لنــا كــلُّ المَــرام ثــمَّ يــأسٌ ثُــمَّ قَــبْرٌ وظــلام

هــو في الحــقِّ جهــادٌ وثبــات موتْــه إحــدى مقامــاتِ الحَيــاة

إنَّنــا نبنــي قــصورًا في الخيــال ونــرى المُمْكــنَ في حُكْــمِ المُحــال

وهــو بــالأعمال في كــلِّ مجــال لا يُـضيعُ العمـرَ في زَيْـفِ الخيـال

لــو رمــى شُــمَّ الجبــالِ العاتيــه حــوَّل الــصَّخْرَ بحــارًا جاريــه

اجتنــبْ صُــحْبَتَنا واسْــعَدْ بــه إنْ تُــرِدْ خــيرًا فكــنْ مــن صَــحْبِهِ

الــزَمِ الحــرَّ ودعْ أهــلَ البَــوَار اهـدمِ الـدَّارَ وكـنْ صـاحبَ دار

صحبةُ الحرِّ إلى العلياءِ باب هي خيرٌ لكَ منْ ألفِ كِتاب

صحبةُ الحرِّ تنيرُ العالم ولَقَدْ تَخَلَّق مِنْهُ آدم

قُرْبُه للعزِّ أصفى مَنْهَلِ لكَ في البَحْرِ غنىً عنْ جَدْوَلِ

هُوَ يَوْمَ السِّلْم في أوطانه آيةُ التغييرِ في عُمرَانه

بجديد الفِكْرِ يحيي عَصْرَهُ مِثْلَما يَنْشُر رَوْضٌ عِطْرَهُ

وَهْوَ يومَ الحَرْبِ في مَيْدانها ثورةُ البُركان في نِيرانها

سيفُه يحفِرُ فيها قَبْرَه أو يتمُّ اللهُ فيها نَصْرَهُ

ليسَ زَرْعُ القلبِ في ماءٍ وطين هينًا إلَّا لأصحابِ اليقين

إنْ أردْتَ العَيشَ حُرًّا صافيا فالتزمْ في الدَّهر حرًّا هاديا[1]

☐ وقد أعاد صياغتها الشيخ الشاعر الصاوي شعلان في رباعيَّاتٍ فقال:

أقْبَلَ الحرُّ على يومِ الفِداء ومضى يرمي على النَّجْمِ الهَدَفْ

وكأنَّ الوَحْيَ لَقَّاهُ النِّداء منْ سماءِ اللهِ أقدِمْ لا تَخَفْ

❊❊❊

أشْرَقَ التوحيدُ نورًا في هداه وسرى التحريرُ مِنْه في الضَّمير

أتُرى منْ لم يَخَفْ غيرَ الإله يَرْهَبُ السُّلطان أو يَخْشى الأمير

❊❊❊

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٦٣- ٣٦٤).

روحُــه تكــشفُ أسرارَ الخُلــود عن حياةٍ مـا لهـا في الـدَّهْرِ مَـوْت
يرسلُ التكبيرَ مِـنْ قلـبِ الوُجـود لغـةٌ تُغْنيـه عـن حَـرْفٍ وَصَـوْت

سلْ ملوكَ الأرضِ عن دُنيا الغُـرور في الملاهـي خَلْـفَ أسـتارِ الحريـر
زَلْـزَلَتْهُمْ بـين أبـراج القُـصور ضربـةٌ مِـنْ سَـهْم عُريـانٍ فقيـر

ضَرَبَ البَحْـرَ كموسـى بعـصاه ورمى الصَّخْرَ حُطامًا مِـنْ زجـاج
ذلــك الأوَّابُ في ثــوبِ تقــاه ألــزمَ التِّيجــان تقــديمَ الخَــرَاج

قَـدْ جَـرَتْ أنهارُنـا مِـنْ بَحْـره وأضــاءتْ نارُنــا مــنْ خمــره
بـسمةُ الـوَرْدِ شـذا مِـنْ عِطْـرِهِ شـعلةُ المَجْـدِ سـنا مِـنْ فِكْـرِه

شـأْنُنا في الـدِّين لا يعـدو الخَـبَرْ وهــو في الــدِّين شــهودٌ ونَظَـرْ
نحنُ عند البـاب في ظـلِّ الـشَّجَرْ وهــو في الـدَّار وفي مجْنَـى الثَّمَـرْ

لبنــي الإفــرنج في الــدُّنيا عَبِيْـد في قيــودٍ مــن حريــرٍ أو حَدِيْـد
كــمْ تغنَّــى بمزايــا بايزيــد ذو ريــاءٍ وهــو للــوردِ مُرِيْــد

في حديثِ المُصْطفى شمسُ الهُدى كــلُّ أرض مَــسْجدٌ للمــؤمنين
كيـف تبنـي فـوق أرضٍ مـسجدًا إنْ تركــت الأرض للمُـستَعْمِرين

لَيْس حُرًّا مَنْ يُرَى مُسْتَعْبَدًا ... لِسَوى مَنْ في يديه رِزْقُهُ

سَيِّدٌ مَنْ ليس يرضى سيِّدًا ... ما خَلَا ربِّي فكُلٌّ عَبْدُه

❊❊❊

في ضمير الحُرِّ تكبير الإله ... في جبين الحُرِّ تقديرُ الأُمم

مَوْتُهُ أعلى مقاماتِ الحياه ... تَرْفَعُ الدنيا لذكراهُ العَلَم

❊❊❊

هو يوم السِّلْم في نَهْضتِه ... بيَدِ الإصلاح يَبْنِي عَصْرَهُ

ويُذِيع الخيْرَ في أُمَّتِه ... مِثْلَمَا يَنْشُر روضٌ عِطْرَه

❊❊❊

وَهْوَ يومَ الحَرْب في سَاحَتِهِ ... سيفُه يَحْفِرُ فيها قَبْرَه

يتحدَّى الموتَ في وَثْبَتِهِ ... أوْ يُتمُّ العَزْمُ فيها نصرَه

❊❊❊

إِنَّ غَرْسَ الحقِّ في نورِ القُلُوب ... غَيْرُ شأنِ الزَّرعِ في ماءٍ وطينْ

فالتَمِسْ للمجْدِ أحرارَ الشُّعوب ... إنهم في الدهرِ أعلامُ اليقينْ [(١)]

❊❊❊

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ:

وأيةُ أمةٍ ترجو الأماني ... بلا جَهْدٍ وتمضي في رُكُودِ [(٢)]

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٦٤- ٣٦٦).

(٢) الرُّكود: الهدوء والسكون.

يكـــونُ مـــصيرُها عَـــدَمًا ومَحْـــوًا ... ويـنــسى نَقْــشَها سِــفْرُ الوجــود

□ ويقول عن القلب عالي الهمة:

فيــا مَــنْ هــامَ بالــدُّنيا متاعًــا ... وأصــبحَ همُّــه شــبعًا وريًّــا(١)

تَطلَّــبُ في حُــضورِ الحــقِّ قلبًــا ... وفيًّــا صــادقَ الإيــمانِ حيًّــا

فهـــذا القلـــبُ للـــدُّنيا سراجٌ ... لـــه أمـــمُ الخليقـــةِ في انتظـــار

وهـــذا القلـــبُ مَعْدِنُـــه تـــرابٌ ... وَجَـوْهَرُه فريـدٌ في الـدَّراري(٢)

يفـــوقُ الـــسَّبْعَةَ الأفـــلاكَ قَـــدْرًا ... بهمَّتِـــه ولا يـــألو رُقِيًّـــا

يقـــيمُ عـــلى الثَّـــرى ولـــه أمـــانٌ ... إلى العليـــاء أدناهـــا الثُّرَيَّـــا(٣)

وفي حرب ضروس(٤) كـلَّ حـينٍ ... مـــع التَّـــاريخ مُتَّـــصل النِّـــضالِ

بـــضَرْبَتِهِ الجبـــالُ تـــصيرُ عِهْنًـــا ... وَتُرْهِبُـــه الـــضراغِمُ في الجِبَـــالِ

تـــرى لِـــشعورِه المـــشبوبِ نـــارًا ... تُوْقَـــدُ مِـــنْ حرارَتهـــا ذُكـــاءُ

لـــه ممَّـــا ســـوى التنـــورِ خبـــزٌ ... ومِـــنْ غَـــيْرِ الطَّعـــامِ لـــه غَـــذَاءُ

---

(١) ريًّا: مصدر رَوِيَ، أي: شَرِب.
(٢) الدراري، جمع الدُّرِّيّ: نسبة إلى الدُّر في حُسنِه وبهائه.
(٣) الثُّرَيَّا: مجموعة النجوم.
(٤) حرب ضروس، أي: شديدة مُهْلِكَة.

حــضورُ الحــقِّ يملــؤه يقينًــا فمنــه الخــوفُ مَحْـضًا والرَّجــاء
شــهودُ الحــقِّ إنْ هُــوَ غــابَ عنــه فلــيسَ لــه عــلى الــدُّنيا بَقَــاءُ

طيـف الجلـواتِ والخلـوات طُـرًّا يــضيء الكــونَ بــالرأي المُنــيرِ
ومــا للعِــشْق في سُــكْرٍ وَصَــحْوٍ دليــــلٌ غَـــيْرَ أواب فَقِـــيْرِ

فــصاحبْ مــنْ لــه قلــبٌ عظــيمٌ لعلَّــك تــدركُ الأمــرَ العظــيما
وُلِــدْتَ عــلى مهــاد الــذُّل عبــدًا فجاهــدْ ثــمَّ مُــتْ حُــرًّا كــريمًا [١]

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَدْ بَلَوْتُ الـرِّقَّ [٢] مُنْـذُ الابتـدِاء لَمْ يكــنْ مهــدي في أرضِ الحَــرَم
مِنْ رسولِ الله يَعْـروني الحَيَـاء [٣] حِـيْنَ يَـدْعُو باسـمِه الغـالي فَمِـي

لــكَ قلــبٌ ومــع القَلْــبِ ضــمير أمْ غدا صــدرُك للأصــنام دَيْــرا [٤]
أنْــتَ للغَاصــبَ محكــومٌ أســير تَحْتَ حُكْم الغَيْرِ لــن تَـصْنَعَ خَـيْرا

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٧٢- ٣٧٣).
(٢) الرِّق: العُبوديَّة.
(٣) يعروني الحياءُ: يُصيبني الحياءُ.
(٤) دَيْرًا، مصدر من دَارَ يدورُ، أي: طَافَ حولَه.

تـدَّعي الحُـبَّ لخـير الأنبيـاء أكْـذَبُ الأقـوالِ مـا لَمْ يَبْـدُ فِعْـلا
وإذ لَمْ يَتبَـع القـولَ اقتـداء لَمْ يكـن لِلْحُـبِّ أوْ لِلْقُـرْبِ أهـلا

❀❀❀

لَـذَّة الإيـمانِ عنـد المـؤمنين قَـلَّ أنْ يُـدْرِكَها عبـدٌ ذَليـل
مـسلمٌ مُسْتَـسْلمٌ للطَّـامعين آزريٌّ[1] حـادَ عـن ديـن الخَليـل

❀❀❀

صـلواتُ الحـرِّ بعـثٌ للـشُّعور فهـي مِعْـراجٌ إلى العَـيْشِ الكَـريم
وصـلاةُ المَـرْءِ في غـير حُـضُور عـادةٌ جوفـاءُ في رسـم قَـدِيْم

❀❀❀

إنَّ للأحـرار في العِيْـدِ الـسَّعيد مَظْهَـرُ العِـزَّة في دُنيـا وَدِيـن
ولدى الأسرى وفي عـيشِ العَبِيْـد يُـصْبحُ العِيْـدُ هَجْـوَ المُـؤْمنين

❀❀❀

إلى الأمة العربية الإسلامية:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيتها الأمةُ العربية! التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود، مَنِ الذي سَمِعَ العالم منه نداء «لا قيصر ولا كسرى» لأول مرة في التاريخ، ومنِ الذي أكرمه الله بالسَّبْقِ إلى قراءة القرآن؟ مَنِ الذي أطلعه على سرِّ التوحيد، فنادى بأعلى صوته: «لا إله إلا الله»، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي أضاء به العالم؟ هل العلم

---

(١) آزريٌّ: نسبة إلى آزر والد سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

والحكمة إلا فتاتُ مائدتكم، وهل قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] إلا وصف حالكم، إنَّ نَفَسَ ذلك الأمي أعاد على هذه الصحراء الخِصْبَ والنمو، فأنبتت الأزهار والرياحين، إنَّ الحرية نشأت في أحضانه، وإنَّ حاضرَ الشعوب ليس إلا وليد أمسِه، إنَّ الجسد البشري كان بلا قلبٍ وروح، فأعطاه القلب والرُّوح، وكشف اللثام عن جمال وجهه، إنَّه حطَّم كلَّ صنم قديم، وأفاض الحياة على غصنٍ ذاوٍ من أغصان العلوم والمدنية، وأنجب أبطالًا وقادةً مؤمنين، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل، فتارةً يدوِّي الأذان في ساحة الحرب، وتارةً يتجلَّى الأذان بقراءة «الصافات» بين صليل السيوفِ وصهيلِ الخيول، إنَّ سيف البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي، ونظرة الزاهد الأواب كأبي يزيد البسطامي مفتاحان كنوز الدُّنيا والآخرة.

إنَّ العقل والقلب يجتمعان تحت لوائه، إنَّ العلم، والحكمة، والشرع، والدين، والملك والإدارة، ولوعة القلوب مقتبسةٌ من نوره، وليست «الحمراء» في غرناطة، وقصر «التاج» في آكره [(١)]، اللذان خضع لجمالهما وجلالهما كبار الفنانين الناقدين، وعظماء العباد الزَّاهدين، ليس إلا صدقةً من صدقات بعثته، ومظهرًا من مظاهر عبقرية أمته، إنَّ بعض مظاهره تجلَّى في سموِّ ذوق أمته، وسلامة تفكيرها، وجمال فنها، أما باطنه فقد تقاصر عن إدراكه كبارُ العارفين.

لقد كان الإنسان حفنةً من تراب، وقبضةً من أشلاءٍ وعظام، لا يدري ما الكتاب، ولا الإيمان، فعرَّفه بالعلم والإيمان، وأذاقه لذة العبادة

---

(١) تاج محل الذي بناه جهانكير، ويُعدُّ اليوم من العجائب السبعة في العالم.

والإحسان، فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء».

□ ثم يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيها العرب قد منَّ الله عليكم؛ إذْ جعلكم مثل السيف البتار أو أحَدَّ منه، وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصَّحراء، تركبون عليها، وتظعنون بها، ثم انعكست الآية، فسخر الله لكم المقادير، فضلًا عن الإبل، فأصبحتم من مالكي أعنَّتها، فلو أقسمتم على الله لأبرَّكم، وهنالك دوت تكبيراتُكم وصلواتُكم، وزمزمت جلبةُ حروبكم ومغازيكم بين الخافِقَيْن، فارتجَّ بها ما بين الشرق والغرب، فما أحسن تلكَ المُغامرات، وما أجملَ تلك الغزوات».

وبعدما يمدحُهم الشَّاعر، ويذكرُ حماسَتهم الإسلامية، وغضبتهم المضرية في الله ورسوله، ويبدي فرحَه وسروره، يقف برهة، يملكه الحزن والتألم بما يرى من خمود العرب بعد النشاط، والإحجام بعد الإقدام، والفُرْقة بعد الوَحْدَة، والعبودية بعد السيادة، والاتباع بعد القيادة، ويقبل إليهم مخاطبًا معاتبًا، ويقول: «أسفًا على هذا الخمود والجمود، أيها العرب! ألا ترون إلى الأمم الأخرى، كيف تقدَّمت وسبقت! أما أنتم فما قَدَّرْتُم قَدْرَ هذه الصحراء التي نشأتم فيها، وهذه الحرية التي ورثتموها، كنتم أمَّةً واحدةً، أمَّةَ الإسلام، فصرتم اليوم أممًا، وكنتم حزبًا واحدًا، حزب الله، فأصبحتم أحزابًا، لقد فرقتم جمعَكم، ومزَّقتم شملكم، وانقسمتم على أنفسِكم.

□ اعلموا أيها السادة! أنَّ منْ ثار على شخصيته وكرامته، وفقد الثقة بنفسه مات، ومُحي من الوجود، ومن فرَّ من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء، وتطفَّل على مائدتهم، عوقب بالهوان والشَّقاء، والطَّرْد والجلاء،

ألا إنه لم يجنِ عدوٌّ على عدوٍّ مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم، ولم يُسئ أحدٌ إلى أحدٍ إساءتكم إلى أمَّتكم، إنكم آذيتم روحَ رسول الله ﷺ بصنيعكم، فهي متألمةٌ متوجِّعةٌ شاكيةٌ مستغيثة».

□ الشاعر عارف بمكائد الإفرنج، وما لديهم من سهامٍ مسمومة، وحبائلَ منصوبة، فيُرسل صيحته، يُنذر المسلمين من المصير المُظلم المؤلم، ويقول: «مَهْلًا أيها الغافلون! إيَّاكم والرُّكونَ إلى الإفرنج، والاعتمادَ عليهم، ارفعوا رؤوسكم، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم، إلَّا أنه لا حيلة لكم ولا وزر إلَّا أن تطردوهم عن منهلكم، وتذودوهم عن حوضكم، إن حِكمْة الغرب قد أَسِرَت الأمم، وتركتها سليبة حزينة لا يتملك شيئًا، إنها مزَّقت وحدة العرب، واقتسمت تراثهم، إنَّ العرب لما وقعوا في حبالهم تنكَّر لهم كل شيءٍ، وقَسَا عليهم هذا الكون، ولم يَجِدُوا من يرثي لهم، ويرفُق بهم، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت وضاقت عليهم أنفسهم».

□ ثم يقول للعرب المسلمين: «إِنَّ الله قد رزقكم البصيرة النافذة، ولا تزال فيكم الشرارة كامنة، فقوموا أيها العرب! ورُّوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرَّة أخرى، إنَّ منبع القوة ومصدرها هو الدين، منه يستمد المؤمن العزم واليقين، وما دامت ضمائركم أمينة للسرِّ الإلهي، فيا عُمَّار البادية! أنتم الحُرَّاس للدِّين، وأمناء الله في العالمين.

إِن غريزتكم العربية والإسلاميةِ ميزانٌ للخير ميزانٌ للخير والشر، وأنتم ورثة الأرض، إذا تألَّق نجمكم في آفاق السماء أَفَلَتْ نجوم الآخرين، وطُوِي بساطُهم، لن تسعهم الصحراء والفيافي، فاضروا

خيمتكم في وجودكم، الذي يَسَع الآفاق، كونوا أسرع من العاصفة، وأقوى من السَّيْل، حتى تُسْرِع ركائبكم في مضمار الحياة، وتَسْبِق الريح..

فيا رجلَ البادية وسيد الصحراء! عُد إلى قوَّتك وعزَّتك، وامتلك ناصيةِ الأيام، وخذ عِنان التاريخ، وخذ قافلة البشرية إلى الغاية المثلى».

فَكِّروا في عَصْرِكُمْ واستبقوا ... طالما كنتم جمالا الأعصر
واملؤوا الصَّحْراء عزْمًا واخلقُوا ... مَرَّةً أخرى بها رُوْحَ عُمَر [١]

تمساحٌ يُعلِّم صغيره علوَّ الهِمَّة:

□ قال إقبال:

وللتمْساح هَذَاكَ الكَلَامُ ... «لزومُ الشَّطِّ في ديني حرامُ»
عَنِ الشطِّ ابتعِدْ، موجًا تسلَّقْ ... نَعِش في بحرنا وَبِه نَنَامُ

***

وهذا البحْرُ في صَدْرِ حَمْلَتَه ... وذا الطوفَانُ في حَرْب غَلَبْتَهْ
وَلَوْ في بُرْهَةٍ أَعْيَا وأَغْفَى ... لكان مقاتِلًا مَا إن قَتَلْتَهْ [٢]

ثُر بهمّة قلبك:

□ قال إقبال:

وهذا القلبُ بَحْرٌ مِنْكَ يَسْكُنْ ... وَمِن جَرَّاك [٣] فيه الدُّرُّ يَكْمُنْ
فثُر يا موجُ واحذرْ مِن سُكُونٍ ... فهذا البَحْرُ دَارًا منك يَحْسُنْ

---

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٨٨).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٨٠).
(٣) مِن جَرَّاك: من أجلك.

إلى ذاتٍ لـك الـدَّارَيْن فاجْـذِبْ ... أعَـنْ ذاتٍ تُـشرِّقُ أوْ تُغَـرِّبْ

ويومَـكَ مـنها نـورًا لتُبـصِرْ ... وهـذا النُّـورُ يومَـكَ لا تُجَنَّـبْ[١]

لا يبكي الرجال:

□ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مِـن التـبريحِ لا يبكـي الرجـالُ ... بـصَرْف الـدَّهْر يومًـا لم يُبَـالُوا[٢]

وقـد تبكـي ولكـنْ لـست مـنهم ... لدمْعٍ من لظـى الـشوق انهِـمالُ[٣]

ومَـن في محنـةٍ نَـسِي الفنـاءُ ... ولـوْ شـهدته في المـوت الـسماءُ[٤]

وأنـت بموتـه هـذا جـديرٌ ... وإلَّا فلتمـتْ موتًـا تـشاءُ

تُرابُـكَ وَهْـوَ عـن روحٍ غريـب ... غصونك ليس يرويها صبيبُ[٥]

عليـك بحرقـةِ الأنفـاس واسـعد ... فمبـتهج بهـا الـصدر الكئيـب[٦]

القلب العَلِيُّ الهمة ووارداته:

بِـلَا شَـطٍّ خِـضَمٌّ كـانَ قَلْبَـا ... يثـيرُ بهيبـة الأمـواجِ رُعْبَـا

---

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٤٨٤).

(٢) التبريح: مِنْ بَرَح به الأمرُ: إذا أجهده وآذاه.

(٣) انهمل الدمع: سال.

(٤) المحنة: بمعنى الامتحان والشدّة. وفي هذا احتمال التلويح إلى من يموتون من أجل عقيدة يعتقدونها.

(٥) الصَّبيب: المصبوب. والمقصود به هنا الماء.

(٦) «ديوان إقبال» (٢/ ٤٨٥).

بِسَيْلٍ مُغرِقٍ سَهْبًا وسَهْبًا حبابٌ فيه بالأفلاكِ يعبًا؟[١]

وينجح سعيُه دَهْرَ مُثَابِرِ بصونِ الذات عِمْلاقٌ يجاهِرْ

وصُنْ للقلبِ سُلطانًا وفقرًا فهذا البحرُ قد صان الجواهِرْ

قِوَي للذاتِ يومًا ما بَلَوْتَا وقَيْدًا بعد قيدٍ ما حَطَمْتَا

يدومُ العقلُ للإنسان قَيْدًا إذا في صدرِه القلبُ افتقَدْتَا[٢]

الشاهين[٣] :

جزتُ في الأرض بلدةً بعد أخرى ثمْ ألْقَيْتُ كلَّ شيءٍ ورائي

ذلكَ العالمُ الذي زعموه ليس يقتاتُ غير حَبٍّ وماءِ

أنا نَجْلُ الصَّحراء والزُّهدُ ديني وهما في سجيَّتي ودمائي

أجْهَلُ الزَّهرَ والنَّسيم وما في لوعةِ العندليب عند المساء

ورجالُ البُستان تغري ولكنْ ليس تُغْري منشَّأً في العَراء

أين مجدي إذا شقيتُ لجوع وأذلَّتْ حمامةٌ كبريائي

بافتراسي أصونُ عزَّة وجهي وأروِّي حماستي وإبائي

---

(١) الخصم: البحر. السهب: الأرض المنبسطة. والحباب: الفقاقيع التي تعلو الماء. والشاعر يريد ليقول: إن الأفلاك كلها لا تُساوي فقاعةً واحدة من إرادات القلب عالي الهمة وارداته.

(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٤٨٧).

(٣) الشاهين: نوع من الصقور، وهو الطَّيْر المختار عند إقبال؛ لأنه لا يبني لنفسه عُشًا يعني أنه زاهد، ويطير إلى الأعالي، وليس نجيلاً ويقنع بالزهيد، ولا يأكل مما يقنصه الآخرون.

كُلُّ طيرٍ له من الأرض عشٌّ وأنا ها هنا حليف مضائي
كيف يبني قلندر الطَّير عشًا وهو الفَرْدُ في رحابِ السَّماء [(١)]

النِّسْر والنَّملة:

قالت النَّملة للنِّسر الذي مرَّ يومًا ما على وادي النَّملْ
أنت ترعى في بساتين النُّجوم وأنا في شقوة العيش المُذِلْ
قال: لكن أنا لا أبحث عن مؤني مثلك في هذا التُّراب
لستُ ألقي نظرةً حتَّى ولا للسمواتِ التي فوق السَّحاب [(٢)]

ودَنِيُّ الهمّة الذي يخوض في الدين ويُجادل في الكتاب:

▢ قال إقبال:

ألا ترثي لعُصفورٍ عن الطَّيران قد مُنعا
إذا استخفى وحاول أنْ يطيرَ لوَحْدِه وقعا
يحاولُ أن يكون فؤادُه بيتًا لجبريل
وليس له من الطِّيران غير القَال والقيلِ
هل العصفورُ بين الشَّوك كالعصفور في الجنَّة
بربك هذه حريَّةٌ في الفكر أم جِنَّه
فقل لمفكِّرٍ حرٍّ أضلَّ الفكرُ وجدانَه
تعالى الله أن يلهمَ ما يُبْطِلُ قرآنه

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٥٤٧).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٥٥٠).

وهـــل يهـــدم مجـــدَ الـــشَّعْب غـــير الفِكْـــرَة الحـــرَّه

وهـــذي الفكـــرة البلهـــاء ســـيِّدُها (أبـــو مـــرَّه)[1] [2]

الإيمان وعلو الهمّة:

منبـــعُ الحـــبِّ هـــو الله العـــلي / هـــو مـــولى للبرايـــا وَوَلي

فأضـــيئوا الـــنفس مـــن إيمانهـــا / وانظـــروا الآيـــاتِ مـــن إحـــسانها

املؤوا الأنفـس مـن نـور اليقـين / وانظـــروا إبـــداعها في كـــلِّ حـــين

إنَّـــما الإنـــسان مـــن لحـــم ودم / فيـــه قلـــبٌ كـــسراج في ظلـــم

ذلـــك اللحـــم إلى مـــاءٍ وطـــين / ذلـــك النُّـــور لـــربِّ العـــالمين

فـــإذا أطفـــئ فيـــه ذا الـــضِّياء / فهـــو وحـــشٌ همُّـــه سفكُ الـــدِّماء

إنَّ هـــذا الجـــسمَ ذو وزنٍ وحـــد / وبهـــذا القلـــب كـــونٌ لا يُحـــدّ

هالكٌ مَنْ عاشَ في ضـيقِ الجسدْ / منْ يعـشْ في وسـعة القلـب خَلَـدْ

أنت في جـسمك مِـنْ طـينٍ ومـاء / أو قـــوام فيـــه لحـــمٌ ودمـــاء

أنـــت في الـــروح حيـــاةٌ وطـــماح / ورجـــاءٌ وجهـــادٌ وكفـــاح

أنـــت في قلبـــك سرُّ العـــالمين / فيـــه أمـــرُ الله للخلـــقِ مبـــين

لا يحـدُّ القلـبَ في الآفـاق حـدّ / إنَّـــه يكـــبرُ عـــن وزنٍ وعـــد

أيُّهـــا الغافـــلُ عـــن سرِّ الإلـــه / انظـــرنْ في القلـــبِ يومًـــا لـــتراه

---

(١) أبو مرّة: هو إبليس.

(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٥٥٠).

ضـاق عـنْ أمـرِ الإلـه العـالمُ
وحـواه القلـب، هـذا الخـاتمُ

كلُّ ما أدركـتَ مـنْ معنـىً جميـل
كلُّ مـا أبـصرتَ مِـنْ أمـرٍ جليـل

كـلُّ مـا أوعـاهُ تـاريخُ البـشر
مـن جـلالٍ وجمـالٍ وعـبر

كـلُّ مـا سُـجِّلَ عـن أخيـاره
كـلُّ مـا حُـدِّث عـن أبـراره

هـو نـورُ الله في القلـب الـصغير
أو فُيوض الله في الكونِ الكبـير [١]

هو نبضُ القلـبِ في الـدُّنيا انتـشر
هـو خفـقُ القلـب يرمـي بالـشرر

إنَّـما الإيـمان بالـدُّنيا يـدور
فهـو نـار في دجاهـا وهـو ثـور

فـاجعلوا مِنْـهُ تباشـيرَ المنـى
واملـؤوا الآفـاقَ منـه بالـسَّنا

ارفعـوا الأنفـسَ فيـه صـاعده
ارفعوهـا عـن معـانٍ خامـده

عـن متـاع وطعـام وشراب
ومعـانٍ كلُّهـا نبـتُ الـتُّراب

قيمـة الإنـسان قلـبٌ لِلْعُـلى
لا ربـاشٌ ومتـاعٌ للـبلى

كـلُّ سـاع قَـدْرُه بغيتُـه
وزنُـه بـين الـورى مَنْبَتُـهُ

أيُّهـا القـانع دودًا في تـراب
حلِّقَـنْ في جوِّهـا مثـل العُقـاب

أيُّهـا الـسادرُ في لهـوٍ وَدَدْ
مـنْ لهـذا الكـونِ في يـوم وغَـد

أنقذوا الإنـسان مـن هـذا الـرَّدى
أبصر الإنسان يا قـومي هـوى [٢]

---

(١) الكون الكبير: هو القلب.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٣٦٢- ٣٦٣).

أيها المسلم:

أيُّها المسلمُ يا مَنْ خُلقا ليكونَ الحقُّ فيه خُلُقا

انهضنْ يا صاح بالعبءِ الثَّقيل أنت في الأرضِ عن الله وكيل

قد قضى الخلَّاق بالأمر إليك قسم الأرزاق يومًا بيديك

سطِّرنْ بالحقِّ في هذي البلاد واحكمنْ بالعدلِ ما بينَ العباد

أنقذِ الإنسان من هذا الشَّقاء وأزل من أرضنا هذا العناء

املأ الأرض بحبٍّ وصفاء وسلام ووداد وإخاء

واحكمنْ بالحقِّ في أرجائها وانْعَمَنْ بالأمن في أفيائها

واملأ الآفاقَ حقًّا وسَنَا واملأنْ بالخيرِ آفاقَ الدُّنا

علِّم الإيمان والحقَّ العلي علِّم الإيثارَ والزهدَ الغني

زهدَ مَنْ يملك آلاف الألوف وهي في عينيه لغوٌ وزيوف

قولةٌ في الحقِّ أعلى عنده فعلةٌ في الخير أغلى عنده

كلُّ ما يمسكُ منها درهمُ كلُّ ما ينفق منها مغنمُ

هذهِ الأموالُ جمعًا يا بني لا تساوي ذلةَ الحرِّ الأبي

إنَّها اللعبةُ في عينِ الحكيم إنَّها الدِّرْهمْ في كفِّ الكريم

جَوهرًا يحسبُ من لا يعرفُ وهي عند العارفين الصَّدَفُ

إنَّما الجوهر قلبٌ قد أضاء وَسِعَ الأرضَ جميعًا والسَّماء

لا يعافُ الحرُّ أكلَ الطَّيبات آخذًا في الأرض كلَّ الثَّمرات

ربَّما استولى على أعدادها ربَّما أوفى على آمادها

آخــذًا أو معطيًــا لا يَــشرَهُ رابحًــا أو خــاسرًا لا يأبــه

عبَّــد الــدُّنيا ولا تــستعبده فاكهًــا في نعمــةٍ ولا تفــسده

حــائمًا للــرِّزقِ صــقرًا طــائرا لا يُريــغُ الــرزَّاق فيهـا صـاغرا

فــإذا شِــيْمَ هوانًــا فزعــا مثـل مـا يَفْـزعُ مـن قـد لُـسعا

واســتمدَّ العــزَّ مــنْ همَّتــه واســتثار النــار مِــنْ عَزْمَتِــه

فــإذا المــاءُ لهيــبٌ ودُخــان وإذا الحلــمُ ضرابٌ وطِعــان

وإذا سُــدَّ عليــه كــلُّ بــاب فــارقَ الــدُّنيا إلى غــير إيــاب

إنَّ مــوتَ الحــرِّ في ذلتــه وحيــاةَ الحــرِّ في عزَّتــه

فكُــنِ الــصَّقرَ الأبيَّ العاليــا وكُـنِ الحُـرَّ الكـريمَ الآبيـا[1]

الهمَّام.. عالي الهِمَّة:

بــيَّنَ الهَــمَّامُ مــنْ سرِّ الحيــاه وأزالَ الــسِّتر عــن نــورِ النجـاه

بَــيَّن الهَــمَّامُ مــنْ ســير الزَّمــان وأفاضَ النُّـور مـن هـدي القُـران

بــثَّ في الــنفس كلامًــا مــنْ شَرر منه عشقُ الحقِّ في القلـبِ اسـتعر

فتقــتْ نظراتُــه كــلَّ حجــاب فرأى الدَّوحـة مـن تحـت الـتُّراب

ضــاقتِ الآفــاقُ عــن نظراتــه ضــجَّت الأفــلاك مــن أنَّاتــه

وَصَــلَتْهُ نفخــةٌ مــنْ ربِّــه فــتجلَّى نــورُه في قلبــه

قـد ثـوى في قلبـه كـلُّ الجهـات واسـتوى في فكـره مـاضٍ وآت

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٦٤، ٣٦٥).

سـال في ألحانـه دمـعٌ ودمُ ... والتقـى المـاءُ عليهـا والضَّرم

ﮔﮕﮖﮗﮘﮙ

يـا بَـرودَ القلـب خـذْ مِـنْ نـارِهِ ... فالحيـاةُ الحـقُّ في أشـعاره

يا مواتَ القلب خذْ من رجعه [(١)] ... يـا جمـودَ العـين خـذْ مـن دَمْعـه

يـا صـغيرَ الهـمِّ خُـذْ مـن همَّتـه ... يـا كليـلَ العَـزْم خُـذْ مـن عزمتـه

يـا أسـيرَ اليـأسِ خـذْ آمالـه ... في دجـى اليـأس أثِـرْ أقوالـه

أيُّهـا المسلم صـعد في السماء ... وابلغـنْ في جوِّهـا أعلـى العـلاء

وخـذِ الإقـدامَ منـه والطِّمـاح ... وجناحًـا قـاهرًا هُـوجَ الرِّيـاح

ﮔﮕﮖﮗﮘﮙ

ذا ضياء الدِّين منْ خَلْفِ العُصور ... قـد أتـى في عزمـه نـارٌ ونـور

إنَّـه الإسـلام في عزَّتـه ... إنَّـه الإيـمانُ في قوَّتـه

أثـر القـرآن في أنـواره ... وضـيا [(٢)] الفرقـانُ في أسراره

□ ولله در القائل:

ومـا الـصحراء تحـويني ترابـا ... ولا الـدأماء يتطـويني عُبابـا

زجـاجي منـه ترتعـد الـصُّخور ... وأفكـاري بـلا شـطٍّ بُحـورُ

ولي في القلـب وهّـاجُ الـسَّعير ... دجـاك أنِـرْ بمـصباحي المنـيرُ

ﮔﮕﮖﮗﮘﮙ

---

(١) الرَّجع: المطر.

(٢) ضيا: أي ضياء.

□ ولله درّ القائل:

عُلُــوُّ الهمّــة المقــصودُ فــاعرف — كجبريــل الأمــين إذًا فَرَفْــرفْ
ومن ريح القميص [(١)] فنل نـصيبًا — تنـسَّمَ مـن ضـفافِ النيـل طِيبـا
وذاتــك نــيِّرَيْن [(٢)] بهــا تــصيدُ — ومــن تــدبيرها لهــا القيــودُ
لهيــب العــزم في دنيــاك أضرِمْ — بغـزوك مـا تـرى أو غـاب قـوِّمْ

□ والقائل:

أيهــا المــسلم يــا نــورَ الــسَّماء — كيــف لا تــشرقُ في أرض البــشرْ
أنــت ســلطانُ الليــالي لا كــما — قالــتِ الحمقــى أسرٌ للقَــدَرْ
إنَّ أصــنامي التــي في مَعْبَــدِي — مثلُهــا تلــكَ التــي في معبــدِكْ
لم تحطمْهــا يــدٌ غــيرُ يــدي — فترفَّــعْ عــن يــدٍ غــير يــدك
ذلــك الأعمــى الــذي تَقْــصِدُه — مــا لــه علــمٌ بــما في قلبــكَ
هــو لا يبــصرُ حتَّــى نَفْــسَه — وتــراه تحفــةً مــن ربِّــك

□ وقائل:

رجــلُ البــصيرةِ لا يــذوقُ هوانــا — سِــيَّان عبــدًا كــانَ أو ســلطانا
يختــالُ والــدرِّعِ الوحيــدةُ زهــدُه — لا يــشتكي زمنًــا ولا شــيطانا

---

(١) قال تعالى في سورة يوسف: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: ٩٣] وقد أرسل قميص يوسف من مصر إلى أرض كنعان، ووجد فيه يعقوب رائحة يوسف، فارتدَّ إليه بصره.
الريح: الرائحة. تنسم: شمَّ.

(٢) المراد بالنيرين الشمس والقمر.

□ والقائل:

عجبًا لأوربَّة	بالنَّهر تُغرينا
وبذاتِ لُجَّته	ضاعتْ معانينا
تُخْفي بهدأتها	تيَّارَها الماحي
عصفتْ فما تركتْ	وَكْرًا لتِمْساح
رأيُ العبيد بها	لا نطمئنُّ له
وتقرِّرُ الأحرارُ	الرأي مجمله
لا شيءَ يُقْنِعُنا	إلا اجتهادٌ وفي
يأتي بلؤلؤةٍ	من ذلك الصَّدَفِ
ذاكَ الرُّجاج إذا	عَجَنْتُه في الكِير
فأنا أسوِّيه	صخرًا بإكسيري
لي في الجهاد يدٌ	فرعونُ يخشاها
بيضاءُ ما مُدَّت	إلَّا لمولاها
أتظنُّ أوربة	أنْ ينتهي نَفَسي
أو تنطفي ناري	في قشِّها اليَبِسِ
ناري وقد أذكتْ	ما اخْضَرَّ من قصبي
لا شيءَ يمنعُها	من ذلك الحَطَبِ
متفاهمٌ قلبي	لا يعرف اليأسَا
الحبُّ عَلَّمَهُ	أن يُرْغِم النَّفْسا

مـــن عُـــسْرِ عَالَمِـــه ... يـــستخرج اليُـــسْرَا

لا قَـــصْرَ قيـــصره ... يرجـــو ولا كِـــسْرَى

مُتعَلِّـــقٌ أبـــدًا ... بركـــاب ســـيِّدِهِ

لا غـــزو للأقـــمارْ ... يَـــسْقُطْنَ في يـــدِهِ

هـــو ســـيِّد الأشـــياء ... هـــو خـــاتمُ الرُّسُـــل

هـــو شـــعلةُ الـــسَّارِي ... في هـــذه الـــسُّبُل

□ وما أجمل قول القائل:

إذا خُـــضْتَ معركـــةً فلْـــتكنْ ... كموســـى بخطوتـــه الـــضَّاربهْ

فَمِـنْ ﴿لَا تَخَفْ﴾ شـعلةٌ لم تـزل ... تـــصاعدُ في الأجمـــة اللَّاهبـــهْ

□ ولله درَّه إذْ يقول:

أتطلـــبُ جيفـــةً الغربـــانِ هاتيـــكَ الـــشَّواهينُ

إذا أخفْـــتْ مخالبهـــا ... فأعينُهـــا ســـكاكينُ

□ وما أحلى قوله:

لـستُ أخفيـك أنَّنـي لم يَـرُقْ لي ... ذلكَ العيشُ في طُقوسِ الـصَّوامع

لا يـصيد العنقـاءَ صـيَّاد سـوءٍ ... مُلِئَـــتْ نفـــسُه بـــذلِّ المطـــامع

طِرْتَ أم غُـصْت في سماءٍ وبحـرِ ... أم تراجعـــتَ عـــنها وجَبُنْـــتَ

لـيس يـدعو إلى الرِّثـاء وجـودٌ ... كـــالوجودِ الـــذي تعانيـــه أنـــتَ

وســـواءٌ، فـــلا تقـــل عـــربيٌّ ... كنـــتَ أو لم تكـــنْ فلـــيس يُفيـــدُ

ســـترى الـــذكرَ أجنبيًّـــا إذا لمْ ... يَـــكُ للـــذِّكْرِ في الفـــؤاد شـــهيدُ

❑ وقوله:

النخلة الشمّاءُ أختُك كُوِّنتْ | مما تبقّى من بقايا طينتِكْ
أتطوفُ في الحاناتِ تستقي كأسَها | وتطوفُ مخنوقًا بعلمانيتكْ
ما في مدارسِك الّتي ترتادُها | إلَّا بحوثُ مغفَّلٍ وبليد
سرُّ الدِّراسةِ في فؤادك كامنٌ | لو كنتَ تُتْقِنُ صَرْخَةَ التَّوحيد
لم تبق يا مسكينُ إلا فرصةٌ | لك في استعادة سِرَّكَ المفقودِ
اطلبْ علومَ القلب من أستاذها | واجهدْ لنيل مقامِكَ المحمودِ

❑ وقوله:

رأيتُ فلاسفةً بالألوف | رؤوسهُمُ تحتَ أطمارها
وذو الوحي يَرْفَع منْ رأسه | ويكشِفُ أوهام أفكارِها

❑ وقوله:

شبابٌ قعودٌ رقودٌ نيامْ | لعجزِ الأميرِ وفوضى الجنود
فوا أسفًا كيفَ هذي السِّهام | تطيشُ بلا هَدَفٍ في الوجود
يقولون بحرٌ عميقٌ عميقُ | وما أضيعَ البحرَ ما أضيعَهْ
بحثتُ به موجةً موجةً | وقلّبتُ قوقعةً قوقعهْ
أما آنَ تهجرُ أصنامَهم | أما آن تخرجُ من قُمْقُمِك
وغايةُ أصنامهم أنَّها | تزخرف هيكلَها مِنْ دَمِك

❑ ولله درُّه حين يقول:

أنا ابنُ المدينة وابنُ النَّجفْ | غبارُهما كان في مُقلتي

غبارُهمـــا قطـــرةٌ للعُيـــون … وأنفـــعُ طـــبٍّ لـــذي علَّـــةِ

مقـيمٌ بـرغم ريـاح القُـرون … ومـا كـان مـن مـستبدٍّ عتـي

قلق القلب عنوان علو همته:

□ قلقُ القلب وتطلُّعُه للكمال، عنوانُ علو همته، ولله ما أجمل قول القائل:

قلـقُ القلـب غـذاءٌ … وعطـــاءٌ حيـــويٌّ

إنَّ قلبًـا لـيس فيـه … قلـقٌ، قلـبٌ شـقيٌّ

□ وقوله:

لـستَ لهـذي الأرض والـسَّماءِ … وإنَّـما الـسَّماءُ والأرضُ لـكَ

ولـستُ موضـوعَهُما وإنَّـما … هـذان جانبـانِ مـنْ موضـوعِكَ

□ وقوله:

قلبُك الشَّمسُ فاقْبِسِ النُّورَ منه … كـلُّ مـا ترتجيـهِ نفـسُك عنـدكْ

كلُّ شيءٍ سـواك -أنـت- سرابٌ … شَـهِدَ اللهُ أنَّـك الحـقُّ وَحْـدَك

أرضنا يا عالي الهمّة تهفو لطهرك:

أرضُـنا هـذه لطُهْـرِك تهفـو … أنـتَ برهانهـا وأنـتَ هُـداها

قلبُـك المطمـئنُّ قبـضةُ نـورٍ … مَنَحـتْ أعْـيُنَ الـسَّماء مـداها

عـن يـدِ الله طِـرْتَ لا عـن غبـاءٍ … أنـتَ شـاهينُه وأنـتَ رسـولُه

ولـكَ الحُـورُ والملائـكُ صَـيْدٌ … ذاك ديـنٌ ولـيس شـعرًا أقولُـه

أُتـرى مـا لِلْمُـسْلمين نـصيبٌ … مـن جنـونِ الحـبِّ الَّـذي أطلقـوه

دمُهم كان للشُّعوب منارًا ... ثمَّ هُمْ في ظلامهم أهرقوه

ذاك أنَّ الضُّلوعَ خارتْ قُواها ... لم يعد بينها لهيبٌ يصولُ

سجداتٌ رتيبةٌ في خمولٍ ... وصفوفٌ مُعوجةٌ وذُهولُ

أيُّها المسلمُ المثابرُ يرجو ... ثوبَ تقواه كنْ نسيجَ حياتِك

كنْ وحيدًا ووحِّدِ الله واكشِفْ ... سحْرَ ألواننا بقوَّة ذاتِك

كُنْ كما الموجُ كلَّ حينٍ تراهُ ... يدرسُ الشاطئَ الَّذي يبتغيه

انتزعْ من يديه ثوبَك وارجِعْ ... لا تغرنَّك الإقامةُ فيه

المؤمن عالي الهِمَّة:

□ يقول إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المسلم حيٌّ خالد، لا يزول، ولا ينقرض؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم، وموسى، وجاء بها النبيون، وقد قضى الله بخلودها وبقائها، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة، وتكفَّلت بتبليغ هذه الرسالة!».

□ ويقول: «إن المسلم لا تعرفُ أرضُه الحدود، ولا يعرفُ أُفقُهُ الثغور، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب. فليست دجلة في العراق، ودانوب في أوربة، والنيل في مصر، إلَّا موجةً صغيرةً في بحره الواسع ومحيطه الأعظم، إنَّ له عصورًا في التاريخ لا يقضى منها العجب، وله حكاياتٌ ومواقفُ في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب، هو الذي أمر العصر العتيق -العصر الجاهلي- بالرَّحيل، وافتتح العصر الجديد، إنَّه إمام رجال الحبِّ والعاطفة، وفارس ميدان الإيمان والحنان، لسانُه لبنٌ وعسل، وسيفه علقمٌ وحنظل، يعيش في ميدان

الحرب وتحت ظلال السيوف متذرعًا بالتَّوحيد، كلما اشتد به الخطب وعضته الحرب التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله».

أمام مسجد قرطبة.. وذكرى أُولى الهِمَّة العالية:

□ قال إقبال حين وقف على مسجد قرطبة وناجاه: «لقد كشفتَ أيها المسجد العظيم! عن سرِّ المؤمن، ومثَّلتَه في العالم، وصورتَ ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهارَه، والرقةَ التي يَمضي فيها ليله، صوَّرت للعالم مقامه الرفيع، وتفكيره السَّامي، ومسراتِه وأشواقَه، وتواضعَه ودلالَه».

□ ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة، فيصف سموَّه، وأخلاقه، وسيرته في العالم، فيقول: «إنَّ يد المؤمن هي جارحةُ القدرة الإلهية، فهي غلَّابةٌ، فتَّاحةٌ، قاهرةٌ، ناصرةٌ، أصله من تراب، وفطرته من نور، عبدٌ تخلَّق بأخلاق الله، واستغنى عن العالمين آماله ومطامعه قليلةٌ، وأهدافه ومطامحه رفيعةٌ جليلة، ألقي عليه الحب، وكسي المهابة والجمال، دقيقٌ رقيقٌ في الحديث، قويٌّ نشيطٌ في الكفاح، نزيهٌ بريٌّ في السلم والحرب، إنَّ إيمانه هو النقطة الدائرة التي يدور حولها العالم، وكل ما عداه وهمٌ وطلسمٌ ومجازٌ، إنَّه الغاية التي يصل إليها العقل، ولبُّ لباب الإيمان والحبِّ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها وقوتها».

□ ويقبل مرةً ثانيةً على المسجد، فيخاطبه في إجلال وإكبار، ويقول: «يا مثابةَ هواة الفنِّ! ويا مقصدَ روَّاد الجمال! ويا مجد الدين الإسلامي! لقد سمت بك أرض الأندلس، وتقدَّست في أعين المسلمين، إنَّك فريدٌ في الفنِّ والجمال، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن، أين لنا أولئك الرجال، هؤلاء الفرسان العرب، أصحاب الخلق العظيم،

وأصحاب الصدق واليقين، الذين برهنت حكومتهم على أنَّ حكومة أهل القلوب خدمةٌ وزهادة، وليست حكمًا ولا ملكًا، هؤلاء العرب المسلمون الذي كانوا مربي الشرق والغرب، وكانوا أصحابَ عقولٍ حصيفةٍ وبصيرة نافذة، يوم كانت أوربة تتسكع في الجهل المطبق، والظلام الحالك، والذين لا تزال في الشعب الإسباني».

□ ولله درُّه حين يقول: «إنَّ كلَّ مأثرة وكلَّ إنتاجٍ، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقصٌ، وجديرٌ بالفناء والزوال السريع، وكلُّ رنةٍ أو نشيدٍ لم يَدْمَ له القلب، ولم تتألق به النفس قبل أن يصدر، ضرب من العبث والتسلية، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار».

ويبكي رحيل عُلاة الهمم عن «أسبانيا»:

□ فيقول في قصيدته «أسبانيا» التي كتبها في أسبانيا ساعة مغادرتها:

صوتُ المنائر في نسيمِك يَرْقُدُ وصداه في أرواحنا يترَدَّدُ
يا توءَمَ الحرم الشريف تطوَّفَتْ بكِ رُكَّعٌ من عاكفينَ وسُجَّدُ
سيماكِ من أثرِ السُّجود على الثَّرى طربٌ يفوحُ ونضْرةٌ تتجدَّد

❧❧❧

تحكي النجومُ أسنةً لرماحهم بإزائها ليلٌ يقومُ ويَقْعُدُ
ملؤوا وهادَك بالخيام ولم تزلْ أوتادُها بنسيمهم تتأوَّدُ
إنْ تسألِ الحسناءُ عن حُنَّائهم فتَخيبُ يُنْصِفُها دمي المتورِّدُ
يا طالما سُفِكتْ هناكَ دماؤُنا ظُلمًا ونحنُ المشفقونَ العُوَّدُ

❧❧❧

مـا كـان صـقرُ قـريش غـيرَ موحِّـدٍ عجبًـا أمـا في المـسلمين موحِّـدُ
خَمَــدَتْ حقيقتُنـــا وزالَ لهيبُنَـــا وبريـــقُ قرطبـــةَ الـــشَّريدُ مخلَّـــدُ
ووقفــتُ لا نــومي خَمَــدْتُ ولا الــسُّرى أتكبَّــد الجــرح الــذي أتكبَّــدُ
عانيــتُ مــشهدهم وقُلْــتُ وقيــل لي سِــيَّان قــولٌ في العــزاء ومَــشْهدُ

ﮓﮔﮕﮖﮗﮘ

ســـتُهتك الأســـتارُ عـــن ســـيئاتنا وتُبـــاحُ أسرارٌ لنـــا وتُبـــدَّدُ
ويكـــونُ أول مـــن يقـــومُ بهتكهـــا للنـــاس أولَ مـــصلح يتحمَّـــدُ [١]

ﮓﮔﮕﮖﮗﮘ

□ ويقول في قصيدة له على نهج أبيات عبد الرحمن الأول عد مجيئه إلى الأندلس.. يقول:

وأعْجَبُ ما في الكونِ غربـةُ مثلنـا وفي الشَّام من أمثالنـا عَـدَدُ الرَّمـلِ
وما زلتُ في التَّطوافِ ألقى على المدى زمانًا غريب الوجه مختلف الشَّكل
وليس لهذا البحر من ساحلِ يُـرى مضيتُ بـه عريـانَ مُتَشِقًا نـصلي
وما منْ حياةٍ للَّـذي أنِـفَ الـرَّدى وهل يقدح الزِّند الشرارَ من الوحل
إذا شـامَ طـرفي الـبرقَ زادَ تألُّقًـا وحنَّ بذكرِ الشَّام للأعـين النُّجْـلِ
ومـا ضرَّنـا مُلْـكٌ تركنـاه خلفنـا فكـلُّ بـلادِ الله ملـكُ ذوي العَـدْلِ
سـنبني كـما كُنَّـا بنينـا لغيرنـا وحاشا لأهلِ الجُوْدِ توصمُ بالبُخل
إذا نَـضَبَتْ أجـسادُنا مـنْ دمائِنـا فمنزلُنـا ريَّـانُ مـن غَـدَقِ البَـذْلِ

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٥).

سـتذكُرُنا الـدُّنيا وتنـدُبنا الـورى | وتطْلُب من آثارنـا كعبـةَ الفـضلِ
يقال هنا صلَّتْ وضجَّت قلـوبُهم | هنا انتبذَتْ أرواحَها رسلُ النَّخْلِ [١]

دعاء عالي الهمة طارق بقلم «إقبال»:

□ في ديوانه «جناح جبريل» صوَّر إقبالٌ بأسلوبه الأدبي «دعاء» طارقَ ابن زياد عند خوضه المعركةَ لفتح الأندلس فقال: «قال طارق: اللهم! إن هؤلاء الفتيانِ الذين خرجوا جهادًا في سبيلك، وابتغاءَ مرضاتك، رجالٌ غامضون مجهولون لا يعرف سرَّهم وحقيقتَهم غيرُك، لقد منحتهم طموحًا وعلوَّ همَّة، لا يرضَون معه إلَّا أن يكونوا سادةَ العالم، يحكمون الدنيا كلها بحُكمك، ويُنفِّذون فيها أمرك، لا يعلوهم غيرُك، أبطال مغاوير، تنفلقُ بهيبتهم البحار، وتنضوي لصولتهم الجبال، لقد ذاقوا لذةَ الإيمان والحب، حتى استغنَوا بها عن العالَم والمادة، وهانت عليهم الدنيا وزخارفُها وشهواتها، وذلك شأنُ الحب إذا خالطت بشاشتُه القلوب، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنينُ إلا الشهادة، التي هي وطرُ المؤمن العزيز، وهمُّه الوحيد، لا يفكِّرون في الغنائم ولا في فتح البلاد، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد.

إن العالَم قد وقف على شفا حفرةٍ من النار، لا يمنعُه من التردِّي في الهاوية إلَّا أن يبذل العربُ دماءهم ونفوسهم بسخاءٍ وشجاعة، إنَّ العالم بحاجةٍ إلى دمٍ عربيٍّ زكيٍّ، فلا يروى غليلَه، ولا يشفى عليلَه إلا الدمُ العربي الطاهر، ها إن الأزهارَ والورود في الغابةِ في انتظار أن تُسقَى بهذا الدم القاني، فترفُل في حُلَّتِه، وقد قدِمنا لنزرع نفوسنا، ونريقَ دماءنا في

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٤).

هذه الأرض النائية، لتخصب الإنسانيةَ بعد جدب طويل، ويحل الربيع بعد انتظار شاقٍّ طال أمده.

لقد أكرمتَ يا رب رعاةَ الإبل وسكان الوبر -العرب- بنِعَمٍ فريدة لم يشركهم فيها أحد، لقد أفردتهم بعِلْم جديد، وإيمانٍ جديد، وشعار جديد، هو: أذان الصبح، فقد أفلستِ الأممُ من العلم الصحيح، والإيمان القوي، والذوق الرفيع، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد، على حين غفلةٍ من الناس، أما العرب، فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم، وجدَّة إيمانهم، وسلامة ذوْقهم، ودَوِيِّ آذانهم في السكون المخيِّم على العالم، والظلام الحالك، لقد كانت الحياةُ فَقدت لوعتها وحرارتها من قرونٍ طويلة، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضةِ بالإيمان والحنان، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة، وكَتَلَفٍ للنفس الإنسانية، إنهم يروْن فيه فتحًا جديدًا، وعيشًا جديدًا.

أَعِدْ يا رب! إلى هذه الأمة المؤمنة الحِمَيَّة الإيمانية والغضبة المؤمنة، التي تجلَّت في دعاء نوح عليه السلام، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح] حتى تصبحَ صاعقةً على عالم الكفر والفساد، وأَخْلِق فيها المطامح البعيدة، والعزائم القوية الشديدة، واقذف في قلوب الناس رعبتها، وهيبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف»[1].

□ ثم نظمها إقبال شعرًا فقال:

هـذي الكُـمَاةُ عبـادُك الأخيـارُ ... حملـوا عَنَـاءَ العـالمين وسـارُوا

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٧ - ٤٨٨).

أصحابُ سِرِّكَ والسِّيادةُ طبعهم — والنُّورُ في نظراتهم والنَّارُ
فعلتْ كموسى في البحار عِصِيُّهم — وتراجعت لِخُطَاهُمُ الأنهارُ
البَحْرُ حَبَّةُ خردَلٍ في كَفِّهم — والعِشْقُ في أرواحهم إِعْصَارُ
عزفوا عن الدَّارَيْنِ إلَّا أنَّهم — عَلَمٌ على الدَّارين لا ينهار
نيْلُ الشَّهادَةِ للموحِّدِ مَطمَحٌ — وإذا تقحَّم فالجراحُ غُبارُ
لا سَبْيَ غانيةٍ وسَلْبَ خزانةٍ — ومطامحُ الهممِ الكبارِ كِبارُ
كلُّ العبادِ على اختلافِ عروقِهم — ترجو رجاءَ شقائقِ النُّعمانِ
ترجو من العربيِّ لونَ دمائِه — وتضجُّ ليلَ نهارَ في البستانِ
ربَّاهُ أنت بَعَثْتَ من صحرائهم — سكَّانها وجعلتهم أفذاذا
وملأتَ صدرَ الصبح من آهاتهم — وجَعَلْتَ أعرابيَّهم أُسْتَاذَا
طوتِ الحياةُ الدهر تنشد طُلْبَه — عزَّتْ وطلبتُها مذاقُ النَّار
وبروحهم عثرتْ عليها بعدما — كلَّت من التِّرحال والتِّسيارِ
الموتُ ليس نهايةً في عينهم — هو للبصيرة بَابُها المفتوحُ
ربَّاهُ! فابعث مسلمين أعزَّةً — يتوسلون كما توسَّلَ نوحُ
لتغيُّرات العَصْر من ثوراته — وهمُ وأنت الفرد لا تتغير
رباه! أنت هو الحقيقة كلُّها — والناس منها موسِرٌ أو مُعْسِرُ
الدَّهْرُ ملك يديك ليس لأهله — إلا ظنونُ الواهم المتقَوِّلُ

يتنـــازعون عـــلى تفهُّـــم عـــالمٍ سكرانَ من ماضٍ ومن مستقبلِ(١)

عالي الهمّة:

عـــذبُ الكَلِـــمَاتِ خفيـــفُ الـــرُّوح رقيـــقُ القلـــب مُـــسَهَّدُهُ
أبـــديُّ الحـــبِّ نقـــيُّ الحَـــرْب مـــصونُ العِـــرْض مهنَّـــدُهُ
وعـــلى يـــدِهِ لله يـــدٌ بلطيـــفِ القُـــدْرةِ تَعْـــضُدهُ
العـــالَمُ قَـــصْرُ خلافتِـــهِ وســـماءُ العـــالمِ معبَـــدُهُ
سِرُّ الكـــوْنيْن بنظرتـــهِ وعـــن الكـــونيْن تجـــرُّدُه
وسرابُ العـــصْرِ بنـــور الـــدِّين ونـــارُ الحـــبِّ يبـــدِّدهُ
هـــو أوّلُ سرٍّ في الـــدنيا ورجـــاءُ الكـــونِ ومقـــصِدُهُ(٢)

نصيحة:

□ قال نسرٌ عجوز لبازٍ فتى:

لا تقـــلْ أصـــلي وفـــصلي أبـــدًا قيمـــةُ الـــشَّاهينِ في أخلاقِـــهِ
إنَّـــما الـــشَّاهين مـــن يَحْرُقُـــه دمُـــهُ الشَّخـــصيُّ في أعماقِـــهِ
قـــسوةُ التَّـــدريب روحُ الـــسُّؤددِ لا تـــضيِّعْه ســـديّ هـــذا الكـــلامْ
ســـترى قيمتَـــه يـــا ولـــدي! حـــين تـــنقضُّ عـــلى فَـــرْخ الحـــمامْ
مـــا أرينـــا فرحـــةً أمتـــعُ مـــن فرحـــةِ المنقضِّ مـــن افـــقِ الـــسَّماء
فـــــرحٌ والله لا يعدلـــــه فـــرحٌ، حتـــى ولا ســـفكُ الـــدِّماء!

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٩).
(٢) المصدر السابق (١/ ٤٧٩).

□ قال إقبال:

عظمةُ الشَّاهين وشوكتُه توجدُ في طيرانِ الدَّرَّاج

والصَّيادُ في حيرةٍ شاهينٌ هذا أم درَّاج

تلاطَمَتْ أفكارُ كلِّ قوم

فاليومَ مُظْهِرٌ لغدِ القيامةِ في الشَّرق

الميِّتُ الذي كان في حاجةٍ إلى صُوْرِ إسرافيل

لمطالبِ الفطرة![1]

□ وقال:

إذا اعتقدتَ أنَّ هذا القلبَ قطرةٌ منْ دمٍ فَهُوَ كذلك

فقلبُ الإنسان إنَّما هو -فقط- جذْبةٌ عالية

لا يُعْجبُه دوران القمر والنجوم

فهو الذي يخطِّطُ سَحَرَهُ ومساءه

لا يمكنُ أن يَبْرُدَ ذلك التُّرابُ الأصيلُ

الذي تَكْمُنُ في ضمير ترابه نارُ چنار[2]،[3]

«لو تأخذُ شرارةً من نار القلب

فإنَّك تستطيعُ أن تجعلها شمسًا تحت الفَلَكِ»[4]

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٥٣٨).

(٢) چنار: شجرة ذات أوراق كثيرة، تشبه كف اليد، وتكون خضراء في الصيف، بينما تحمر جدًّا في الخريف وتصبغ في لون النار الملتهبة خاصةً في الأصل.

(٣) المصدر السابق (١/ ٥٣٨).

(٤) المصدر السابق (١/ ٥٣٩).

لا حَدّ للسموّ:

جسَّ الطبيبُ بقلبي من أكابِدُه — فقال: ويحك ما تخفيه منْ طلب

تطلعاتُك لا طاقاتُ تحملها — لكن (لكَ الحقُّ) لا تيأس من السَّببِ

وما يُسمَّى صفاءَ الرُّوح أعرفه — وليس هذا الذي في قلبك اللَّجِب

هذا الدمُ القِرْمزيُّ اللونِ (نَضْرَتُه) — تدلُّ أنَّك لم تشربْ شرابَ غبي

يا ابن الإسلام! أين أنت مِن علو الهمَّة؟!

أيُّها الغافلُ عمَّا حُمِّلا — أنت في الكونين أعلى منزلا

افتحنْ عينًا وأُذنًا وفما — تُبْصرِ الحقَّ طريقًا مُعلَما

الخوف، والحُزن، واليأس أمَّهات الخبائب محبطات للهمة:

عُدَّة الموت قُنوطٌ مُحبطُ — والحياة الحقُّ أن «لا تقنطوا»[(١)]

إنما العيشُ رجاءٌ يُوصل — فقنوطُ الحيِّ سمٌّ يَقتل[(٢)]

يأسك القبر إليه ترجع — إن تكنْ أَلْوَنْدَ فهو المصرع[(٣)]

رُبِّت الخيبة في أكنافه — ونما العجز على ألطافه[(٤)]

آهِ منْ نوم الحياةِ المُخدِر — إنَّه آيةُ ضعفِ العنصر

---

(١) مقتبس من القرآن ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

(٢) رجاء يوصل: دائم لا ينقطع.

(٣) ألْوَنْد: جبل عال مشرف على مدينة همذان يعني: إن تكن كجبل ألوَنَد في اليأس مصرعك.

(٤) الضمير اليأس في أكفانه تشب الخيبة، وبفضله ينمو العجز.

كحلُه في العين يُعمي البصرا ... ويردُّ الصُّبحَ ليلًا أكدرا[(١)]

نَفَسٌ منه سَمومٌ للحياه ... كلُّ ينبوعٍ به جفَّ ثراه

وهو للغمِّ حليفٌ واصلُ ... إنَّما الغمُّ لحيٍّ قاتلُ

يا سجينَ الغمِّ أبصِر واسمعِ ... من رسول الله «لا تحزن» وعي[(٢)]

ذلك النُّصح سرى في قلبه ... فغدا الصِّديقُ صدِّيقًا به

إنما المسلم مثلَ الكوكبِ ... باسمٌ في سعيه والدَّأبِ

حرِّرِ النَّفس منَ الغمِّ ودَعْ ... إنْ عرفت الله، أغلالَ الطَّمعْ

قوةُ الإيمانِ تُحيي فاعلَمنْ ... وِرْدَ «لا خوفٌ عليهم» فاقرأنْ[(٣)]

قلبه من «لا تخف» قلبٌ سليمْ ... حين يمضي نحو فرعونٍ كليمْ[(٤)]

خوفُ غيرِ الله قتْلُ العملِ ... وهو للأحياء قطعُ السُّبُلِ

وبه العزمُ يخاف الغِيرا ... وترى المِقْدَام منه حَذِرا

من نما ذا البذر يومًا في ثَراهْ ... حَرمتْه من تجلِّيها الحياهْ

فهو فسلٌ وهو شادٍ يَعْزِف ... يد شُلَّت وقلبٌ يرجُف

---

(١) الكحل يجلو البصر ولكن كحل اليأس يعمي ويجعل النور ظلامًا.

(٢) إشارة إلى ما حكى القرآن الكريم من قول الرسول لأبي بكر في الغار﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

(٣) إشارة إلى الآية:﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

(٤) إشارة إلى قصة موسى عليه السلام وفرعون وقول الخالق عن موسى عليه السلام ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ وفرعون هنا نكرة ولهذا لحقه التنوين.

يسرِقُ الرِّجلَ قُوَى تسيارها | يسلبُ الرأسَ قوى أفكارها
إنْ تجلَّى لعدوٍّ خوفُكما | هانَ كالوردِ، عليه قطفُكا
سيفُه يزدادُ فتكًا في اليد | عينُه فيك حسام لا يَدي [(١)]
غلَّنا الخوفُ، وكم في بحرنا | منْ عُبابٍ مائجٍ في دهرنا
إن أبى النعمة يومًا مِزهرك | فمن الخوف تندَّى وترك
فاعزْكِ الأذنَ يَثُر فيه الحداء | ويهزَّ اللحنُ آفاقَ السَّماءَ
كلُّ شرٍّ في فؤادٍ يُضمرُ | أصله الخوفُ، إذا ما تُبصِرُ
منْ ديار الموت عينٌ قَدِما | مثل ميم الموت قلبٌ أظلما [(٢)]
عينُه تلبيسُ آثارِ الحياه | أذْنه تدليسُ أخبار الحياه [(٣)]
يُزهر الخِبُّ به والمَلِق | ونفاقُ القلبِ منه يورقُ
ثوبه للزُّور سترٌ والريَبُ | حِجْرُه الفتنةُ فيه والحَرَبْ
حُرِمَ الخوفُ طُموحَ الهمَّةِ | فهو خدنٌ لحليف الذِّلَّةِ
كلُّ من يفقد سرَّ المصطفى | يجدُ الإشراكَ في الخوْفِ اختفى

---

(١) لا يؤدي دية من قتله.

(٢) عين: جاسوس. والميم في خط الرقعة والخط الفارسي مصمتة. فجعل الشاعر الخوف مظلم القلب مثل ميم الموت. وفي الأصل ميم مرك. ومرك: موت. فالميم في الأصل والترجمة.

(٣) تشوه مظاهر الحياة عينه. وتحرف أخبار الحياة أذنه.

أحبُّ.. وأحتقر[١]:

أحـبُّ الجبـالَ الـشامخاتِ كأنهـا ... على جَبهـةِ الـدّنيا تـصولُ عواتيـا

تَضاحَكُ من عصفِ الرياح وزأرها ... وتحتـضنُ الـسيل الحَـرونَ المُعادِيـا

وتلهو عـنِ الزّلـزالِ وهْـوَ مُزَمْجَـرٌ ... يضجُّ ببطنِ الأرضِ غضبانَ واريـا

وأحتقرُ الكُثبـانَ تُرعـشها الـصبَّا ... ويفزعهـا الإعـصارُ إن مَـرَّ لاهيـا

وتحملُهـا الأريـاحُ أني توجَّهـت ... ألاعيـبَ في أسـفارها وألاهيـا

وَإنِّي لأهوى السيَّلَ يَـنْحَط مزبـدًا ... ويَـدفُقُ جَيَّاشًـا ويهـدِرُ صـاخبا

عَتيًـا عـلى الـسَّدِّ المنيـع يَدُكُّـهُ ... ويحملُـهُ نحـو الـسُّهول خَرائبـا

يمرّ على العُشْبِ الضعيفِ مُسامحًا ... ويلتقـفُ الـدّوح العَنيـدَ المغالبـا

وتحقـرُ عينـي جَـدولًا في خميلـةٍ ... يحـوِّل طفـلُ الحـيِّ مجـراهُ لاعبـا

يكَـدِّرُهُ حتـى النـسيمُ ملاطفًـا ... ويُفزِعُـه حتـى فـمُ الطفـلِ شـارِبا

أُحبُّ العُقابَ الجَوْنَ يختال في الذرا ... ويكـب مـتنَ الجـوِّ جـذلانَ باسـا

ويخترقُ الريحَ العَـصوف لقـصدِه ... ولو حطَّمتْ من جانحيه القَوادمـا

يموتُ ولا يشكو الجراحَ ولا ترى ... لـه آكـلًا بـينَ الأنـامِ وهاضـمًا

وأحتقـر الورقـاءَ تـألفُ سـجنهَا ... وتبكى وما تلقى من الناسِ راحمًـا

(١) للشاعر الأستاذ أمجد الطرابلسي وزير التعليم السوري السابق – مجلة الأزهر- جمادي الأولى ١٤٢٧هـ (٧٨٠- ٧٨١).

وهل غيرُ ضَعفِ الوُرْقِ سوَّغَ حَبْسَها — وصَيَّرَ شدوًا نوحَها والمآتما

وإني لأهوى نحلة تدهَمُ الرُّبا — فتنهلُ من ثغرِ الزهورِ رحيقَها

ترشَّفُ من كأس الأقاحى صبوحَها — ومن حُمرةِ الوردِ النَّديِّ غَبوقَها

حَصَانٌ تروعُ العاشقينَ بوخزها — إذا ما تمَنّوا لو يذوقونَ ريقَها

وتحفرُ عيني نملةً تألفُ الوَلي — وتملأُ من بَخْسِ الفُتاتِ خُروقَها

تدِبُّ على الأقدام هُونًا وذلةً — وتسلكُ من تحتِ النعالِ طريقها

أحبّ شَموخَ الدَّوحِ في ربواته — يُجابه هَوْلَ العاصفاتِ ويُثبُتُ

أبيًا على حربِ الأعاصيرِ ظافرًا — تكُرُّ جموعًا حولَهُ فَتَشَتَّتُ

وإنْ خرَّ في الميدانِ بعد نضالِها — تراها عليه نائحات تُصَوِّتُ

وَأحتقرُ الأعشاب تَحني رُءوسَها — فتسلَمُ من رَيْبِ المنونِ وتُفْلتُ

تدورُ مَعَ الإعصارِ حيثُ يُديرها — ويلطِمُها هونًا فترضى وتسكُتُ

وإني لأهوى الليث يستعذبُ الطوى — ويأنفُ أن يُدنى إلى جيفةٍ يدا

يسيرُ أَشَمَّ الأنف مستكبرًا الخُطا — فترجفُ البيداءُ إن راحَ أو غدا

ويجَبُهُ وحشَ البيد في حُرِّ وَجهِها — ولا يَدَّري أعداءه مُتَصَيِّدا

وتحقرُ عيني ثُعلبانًا مخادِعًا — جَبانًا خليع القلبِ يغدِرُ بالعِدا

يُصيبُ فُضالاتِ السّباع وينثني ... ليشكرَ رزّاقَ العبيدِ ويَحْمَدا

أحبّ الفتى يَفر الفلاة مُهَجّرًا ... فلا يشتكي أينًا ولا يتظلّمُ

إذا لذّعتهُ الشّمْسُ سَدّدَ وَجْهَهُ ... إليها حديدَ الطّرف لا يتبرّمُ

ويمشي على الرّمضاء مُتئِدًا الخُطا ... جَليدًا، ونيرانُ الرمالِ تضرّمُ

وأحقر نكسًا يستظلّ بنيره ... ويخفضُ رأسًا وهو شاكٍ يدَمْدِم

تساورُهُ الأشباحُ في القفرِ رَهْبةً ... فَيَرْعَشُ منهُ القلبُ والطّرفُ والفَمْ

أحبُّ الفتى والغُلّ يثقلُ عُنُقَهُ ... وسيفُ الأعادي بينَ عينيهِ مُشْهَرُ

يصيحُ بأعلى صوتِه ينكرُ الأذى ... ويضحكُ من بطشِ الطُّغاةِ ويَسْخَر

ويشمخُ بالأغلالِ رأسًا وإن غدتْ ... تَحُز ومن أنيابها الدّمُ يَقْطُرُ

وأحتقرُ الأحرار يحنونَ رأسهم ... وليس عليهم سَيِّدٌ أو مُسَيْطِرُ

إذا كانَ قلبُ المرءِ عَبْدًا ورَأْيُه ... فَقُل لي -هُديتَ الخيرَ- ماذا تُحَرِّرُ

يا ابن الإسلام.. أنت يوسفُ أعظم الأحلام.. أنت على طريق سلفك العِظام.. ووارث الجنة.. والناظر في يوم المزيد إلى إلهك رب الأنام:

✍ يا سليل المجد أين أنت من آبائك العظام وسلفك الكِرَام:

يـا سـليلَ المَجْـدِ مـاذا غـيَّرَكْ؟ … أنـتَ للمَجْـدِ وهـذا المَجْـدُ لَـكْ

كيـف تغفـو يـا فتـى التوحيـد هَـلْ … هَيَّـأَ الأَعـداءُ في الـدَّرب الـشَّرَك

أُمَّتــي قَــدْ عَلقَّــتْ فيــكَ المُنَــى … فاستَفِقْ وانهَضْ وغادِرْ مَضْجَعكْ؟

عُــدْ إلى الــرَّحْمنِ في طُهْــرِ تَجِــدْ … مَرْكَــبَ النَّــصْرِ إلى العَلْيَــا مَعَــكْ

وَتَّــرى الأبطَــالَ آســاد الــشَّرَى … تــشتهي يَــوْمَ الفِــدَا أَنْ تَتْبَعَــكْ

صُمَّتْ أذُنُ الدنيا إنْ لم تسمع لنا فنحن ملكنا هذه الدنيا القرونا:

مَلَكْنَــا هــذه الــدُّنْيَا القُرونــا … وأَخْــضَعَها جُــدُودٌ خالِــدُونا

وسَـطَّرْنَا صـحائفَ مِـن ضِـياءٍ … فـما نَـسِي الزَّمـانُ ولا نَـسِينا

حَمَلْناهــا سُــيوفًا لامعــاتٍ … غَــدَاةَ الــرَّوْع تَــأبَى أَن تَلِينــا

إذا خَرَجَــتْ مــن الأَغْــادِ يومًــا … رأيــتَ الهَــوْل والفــتحَ المُبينــا

وكُنَّــا حــين يَرْمِينــا أنــاسٌ … نُــؤَدِّبُهُمْ أبــاةً قَادِرِينــا

وكُنَّــا حــينَ يأخُــذُنَا وَلِيٌّ … بطُغْيَــانٍ نَــدُوسُ لــه الجَبينــا

تَفــيضُ قلوبُنــا بالهــدِي بأْسًــا … فـما نُغْـضِي عـن الظُّلـمِ الجُفُونَـا

ومَـا فَتِـيءَ الزَّمـانُ يـدورُ حتَّـى … مَـضَى بالمجـدِ قـومٌ آخرونـا

وأصبحَ لا يُرَى في الرَّكْـبِ قـومي … وقــد عاشــوا أَئِمَّتَــه ســنينا

وآلَمَنِـــي وآلَمَ كُـــلَّ حُـــرٍّ ... سُـؤالُ الـدَّهْرِ أيـنَ المـسلمونا؟

تُـرَى هـلْ يَرْجِـعُ المـاضي فـإِنِّي ... أذوبُ لـذلكَ المـاضي حنينـا

بَنَيْنَـا حِقْبَـةً في الأرضِ مُلْكًـا ... يُدَعِّمُـه شـبابٌ طامحونـا

شـبابٌ ذَلَّلُـوا سـبلَ المعـالي ... ومـا عَرَفـوا سـوى الإسلامِ دِينـا

تَعَهَّـدَهُم فـأَنْبَتَهُم نباتًـا ... كَـرِيمًا طـابَ في الـدُّنيا غُـصُونا

هُـمُ وَرَدُوا الحيـاضَ مبارَكـاتٍ ... يَـدُكُّونَ المعاقِـلَ والحُـصُونَا

وإنْ جَـنَّ المَـسَاءَ فـلا تـراهمُ ... مِـن الإشْـفَاقِ إلَّا سـاجِدِينا

شـبابٌ لَمْ تُحَطِّمْـه الليـالي ... ولمْ يُـسْلِمِ إلى الخَـصْمِ العَرِينَـا

ولم تَـشْهَدْهُمُ الأقـداحُ يومًـا ... وقـد مَلَئُـوا نـوادِيهم مُجُونـا

ومـا عَرَفُـوا الأغـانِيَ مائعـاتٍ ... ولَكِـنَّ العُـلا صِـيغت لُحُونَـا

وقَـدْ دَانُـوا بـأَعْظَمِهِم نِـضَالًا ... وعِلْـمًا لا بـأَجْرَئِهِمْ عُيُونَـا

فَيَتَّحِـدُون أَخْلاقًـا عِـذَابًا ... ويَـأْتَلِفُون مجتمعًـا رَزِينـا

فـما عَـرَف الخلاعـةَ في بنـاتٍ ... ولا عَـرَف التخنُّـثَ في بَنِينـا

ولم يَتَـشَدَّقُوا بقـشورِ عِلْـمٍ ... ولم يتقلَّبُـوا في الملحـدينا

ولم يتبجَّحـوا في كـل أمـرٍ ... خطـيرٍ كـي يقـالَ مُثَقَّفُونـا

كـذلك أخـرجَ الإسـلامُ قـومي ... شـبابًا مُخلِـصًا حُـرًّا أمينـا

وعَلَّمَـهُ الكرامـةَ كيـف تُبْنَـى ... فَيَـأْبَى أنْ يُقَيَّـدَ أَوْ يَهُونَـا

دَعُـــونِي مِـــن أمـــانٍ كاذبـــاتٍ فَلَـــمْ أَجِـــدِ المُنَـــى إلا ظُنُونَـــا

وهـــاتُوا لي مِـــن الإيـــمانِ نُـــورًا وَقَـــوُّوا بـــين جَنْبَـــيَّ اليَقِينَـــا

أَمُـــدُّ يَـــدِي فَـــأَنْتَزِعُ الـــرَّوَاسِي وَأَبْـــنِ المَجْـــدَ مؤتلِقًـــا مَكِينَـــا[١]

«رأيت البارحة شيخًا يدور حول المدينة، وقد حمل مِشعلا، كأنَّه يبحث عن شيءٍ. قلت له: يا سيدي! تبحث عن ماذا؟ قال: قدْ مَلَلْتُ معاشرة السِّباع والدواب، وضِقْتُ بها ذرعًا، وخرجتُ أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم؛ لقد ضاق صدري من هؤلاء الكَسالى والأقزام، الذين أجدهم حولي، فخرجت أبحث عن عملاق من الرِّجال وبطل من الأبطال، يملأ عيني برجولته وشخصِيَّته ويروِّح نفسي.

قلت له: لقد غرَّتك نفسك يا هذا! فخرجت تقتنص العنقاء، بالله لا تُتْعِب نفسك، وارجع أدراجك، فقد أجهدتُ نفسي وأنضيتُ ركابي، ونقّبتُ في البلاد، فلمْ أرَ لهذا الكائن عينًا ولا أثرًا. فقال الشيخ: إليك عني أيها الرجل! فأحبُّ شيءٍ إلى نفسي أعزُّه وجودًا وأبعدُه منالًا»[٢].

حاجة العالم إلى الإنسان الكامل عالي الهمة أشدُّ اليوم من حاجته إلى القارّات الجديدة والبحار المجهولة، وأجل خطرًا، وأعظم قدرًا من أي شيءٍ سواه، فقد اجتمعت فيه من معاني الإسلام القوةُ والحياة والجمال والكمال فهو الضَّالة المنشودة والصورة الكاملة للإنسانية إن المسلم عالي الهمَّة المثالي يمتاز بين أهل الشك والظنّ بإيمانه ويقينه، وبين أهل الجبن

(١) ديوان هاشم الرفاعي «الأعمال الكاملة» (ص١٩٦- ١٩٧).

(٢) «روائع إقبال» لأبي الحسن الندوي (ص٧٣).

والخوف بشجاعَته وقوته الروحيّة، وبين عُبَّاد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص، وبين عُبّاد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقيّاته وإنسانيته، وبين عُبّاد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرُّده من الشهوات وتمرُّده على موازين المجتمع الزائفة، وقيم الأشياء الحقيرة، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكِبَر نفسه؛ يعيش برسالته ولرسالته. ذلك المسلم الحق الذي مهما اختلفت الأوضاع وتطوّرت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التي لا تتغيَّرُ ولا تتحوَّلُ، وأمّا ما عداه فزبَدٌ يذهب جفاءً، ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، أمَّا ما عداه فشجرة اجْتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

«إنك أيها المسلم عالي الهمة في العالَم وحدك، وما عَداك سرابٌ خادع ودرهم زائف. إن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق، وكل ما عداه في هذا العالم المادي وهْمٌ وطِلَّسْم ومجاز».

إن حاجة الكون والبشرية إلى المسلم عالي الهمة ليست بأقل من حاجتها إلى الماء والهواء والنور، فمعاني الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق، التي تتكفَّل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها، ويتكفَّل المسلم عالي الهمة بإعلانها والقيام بها والجهاد في سبيلها، فلولاه هو لضاعت الغايات والرسالات وأصبحت سرًّا مكتومًا.

إذن فمركزه في العالم، وبقاؤه كبقاء الشمس والكواكب النيرّة، تنقرض الأجيال والأمم، وتحوّل الأنهار مجراها، وهو قائم لا يزول ولا يحول.

لا يُمكن أن ينقرض المسلم من العالم؛ لأن وجوده رمزٌ لرسالات الأنبياء، وإنَّ أذانه إعلانٌ للحقيقة التي جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى

ومحمد ﷺ: «المسلمُ رسالةُ الله الأخيرة، فلا يعتريها النسخُ والتبديل» وهو الحاضن للأمانة الخالدة، والرسالة الخالدة، والذي يعيش لغاية خالدة. إن المسلم موج من أمواج بحر الإسلام الخضمّ وتتلاشَى في وجوده، والبحر لا يتغيرّ؛ فالبحر امتداد دائم، وتسلسل قائم لأجزاء متغيِّرة كبحر الحياة، وبحر الوجود تتبدَّل أمواجه -وهي أفراد البشر- ولا يتبدَّل كيانه.

□ ويقول في قصيدة أردية تكاد تسيل رقة وعذوبة: «لقد هبّت عليّ نفحة منعشة من نسيم السَّحر في الصباح الباكر فناجتني، وقالت لي: إن الذي عرف نفسه وعرف قيمته ومركزه لا يليق به إلا عروش الملوك وأسرَّة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قوام، ولا شرف، ولا كرامة إلَّا بهذه «المعرفة»، فإذا ملكتها ملكت العالم، وإذا فقدتها، أصبحت من سَقَط المتاع، إنه يتربَّى في مدرسة شعري وأدبي، شباب لا يملكون درهمًا ولا دينارًا، ولكنهم يملكون صولة السلاطين، ويحسنون آداب الملوك، إن لك الخِيار، فاختر ما شئت، ولكنني بدوري، لم يعجبني الفرار من الحياة، والعكوف في الزوايا والخلوات.

لقد هيأك الله - أيها الشاب المسلم- لاقتناص «هُما»[1]، وما هذه الطيور والأسماك التي تملأ العالم إلَّا لتتمرَّن عليها في بدء أمرك، ويتلهى بها غيرك. وما نُطْقك بالشهادتين -أيها المسلم- سواءً أكنت عربيًّا أو أعجميًّا، إلَّا حديثًا غريبًا، حتى يشهد بها قلبك»[2].

---

(١) طائر أسطوري في الأدب الفارسي والأردي. يضرب به المثل في اليُمن والسعادة، يقال: إنه ما أظل إنسانًا، وما طار فوق رأس إنسان إلا وكان ملكًا في يوم من الأيام.

(٢) «بال جبريل» (٦٧- ٦٨).

□ ويقول في قصيدة خفيفة الوزن، قصيرة البحر، سهلة اللفظ، كأنها قطعة من نثر، أو حديث من أحاديث الناس: «إن كلَّ ما في العالم من الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكية، راحل زائل، وغائب آفل، أنت - أيها الإنسان المسلم- بطل المعركة، وقائد الجيش، وكلُّ ما حولك من سافلٍ وعالٍ، ورخيص وغالٍ، من جنودك وأتباعك.

أسفًا لك، أيها الرجل! لم تقدِّر نفسك، ولم تحسَب لها حسابًا، ما أشدَّ جهلَك، وما أضيقَ نظرك! إلى متى تجري وراء الدنيا الذليلة، وتعبدها وتخضع لها؟ إما أن ترفضها رفضًا باتًا، وتزهد فيها وتتبتَّل، وإما أن تملك ناصيتها وتسودُ وتحكم، لا منزلةَ بين المنزلتين، ولا توسُّط بين النهايتين».

□ وهذا قليلٌ من كثير جدًّا، تطفح به كتبه، ودواوين شعره، وفي هذا بلاغٌ للشباب المسلمين الذين خضعوا لنظام التربية الحديثة، والفلسفات المادية، التي حَجبت عنهم شخصيتَهم، وآفاقَ عالم الروح والقلب، وأعماق النفس البشرية، ومرامي المؤمن القوي الطموح، ولم تصوِّر العالَمَ إلَّا سوقَ تجارة أو مركز إنتاج، أو حانوت خمر، أو بيت مقامرة، أو مكان تنافس للقيادة، وصراع في مجال الاقتصاد والسياسة، ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾.

خُلِق العالَم لعالي الهمّة:

□ رحم الله إقبالَ القائل: «إن العَالَمَ تراثٌ للمؤمِن المجاهِد، لا يشاركه فيه أحدٌ، ولا أعدُّ مؤمنا كاملًا من لا يعتقد أن العالم خُلِق له».

نعم.. خَلَق كل شيءٍ لك، وخلقك له، فلا تنشغل بما خلقه لك عمَّا خلقك له.

وله مقام الإمامة والتوجيه:

إن المسلم لم يُخلَق ليندفع مع التيَّار، وليساير الرَّكب البشري حيث اتجَّه وسار؛ بل خُلِق ليوجِّه العالَمَ والمجتمع والمدنيَّة، ويفرضَ على البشرية اتجاهه، ويُملي عليها إرادته؛ لأنه صاحبُ الرسالة، وصاحبُ العلم واليقين؛ ولأنه المسؤول عن هذا العالَم وسيره واتجاهاته؛ فليس مقامُه مقام التقليد والاتباع، إن مقامه مقامُ الإمامة والقيادة، ومقامُ الإرشاد والتوجيه، ومقامُ الآمر الناهي، إذا تنكَّر له الزمانُ، وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادَّة، لم يكن له أن يستسلم ويخضع، ويضعَ أوزاره، ويسالم الزمان، بل عليه أن يثورَ عليه وينازلَه، ويظلَّ في صراع معه وعراك، حتى يقضي اللهُ في أمره.

□ يقول في بيت: «يقول من لا خلاق له: دُر مع الدهر حيث دار، وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه؛ وأنا أقول إذا لم يُسالمك الزمان، فصارِعْه وحاربه، حتى يفيء إلى أمر الله».

ويرى أن المؤمنَ غيرُ مأذون بمجاراة الأوضاع؛ بل هو مكلَّفٌ بمصادمة الأوضاع الفاسدة، يردُّ الأمر إلى نصابه، ويقيمُ سالفة الدهر الغشوم، ويقيمُ العوجَ، ويُصلح الفاسد، وإن كلَّفه ذلك عملية الهدم والنقض، والعملية الجراحية؛ فإن كل ذلك في سبيل البناء والعمارة والإصلاح.

□ يقول في بيتٍ: «على المسلم أن يربِّي في نفسه الروح، وينشيءَ في هيكله الحياة، ثم يحرق هذا العالَمَ الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته، وينشئ عالَمًا جديدًا».

عالي الهمة:

هو مؤذِّنُ الفجر في الليل البهيم، وإنَّ أذانَه لا يزال صيحةً تدوِّي في هدوء الليل وسكون الموت، فيُعيد إلى هذا العالَم النائم الناعس المتعَب حياتَه ونشاطه، ويؤذِّن بطلوع الصبح الصادق، وانصرام الليل الغاسق.

وعلى هذا الأذانِ الصارخ والنداء العالي، الذي ارتفع من جبل «أبو قُبيس» قبل ثلاثة عشر قرنًا، استيقظ هذا الكونُ بعد السُّبات العميق، الذي غطَّ فيه خمسةَ قرون وأكثر؛ وكان نفخةَ صُور للإنسانية الميتة والعالم المحتضَر، وهو الكفيل الآن لإيقاظ الإنسانية، وإحياءِ الضمير البشري.

يقول في بيت: «إن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه، أشرق العالَم واستيقظ الكون».

ويقول في قصيدة: «لستُ أعلم بالتأكيد مصدرَ هذا الصبح، الذي يطلعُ على هذا العالَم كلَّ يوم، ولستُ أعلم سرَّه؛ ولكني أعلم أن السَّحَر الذي يهتزُّ له هذا العالَم المظلم ويولِّي به ليل الإنسانية الحالك، إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق»[1].

إن قوة عالي الهمَّة خارقة للعادة، مُحَيِّرَةٌ للعقدة، معجِزَة للبشر؛ لأنها مُسْتَمَدَّة من رسالته وإيمانه، فهو أداةٌ للقدرة الإلهية، وقوةٌ قاهرة، لا تصدُّها الجبال، ولا تقف في سبيلها البحار، «إن يد المؤمن أداةُ القدرة الإلهية، فهي غلَّابة، حلَّالة للعقد والمشكلات، فتَّاحةٌ للأبواب المقفلة، لَبِقة صَنَاع حاذقة. إن المؤمن جسمُه من تراب، فطرتُه من نور؛ عبدٌ متخلِّقٌ بأخلاق مولاه، قلبُه غني عن العالمين».

---

(١) «روائع إقبال» (ص٨٣- ٨٤).

لم يزل العالَم يعوزه لوعة ذلك القلب.

قد هزئ المسلمون المؤمنون في عصرهم الأول من الجبال والبحار، وشقُّوا طريقهم غير محتفلين بما يعترضهم من أشواكٍ وعقبات.

عالي الهمة:

يجمعُ بين التسامح، ورحابةِ الصدد، وكثرةِ الصفح، والشدَّة في التمسك بالدين، والغضبِ للحق، والثورةِ على الباطل، وشدةِ شكيمته إذا أَبى، ولا يكون المثَلَ الكاملَ لدينه، والصورة الصادقة للإسلام حتى يجمع بين هذه الأخلاق المتنوِّعة، فيجمعَ بين الشدَّةَ واللين والغضب والرحمة، والصلابة والمرونة، والعفَّة والنزاهة، ويكون في ذلك آيةً من آيات الله، ومعجزةً من معجزات الرسول ﷺ.

«إنه الميزان العادل، والقسطاسُ المستقيم به يُعلم رضا الله وسخطه، وبه يُعرف الحسنُ من القبيح، فما راق في نظره، فهو حسن، وما استقبحه فهو طائش، وفي عزائمه تتجلَّى إرادةُ الله.

وهو القرآنُ الناطق، وهو الدين يسعى على قدميه. ثم عن حياته متوافقة متشابهة كالطبيعة، فالصبح يَطلع كل يوم، والليلُ يتبع النهار، لا تخلُّف فيه، ولا تناقض. وهو صاحبُ معانٍ كثيرة، ونغمةٍ واحدة، فهو كسورةِ «الرَّحمن» في القرآن، تتجدد معانيه وتتكرر فيه آية ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾».

▢ وقد صدق الشاعر، فالمسلم لم يزل يُتحف كلَّ عصر بعلومه وتوجيهاته، ويُنير ظلماتِ كل عصر بنوره وضيائه، ويضربُ على وتر واحد، ويكرِّر رسالة الأنبياء، ويقول لكل جيل: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٦٥]، فهو كالصبح جديدٌ وقديم، فهو في جِدَّته ليس أجدُّ منه، وهو في قِدَمه ليس شيءٌ أقدم منه؛ هو قديمٌ لكنه يتجدَّد به العالم، ويتجدَّد به الكائنات، وتنتعش به القوى، وتستيقظُ به الأجسام والقلوب، والعقول؛ ثم جديدٌ بنفسه، تتجددُ قواه، ويتجددُ نشاطه، وتتفتحُ قريحته مع العصور؛ علمه سيَّار، وعقلُه مبتكر، ونفسُه طموح، وهمَّته وثَّابة، وهو كالمطر كلُّ قطرةٍ غيرُ الأولى، ولكنها قطراتُ مطر، كلها تحيي الأرض، وكلها تُنبت النبات، وكلها تَسقي المزارع والأشجار، وكلها تفتحُ الأزهار، وكلها تكوِّن الأنهار، وهو معنى قول النبي ﷺ: «أمتي كالمطر لا يُدْرى أأوَّلُه خيرٌ أم آخرُه».

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقًا:

□ ويقول محمد إقبال: «إن المسلم كالشمس إذا غرَبت في جهة، طلعت في جهةٍ أخرى فلا تزال طالعة».

وقد صدق، فإن الإسلام لم ينكَّب في ناحية من نواحي العالم، ولم يخسر في جانب دولة إلَّا وقامت له دولةٌ في جانب آخر؛ ولم تسقط له رايةٌ إلَّا وخفقت له رايةٌ أخرى؛ ولم يغِب له نجم، إلَّا وطلع له نجمٌ آخر.

لقد كانت خسارةُ الأندلس الإسلامية كارثةً كبيرة، ومصابًا عظيمًا، ولكن عوَّض الإسلام بها بدولةٍ فتيَّة من أعظم دول العالم، هي دولة آل عثمان في تركيا قامت في نفس القارة الأوروبية، وجثَمت على صدر الدول والأمم التي انتزعت الأندلس الإسلامية، وأجلت المسلمين من وطنهم العربي الإسلامي.

وكان سقوطُ غرناطة، وأوج الدولة العثمانية، في عهد سليمان القانوني،

حادثَينِ في عصر واحد. ونُكِب العالم الإسلامي، ونُكِبَت بغدادُ بغارة التتار، وانطمست معالم الحضارةِ الإسلامية، وزُلزل المسلمون زلزالًا شديدًا، ولكن في نفس هذه الفترة كانت الدولةُ المسلمة في الهند تتسع وتزدهر.

وأُصيب العالَمُ الإسلامي بهزاتٍ عنيفة، وقواصمَ مؤلمة في فجر هذا القرن المسيحي على أيدي الأوروبيين، فقد اقتسمت الدولةُ الأوروبية تراثَ الدولة العثمانية كمالٍ سائب، واغتصبت مملكتها في أفريقيا، وتقاسم الحلفاءُ سورية وفلسطين والعراق، ولكن تَبعَ هذا كلَّه اليقظةُ الإسلامية الهائلة، والوعيُ السياسي القويم، والطموحُ إلى الاستقلال والحرية، والحركات الإسلامية المختلفة التي كان يجيشُ بها العالَمَ الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

ونُكب المسلمون في العهد الأخير نكباتٍ عظيمةً في الشرق الأقصى والأوسط، وخسرت الدولُ العربية فلسطينَ العربية الإسلامية، ولكن في نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتانِ فتيتان في الشرق، إحداهما دولة باكستان والأخرى إندونيسيا.

وهذا لم يزل التاريخُ الإسلامي متأرجحًا بين الأسفل والأعلى؛ فما تسفَّل منه جانبٌ إلَّا وترفَّع جانب آخر، كالأرجوحة تمامًا، ولم تتوارَ شمسُه في أفق إلَّا وبزغت في أفق آخر، وذلك لأن الإسلامَ رسالةُ الله الأخيرة التي لا رسالةَ بعدها، والمسلمون هم الأمةُ الأخيرة، التي لا أمةَ بعدهم؛ فإذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة، وإذا هلكوا فقد غرِقت السفينة التي تحمل الذخيرة»[١].

---

(١) المصدر السابق (ص٨٥).

عالي الهمّة:

يعرفُ قيمةَ نفسه، وشرفَ إنسانيَّته، يعرف ذلك الجوَّ الفسيح الذي هيّأه الله لطيرانه وتحليقه، ويعرفُ تلك الكنوزَ البديعة، والقوى الجبَّارة، والمواهبَ العظيمة التي أودعها اللهُ في باطنه، يعرف معنى سجودِ الملائكة لأبيه آدم، والإشارةُ في ذلك، وأنه إذا كانت الملائكة الذين لا يعصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرون الذين يتصرَّفون في هذا الكون بأمر الله، ويبلِّغون رسالاته، فإذا خضعوا لآدمَ أبيهم فقد خضع له الكونُ بالأوْلى، ولذرِّيته إن استقاموا على منهج الله.

كَلِمَاتٌ للحياة:

«عجبًا لك أيها المسلم! تجلَّت لك الآفاق، وغابت عنك نفسُك، إلى متى تظل غافلًا جاهلًا؟ وتجلس ضائعًا عاطلًا، إنَّ نورك الوهَّاج أنار العالَمَ القديم، ونسخ الليلَ البهيم، ولا تزال (اليد البيضاء) التي ورثتَها عن موسى في كمِّك، تخطُّ حدودَ الآفاق الضيِّقة، فأنت السابقُ لها والفائق عليها، فقد كنتَ ولم تكن، وستكون ولا تكون، هل تخافُ الموت أيها الإنسان الحي الخالد؟ لقد كان جديرًا بالموت أن يخافك، فأنت تكمن له وترصد به.

اعلم يقينًا، أن الكريم إذا وَهب شيئًا، لا يسلبُه ولا يشرده، وليس حتفُ ابن آدم في فراق الروح، إنما حتفُه في ضعف الإيمان، والحرمان من اليقين»[١].

□ «افتح عينيك -أيها الزهرُ النائم- مثلَ النرجس الذي لا يُطبق عينه

(١) «زبور عجم» لمحمد إقبال (ص١٦٤).

لحظة، ولا يَعرف الكرى إليه سبيلًا، لقد أغار على وكرنا الأعداء، ونهبوا كلَّ ما فيه، من كنوز وخيرات، ألا يكفي هدير الحمام، وصفيرُ الأذان، وأنينُ القلوب والأرواح أن يُوقظك؟! انتبه من هذا السُّبات العميق، الذي طال أمدُه واشتدَّت وطأته.

لقد بدأت الشمسُ رحلتها المباركة المتكررة، وارتفع عمودُ الصباح المنير في بحر الظلمات، وحَزَمت القوافلُ في الجبال والصحاري أمتعتها، وضربت أجراسَ الرحيل، فما لكِ أيتها العينُ الساهرة! التي خُلقت لمراقبة الإنسانية، وحراسة الضعفاء، تنامين، ولا تنظرين إلى ما يدورُ حولكِ من الأحداث والتقلُّبات، انتبه من السبات العميق، الذي طال أمدُه، واشتدت وطأته.

لقد أصبح بحرُك ساكنًا كالصحراء، لقد فقد طبيعتَه وجمُد ووقف. فلا مدَّ فيه ولا جزْر، ولا زيادةَ فيه ولا نقص، عجبًا لهذا البحر الذي لا يَهيج ولا يموج، وليس فيه تمساحٌ طموحٌ مخامر، ولا موجٌ عارمٌ ثائر، لقد كان جديرًا بك أن تقفز من حدوده الضيقة الهادئة، وتفيضَ على البراري والقِفار والنِّجاد والأغوار، انتبه من سُباتك العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته.

اعلم أن الوطن جسدٌ من تراب، والدينُ هو الروح، ولا حياة للجسد والنفس، إلَّا بارتباط الجسد والروح، انهض أيَّها المسلم! وفي إحدى يديك «المصحف» وفي الأخرى «السيف»، فباجتماعهما تسعدُ البشرية، وتخصب المدينة، انتبه من السُبات العميق الذي طال أمدُه واشتدت وطأته.

أنت الناموسُ الأزلي حارسٌ وأمين، ولسيِّد هذا الكون يسار ويمين[١]، لقد كانت نشأتُك من التراب، ولكن بك قِوام العالم وبقاءُ الأمم، اشرب كأسًا فائضةً من اليقين، وانهض من حضيض الظن والتخمين، انتبهْ من السُبات العميق، الذي طال أمده، واشتدت وطأته.

الغِياث من الإفرنج الذين خلَبوا العقول، وسحَروا النفوس، الغياث مِن هؤلاء الذين خدعوا مرةً بالرقة والدلال، ومرةً بالقيود والأغلال، وتارة مثَّلوا دور «شيرين»، وطورًا لعبوا دور «أبرويز»[٢]، لقد أصبح العالَمَ كله خرابًا يبابًا بإغارتهم وغزوهم.

يا بانيَ الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالَم من جديد، انتبه من السبات العميق، الذي طال أمده واشتدت وطأته»[٣].

□ «لقد هبَّتْ عليَّ نفحة مُنْعِشة من نسيم السَّحَر في الصباح فناجتني، وقالت لي: إنَّ الذي عرَف نفسه وعرف قيمته ومركزه، لا يليق به إلَّا عروشُ الملوك وأسِرَّة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قُوام، ولا شرف ولا كرامة إلَّا بهذه «المعرفة»، فإذا ملكتَها ملكتَ العالم، وإذا فقدتها، أصبحت مِن سَقَط المتاع، إنه يتربَّى في مدرسة شعري وأدبي شبابٌ لا يملكون درهمًا ولا دينارًا، ولكنهم يملكون صولةَ السلاطين، ويُحسنون آداب

(١) يعني أنه آلة بيد القدرة الإلهية.

(٢) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة تناقلها الأدباء والشعراء في إيران والهند، تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال، و«أبرويز» دور الملك القاهر الذي عشقها، واستأثر بها.

(٣) «زبور عجم» (ص١١٦ - ١١٨) باختصار وتوسُّع، و«روائع إقبال» (ص٨٩-٩٢) باختصار.

الملوك، إنَّ لك الخِيار، فاختر ما شئت.

ولكنني بدوري، لم يعجبني الفرار من الحياة، والعكوف في الزوايا والخلوات.

لقد هيَّأك الله -أيها الشاب المسلم لاقتناص «هُما»[١]، وما هذه الطيور والأسماك التي تملأ العالم إلَّا للتمرُّن عليها في بَدء أمرك، ويتلهَّى بها غيرك. وما نُطقك بالشهادتيْن -أيها المسلم- سواءً كنت عربيًّا أو أعجميًّا، إلَّا حديثًا غريبًا، حتى يشهد بك قلبك»[٢].

«إنَّ كلَّ ما في العالَم من الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكيَّة، راحلٌ زائل، وغائب آفِل، أنت -عالي الهمة- بطل المعركة، وقائدُ الجيش، وكلُّ ما حولك من سافلٍ وعالٍ، ورخيصٍ وغالٍ، من جنودك وأتباعك.

أسفًا لك، أيها الرجل! لم تقدِّر نفسك، ولم تحسِب لها حسابًا، ما أشدَّ جهلك، وما أضيقَ نظرك! إلى متى تجري وراء الدنيا الذليلة وتعبدها وتخضع لها؟ إمَّا أن ترفضها رفضًا باتًّا، وتزهد فيها وتتبتَّل، وإما أن تملك ناصيتها وتَسُود وتحكم، لا منزلة بين المنزلتين، ولا توسطَّ بين الشهادتين».

بل نقول بمرامي المؤمن القوي الطموح.. ازهد وتبتل واملك ناصيتها وسد واحكم كدواد وسليمان عليهما السلام.. وعمر بن عبد العزيز..

فنحن أناس لا توسُّطَ عندنا لنا الصَّدْرُ دون العالمِين أو القبرُ

---

(١) طائر أُسطُوري في الأدب الفارسي والأردي، يُضرَب به المثل في اليُمْن والسعادة، يُقال: أنه ما أظلَّ إنسانًا، وما طار فوق رأسه إنسان إلاَّ وكان ملكًا في يوم من الأيام!!!.

(٢) «بال جبريل» لإقبال (ص٦٧ - ٦٨).

□ إن السجدة التي هي جديرةٌ بالاهتمام هي السجدة التي تحرِّم عليك كل سجدة لغير الله.

□ إن هذا الكونَ الفسيح ليس وكرُك الذي تستريح فيه، والغايةُ التي تنتهي إليها؛ ليست هذه الأرض، التي مادتُها التراب، مصدرُ روحك المتوقِّدة الوثَّابة، وعاطفتُك الملتهبة؛ أنت مادةُ الكون، وليس الكون مادَّتُك.

كُن في تقدُّم دائم، ورحلة دائمة، وحَطِّم هذا الجبل الأصمَّ الذي يعترض في طريقك، وتمرَّد على هذا الزمان والمكان، وتحرَّر من قيودهما، وانطلق من حدودهما، فإن المؤمن إذا عرف قيمةَ نفسه اقتنص هذا العالم، واقتنص هذه الأرضَ والسماء في بعض ما يقتنص».

«إن هنالك عوالمَ وأكوانًا، لم تقع عليها عيْنٌ بعد؛ فإن ضمير الوجود لم يفرغ جَعبته، ولا يزال يأتي بجديد؛ وإن هذه العوالِمَ متشوِّقة لهجومك، وغارتك، وزحفك؛ متشوِّقة لأبكار أفكارك، وبدائع أعمالك؛ إن هذا العالَمَ يدور دورتَه؛ لتنكشف عليك نفسك وحقيقتك.

أنت فاتحُ هذا العالم، ويعجزُ البيانُ عن وصفك، وتعجزُ الملائكة عن غاياتك»[1].

فَدَتْ نفسي وما مَلَكت يميني ... فوارسَ صَدَّقَتْ فيهم ظنوني

فوارسَ لا يَمَلُّون المنايا ... إذا دارت رَحَى الحرب الزبون[2]

---

(١) «روائع إقبال» (ص١٣٩- ١٤٠).

(٢) البيتان لأبي الغول الطهوي. والحرب الزَّبون: التي تصدم الناس وتدفعهم.

يا عالي الهمة أنت حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح:

جدِّد في بني أمَّتك الإيمان واليقين، فقد عراهم الظنُّ والتخمين، إنَّ مقامك ومنزلك وراءَ هذه القبة الزرقاءِ والسماوات العُلَى، مقامك في غُرف الفردوس الأعلى.. ينظر إليك الذين في أرض الجنة كما ينظرُ الناس إلى النجم الغابر في الأفق لتفاضل ما بينهم.

إنَّ رَكْبَك يمشي فوق النجوم النَّيِّرة والكواكب المتلألئة.

إنَّ هذا الكونَ بما فيه ومن فيه، سائرٌ إلى الزَّوال والفناء، ولكنَّك تملك الآمادَ والأبعاد، فإنك أنت رسالةُ الله الخالدةُ الأخيرة، فأنت خالدٌ مع خلود رسالتك[1]، ودائمٌ بدوام دورك ومهمتك.

- إن دماءك القانيةَ عطرُ حِنَّاءٍ لعروس الوردة الحمراء؛ فبدمائك السخيَّة الطاهرة تنتعشُ الورود والأزهار، ويجري في عرقها ماءُ الحياة.
- إن نسبك المعنوي متَّصل بسيدنا إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– فأنت باني الحرم ورافع قواعد البيت العتيق.
- إن فطرتَك حارسةٌ أمينة لإمكانات الحياة وأسرار الوجود، فأنت المحَكُّ الأصيلُ لجوهر الكون وسرِّ الحياة، وإنَّ ما حملته النُّبُوَّة من تحفة غالية وهدية ثمينة من عالم الماء والتراب إلى عالَم الخلود الذي لا يزول ولا يحول، إنما هي أنت، وقد انكشف هذا السرُّ الدقيق بماضي الأمة الحنيفية والملَّة السمحة البيضاء، إنك أنت الوصيُّ على هذه الشعوب والأمم.
- عُدْ مَرَّةً ثانيةً إلى دروس الصدق والعدل والشجاعة، فالكونُ في

---

(١) وَضَع نصب عينيك قول الله لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

انتظارك، وقيادة العالَم تتطلع إليك وتتشرَّف نحوك.

□ حَطِّم -أيها المسلم- أصنامَ اللون واللحم والدم، وذُبْ في بوتقة المِلَّة الحنيفية السمحة، لتُصهَر صهرًا جديدًا، فلا فروقَ ولا امتيازات، ولا جنسيَّات ووطنيَّات، ولا عصبيَّات وقوميَّات.

□ إلى متى تتمتَّعُ برفقة الطيور المغرِّدة في الحديقة الفيحاء بين الأغصان الرطبة البليلة، أليس بجناحيْك قوةُ طيران الصقور المحلِّقة في الفضاء، التي تُنشئ أوكارها في الجبال الجرداء والشمَّاء.

□ إنه لا تُغني السيوف الصارمة، والعقول الراجحة، في الرِّقِّ والعبوديَّة فتيلًا، ولا تتحطَّم سلاسل العبوديَّة وأصفادَ الذُّلِّ والصَّغار إلَّا بطعم الإيمان وذَوْق اليقين.

مَن الذي يستطيع أن يقدِّر قوةَ المؤمن وصولَتَهُ؟! إنَّ نظرةً منه والتفاتةً تكفي لتغيير المقادير، وقَلْب الأوضاع، وهل الولاية والصلاحُ والغلبة والسلطان، وعِلْم الأسماء وسعةُ الإدراك، إلَّا تفسيرًا لكلمة الإيمان».

ولكِنَّ البصيرة الإبراهيمية لا تتأتَّى بسهولة، ولا تُوهَب مجَّانًا، فكم من الأهواء والأطماع تختفي في مسارب النفس، وتكوِّن لها أعشاشًا وأوكارًا.

□ ألَا إن اليقين المحكم الجازم، والعملَ المستمر الحاسم، ومحبَّةَ الرسول الأعظم فاتحِ الشعوب والأمم ﷺ هي السيوفُ المسلولةُ بأيدي الرجال الأبطال في معركة الحياة.

□ ماذا ينبغي أن يتحلَّى به الرَّجُل؟ قلبٌ سليم، ونبْعٌ صافٍ، ودمٌ فائر، ونظرةٌ عفيفة، ونفسٌ قلقة ولوعة طموحة.

□أنت أيها المسلم سِرُّ الوجود، فانكشِف على نفسك قبل أن تكشف على غيرك، وبحْ بِسِرِّك لِسِرِّك، وكن أمين «الذات» وترجمان أمر الله.

□لقد قطَّع الهوى والطَّمَع بني آدم إِربًا إربًا، ومزَّقهم شرَّ ممزَّق، فكُنْ أنت -أيها المسلم- نغمة الأُخُوة الحانية، ولسان الحبِّ البليغ.

□ يا ملتزمَ الساحل واللاجئ إلى الشاطئ، اقفزْ بنفسك في خضم البحر فلا تحدَّك حدود، ولا تغلَّك قيود، لقد يُرَى على جناحيْك غبار اللون والنسل والوطن، فرَفْرفْ بجناحيْك يا طائِرَ الحرم قل أن تُحلِّق في الفضاء وانفُضْ عنك هذا الغُبار.

□ اسبر أغوار قلبك ونفسك، وانزل في الأعماق، فإنها سرُّك، وارفعْ عن نفسِك نيْر الصباح والمساء وحطم كل القيود والأغلال.. كل قيود الأرض وكل أوهاق وأغلال العبودية لكل ما سوى الله، تعرف قدر الحرية، فتمام الحرية في العبودية لرب البريَّة، والمكاتب عبدٌ ما بقي عليه درهم.

وخُلِقْتَ طليقًا كطيف النسيم، وحُرًّا كنور الضُّحَى في سَماه
تُحَلِّق كالطَّيْر أين اندفعتَ، وتَشدو بما شاءَ وحيُ الإلهْ
تُسَبِّح بين ورود الصباح، وتنعمُ بالنُّورِ أنَّى تراهْ
وتمشي -كما شئت- بين المُروج، وتقطف ورْد الرُّبَا في رُباهْ

كذا صاغك الله، يا ابن الوجود، وألْقَتْك في الكونِ هذي الحياهْ
فمالك ترضى بِذُلِّ القيود، وتحْني لمن كَبَّلُوك الجباه؟
وتُسكِتُ في النَفس صوت السماء القويَّ إذا ما تَغنَّى صداه؟

وتُطبَقُ أجفانَك النَّيِّرات عن الفجْر، والفجرُ عذْبٌ ضياه؟

وتَقنَعُ بالعيش بين الكهوف فأين النشيد؟ وأين الإباه؟

أَتَخْشى نداء السماء الجميل؟ أترهبُ نور الفضا في ضُحَاه؟

ألَا نهض وسِرْ في سبيل الحياة، فمن نام لم تنتظِرْهُ الحياه؟

ولا تخش ممَّا وراء التِّلاع.. فما ثَمَّ إلَّا الضُّحى في صِبَاه..

وإلَّا ربيعُ الوجود الغريرُ، يطرِّزُ بالورد ضافي رداه..

وإلا أريجُ الزهور الصِّباحِ، ونور الأشعة بين المياه

وإلَّا حَمامُ المروج الأنيقُ، يُغرِّدُ، منطلِقًا في غناه..

إلى النُّور! فالنورُ عذب جميلٌ، إلى النور! فالنور وصف الإلهْ

□ إذا صادَفَتْك معركة الحياة فكُنْ لها حديدًا صُلْبًا، وإذا غازلتْك ليلة الحُبِّ فكُن لها حريرًا ناعِمًا، شُقَّ لك الطريقَ في التِباب القفار، وحَطِّمْ الجبال بسيْلك العَرِم وتيارك العنيف، وإن اعترضتك حديقة في الطريق، فناغمها بجدولك الجميل المنساب، الذي له خرير يُسكِرُ النفوسَ ويُبْهِرُ الألباب.

□ إنَّ علمك وحبَّك لا يعرفانِ الثغور والحدود، ولا يعتريهما الزَّوال والفناء، وليس في قيثارةِ الكون أنشودةٌ أحلى منك.

□ عَلِّم البلابل دروس التغريد، وانفخ في الطيور رُوح الخِفَّة والنَّشاط، وافتح أكمامَ الزُّهور والرياحين، فأنت نسيمُ السَّحَر، ونفحة الروضة النَّدِيَّة.

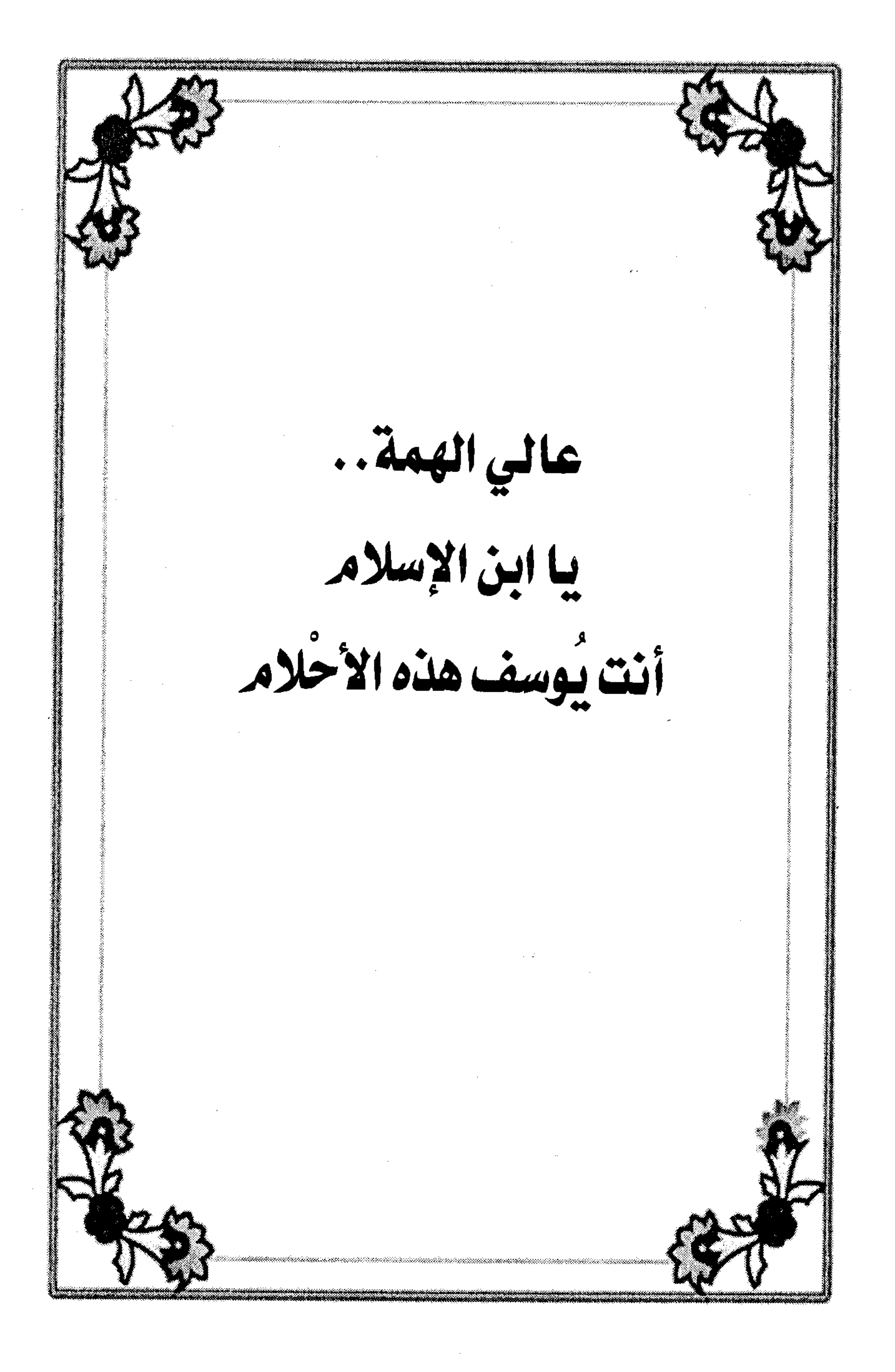
□ لقد التهبت جمرةُ الحب والإيمان والنخوة في بلاد الإسلام كَرَّةً ثانية، وأصبحت الأرض حلبةً للفرسان من كُلِّ مسلم عالي الهمّة مجيد، ومن

الأُباه الشُّمِّ ذوي الهِمَّة القعساء والنَّظر البعيد.

▫ إن اليقين المسلم عالي الهمَّة وإيمانه في عالَم الظَّن والتخمين، كمصباح الرَّاهب في الصحراء في ظلمات الليل البهيم، ما الذي أصاح بعروش كِسرى وقيصر، وقضى على ظلمهما وجوْرهما؟ إنه قوّة علي، وفقْر أبي ذر، وصِدْق سلمان.

▫ انظرْ إلى ركْب المؤمنين الأحرار، كيف يَشُقُّ طريقه في أُبَّهَةٍ وجمال، ويتطلَّعُ إليه من فتحات الأبواب أسْرَى القرون والأجيال.

▫ إنَّ هذه الشُّعلة مِن طين، عندما تتحلَّى بالإيمان واليقين، تكتسي بأجنحة الرُّوحِ الأمين، وتطيرُ بها في العالَمِين.



عالي الهمة..

يا ابن الإسلام

أنت يُوسف هذه الأحْلام

عالي الهمة.. يا ابن الإسلام أنت يُوسف هذه الأحْلام

أخي:

أنت كنز الفضائل، ما من فضيلة فيك إلَّا ويطبع الإسلام عليها صورة الجنة، ولا رذيلة تتحاشاها إلَّا والإسلام يضع عليها صورة النار التي وقودها الناس والحجارة.

كان التاريخ واقفًا لا يتزحزح، ضيّقًا لا يتسع، جامدًا لا ينمو حتى جاء المسلم أخو الشمس يطلع بنوره كل يوم على الدنيا.

أخي:

أنا على يقين دائمًا أن المسلم معه الغد وآتيه، وإن أدبر عنه اليوم وذاهبه، إن المسلم ليس رجل الأرض في الأرض، ولكنه رجل السماء في الأرض، إنه يتسع في الزمان والمكان من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه، وكأنما كانت شمس فجره الآتي الذي سينتصر فيه، قبل أن تشرق على الدنيا مشرقة في قلبه.

أخي:

أنت للدنيا كالمنارة على الساحل تهدي الحائرين وترشد الأدلَّاء.

أنت أولى الناس بقول القائل:

وحقيقتــي نــورٌ فــمالي ســابحًا ... في لجــة الظلــمات والأشــجانِ

أنــا أمّــة فــيما أريــد لأمتــي ... وولايتــي دنيــا مــن الأجيــال

فــاخلق لنفــسك نــشوة ... في المجد ترهب في العرين أسودا

واجعل نشيدك قول ربك لا تخف   حتى يهاب البرق منك رعـودا[1]

يا ابن الإسلام:

إن هذه الشعلة من طين، عندما تتحلى بالتوحيد والإيمان واليقين، تكتسي بجناحي الروح الأمين، وتطير بهما في العالمين.

كن عبدًا لربك تكن حرًّا، قل لكل قيود الأرض: لا، لا يا قيود الأرض، فإنه لا تغني السيوف الصارمة، والعقول الراجحة في الرقّ والعبودية فتيلًا، ولا تتحطّم سلاسل العبودية وأصفاد الذل والصغار إلَّا بطعم الإيمان وذوق التوحيد واليقين.

أخي:

إن البصيرة الإبراهيمية والعزة والإسلام والتوحيد لا تتأتّى بسهولة، ولا توهب مجانًا، فكم من الأهواء تختفي في مسارب النفس وتكوّن لها أعشاشًا وأوكارًا.

يا ابن الإسلام ويا يوسف الأحلام:

كن نغمة الأخوة الحانية، ولسان الحبّ البليغ.. انطلق للدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.. لا تحدّك حدود، ولا تغلّك قيود، رفرف بجناحيك يا طائر الحرم، وقبل أن تحلّق في الفضاء، انفض عنك غبار اللون والنسل والوطن والتراب، شقّ لك الطريق في اليباب القفار، وحطّم الجبال بسيلك العرم وتيارك، وإن اعترضتك حديقة في الطريق فناغمها بجد ولك الجميل المنساب، الذي له خرير يُسكر النفوس ويبهر الألباب.

---

(١) «إقبال الشاعر الثائر» (ص٦٩) لنجيب الكيلاني.

✍ علّم البلابل دروس التغريد ولحن التوحيد، وانفخ في الطيور روح الخفة، وافتح أكمام الزهور والرياحين، فأنت نسيم سحر العالم، ونفحة روضته الندية..

فدت نفسي وما ملكت يميني ... فوارس صَدَّقتْ فيهم ظنوني

فوارس لا يملّون المنايا ... إذا دارت رحى الحرب الزَّبون(١)

يا ابن الإسلام:

أحب شيء إلى نفسي أعزّه وجودًا وأبعده منالًا.. أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال، يملأ عيني برجولته، ويروّح نفسي.. مسلم يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية، وبين عُبّاد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص، وبين عُبّاد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقياته وإنسانيته، وبين عُبّاد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرَّده من الشهوات وتمرّده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه، يعيش برسالته ولرسالته.

إنك أيها المسلم في العالم وحدك، وأما ما عداك فسراب خادع ودرهم زائف.

أنت نقطة دائرة الحق، وكل ما عداك فسراب خادع ودرهم زائف.

أنت أنت لا تتغير ولا تتحول، وأما ما عداك فزبد يذهب جفاءً.

أنت الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وما عداك

(١) لأبي الغول الطهموي. والحرب الزبون هي: التي تصدم الناس وتدمغهم.

شجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

بقاؤك كبقاء الشمس والكواكب النيّرة؛ لأنك تحمل رسالة خالدة، وتحتضن أمانة خالدة، وتعيش لغاية خالدة، أنت رمز لرسالات الأنبياء، وأذانك إعلان للحقيقة التي جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليهم وسلم).

أنت رسالة الله الأخيرة، فلا يعتريها النسخ والتبديل.

أنت موج من أمواج بحر الإسلام الخضم، يأتي موج ويذهب موج، وتترامى الأمواج في أحضان البحر وتتلاشى في وجوده، والبحر لا يتغيّر؛ فالبحر امتداد دائم، كبحر الحياة وبحر الوجود، تتبدّل أمواجه ولا يتبدّل كيانه.

إن العالم ميراث للمؤمن، لا يشاركه فيه أحد، خُلق وسُخّر له.

على الأذان الصارخ والنداء العالي، الذي ارتفع من جبل «أبو قبيس» قبل ثلاثة عشر قرنًا، استيقظ هذا الكون بعد السبات العميق، وكان نفخة صور للإنسانية الميتة والعالم المحْتَضَر، وهو الكفيل الآن بإيقاظ الإنسانية وإحياء الضمير البشري.

إن المؤمن إذا نادى في الآفاق بأذانه، أشرق العالم واستيقظ الكون.

إن الفجر الذي سيهتز له هذا العالم المظلم ويُولي به ليل الإنسانية الحالك إنما ينشأ بأذان المؤمن.

إن المسلم حقيقة عالمية لا تنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيقة، بل تتخطى حدود المكان والزمان، وتفيض كالطبيعة البشرية، وكالإنسانية العامة، في مساحة زمانية شاسعة، كمساحة التاريخ

الإسلامي، وفي مساحة مكانية واسعة كمساحة العالم الإسلامي.

✍ إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود، ولا يعرف أفقه الثغور، ليس النيل والفرات وسيحون وجيحون إلَّا أمواجًا صغيرة في بحره المتلاطم. عصوره عجيبة وأخباره غريبة، نسخ العهد القديم، وغيّر مجرى التاريخ. هو في كل عصر ساقي أهل الذوق، وفي كل مكان فارس ميدان الشوق، شرابه رحيق دائمًا، وسيفه ماض في كل معركة.

✍ إن المؤمن هو الميزان العادل، والقسطاس المستقيم، به يُعلم رضا الله وسخطه، وبه يعرف الحسن من القبيح، فما راق في نظره فهو حسن، وما استقبحه فهو طائش، وفي عزائمه تتجلى الإرادة القوية، وهو الدين يسعى على قدميه، هو صاحب معان كثيرة، وشدو واحد، فهو كسورة الرحمن في القرآن، تتجدّد معانيه وتتكرر فيه آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن]، ينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه، ويكرر رسالة الأنبياء، ويقول لكل جيل: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥].

✍ هو كالصبح جديد وقديم، فهو في جدّته ليس أجدّ منه، وهو في قِدَمه ليس شيء أقدم منه؛ هو قديم لكنه يتجدّد به العالم، وتتجدّد به الكائنات، وتنتعش به القوى، وتستيقظ به الأجسام والقلوب والعقول؛ ثم هو جديد بنفسه، تتجدّد قواه ويتجدّد نشاطه، وتتفتح قريحته مع العصور، علمه سيّار، وعقله مبتكر، ونفسه طموح، وهمّته وثّابة، وهو كالمطر كل قطرة غير الأولى، ولكنها قطرات، كلها تحيي الأرض، وكلها تنبت النبات، وكلها تسقي الزروع والأشجار، وكلها تفتح الأزهار،

وكلها تكوّن الأنهار.

• قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر..».

عجبًا لك أيها المسلم! تجلَّت لك الآفاق، وغابت عنك نفسك؟ إلى متى تظل غافلًا جاهلًا؟ وتجلس ضائعًا عاطلًا، إن نورك الوهَّاج أنار العالم القديم، ونسخ الليل البهيم، ولا تزال اليد البيضاء التي ورثتها عن موسى في كمِّك، تتخطى حدود الآفاق الضيِّقة، فأنت السابق لها والفائق عليها، هل تخاف الموت؟ لقد كان جديرًا بالموت أن يخافك، فأنت تكمن له وترصد به.

اعلم يقينًا، أن الكريم إذا وهب شيئًا لا يسلبه ولا يسترده، وليس حتف ابن آدم في فراق الروح، إنما حتفه في ضعف الإيمان والحرمان من اليقين.

أخي:

افتح عينيك أيها الزهر النائم مثل النرجس الذي لا يطبق عينيه لحظة، ولا يعرف الكرى إليه سبيلًا، لقد أغار على وكرنا الأعداء، ونهبوا كل ما فيه من كنوز وخيرات، ألا يكفي هدير الحمام، وصفير الآذان، وأنين القلوب والأرواح، وبكاء الثكالى واليتامى، وصراخ السبايا أن يوقظك؟! انتبه من هذا السبات العميق، الذي طال أمده واشتدت وطأته.

لقد بدأت الشمس رحلتها المباركة، وارتفع عمود الصباح المنير في بحر الظلمات، وحزمت القوافل في الجبال والصحاري أمتعتها، وضُرِب نفير الرحيل، فما لك أيتها العين الساهرة! التي خُلِقت لمراقبة الإنسانية، وحراسة الضعفاء تنامين؟

يا ابن الإسلام:

لقد أصبح بحرك هادئًا ساكنًا كالصحراء، لقد فقد طبيعته، فلا مدّ فيه ولا جزر، عجبًا لهذا البحر الذي لا يهيج ولا يموج، وليس فيه تمساح طموح مغامر، ولا موج ثائر عارم!.

اقفز من حدودك الضيّقة الهادئة لتفيض على البراري والقفار والنجاد والأغوار.

بك قِوام العالم وبقاء الأمم، فاشرب كأسًا فائضة من اليقين، وانهض من حضيض الظن والتخمين.

يا ابن الإسلام:

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول، وسحروا النفوس، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرّة بالرقة والدلال، ومَرّة بالقيود والأغلال.

إن الذي عرف نفسه وعرف قيمته لا يليق به إلَّا عروش الملوك وأسرّة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قوام، ولا شرف ولا كرامة إلَّا بهذه المعرفة، فإذا ملكتها ملكت العالم، وإذا فقدتها أصبحت من سقط المتاع.

يا يوسف هذه الأحلام:

إن كل ما في العالم من الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكية، راحل زائل، وغائب آفل، وأنت أيها المسلم بطل المعركة، وكل ما حولك من سافلٍ وعالٍ، ورخيص وغال، من جنودك وأتباعك.

أخي:

يا وارث التوحيد يا أنا! هل أصبحت كسائر الناس لا تحمل روحًا ولا تجذب نفوسًا؟

إن السجدة التي كانت تهتز لها روح الأرض، طال عهد المحراب بها، واشتاق إليها المسجد كما تشتاق الأرض الجديبة الخاشعة إلى المطر؛ لم أسمع ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال الأمس.

لم أر في محيطك أيها المسلم لؤلؤة الحياة، قد بحثت عنها موجة موجة، وتفقدتها صَدَفة صَدفة.

أخي:

إذا رأيت النجوم شاحبة منكدرة تخفق، فاعلم أن الفجر قريب، ها هي الشمس قد ذرّ قرنها من الأفق، وولى الليل على أدباره، إن عاصفة الغرب على الإسلام قد أعادت المسلم إلى الإسلام، فإنما تتكون اللآلئ في البحر المتلاطم الهائج، لقد دب دبيب الحياة في المسلم، وجرى الدم في عروقه.

يا حُرّاس الدين وأمناء الله في العالمين، يا من لو أقسمتم على الله لأبركم، إذا تألّق نجمكم في آفاق السماء أفلت نجوم الآخرين، وطُوي بساطهم، لن تسعكم الصحراء والفيافي. فاضربوا خيمتكم في وجودكم الذي يسع الآفاق، كونوا أسرع من العاصفة وأقوى من السيل، حتى تسرع ركائبكم في مضمار الحياة وتسبق الريح.

امتلكوا ناصية الأيام، خذوا عنان التاريخ، وقودوا قافلة البشرية إلى الغاية المثلى.

من الذين أكرمهم الله بالسبق إلى قراءة القرآن سواكم؟! من الذي دوّى أذانه في العالمين غيركم؟! هل العلم إلّا فتات مائدتكم، وهل قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] إلّا وصف حالكم؟!.

مرّ الإسلام على صحرائكم فأنبتت الأزهار والرياحين، صهيل خيل أبي سليمان خالد بن الوليد، وسيف صلاح الدين، ونظرة الزاهد الأواب بشر بن الحارث، وذكر الفضيل بن عياض، وفكر ابن تيمية، ودويّ التكبير والصلوات، وزمزمة جَلَبة الحروب والفتوح بين الخافقين.

أخي:

إني أرى في مرآة المستقبل عصرًا لا يزال في طيّات الغيب، قد بدت تباشيره، وظهرت طلائعه لعيني، ولكنها لا تزال محجوبة عن أعين الناس، لو كُشف الغطاء عن وجه هذا الفجر المرتقب، لشقّ ذلك على أوروبا، وفقدت رشدها وجُنّ جنونها، هذا الفجر سيوقظ العقول، ويهزّ النفوس، ويزهر الآمال في الصدور، قد آن أن تشرق الأرض بنور ربها، ويعيش العالم من جديد.

يا ابن الإسلام:

أنت البغية المنشودة، وبحرك زاخر بالدرر واللآلئ.

أخي:

لا تربط نفسك وقلبك بالتراب، والحمإ المسنون، والحجارة والقرميد. إن الصقور لا تستريح ولا تهدأ في الأوكار.

أتهوي من القمة العالية، وتهبط من تلك العلياء التي رفعك إليها الإسلام؟! أصبحت لطول عهدك بالفتوحات لا تفهم لغة الصهيل والسيوف، وإهابة الشجعان المجاهدين، ألفت نغمة المغنين، وعشت بين الآهات والزفرات والأنين، فقدت عيناك النور، وحرم قلبك لذة السرور.

يا يوسف هذه الأحلام:

جدّد فيك الإيمان واليقين، فقد عراك الظن والتخمين، إن مقامك ومنزلك وراء هذه القبة الزرقاء والسماوات العلى، وإن رَكْبك يمشي فوق النجوم النيّرة والكواكب المتلألئة.

يا ابن الإسلام:

أنت وحدك تملك الآماد والأبعاد، أنت رسالة الله الأخيرة، وأنت خالد بخلود رسالتك، دائم بدوام دورك ومهمتك.

أخي:

إن ما حملته النبوة من تحفة غالية وهدية ثمينة، من عالم الماء والتراب إلى عالم الجنان والخلود الذي لا يزول ولا يحول، إنما هي أنت، وقد انكشف هذا السر الدقيق بماضي الأمة الحنيفية والملة السمحة البيضاء، أنت متصل النسب المعنوي بأبيك إبراهيم، خلقت لتحيا مع الله في جواره في فردوسه في دارٍ غَرسَ غَرسها الرحمن بيده.

إلى متى تتمتع برفقة الطيور المغرّدة في الحديقة الفيحاء بين الأغصان الرطبة البليلة، أليس بجناحيك قوة طيران الصقور المحلقة في الفضاء، التي تنشئ أوكارها في الجبال الجرداء الشماء.

أخي:

ما أعذبَ هذه الكلمات على شفتيك:

أنا مسلم والنور ينبض في دمي ولسان كل المكرمات لساني

أنا مسلم والشمس تألف هامتي والسائرون بدربها إخواني

يا يوسف هذه الأحلام:

أنت وحدك من يعي ويفهم قول الصادق الأمين ﷺ: «إنما الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة»[(١)].

أردد قولك وأسطره في فهمك للحديث: «إنما قال: الناس كإبلٍ مئة»، ولم يقل: «الدعاة كإبل مئة» بل نحن الرواحل كلنا فاقتحم فأنت لها..

قد غرسنا الدينَ في أرض القلوب	وجلوْنا الحق من ستر الغيوبْ
ومن الدنيا حللْنا العقدا	واستنار التُّرْب منا سجدًا
من دنان الحق صرّفنا الرحيق	وهدمنا حانة الكفر العتيق
كأسنا كانت سراج المحفل	صدرنا كان لقلب مشعل
إن هذا العصر من آثارنا	من عجاج ثار في تسيارنا
نحن ورّاث هداة للبشر	نحن عند الحق سرٌّ مدّخر
لا تزال الشمس تُبدي نورنا	غيمنا فيه بروقٌ وسنا [(٢)]

أخي: ألا تشتاق لحمل راية الإسلام في فجره الآتي:

يا راية بالنور خافقةً	يهفو إليكِ السمعُ والبصر
هيّا.. فإن الدهر مُرتَقِبٌ	ومواكب التاريخ تنتظر

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي وابن ماجه، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) من كتاب «تأملات» لمحمد إقبال – ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام.

يا يوسف الأحلام:

أخي إن فجرك آتٍ،..

وصبحك يركض نحو بلادٍ

يُعَشعشُ في قلبها العنكبوتْ

الضياءُ الذي في فؤادك يَصْهلُ..

والليلُ ليلٌ مقيتْ

وهل أنتَ إلَّا جوادٌ يخبُّ..

وسيف مُجُرَّدْ؟

فهل نفروا مثلما قد نفرتَ..؟

وهل سهدوا مثلما.. أنت مُسْهَدْ؟

وهل عرفوا لغة السيف يأبى المذلّة..

يا سيفنا المشرئب الذي..

ليس يُغمدْ؟

وها أنت طاولت كل النجوم..

وها هم عبيد القرود

وها هم وطاءٌ لكل مشرّدْ

تساميت كالأقحوانِ..

وأُرهفتَ.. والكل جَلْمدْ

فهُمْ كالحجارة.. لا حسّ فيها

ولكنك الآن نَبْعٌ تَوَلَّدْ

وهل أنتَ إلَّا كتابٌ..

سيقرؤهُ القادمون حروفًا تُغَرِّدْ؟

وهَلْ أنت إلَّا الثباتُ الأبيُّ..؟

وهل أنت إلَّا التجرّدْ

وهل أنت إلَّا الزمان التقيُّ

يخاطبنا عبر هذي التقيُّ

يخاطبنا عبر هذي الفيافي

فنصحو ونسعَدْ؟

ويدمغ من يذبحون الرجولة فينا

ويدحض من يفقدون اليقين المؤكد

وصوتك يا حِبَّنا

منذ حلَّ المساءُ..

وأوغل هذا الظلام المعربِدْ

وعادت خفافيشه ترصَّدْ

يسافِرُ في زمرةِ القابضين

على الجمر.. والجمرُ مُوقَدْ

فلا تبتئِس،

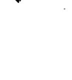
إنَّ فينا من الذِّكر آيًا

تُصَبِّرُنا في التهجَّدْ

وفينا من القبس النبويِّ..

مشاعل ضوء تبث اليقين.. بأرواحنا

في زمان التَرَدُّدْ [١].




(١) من قصيدة: «لأنك لا تعرف العيش إلَّا حُسامًا» من ديوان «الجواد المهاجر» لطاهر العتباني (ص٢١- ٣٠).



الخاتمة

الخاتمة

✍ أخي، لتكنْ لك همَّةٌ تنطحُ الثريَّا.

«إذا أُعطِي العبدُ همَّه كبرى؛ ارتحلتْ به في دروبُ الفضائلِ، وصعِدتْ به في درجاتِ المعالي.

ومن سَجَايا الإسلامِ التحلِّي بِكبَرَ الهمَّةِ وجلالةِ المقصودِ، وسموِّ الهدفِ وعظمةِ الغايةِ.

فالهمَّة هي مركزُ السَّالِب والموجَب في شخصِك، الرقيبُ على جوارحِك، وهي الوقودُ الحِسِّي والطاقةُ الملتهبةُ، التي تمدُّ صاحِبَها بالوُثوبِ إلى المعالي، والمسابقةُ إلى المحامدِ. وكِبَرُ الهمَّةِ يجلبُ لك –بإذن الله– خيرًا غيرَ مجذوذٍ؛ لترقَى إلى درجاتِ الكمالِ، فيُجري في عروقِك دمَ الشهامةِ، والرَّكْض في ميدانِ العلمِ والعملِ، فلا يراك الناسُ واقفًا إلَّا على أبوابِ الفضائلِ، ولا باسطًا يديك إلَّا لمهمَّات الأمورِ، تُنافس الروَّادَ في الفضائلِ، وتزاحِمُ السَّادة في المزايا، لا ترضى بالدُّون، ولا تقفُ في الأخيرِ، ولا تقبلُ بالأقلِّ.

والتَّحَلِّي بالهمةِ؛ بها يُسلَب منك سَفَاسِف الآمالِ والأعمالِ، ويُجتثُّ منك شجرةُ الذلِّ والهوانِ، والتملُّق والمداهنةِ.

فكبيرُ الهمَّة ثابتُ الجأسِ لا ترهبُه المواقِفُ، وفاقِدُها جبانٌ رِعْديدٌ، تُغلِقُ فمَه الفهاهةُ.

ولا تغلطْ فتخلطَ بين كِبَرَ الهمةِ والكِبْر؛ فإنَّ بينهما من الفرقِ كما بين السماءِ ذاتِ الرَّجْع والأرضِ ذاتِ الصَّدع، فكِبَرَ الهمةِ تاجٌ على مَفْرِق القلبِ الحرِّ المثالي، يسعى به دائمًا وأبدًا إلى الطُّهرِ والقداسةِ والزيادةِ

والفضلِ، فكبيرُ الهمةِ يتلمَّظ على ما فاتَه من محاسنَ، ويتحسَّر على ما فقدَه من مآثِرَ، فهو في حنينٍ مستمرٍ، ونَهمٍ دؤوبٍ، للوصولِ إلى الغايةِ والنهايةِ.

كِبَرُ الهمَّةِ حِلْيةُ ورثةِ الأنبياءِ، والكِبْر داءُ المرضَى بعلَّةِ الجبابرةِ البؤَسَاءِ.

فكِبَر الهمَّة تصعدُ بصاحِبِها أبدًا إلى الرُّقِّي، والكِبْرُ يهبطُ به دائمًا إلى الحَضِيضِ.

فيا طالبَ العلمِ، ارسمْ لنفْسِك كِبَر الهمةِ، ولا تنفلتْ منها، وقد أَمَأَ الشرعُ إليها في فقهيَّاتٍ تلابِسُ حياتَك؛ لتكونَ دائمًا على يقظةٍ من اغتنامِها، ومنها: إباحةُ التيمُّم للتكلَّف عند فقْدِ الماء، وعدم إلزامِه بقبولِ هِبَة ثمنِ الماءِ للوضوءِ؛ لِمَا في ذلك من المِنَّة التي تَنالُ من الهِمَّة منالًا.. وعلى هذا فقسْ..

همٌّ كـأنَّ الـشَّمسَ تخطـبُ وُدَّهـا — والبـدرَ يرسـمُ في سَـناها أحرُفَـا

فاللهَ اللهَ في الاهتمام بالهمَّة، وسَلِّ سيْفِها في غمراتِ الحياةِ..

هوَ الجِدُّ حتَّى تفضُلَ العَيْنُ أُختَهـا — وحتَّى يكونَ اليومُ لليوم سيِّدا»[1]

يا بن الإسلام.. ويا عالي الهمة:

فـــأَطلِقْ لرُوحـــكَ إشْرَاقَهـــا — تَــرَ الفجــرَ يرمقُنــا مــن بَعِيــد

وقلْ لكلِّ حاقدٍ -صليبيٍّ أو يهوديٍّ أو علماني-: اخْسَأ؛ فلن تعدوَ قدْرَك..

لا تهيِّــئْ كَفَنِــي يــا عَــاذِلي — فأنا لي مـع الفَجْـرِ مواثيـقُ وعهْـدُ

واهدِرْ بصوتِك مجلجِلًا يُصِمُّ آذانهم:

(١) «لا تحزن» لعائض القرني (ص٢٨٦- ٢٨٧).

أناضِلُ عن دينٍ عظيمٍ وهبتُهُ عطاءَ مُقِلٍّ مُهْجَتي وحياتِنا
ومُمتثلٍ لله أسْلَمَ وجهَهُ يقولُ أنا وَحْدِي سأحمي دينِيا
بظهري ببْطني بالذِّراع بمقلتي بجنبي بعظْمِ الصَّدْر حتى التَّراقِيا
تأخَّرْتُ دهرًا باللَّذائذِ والمُنى ومِن حذَر الدنيا وخوْف العَوَادِيا
فلمْ أرَ يومًا كالتقدُّم لَذَّةً ولم أرَ عيْشًا عيْشًا كالتقدُّم هانِيا
على ذروةِ التوحيدِ تخفقُ رايتي وتحتَ روابيها تصبُّ دمائِيا

وعلى الذرا.. ومناراتِ الدنيا؛ ردِّدْ للكونِ نداءَك: «ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليلُ والنهارُ»..

لإسلامِي ولو حتَّى إلى الجدْرَانِ شدُّوني
لإسلامي ولو حتَّى إلى النِيرَانِ زفُّوني
لإسلامي لإسلامي ولو في السُّوقِ باعُوني
وإسلامي له نبْضِي له عِرقي وتكويني
وثاراتٌ لإسلامي تُعايشُني تغذِّيني
تبثُّ النورَ في رُوحي وتنبِضُ في شراييني

✍ أخي:

قد أطلْتُ عليك.. وأسهبتُ في بعضِ المواطنِ واستطردتُ، ولعلَّ لي عذري.. وتركتُ فُصُولًا أخرى لطبعاتٍ تالية..

✍ أخي القارئ:

هذا جَمْعِي، لك غُنْمُه وعليَّ غُرْمُه، لك ثمرتُه وعليَّ تبعتُه؛ فما وجدتَ فيه من صوابٍ وحقٍّ فاقبَلْه ولا تلتفتْ إلى قائله، وما وجدتَ فيه

من خطأ فإنَّ قائله لم يألُ جهدَ الإصابةِ، ويعلمُ الله أن أخذض من لحمي ودَمِي، ويأبى الله إلَّا، تفرَّد بالكمالِ، كما قيل:

والنقصُ في أصلِ الطبيعةِ كـامنٌ فبنُـو الطبيعـةِ نقـصُهم لا يُجحَـدُ

وكيف يُعصَم من الخطأ من خُلِق ظلومًا جَهولًا؟!!

ومن الفألِ الحسَن لهذا الكتاب -وأسألُ الله بكرمِه أني ضعَ له القبولَ في الأرضِ- أن أكتبَ مقدِّمته في الرَّوضَةِ النبويَّة بالمسجدِ النبويِّ، وأن أختمَه ولله الحمدِ وأضعُ القلمَ فراغًا منه لأذهبَ لأفضلِ الصَّلوات؛ قال رسول الله ﷺ: «**أفضلُ الصَّلواتِ عندَ الله صلاةُ الصُّبحِ يومَ الجمعةِ في جَماعةٍ**»[١].

✍ وأختمُ كتابي بهذا الدعاءِ علَّه يناسبُ «علوَّ الهمَّةِ».

□ **اللَّهُمَّ** يا وارِثَ الأرضِ ومَنْ عليها، ويا باعِثَ جميعِ مَن فيها، ورِّثْ أمَلي فيكَ مُنى أمَلِي، وبلِّغْ همِّي فيك مُنْتهى وَسَائلي.

□ **اللَّهُمَّ** متِّعْ أبصارَنا بالجَوَلانِ في جِلالِكَ، وسهِّرْنا عمَّا نامتْ عنهُ عُيونُ الغافلِين.

□ **اللَّهُمَّ** اجعلْنا من الذين لخدمتِكَ في أقطارِ الأرضِ لهمْ طُلَّابًا، ولخصائِصِ أصفيائِك أصحابًا، وللمعتكِفين ببابك أحبابًا.

□ **اللَّهُمَّ** اجعلْنا ممَّن بذَلُوا المجهودَ في طلبِ مرضاتِكَ، وانصرفتْ عن خلْقِك إليك همومُهم، وأنِسَتْ وطابتْ بالخلوَةِ فيك نفوسُهم، ولا يسعَوْن

---

(١) صحيح: رواه أبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (٥٦٦).

في طاعتك إلَّا ركْضًا.

□ اللَّهُمَّ سُقْنا إلى أقصى مرادِكَ درجةً درجةً، واسلُكْ بنا منازِلَ أصفيائِك منزلةً منزلةً، واكشفْ لنا عنْ مكنونِ علْمك حجابًا حجابًا حتى نتنزَّه في بساتينِ نشْر آلائِكَ، ونرتوي من غدْران ذكْر نَعْمائِك.. اردُدْ أبصارَنا وبصائرنا بطُرَفِ الفوائدِ، وامددْها بتُحَف الزوائدِ، واجعلِ العيونَ منا فوَّارةً بالعَبَراتِ، والصُّدُورَ منَّا مشحوَّةً بالحرقاتِ.

□ اللَّهُمَّ إني أسألُك مِنْكَ ما هو لكَ، وأستعيذُك مِن كلِّ أمْرٍ يُسخِطك.

□ اللَّهُمَّ إني أسألك من صَفَاءِ الصَّفاءِ صفاءً أنالُ به منك شرَفَ العَطاءِ.

□ اللَّهُمَّ ولا تشغلْني شغْلَ مَن شغَلَهُ عنك ما أرادَ منْكَ، إلَّا أن يكونَ لكَ.

□ اللَّهُمَّ اجعلْني ممَّن يذكرك ذكْرَ من لا يريدُ بذكْره منك إلَّا ما هو لكَ.

□ اللَّهُمَّ اجعلْ غايةَ قصدي إليك ما أطلبُهُ منكَ.

□ اللَّهُمَّ املأ قلبي بِكَ فرحًا، ولساني لك ذكْرًا، وجوارِحِي بما يُرضيكَ شغلًا.

□ اللَّهُمَّ امحُ عن قلبي كلَّ ذكْر إلَّا ذكْرَكَ، وكلَّ حُبٍّ إلَّا حُبَّك، وكلَّ وُدٍّ إلَّا وُدَّك، وكلَّ إجلالٍ إلَّا إجلالَكَ، وكلَّ تعظيمٍ إلَّا تعظيمَكَ.

□ اللَّهُمَّ اجعلْ سؤالي لكَ سؤالَ محابِّك، ولا تجعلني ممَّن يتعمَّد بسؤالِه مواضِع الحظوظِ، بل يسألُ القيامَ بواجبِ حقِّك.

□ اللَّهُمَّ اعصمْنا فيما بَقِي من الأعمارِ إلى منتهى الآجالِ، عصْمةً دائمةً كاملةً تامَّةً، وكرِّهْ إلينا كلَّ الذي تكْرَه، وحبِّبْ إلينا كلَّ الذي ترضاه

وتحبُّه، واستعمِلْنا به على النحو الذي تحبُّ، وأدِمْ ذلك لنا إلى أن تتوفَّانا عليه، أكِّدْ على ذلك عزائِمَنا، واشْدُدْ على ذلك نيَّاتِنا، وأصلحْ لها سرائِرَنا، وابعثْ لها جوارِحَنا، وكنْ وليَّ توفيقِنا وزيادتِنا وكفايتِنا.

□ **اللَّهُمَّ** هبْ لنا ما وهبتَ لصَفْوَتِكَ وأوْليائِك وأهلِ طاعتِك من دائمِ الذكْرِ لكَ، وخالِصِ العمَلِ لوجْهِك، على أكملِه وأدْوَمِه، وأصفاهُ وأحبِّه غليك، وأعِنَّا على الفعْلِ بذلك إلى مُنْتَهى الآجالِ.

• **«اللَّهُمَّ اجعلْ في قلبي نورًا، وفي لِساني نورًا، وفي بَصَرِي نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يَسَارِي نورًا، ومن فَوقي نورًا، ومتى تحتي نورًا، ومن أَمَامي نورًا، ومن خَلِفي نورًا، واجعل لي في نفسي نورًا، وأعْظِمْ لي نورًا»**[(١)].

✍ وأخيرًا وليس آخرًا إلى إخواني القرَّاء:

أناشدُ اللهَ مَن قرأَ هذا الكتابَ وانتفعَ به، أن يسألَ اللهَ سبحانه أن يجعلِني من العلماءِ الربانيِّين، وأن يرزقَني شهادةً في سبيلِه، وموتًا في بلدِ رسولِه ﷺ، وأن يمُنَّ علي بكتابة تفسير كامل للقرآن الكريم بعنوان «الكوثر الجاري في تفسير كلام الودود الباري» اللهم رُدَّ إليَّ عبد الله وسماء ردًّا كريمًا طيِّبًا مباركًا فيه.

✍ كما أُناشِدُكم اللهَ أن تدعوا لبناتي [سمية وفاطمة وسماء] بالصَّلاحِ والفَلاحِ والطُّهْرِ والعَفَافِ، وأن يجعلَهنَّ اللهُ من القانِتَاتِ التائِبَاتِ العابِدَاتِ، الحافِظَاتِ للغيبِ بما حفِظَ الله.

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس.

✍ وأن يباركَ في وَلَدَيَّ أبي الفداء سيف الإسلام عبد الله، وأحمد ياسين، وأن يجعلهما من كبار علماء المسلمين العاملين، وأن يجمع بينهما في الدنيا ولا يفرِّق بينهما، وأن يرزقهما أفضل من الشهادة في سبيله.

✍ **تمَّ الكتاب بفضل من الله و«نعمة» فالحمدُ لله نهايةً لا تزال تبدأ وبدءٌ لا ينتهي.**

وكتبَهُ حامِدًا ومُصَلِّيًا

الفقيرُ إلى رحمة ربه

السيد بن حسين العفانيُّ[١]

جمهورية مصر العربية- محافظة بني سويف- مركز بني سويف، قرية بني عفَّان

صندوق بريد رقم [١٢٣]

الدكتور: السيد بن حسين بن عبد الله

(١) لمن أراد أن يراسلني لمعرفة رأيه في الكتاب؛ فرحم الله أمراً أهدىٰ إلي عُيوبي.

فهرس الموضوعات